أحمد موسى سالم

لماذا ظهر الاسلام في جزيرة العرب

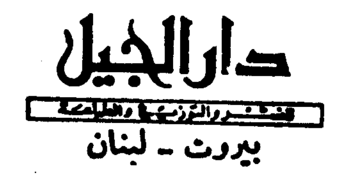
دار الجيل

بيروت

أحمد موسى سالم



لماذا ظهر الاسلام في جزيرة العرب



الطبعة الثانية
١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل)

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

(قرآن كريم)

الإهداء :

- إلى رفاق الحياة الأولى للإنسان العربي ..
- إلى أسرته فى الطبيعة .. التى حفظت عليه الحرية ..
- وأعربت فى لسانه بالكلمة ..
- وصنعت معه التاريخ .. عند ظهور الإسلام ..
- إلى : البادية .. والنبع .. والنخلة .. والجمل .. والحصان ..
- تحية وذكرى فى عصر الذرة .. والطاقة .. وتحرر الشعوب وسقوط العدوان .. وبشائر العودة للإيمان ،،

المؤلف .

مقدمة

يتحدد موضوع هذا الكتاب فى الجواب عن هذا السؤال التاريخى والدينى والحضارى الذى جعلته عنواناً عليه وهو : لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال الخاص بظهور الإسلام فى موطنه الأول، وبتأثيره بعد ذلك على أكثر المواطن باتجاه ترقية فكر الإنسان ، وتكريم حياته — قد تكون مفيدة وجذابة بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين ، الذين يعيشون متخلفين فى عالمنا المعاصر دون المستوى اللائق باسلامهم وإنسانيتهم .. ولكن هذا الموضوع المفيد والجذاب لجميع المسلمين هو فى الحقيقة موضوع حيوى ومصيرى بالنسبة لنحو مائة مليون عربى ، يعيشون اليوم تحت ضربات الغزو الفكرى والاقتصادى والعسكرى من أعدائهم — فى مفترق الطرق بين التقدم والتخلف .. بين الوحدة والشتات .. بين أن يكونوا كما يريدون لأنفسهم .. أو أن لا يكونوا أبداً بعد ذلك .

ولكن لماذا يبدأ السؤال الحيوى ليقظة العرب ، وتقدم العرب ، ووحدة العرب ، بهذه الالتفاتة البعيدة إلى الماضى ؟ .. لماذا نبدأ بالجواب عن سؤال يدفعنا البحث عنه إلى أن نستحضر حياة العرب قروناً طويلة قبل الإسلام لننظر فى جوانبها ، ولنمتحنها ونحكم عليها .. قروناً قد تصل بنا إلى عهد إبراهيم وإسماعيل ؟

لقد اكتفى أكثر من يكتبون عن الإسلام من المسلمين فى العصور المتأخرة وحتى هذا العصر ، بالوقوف عند سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .. بادئين من العصر الذى ولد فيه ، ضاربين صفحاً ، بل مسدلين ظلاماً على ما سبق مولده من العصور ! .. فلماذا اليوم هذه المحاولة للإضاءة على تلك العصور التى خرج منها النبي وخرج قومه معه ؟؟

الجواب من القرآن الكريم أن عصر ظهور النبي ، وظهور الإسلام ، وإيمان العرب ، كان ثمرة لتلك العصور نفسها التي سبقته ، وأعدت بحكمة الله وسننه لكل ما ازدهر فيه :. لقد ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بالاصطفاء من آبائه عبر تلك العصور من إبراهيم وإسماعيل كما ينص القرآن والحديث .. وظهر قومه معه بالاجتباء لهذا الدين كما ينص القرآن والحديث . كذلك فان الله عندما بعث النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ليدعو إلى الإسلام فى قومه فقد كان ذلك بشهادة القرآن عن وعد سابق ، وعن إعداد طويل ، ليكون هذا النبي من أبناء إسماعيل داعياً إلى الإسلام فى هذه الأمة .. وفى هذا المكان حول البيت .. ليزكيهم بالكتاب والحكمة .. وليظهر وينتصر الدين الحق .

والقرآن الكريم فى تذكير العرب بدينهم ، واسترجاعهم إليه ، وتطهيرهم به قد ألقى عليهم هذا الدرس نفسه ، درس التاريخ الذى سبق فى الجهاد عن الدين .. درس الحلقات الموصولة من آدم إلى نوح ، ومن نوح إلى إبراهيم ، ومن إبراهيم إلى إسماعيل الذى انتهى بمحمد ، وإلى اسحاق الذى انتهى بالمسيح حيث أنه من هذا التاريخ الدينى ومراحله يتبين أن الدين كله فى ظهور برهانه ، وخلود قرآنه ، وقيام حقائقه ، قد انتهى إلى محمد ، وإلى هذه الأمة العربية التى آمنت قبل غيرها بدعوته ، وحملت من بعده رسالة الدين فى نفسها إيماناً وعملا ، كما حملته إلى العالم المحيط بها مثالا وأسوة ، وحضارة وفكراً ، إلى أبعد ما استطاعت فى الزمان والمكان ، وحتى اليوم ..

يقول الله وهو يعلم العرب درس التاريخ الذى ظهروا به « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » ٧٨ : الحج .

فهذا الدرس نفسه يجب أن نتعلمه من القرآن ، وأن نبحث عن حقائقه ومعالمه فى التاريخ .

إنه درس تاريخ الدين الذى هو منذ إبراهيم وقبل إبراهيم قدر العرب حتى جاء عصر النبوة الخاتمة ، فكان وعد الله أن يكتمل فى جزيرتهم ، وأن يظهر بهم .. لتكون رسالتهم الأخيرة التى شهد بها عليهم رسول الله ، وليشهدوا بها من بعده على العالمين ..

ولكن هذا التاريخ بكل معالمه وحقائقه بقى منذ بدأ عصر التدوين فى الإسلام مجهولا ،أو مطموساً ، أومبعثراً فى الكتب كشظايا وبقايا جوهرة ثمينة ضائعة فى الرمال .. وذلك لأن القوى التى خططت للتدوين فى تاريخ العرب وعلوم الإسلام ، حجبت عن عمد هذه الحقائق وأخفتها ، أو أنكرتها وجهلتها ، أو قالت بعكسها وجهرت بتحريفاتها .. ثم عندما وصلنا إلى هذا العصر كانت هذه التحريفات والمفتريات حول اختيار العرب فى جزيرتهم للإسلام — قد تراكمت لتصبح جبلا من الأساطير التى تكاد تحجب الشمس .. أساطير وأكاذيب كانت كفيلة — لولا رحمة الله — أن تلقى باليأس فى قلوب العرب وهى تجعلهم دون غيرهم شعباً بغير أصالة، وبغير مرجع أو تاريخ .

وفى هذا العصر أيضاً عندما كثرت الكتابات الأوروبية الحديثة حول (العرب .. والإسلام) وتعددت إجابات المستشرقين حول هذا السؤال نفسه : لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب — بدأنا نسمع تحذيراً من البحث فى الماضى ، ومن الالتفات إلى الوراء لدراسة التاريخ العربى القديم .. نسمعه من المثقفين الاستعماريين ، ومن المثقفين الماركسيين ، ومن المتأثرين فى بلادنا بأفكار واتجاهات هؤلاء وأولئك من أشباه المثقفين !

ولكن لماذا لا يستحضر العرب ماضيهم ليجيبوا عن أخطر سؤال فى تاريخهم .. ؟ لماذا لا يستحضرون هذا التاريخ الزاخر بكل معالمه وحقائقه ومؤشراته، ليبحثوه ويفحصوه ويمتحنوه، لكى يلتفتوا به إلى الأمام وليس إلى الوراء .. ولكى يعملوا به للمستقبل وليس للماضى ؟؟

الجواب عندهم بالطبع : « لا تبحثوا حتى تبقى هذه المفتريات الشعوبية

القديمة ، والاستشراقية الحديثة مطبقة على أفكار العرب ، جاثمة على صدورهم ، صانعة لشتاتهم ، وعائقة لوحدتهم » .

هذا .. بينما يبيح الأوروبيون لأنفسهم أن يدرسوا بأقصى العناية تاريخ جذورهم الأولى فى عصور اليونان والرومان ، حتى اللغة اليونانية واللغة اللاتينية مع انقراضهما يدرسونهما بكل عناية لأنهما أصل لغاتهم المعاصرة ، وبذلك يصل الكثير من تاريخ تلك العصور المظلمة زاهياً ومبسطاً إلى كل شعوبهم فى حياتها اليومية ، مجتهدين أن يبقى هذا التاريخ على عدوانيته وبطلان فلسفاته فى هذا العصر — رمزاً حضارياً بارزاً بأهدافه ، وبذخه ، وقهره ، وشذوذه .. فى خيالهم !

والماركسيون فى الشرق يصنعون نفس الشيء فى العناية بدراسة الماضى القديم ، والقديم جداً ، وهم ينظرون فى التاريخ بمنظار نظريتهم الجدلية ، ويحاولون أن يجدوا دائماً هذا الشيء المثير ، والغريب الذى ينفخون به من الماضى مزيداً من النشاط فى الحاضر والمستقبل .. من أجل الشيوعية !

ويهود أوروبا الذين عاشوا مستضعفين فى دولها بعد سقوط الأندلس ، ومتهمين بأبشع الجرائم المالية والأخلاقية ، وعلى رأسها تحريف الكتاب المقدس — نجحوا بعد الثورة الفرنسية فى أن يحولوا دموعهم الكاذبة أمام المبكى إلى (تحريض تاريخى) على اغتصاب (أرض العرب) تحت عنوان دموى هو (الصهيونية) ؟ .. ومن ثم أصبح الرجوع إلى الماضى مباحاً عند الاستعماريين المعاصرين ليس لتأكيد مسار الواقع كما يزعمون ، وإنما لتدمير الواقع نفسه ، ولتشريد شعب حى فوق أرضه ، ولتحريف وتنكيس حقائق التاريخ ، ووقائع الماضى ، من أجل تبرير هذه الجريمة البشعة ضد الإنسان العربى !

وأكثر من هذا فان هؤلاء الذين يعترضون اليوم علينا عندما نبحث عن الماضى ونتكلم فيه شغوفون جداً ، ومتخصصون تماماً فى البحث عن ماضينا ، وفى الكلام فيه بعد ادعاء دراسته ، وبعد استخلاص النتائج الغريبة ،

والأحكام الظالمة ضد الإسلام ، والنبي ، والقرآن ، والعرب ، والأدب العربى القديم ، لكى يسألوا : هل كانت هناك حقاً لغة عربية واحدة ؟ .. وهل كان إبراهيم قد عاش حقاً مع ولده إسماعيل على أرض الحجاز ، وأقام حقاً مع ولده إسماعيل قواعد بيت الله فى مكة ؟ ؟

إنهم يريدون وهم يرصدون الأموال لتجنيد فصائل المستشرقين أو المستعربين أن يطلقوا هؤلاء الحاقدين على تراثنا العربى والإسلامى لينهشوه وليخربوه ، وليحولوه وهو الصرح الفريد الذى يتجلى فيه معاً ما هو صنع الله وجهد البشر — إلى مجرد أطلال من أكاذيبهم ، وخرائب من مفترياتهم وأحقادهم .. وكلما عجزوا وفشلوا عادوا لما عجزوا عنه وفشلوا فيه ليجربوا مرة أخرى .. ؟

ولم يعد من الممكن وقد استنفد أعداؤنا كل أسلحة الإغارة المذهبية على لغتنا وديننا وتاريخنا أن لا يكون ذلك فى حد ذاته دافعاً لنا إلى اكتشاف ماضينا ... إلى اكتشافه إلى أبعد ما نصل إليه ، مهما قصرت أيدينا عن المخطوطات التى سرقها وأخفاها الغرب والشرق ، وعن المدونات والوثائق التى نهبها الترك وأغرقها المغول .. فنحن أقدر فوق أرضنا وتحت سمائنا على أن نقص آثار آبائنا .. نقصها فى السماء والأرض ، وفى القرآن والسنة ، وفيما تبقى من بقايا الكتب والمعلومات .. بل نستطيع أن نستخلصها حتى من بين متناقضات أعدائنا وأكاذيبهم ، ثم من هذا الصدق الذى يحكم بالسنن التى لا تتغير هذا الواقع الصعب ، والغد المرتقب ، والأمل المنظور .

إن أعداءنا الآن بعد أكثر من جولة فى حرب الظلام ضدنا .. فى حربهم على تاريخنا وتراثنا .. فى محاولتهم الإجرامية أن يقوموا من خلال الكتب المضللة بعملية خصاء للذاكرة العربية ، حتى يتدجن العرب ويستسلموا — قد وضعوا أقدامهم بالفعل على أرضنا فى صورة (إسرائيل) .. وهم يتصورون أيضاً أن هذه بداية النهاية للوجود العربى .. وأن شمشون ، أو الشبح اليهودى

الذى تقمص أمريكا وجاء بها بعد الإنجليز إلى أرض العرب — سيدمر المعبد .. سيدمر الوطن العربى الكبير إن لم يستسلم له من فيه ! وشمشون هذا أو اليهودى الشبح الذى ينطق ويتفاصح فى حلق أمريكا — مطمئن إلى أن العرب بعد قرنين من محاولات قتل التاريخ ، وردم الماضى ، قد فقدوا ذاكرتهم ، وضاعت معالمهم ، وخمدت نارهم .. تماماً .

وإمعانا فى ثقتهم بهذا الاستنتاج ، أو بهذا الوهم ، بدأوا يمارسون فى دعاياتهم وصحفهم إسقاط كلمة (العرب) عند الكلام عن هذه الحرب المصيرية بيننا وبين إسرائيل .. فهم يسمون هذه الحرب ضد العدوان الوحشى « مشكلة الشرق الأوسط » .. وما هو الشرق الأوسط ؟ .. إنه فى نظرهم إيران وتركيا وإسرائيل . . ثم العرب ؟؟ .. بينما القضية كلها عندهم .. وعندنا هى قضية العرب .. والقضاء أو الدفاع عن العرب .

إن أعداءنا يراهنون اليوم على مستقبلنا .. أى أنه لن يكون لنا — إذا نجحت مخططاتهم — أى مستقبل .. وينسى هؤلاء الأعداء أن الاحتمال العكسى هو الأقوى .. أى أنه لا مستقبل لإسرائيل .. ولا مستقبل للاستعمار .. وهانحن هؤلاء قد بدأنا نرى ونسمع ونتحقق من نجاح كفاح الشعوب الحرة التى تقاتل عن ماضيها ومستقبلها فى آسيا وأفريقية .. بينما نحن نكسب الأصدقاء كل يوم.. وأهم ما نكسبه أن نكون نحن أصدقاء أنفسنا بكل ما نملك ..

لهذا .. والكلام عن الماضى لا ينبغى أن يكون فقط حقاً لغيرنا من كل شعوب الأرض ، أو أن يكون ماضينا بالذات وتاريخنا حكراً على أعدائنا .. فان مدخلنا إلى أشرف الماضى ، وأعظم التاريخ ، هو محاولتنا الجواب عن هذا السؤال نفسه الذى نفذت إليه الشعوبية بسمومها من قبل ، وتجمهر من حوله المستشرقون بوساوسهم ونظرياتهم الخرافية من بعد وهو : (لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب) ؟

وفى هذا الكتاب الذى يدور موضوعه الأساسى حول (حكمة الله فى إعداد العرب داخل جزيرتهم ليحملوا رسالة الإسلام إلى بقية العرب ، وإلى العالم) لا يمكن أن نخصص فصولا كثيرة لاستعراض الحملات الظالمة ، والمفتريات الكيدية ، والمزاعم العابثة ، التى اشتركت فيها خلال قرون طويلة ، وحتى هذا العصر — فصائل متنوعة من الشعوبية والمتهودة والمستشرقة ، بل ومن بعض المثقفين العرب الذين حملوا داخل رؤوسهم بصمات الكثير من هذه الحملات — كذلك لا يمكن أن نفند ما نعرضه منها تفنيداً مطولا مفصلا ، مكتفين بتقديم البراهين القطعية على بطلانها .

إن كل ما يتيحه لنا مجال هذا الكتاب ، وموضوعه الأساسى ، هو أن نفسر أسباب هذه الحملات ، وموضعها الطبيعى من حركة (التدافع الحيوى) بين العرب والشعوب الشرقية والغربية المتاخمة لهم ، والمتباينة معهم ، والطامعة فيهم .. وأن نستعرض مراحل هذه الحملات ، وأن نزيح الأقنعة الكاذبة عن أهدافها .. وهى غالباً أهداف رخيصة ، ولا أخلاقية ، وعدوانية فى الصميم .

وإذا كنا سنقدم نماذج كثيرة لهذا التخصص القديم والحديث فى (صناعة المفتريات) ضد العرب والإسلام فاننا من خلال عرض هذه النماذج المختلفة والتى كتبت بأكثر لغات العالم تقريباً ، والتى بدأ تسجيلها لأول مرة باللغة العربية الأعجمية مع الأسف سنقدم الأدلة العابرة والبديهية على هوان هذه المفتريات وعبث هذه العقول التى شغلت بها ، وإن كان الدليل الإيجابى سيشغل موضوعات القسم الثانى من هذا الكتاب وعنوانه (العرب .. كما أعدتهم مشيئة الله فى جزيرة العرب لحمل رسالة الإسلام) .

إننا تحت هذا العنوان سنقوم برحلة حج إلى الأرض والماضى والناس والتاريخ فوق تلك الجزيرة العربية التى لا تزال بالبيت مثابة الأمن والوحدة لجميع المسلمين ... حيث سنكتشف بأعيننا وأسماعنا وعقولنا وقلوبنا — بالقدر المتاح لنا — تلك المحالات والسنن والآفاق والعوامل التى أثرت من خلال

الطبيعة الصادقة على تكوين وتوجيه وتعزيز الخصائص الإنسانية واللغوية والعقلية والدينية والاجتماعية للإنسان العربي .

وعندما نعود بعد هذه الرحلة وقد أحسسنا ببعض الاسترجاع لملامحنا الحقيقية ، والتعرف على ذاتنا الأصيلة ، فسيكون في الوسع أن نشعر مع استعادة الذاكرة والتاريخ — بهذا التواصل الطبيعي ، والإيقاع المنسجم ، والاستهداف الواحد الذي يجمع بين ماضي العرب وحاضرهم ومستقبلهم عبر جسور كونية لا يمكن للعدو أن يدمرها ، أو أن يخفي عنا طريقها ..

إننا نستطيع مع وضوح الذات والهوية العربية أن نكتشف الطرق الأسهل إلى استعادة عقيدتنا وشرائعنا في صميم كياننا الاجتماعي ..

ونستطيع أن نتابع الوسائل الأقرب ، والأقل خيالا وانفعالا لإتمام بناء الوحدة الشاملة للأمة العربية الواحدة ، مهما اقتضى ذلك من جهود وأجيال ..

ونستطيع بالتأكيد أن نواجه مفتوحي الأعين ، ومالكين لإرادتنا ، ومجهزين بخططنا هذه الغزوة الفكرية الخاطفة التي تعد لها إسرائيل وتحلم بها .. غزوة تقع كما تتوهم بالتسلل من بوابات أو ثقوب الانفتاح .. غزوة من خلال أعظم ما ينتظره اليهود من ثمرات السلم بينهم وبين العرب تقوم على إمكان (التبادل الحر بينهم وبيننا في الأشخاص والبضائع والأفكار) !

عند مثل هذا الموقف المحتمل ، سواء بالتستر وراء انفتاح دولي وشيك مع العرب ، أو بحل سلمي تتوهم إسرائيل أنها تستطيع أن تحقق كل أهدافها من ورائه — نكون قادرين على قيادة هذا الانفتاح المنتظر في الاتجاه الذي تحدده إرادتنا في ضوء مصالحنا .. ونكون قادرين أكثر على أن نبطل خطط الغزو الفكرية الخاطفة والجاهزة في أدراج إسرائيل .

إن معرفة العربي نفسه .. معرفته من هو بذاته .. ومن هو بتاريخه .. ومن هو بعقيدته .. هي المقومات الأساسية لمعرفته من هو فيما يحتاج إليه .. ومن هو في بناء مجتمعه .. ومن هو في تخطيط تقدمه .. ومن هو في صناعة مستقبله ، وتفسير حياته ، والدفاع عن نفسه .

وعلى هذا الطريق الواضح ، والشاق ، والصعب ، سيتحرك العربى فى هذا العصر قادراً على التعبير بلغته ، و على العبور إلى أهدافه ، وهو يعلم دون لبس أو وهم فى ضوء القرآن الكريم ، والتاريخ الصحيح ، لماذا كانت حكمة الله أن يظهر الإسلام فى جزيرة العرب .. ليكون هو رسالة العرب الدائمة لأنفسهم ، وحضارتهم المزجاة لكل العالم من طريقهم .

أحمد موسى سالم

القاهرة .. رجب ١٣٩٥
أغسطس ١٩٧٥

القسم الأول

تواطؤ على الحقيقة

السؤال عن المعقول وغير المعقول حول ظهور الإسلام بين العرب

١ — العرب والإسلام .. والسؤال القديم والجديد

لم يكد عرش الطاووس يسقط ، وحدود قيصر تتراجع ، ويتحرر الوطن العربى كله ، وترجع القدس ودمشق والإسكندرية ، وصور وصيدا وغزة والبتراء عربية من جديد ، وتنشأ مدن إسلامية حول المساجد الجامعة بخطط جديدة ، ويرتفع التكبير من فوق المآذن للإله الواحد ، الحق ، لأول مرة .. ويذهب الخوف ، وتراق الخمر ، وتعمر الأسواق ، وتعود النضارة لوجوه المستضعفين ، والطهارة لأجسامهم ، وتنتشر مجالس العلم وحلقاته ، ويباح العلم للجميع ، ويقدم للجميع : الأطفال والشباب والشيوخ ، والرجال والنساء والغرباء .. لم يكد هذا النشور يقع بآية الإسلام على أرض الوطن العربى الكبير ، فتخضر الأرض ، ويتحرر الفلاحون ، وتزدهر المدن ، ويرتدع الطغاة ، وتعيش أمة بأسرها من شعوب متنوعة داخل ثوب واحد هو أخوة الإسلام ، وذمة المسلمين لغير المسلمين ، حتى بدأت النعمة والحرية والصحة الاجتماعية تتحرك فى بعض النفوس حركة عكسية للشكر .. بدأت تتحرك فى اتجاه السخط على كل ما وقع ، والتململ بالحنق والغيظ تحت صروح الحياة الجديدة ، والتغيرات الحاسمة ، التى يعززها الطابع اليومى للأقوال والأعمال ، من حيث أنها « منهج إلهى » و« أداء بشرى » فى حياة المسلمين.

هذه النفوس من بقايا العروش المنهارة ، والقوى الطاغية ، ومن عبيدهم وندماهم الذين عاشوا معهم شذوذهم ، وسكروا بخمرهم ، ووطئوا بالأقدام من هم دونهم .. هذه النفوس التى هالها ما وقع ، ونالها منه ما لا تحب .. نالها العدل الذى تمقته ، والتطهر الذى لا تطيقه ، والمساواة المذلة بينها وبين الآخرين ، وأن تسقط بهذا الدين الغريب آلهة النار ، وثنوية المجوسية ، ديانة أهل الملك والغنى والجيوش .. ديانة الآريين أى السادة ، أقران الروم واليونان .. فكيف حدث هذا ؟ .. ومن البداية من هؤلاء العرب الذين كانوا

يهابوننا من قبل .. وكنا نقيم على مداخل جزيرتهم ملوكاً نصطفيهم منهم ليحرسوا هذه المداخل لنا ، وليمنعوا غارات هؤلاء الجياع منها علينا ؟

هكذا تخلق التفكير السياسى المضاد .. تفكير الأباطرة الذين أفلسوا فجأة ولم يكن قط تفكيراً قومياً للتحرر من نير سلطة الدولة العربية الجديدة .. فمثل هذا التفكير القومى باتجاه التحرر من أى حكم غريب عليه .. التحرر على أرض شعب ما بإرادته وموارده هو ولا شك تفكير فى حق مشروع ، ولم يكن العرب فى أول أمر الفتوح وحروب التحرير للوطن العربى يطلبون — كما زعم المفترون — إكراه أحد على الإسلام بالسيف ، أو بناء إمبراطورية عربية كبيرة بديلا للامبراطورية البيزنطية والفارسية معاً .. ولكن بقايا طبقة الأكاسرة والملوك والمرازبة كانوا — بعد أن حاقت بهم هزيمة المقاومة على الأرض العربية — ينظرون إلى العراق واليمن ، وإلى نفوذهم على أرض الخليج العربى ، كأنها حقهم المكتسب بالغزو ، وضيعتهم التى يملكونها بمن فوقها من العبيد بحق الظلم .. فمن أين جاء هؤلاء العرب .. ؟ ولماذا جاؤوا ؟.. وما هذا (السلطان) الذى جاءوا به .. ما هذا السلطان القاهر وغير المرئى الذى ذابت أمامه الجيوش والمدن .. وتفككت به الخطط والمعتقدات .. واستسلم له (الرعايا) العرب فى العراق والشام ومصر كأنهم كانوا ينتظرونه من قبل .. ينتظرونه كأنه الخلاص .. أو النشور ؟

ما هذا السلطان الذى يسمونه .. الله .. أو الدين .. أو الإسلام .. ولماذا يكون هذا السلطان — إذا كان لابد أن يكون — من حظ هؤلاء العرب الفقراء الرحل ، المتفرقين بغير نظام ، أو حكومة ، أو ملك ؟ .. لماذا ؟

ومع الوقت تعاظم السؤال ، وتضخمت الإجابات .. إنهم لم يجيبوا فقط — وقد أسندوا ظهورهم كرها إلى ظل الإسلام وعدله وسواسيته — عن هذا السؤال بكل ما وسعهم من البذاءة والحقد والجهل والطيش ، وإنما عكفوا أيضاً من طريق هذه الإجابات على الجواب الذى أرادوه رداً سياسياً وقومياً

وعدوانياً على الإسلام ، وعلى العرب ، بكل ما يملكون من الخطط العملية ، والتنظيمية والدعائية .. السرية والعلنية .. ومضوا فى ذلك منذ وقت مبكر وحتى اليوم .. مضوا منذ ذلك الاغتيال الأثيم للخليفة العادل عمر بن الخطاب.. ففى هذا الحادث التلقائى الذى وقع فى مدينة الرسول تتلخص كل قصة (التصادم) بين النقيضين : الشرع الإسلامى والقهر الكسروى .. إحسان المسلمين وتآمر الشعوبية .. عفو عمر بن الخطاب عن القائد الحاقد المهزوم (الهرمزان).. وتدبير الهرمزان بتلقائية الغدر والحقد قتل المحسن إليه .. صاحب السلطان بأمر الله .. الذى وجده يجلس على الأرض بغير عرش ولا بطانة ، وبغير حرير ولا ذهب ، وبغير قصور ولا أسرار .. فتوهم ببلادة طبعه ، وظلمة عقله ، أن القضاء على هذا السلطان الأعزل من أبهة الملك ، وحراسة العبيد — هو القضاء على الدين الجديد .. وعلى دولة العرب . وعلى العرب أنفسهم .. ليعود كسرى إلى الضيعة .. ويعود قيصر أيضاً . . !

غير المعقول : حول هذا السؤال وجوابه عاشت الشعوبية منذ أواخر العصر الأموى وبطول العصر العباسى حتى أجهزت على الدولة العربية بسقوط بغداد ، وقد تراوح معنى الشعوبية بين العداء المتحفظ للعرب داخل دولتهم من خلال تنظيمات إعلامية نشطة فى حدود « تصغير شأن العرب وإنكار كل فضائلهم » .. وبين العداء السرى الدفين الذى ينشط فى نشر الزندقة ، وتوهين الدولة ، وتنظيم القلاقل ، وترويج الموبقات والدعارة ، واستنزاف الأموال من أجل « إبادة العرب والقضاء على الإسلام » .

وفى العداوة الظاهرة اتجهت الشعوبية إلى الإجابة عن هذا السؤال : (لماذا ظهر الإسلام بين العرب ؟) بأنه أمر حدث .. حتى تم « المعجزة » بوقوع « غير المعقول » وهو ظهور الإسلام بين هؤلاء العرب !

ومن ثم اتسعت المحالات والجهود الآثمة لتطبيق هذا التلخيص الكيدى ، واللائق بالعقل الأعجمى ، فى حروب الأعلام الشعوبية ضد العرب والإسلام

فشملت محاور اتهام العرب فى جميع دعامات حياتهم المتكاملة ، واستهدفت اتهامهم فى كل شىء .

لقد علموا أن العرب تعتز بنقاء نطفها وأنسابها ، وأن رسول الله إليها منها وهو خيار من خيار ، وأنهم يرجعون إلى إسماعيل وإبراهيم ، وأن الدين الإلهى والكتابى فيهم من أول الخلق — فعمدوا إلى محاولاتهم فى كل اتجاه ، وباختلاق القصص ، لتقويض هذه الدعامة ، ولم يتورعوا عن تصوير حياة الأسرة العربية بالصورة التى أسقطوها عليها من حياتهم هم .. هذه الحيـاة المشاعة التى لم تعرف فى وثنيتها المزدكية أى مقابل لمعانى العفاف والطهارة وحفظ الحرمات ..

وعلموا أن العرب يرون فضل لغتهم على كل اللغات ، وعندما تعربوا باللسان ، واحتوتهم اللغة العربية فى بحر معانيها ، وفضل إنسانيتها ، عجزوا أن يقولوا فيها أقوالا صريحة وهى لغة القرآن ، فعمدوا إلى القرآن فجعلوا له ظاهراً عربياً لكل الناس ، وباطناً أعجمياً للزنادقة والمرتدين .. ثم عمموا منشوراتهم فى تعليم البلاغة العربية على الطريقة الأعجمية ، وأطالوا فى نصائحهم لكل من يريد أن يتعرف على الغريب ، ويتبحر فى اللغة أن يقرأ — كما يحكى الجاحظ عنهم (كتاب كاروند) وأن من احتاج إلى العقل والأدب والعبر والمثلات والألفاظ الكريمة والمعانى الشريفة ، فلينظر فى سير الملوك ، ورسائل الفرس وخطبها وألفاظها ، وباليونان رسائلها وخطبها ، وبكتب الهند .. الخ .

بل إن القرآن والحديث لم يسلما من تهجم كتاب الشعوبية لأنهما كانا طريق الدين الجديد إلى تعريب حياة المسلمين ، وتعريب الثقافة الإسلامية بعد أن كانت تحت حكم الفرس والروم أعجمية يونانية هندية .

وعلم الشعوبية أن الإسلام ، الذى ظاهره العرب وظهروا به ، يعطى بالقرآن والحديث والشريعة والفقه واللغة طاقة الحياة الجديدة للعرب ، ويجعل وسائلها ولسانها وعقلها معهم وإلى جانبهم ، لذلك حملوا على الإسلام بالبداهة

من حيث أنه الضوء الباهر الذى أطار قناع الظلام عن وجوه الشعوبية ، وعوراتهم ، وألسنتهم ، وقد بلغ من حقدهم على هذا الدين أن الشعوبية وفصائلها من أمثال الازادمردية والمانوية كانت تسمى الإسلام « الدين الأسود » لأن شعار العباسيين هو السواد ، وكانوا فى بغضهم للعرب ينالون من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه الذين « فتحوا الفتوح ، وقتلوا المجوس ، وجاءوا بالإسلام » .

وعلمت الشعوبية أيضاً أن العرب حين جاؤا بالإسلام كان معهم « عقلهم العربى » الذى لا ينتمون به إلى فلسفة اليونان ، أو أساطير الفرس ، أو صوفية الهند ، وأن انتشار الإسلام فى الوطن العربى الكبير بعد إجلاء الوثنية والاستعمار الرومى والفارسى عنه قد صحبه انتشار اللسان العربى ، وتصحيحه فى ألسنة الشعوب العربية — بعد تحريرها — على لسان القرآن المبين ، وأن العرب قاموا بتعريب الدواوين ، ووضعوا أساس العلوم العربية والإسلامية ، وغرسوا قواعد المنهج العربى فى التفكير والحياة .. ومن أجل ذلك شنت الشعوبية حربها على العرب قبل الإسلام معلنة عليهم الاتهـام بالجهل ، ومتذرعة بـكلمة (الجاهلية) فى القرآن الكريم وهى تفسرها بهواها بالمفهوم المضاد للعلم والعقل ، ثم تلقفوا كلمة (الأمية والأميين) وتوسعوا فى توصيف حال تلك الأمة الجاهلة التى لا تقرأ ولا تكتب .. واختلقوا ما شاء لهم الحقد من القصص ، ودسوا ما استطاعوا من الأحاديث ، ليؤكدوا لأنفسهم ، ولغيرهم ، وحتى لبعض العرب فى عصور الإنهاك والضعف نظريتهم فى معجزة الإسلام الذى حقق « غير المعقول » بظهوره بين العرب فى جزيرتهم .. فكان هذا هو الغريب والمعجزة . . !

ونتيجة لهذه الحملات التى جعلت ساحاتها « الإنسان » و « اللغة » و « الدين » و « العقل » تحددت خاتمة طبيعية لـكل هذه الجهود الشعوبية وهى أن تصب كل التهم فى اتجاه واحد يؤكد دواماً عجز العرب عن أن يشيلوا

حضارة باذخة عظيمة كالتى شادها اليونان والرومان والفرس .. وإذن .. فيجب أن يتخلوا عن هذه المهمة لأهلها .. يجب أن (تستعجم) الحضارة على أرض الوطن العربى ، وأن تعود الحضارة بهذا القسر على « عجمتها » إلى ما كانت عليه أيام كسرى وقيصر .. قبل ظهور الإسلام .

الجهل والأمية : لقد كان من الطبيعى أن يرجع هؤلاء الأعداء فى خطط حربهم للعرب إلى الساحة الأولى لظهور الإسلام وهى الجزيرة العربية .. الساحة التى نكاد نكون قد أهملناها اليوم فى كتب التاريخ أو التربيـة أو الدراسات اللغوية والإسلامية . لقد عاد الشعوبيون إلى الجزيرة ليسقطوا على أهلها فى عصر النبوة ذنوبهم ، وليعودوا لقومهم بالقصص والحكايات والمفتريات عن جهل العرب .. وعن أميتهم التى لاتجعلهم أهلا لشىء !.

لقد استغلت الشعوبية ورود كلمة الجهل والجاهلية فى القرآن الكريم لتسيىء بالعمد تفسير هذه الكلمات ومعانيها ومناسباتها ، ولتختلق صورة « الأمة الجاهلة » بمعنى « غير المتعلمة » و « غير المتحضرة » وتسقطها على العرب الذين آمنوا واتحدوا وانتصروا بالإسلام ، ولتقول : إن مثل هذه الأمة العربية لا ينبغى لها ولا تستطيع أن تقيم على أرضها العربية أية حضارة .. فالذين يستطيعون وحدهم هم الفرس واليونان .. إنهم أوروبا أو الشعوب الشرقية أو هما معاً .

لقد فسروا أولا كلمة الجهل فى استعمالات العرب فى حياتهم الأولى بمعناه عندهم ، من حيث أن الجهل هو طبيعة شعوبهم تحت نير الطبقة والعروش والأساطير . لقد فسروه بأنه جهل القراءة والكتابة .. بينما هذا المعنى غير وارد عند العرب الذين يرون أن الجهل هو ضد الحلم .. وأن الحلم هو العقل حين يعتصم علمه بالحكمة والمعروف .

فالجهل بمعنى القصور عن القراءة والكتابة ، أو نقص المعرفة بأنواع الأطعمة المعقدة والملابس الزاهية ، أو نقص المعرفة بآداب السجود للملك

المهيب الجالس فى زينته وحليه على عرشه ، ثم العجز عند هذا الجاهل عن أن يلقى بنفسه على الأرض أمام معبوده البشرى ، وأن يبقى على هذه الهيئة حتى يأمره الملك بالوقوف .. إن الجهل بهذه المعانى الشائعة والمعلومة جيداً فى حياة الشعوبية قبل الإسلام ليس مما يرد فى عقول العرب أو لغتهم .. لأن العرب عاشوا بغير ملوك ، وبغير كهان ، وبغير أساطير تتحدث عن ألوهية النار والنور والظلام والبشر .. وبغير تظالم ولا قهر .. فبقى لهم من أشكال الهوى والتجاوز هذا الغضب الذى يقصرون به أحياناً عن ضبط الإرادة فى اتجاهها السليم فيما يسمونه (جهلا) ... وهو عندهم ضد (الحلم) وليس لهذا الحلم الذى هو أعلى مراتب العلم والحكمة والعقل لفظ ولا معنى يمكن أن يتوصل إلى إدراكه هؤلاء الشعوبيون الذين تقوست ظهورهم فى السجود لبشر غاشم ظلوم .. سفاهة وعجزاً وجهلا .

والشعوبية لا تستشهد بالقرآن إلا من قبيل الخاط والتدليس ، وليس الفهم أو الإيمان . لذلك فقد جهلوا أن مادة (جهل) ومشتقاتها وردت أربعاً وعشرين مرة فى القرآن الكريم ، وهى كلها بمعنى « الجهل الأخلاق » أو « ظلم النفس » أى بمعنى غيبة المعروف من الأخلاق وظهور المنكر منها .. وهى كلها تؤدى المعنى الذى سارت به لغة العرب فى حياتهم الأولى وهو الظلم بالغضب ، والقصور عن الحلم ، ولم يكن ذلك شائعاً فيهم ، ذلك أنه من هذه الآيات الأربع والعشرين اتجه القرآن الكريم إلى نوع الإنسان كله ، وإلى الشعوب العربية السابقة التى نزلت فيها الكتب والرسالات ، ولم يخص العرب منها — العرب الذين نزل إليهم القرآن — إلا ثلاث آيات فقط فى مناسبات لا تعنى مطلقاً شيوع الجهل أو الجاهلية فيهم .. وإلا فكيف آمنوا ودخلوا فى الإسلام جميعاً ؟ ؟

يقول الله فى معنى الجهل وهو القصور عن الحلم وأخلاق الإيمان ، وهو موجه إلى نوع الإنسان كله (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض

والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) ٧٢ : الأحزاب .

أى إن أكثر الناس ظلموا أنفسهم بالقصور عن الإيمان والحكم بالمعروف والانتهاء عن المنكر وهذا هو الجهل الذى فقدوا به الحلم .

ومن الآيات التى تخص غير قوم النبي قول الله عن عاد على لسان هود : « وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون » ٢٣ : الأحقاف — أى تظلمون وتتجبرون .

ويقول عن قوم لوط (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) ٥٥ : النمل .. فهل هذه الموبقة شيء غير الجهل الأخلاقى .. هل هى شيء أكثر من واحدة من الموبقات الحضارية الوثنية الطبقية التى عاشتها الشعوب الأعجمية تحت الساسانية والبيزنطية وغيرهما ..؟ أم هى الجهل بالقراءة والكتابة .. وأكل السكباج والطهباج ؟؟

ومن الآيات التى خصت قوم النبى قوله تعالى « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » ٢٦ : الفتح .. فهل معنى هذا جهل القراءة والكتابة ؟ .. أم هو مفهوم حمية الغضب الذى يتجاوز الأناة والتفكر والحلم إلى سرعة الاحتكام إلى الحرب والسيف .. وهذا هو الجهل الذى يرد عنه الإيمان والإسلام .. هذا هو نقيض العلم والحلم والعقل بالمعانى الإنسانية السامية التى جاء بها القرآن الكريم .

وانتقالا من الكلام عن الجهل والجاهلية تعامت الشعوبية عن حقائق حسية وعقلية تؤكد معرفة العرب بالقراءة والكتابة .. وأنهم لم يكونوا أقل كتابة أو قراءة من غيرهم .. وهذه الحقائق والأدلة ظاهرة فى القرآن وباقية فى التاريخ لا يطمسها شيء عن الأعين المبصرة .

انتشر هذا القول بأن العرب (أميون) بمعنى أنهم لا يعرفون القراءة

والكتابة حتى عند بعض من كانوا يتظاهرون من الشعوبية بالميل إلى العرب ، والدفاع عن فضائلهم مثل (ابن قتيبة) الذى كتب ينعت أكثر صحابة رسول الله بالأمية والجهل وهو يفسر معرفة عبد الله بن عمرو للقراءة والكتابة وكأن ذلك عجيبة من العجائب فيقول (لأنه — عبد الله بن عمرو — كان قارئاً للكتب المتقدمة ويكتب بالسريانية والعربية وكان غيره من الصحابة أميين ، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان ، وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجى) !

وفى كتاب (مصادر الشعر الجاهلى) للعالم العربى الأردنى الدكتور ناصر الدين الأسد تفصيل بالوثائق والأدلة العلمية على علم العرب بالكتابة بالخط العربى الذى دونوا به المصاحف الأولى على عهد النبي وأبى بكر وعمر وعثمان، وأن هذا العلم بهذه الكتابة وانتشارها بين العرب تمتد باللغة الفصيحة والقلم العربى ثلاثة قرون على الأقل قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ما لم تثبت الآثار ما هو أبعد من ذلك .

ويتحدث الدكتور الأسد عن (الكتاتيب) فى المدينة وغيرها فى عصر البعثة لتعليم الأطفال الكتابة والقراءة وحذق العربية ، كما تحدث عن مجالس الثقافة حيث يجتمع من العرب من يتدارسون الأخبار والأشعار والأنساب ، وتحدث أيضاً فى مجال التثقيف والتعليم عن بعض من كان ينصب نفسه قبيل الإسلام لتعليم الأخبار والقصص والتاريخ فيقصده من يشاء ليستمليها ويكتبها .

ويستشهد الدكتور الأسد فوق وثائقه وأبحاثه بالقرآن الكريم فيذكر قوله تعالى بالنبأ اليقين عن انتشار الكتابة بين العرب (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) ٥ : الفرقان . وقوله تعالى على لسان المشركين (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) ٩٣ : الإسراء .

ويرد الدكتور الأسد على تهمة (الأمية) فيرفض أن تكون هى الجهل بالقراءة والكتابة ويبلغ به اجتهاده أن يرى أنها (أمية دينية) ويقول (أى إنهم

لم يكن لهم قبل القرآن كتاب دينى ، ومن هنا كانوا أميين دينياً ، ولم يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل) .

وأرى أن الدكتور الأسد قد قارب الصواب وإن لم يبلغ إليه ، ذلك أنه كما يكون من غير المعقول أن يكون قول الله تعالى لأهل الكتاب « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل » ١٥٧ : الأعراف معناه هو : « الذين يتبعون الرسول الذى ليس له علم بالدين » — كذلك فمن غير المعقول أن يكون معنى قوله تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ..) . معناه أنه بعث إلى من يجهلون الدين من ليس له علم أيضا بالدين !

على أن المعنى الصحيح كما أعتقده ، والذى لم يكن بعيداً عن علم الدكتور الأسد ، المعنى الذى غاب طويلا عن أفقه فى المعانى الإسلامية والقرآنية الصحيحة هو أن الأميين هم « الأمة التى لها طريقة وشرعة ودين تخالف به سائر الأديان ، وهى تنتظر من الله كتاباً مصدقاً لدينها ، وهادياً لها فى مفترق طرقها حول بيت الله إلى الحق من ملة أبيها إبراهيم ، وإلى الصراط المستقيم) .

ولقد صدق الله وعده النبي الأمى ، والأمة الإسلامية ، فكان لهم الكتاب بمعنى (الشريعة) وتنزل عليهم القرآن مصدقاً لما عرفوه من الحق فى بطلان ما عند أهل الكتاب وغيرهم ، ومؤيداً ما أخذوا به من المعروف فى عيشهم وسعيهم وحفاظهم ، ومبطلا ما علق بهم بطول الأمد من شوائب الشرك واللهو والجاهلية ، أى سرعة الغضب التى تذكى العداوة والفرقة ، وتوقع فى الهوى والإخلاد إلى الأرض .

وقد أشرت فى نهاية هذا القسم فى الفصل السادس بعنوان (هذه الحقائق هى جواب السؤال الصعب) إلى رأيى حول الأمة والأميين ببعض التفصيل

السؤال يتجدد : ومن الأمية بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة ، ومن الجهل والجاهلية بمعنى « التوحش » كما يزعم ابن خلدون أو « البدائية » كما يتفاصح المحدثون بيننا والمبتدعون ، أو بمعنى الألفة إلى كل المنكرات والشهوات

والجهالات بغير وازع أو رادع — تمضى الشعوبية فى آثامها قروناً وقروناً ، حتى تصبح الهباءات جبلا راسخاً ، وتصبح الأكذوبات ديناً متبعاً .. ويأتى جيل ساذج بين العرب المسلمين ، وحتى بين العلماء والساسة والمحققين ، غير المتهمين بخصومة العرب ، أو الضالعين فى خدمة أهداف الشعوبية ، فإذا بالسؤال القديم يتجدد ، وبالحيرة البالغة تسيطر ، وبالتخبط فى الأقوال والأحكام يسترسل ، وتدور الأجيال العربية الناشئة فى الحلقة المفرغة التى أحكم الشعوبية والمتهودة والمستشرقة فراغها .. ويتساءل الإنسان العربى المعاصر عن الحقيقة التى تواطأت الكتب والمناهج والثقافات الغربية عليها ... يتساءل ولا بد أن يعرف يوماً ما : هل ظهر الإسلام فى جزيرة العرب من دون الحضارات الشرقية والغربية المحيطة بها لأن العرب كانوا أقرب الناس بأخلاقهم ولغتهم ودينهم إلى الله والإسلام .. أم لأنهم كانوا أبعد الناس بأخلاقهم ولغتهم ودينهم عن الله والإسلام ؟

وفى هذا المأزق الشعوبى تتجمع خيوط الشكوك والوساوس حول رأس الكاتب والسياسى المثقف الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف كتاب (حياة محمد) والصديق أبو بكر والفاروق عمر .. وهى لا تلبث مع الخضم الذى قرأه من أقوال الشعوبية والمستشرقين أن تنفذ إلى عقله ، وأن تصيبه بالعنت وهو يبحث عن الأمن النفسى برأى قاطع مشرق كفلق الصبح فلا يكاد يجد .

يطرح الدكتور هيكل هذا السؤال القديم بالصورة التى اختارها فى العصر الحديث بعد نحو أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام فى كتابه (الصديق أبو بكر) ، فيقول وهو يبدى أشد الدهشة والتعجب

« لماذا كتب القدر الحكيم منذ الأزل فى لوحه ، فاصطفى الله نبيه الكريم من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ » .

هذا هو السؤال فى شكل من أشكاله المستحدثة وكأنما الدكتور هيكل ، الرجل الطيب يرحمه الله ، لا يبدى من نفسه الدهشة إلا بالنسبة لظهور النبى

بين هؤلاء البسطاء العرب .. إذ لو كان قد ظهر بين أية أمة أخرى من أمم الحضارة كالروم ، والفرس ، لكان ذلك أقرب إلى المعقول .. ولكن — كما يقول الدكتور هيكل بعد هذا السؤال : (ليس فى مقدورنا ولا فى مقدور غيرنا أن يقطع برأى حاسم فى الجواب عن هذا السؤال ، فنحن جميعاً لم نؤت من العلم إلا قليلا ..)

ولكن الدكتور لا يكف عن محاولة الإجابة فيقبل على رأيه الشعوبى الذى تأثر به ثم يأخذه الورع فيدبر عنه ... وهو يبدأ فى تحليل هذه « المعضلة الحضارية » بظهور الإسلام بين العرب فيقول كلاماً هو أشبه برثاء الأعزاء ، ليتجه منه إلى تفسير الأسباب التى أدت إلى انصراف « القدر » عند اختيار أرض النبوة عنهما .. لكى تذهب إلى أرض العرب ، لأن الله — كما نسى الدكتور هيكل « أعلم حيث يجعل رسالته » . !

إنه يقول فى شبه الحسرة : « إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونظم ، ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ، ومن فن وعلم وتفكير ... »

ثم يمضى فى عرض المحاسن والأمجاد فيقول « تمثل الروم حضارة اللاتين واليونان والفينيقيين والفراعنة ، وتمثل فارس حضارة إيران والهند ومذاهب الشرق الأقصى مجتمعة . تمتد الأولى من أواسط أوروبا بل من غربها الأقصى إلى شرق بحر الروم ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام ، وتمتد الأخرى من أواسط آسيا بل من شرقها الأقصى إلى حوض دجلة والفرات ، ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام ... وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتد بينهما جدباء .. جرداء .. إلا من قبائل نزحت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو الفرس حيثما يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ، ثم تأوى حيث يطيب لها المرعى ، والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتهما وعظمتهما ، لا يسكن

تعاقب القرون من حدتهما ، ولا تجدان فى غير الحروب وسيلة لإرواء ظمئهما إلى المجد ، واستكمال حظهما من الترف والنعيم) ! !

ثم يمضى فيقول فى محاولة التماس الأعذار لهما من الإنهيار الكامل أمام « عرب المرعى » : « أفأعوزت أحداهما أسباب العيش فكان ذلك سبب ما اتصل بينهما من حروب أفنت كلتيهما فيها على القرون ما لا يحصى من المهج ؟كلا .. بل كانت الإمبراطوريتان مترعتين بخيرات البلاد التى تحكمانها . كانت الروم تنعم بما تغل مصر وسائر ممتلكات قيصر من زراعة ، وما تنتج من صناعة .. وكانت فارس تنعم بخيرات البلاد الخاضعة لسلطان كسرى ... »!

ويعود الدكتور إلى العرب سائراً على أطراف دهشته بعد أن وصف الروم والفرس بأنهما (من القوى الثابتة فى دورة الكون كالشمس والقمر والكواكب سواء بسواء) فهو يقول بعد ما سبق ليضع العرب دون ما وهبهم الله إياه :

« إذ أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع أن تنهض ، وأنّى لشبه جزيرة العرب ببواديها الماحلة ، وصحاريها الجرداء ، أن تبعث أمة ، أو تنشىء دولة . وأنّى لقبائل هذه البادية وكل ما تعتمد عليه فى حياتها الغزو والسلب ، أن تفكر فى حضارة بله أن تقيمها . لقد كان كسرى فارس يسميهم رعاة الإبل والغنم ، وكان قيصر الروم يصفهم بالحفاة العراة الجياع ، أفمن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمة يعبأ بها الروم أو الفرس ؟ » .

ونقف وقفة قصيرة عند هذا الكلام الذى يضرب بعضه بعضاً ، أو يخجل بعضه من بعض .. كلام يحلل به أحد علماء العرب فى هذا العصر تاريخ الأمة التى ينتمى إليها ديناً ، وقومية ، ولغة ..

أولا : ينكر الدكتور هيكل بقوله هذا عن حضارة الروم والفرس ، التى استولت على حضارة الفينيقيين والمصريين والسوريين والعراقيين ، وعلى أرض هذه الشعوب ، أن هذه الشعوب المحكومة عربية بكل

مقوماتها، وأن الروم والفرس غاصبون لأرضهم ، ناهبون لمواردهم، مهدرون لإنسانيتهم ..

ثانياً : أكثر من هذا يتناسى الدكتور هيكل فى رثائه أو تمجيده للإمبراطوريتين الناهبتين لأرض العرب فى الشام ومصر أن حضارة اللاتين هى حضارة الرومان الذين ملأوا الوطن العربى عسفاً وظلماً وفجوراً وابتزازاً.. وإنه بالنسبة لمصر بالذات فإن الرومان فى مجال وثنيتهم وعدوانيتهم وحربهم على الحريات والمعتقدات قد أقاموا المذابح على أرضها نحو ستة قرون يبتلعها ضمير الدكتور هيكل — يرحمه الله — بكل بساطة، أو بكل سذاجة ، وينسى وهو لا يميز بين حضارة وأخرى أن هذه المذابح التى بدأت بشراسة منذ مقتل مرقس الرسول فى الإسكندرية وجر جثته فى الشوارع سنة ٦٨ م لم تنقطع فى مراحلها المسجلة بتاريخ مصر والكنيسة المصرية — لم تنقطع أهوالها وجرائمها البشعة إلا بعد تحرير مصر والمصريين على أيدى إخوانهم العرب سنة ٦٤١ حيث ظهر الزعيم المسيحى المصرى الأنبا بنيامين بعد اختفائه عشر سنوات ، وحيث عاد الأمن ، وحق الحياة ، وحق الاعتقاد، وحق بناء الكنائس بقيام أول حكومة عربية تحكم بشريعة الإسلام وبالعدل على غير مثال سبق فى تلك الحضارات الوثنية الآثمة .

ثالثاً : ينسى الدكتور محمد حسين هيكل فى هذا الحوار مع ، نفسه والذى يستمع إليه قراؤه العرب المسلمون ، كل ما سبق أن عرضه عليهم فى سيرة الرسول الكريم ، والصديق أبى بكر ، من هذه المقومات والدعائم التى يقوم بها الإسلام بشريعته وسنته ، وأحكامه ، مغايراً بمصدره الإلهى لأية معتقدات وضعية فى منهج التفكير ، ووحدة القول والعمل، وغاية الإنسان والحياة ، وعقيدة الخلق والغيب، وحكم ما بعد الموت والحساب ، كهذه التى عاشت بها ، وانهارت بسببها الإمبراطوريتان الفارسية والرومية .

إن هذه المقومات فى المنهج القرآنى ، والشرع الإسلامى، والالتزام بها بكل الصدق فى بناء المجتمع العربى الإسلامى، يعنى بالتأكيد ، ودون حيرة أو لبس ، بل وكما وقع فى مراحل المواجهة مع العالم — أن الإسلام هو منطلق حضارة عالمية دينية ، علمية مؤمنة ، غير عدوانية ،وغير مسبوقة بأية حضارة مماثلة ، وأثرها الأول فى صدقها وفى تعبيرها العملى عن أهدافها هو إزالة وإزاحة كل مصادر القوة والفكر والاستمرار لهذه الحضارات الوثنية العدوانية المنهارة عقلياً وعقائدياً وأخلاقياً واجتماعياً وطبقياً .. هذه الحضارات التى شاء الله فى حكمته التى غابت عن عقل الدكتور هيكل ، وكثيرين غيره ، أن يحل محلها الإسلام بحضارته المشرقة والعادلة والإنسانية على جميع الأجزاء التى تحررت به بعد القهر فى هذا الوطن العربى الكبير ، الوطن الأول للإسلام ، والمنارة التى أضاءت به خلال أبهى وأزهى عصور التاريخ فى قلب العالم القديم والحديث ..

هكذا أخطأ الدكتور هيكل وهو غارق فى بلبلة أفكاره وسط مدونات الشعوبية ، والمتهودة والمستشرقة فى إدراك الجواب الحق عن سؤاله الذى لا يزال مطروحاً إلى اليوم . وعندما أراد أن يلتمس التوفيق بين الآراء أجاب بغير تثبت وهو يسأل نفسه من جديد قائلا « كيف حدثت هذه المعجزة ؟ كيف تغلب العرب مع قلة عددهم وضعف حضارتهم .. وتأخر علومهم وفنونهم على الفرس وعلى الروم ، ولهم من العدد ومن الحضارة ومن العلوم والفنون ما لا يزال التاريخ يحدثنا عنه فى إكبار أى إكبار » .

إن الدكتور يجد الجواب عن هذا « اللغز » فى رأى مسبوق يلقيه بغير فهم وهو « لقد تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذى لا يتزعزع » .

فهل العقيدة الثابتة تعنى الخلو من العقل ، والعلم ، والأخلاق، والالتزام؟

هل العقيدة الثابتة والإيمان الذى لا يتزعزع منحة بغير مقابل ،ومصادفة بغير مدبر ، وحكمة بغير حكيم ؟

وإذا كانت الإمبراطوريتان العظيمتان — كما يزعم الدكتور هيكل نقلا عن المؤرخين الأوروبيين المعاصرين وغير المعاصرين من ورثة هؤلاء العدوانيين الاستعماريين — لا تقدمان لرعاياهما هذه العقيدة الثابتة أو الإيمان الذى لا يتزعزع .. فأى فضل آخر يمكن أن تقدمه هاتان الإمبراطوريتان ؟ .. وأى عقل فيهما يمكن أن تعتمدا عليه ؟ .. وأى علم يمكن أن تنتفعا به ؟ .

وهذا هو ما وقع للمنهارين بأخلاقهم ، والطغاة بنظمهم ، والكذبة بفنونهم وآدابهم ، والحمقى بحكمتهم وأساطيرهم وفلسفاتهم .. هذا هو ما وقع بالفعل عندما واجه صدق العرب بالإسلام أكاذيب الروم والفرس .. أكاذيب حضارات الطاغوت التى مكنت للوثنية ولم تدرك فضل المسيحية ، بل مزقتها ؛ وعبثت بها ، وذبحت اللائذين بها من شعب مصر والشام .

ورحم الله هيكل .. على طريق ضحايا الأباطيل .. والتائهين فى وضح النهـــار .

* * *

٢ — وجاء الاستعمار فأعد جيش المستشرقين .. ليغزو فكر العرب

سارت الشعوبية فى طريقها الذى تدور به حول ماضى معتقداتها ونظمها، وتتقدم به إلى استعادة إمبراطوريتها على الأرض العربية المحاورة لها ، مستهدفة كما يقول الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه (الجذور التاريخية للشعوبية) كل الجذور والأصول فى حياة العرب « فهى تهاجم العرب قبل الإسلام ، وتهمهم فى كل شيء .. فى أسلوب حياتهم ، وفى مطاعمهم وملابسهم ، وفى فصاحتهم وخطبهم ، وفى أساليب قتالهم ، وفى أنسابهم ، وفى علاقاتهم الاجتماعية ، وفى كرمهم ومقاييسهم الأخلاقية ، وفى مروءتهم ».. إلى أن سقطت الدولة العربية وتقاسم أرضها والسلطة عليها مرتزقة الأتراك والسلاجقة ، الذين وجدوا فى التظاهر بالإسلام فرصة ميراث الحضارة العربية الإسلامية الضخمة وابتكار المبرر لإخضاع العرب فى مرحلة التمزق ، وابتزاز خيراتهم إلى أمد طويل ..

وكان الفراغ الحضارى الموحش الذى أحدثه سقوط الدولة العربية سنة ٦٥٦ هجرية مدعاة لإغراء كل القوى الهمجية المتربصة بالوطن العربى فيه ومن حوله ، وهكذا بينما قام حكم الدويلات فى الداخل ، أخذت أوروبا التى لم تنس ولن تنسى خروج هرقل من الشام ومصر — تعد جيوشها الصليبية لغزو العرب ، وبدأ المغول فى الشمال يجدون مع نمو الأعشاب على الطرق ، وخراب المعاقل العربية الحصينة على حدودهم فرصتهم التى لا يفلتونها للإغارات الوحشية على وطن الإسلام والمسلمين ..

وبدأ الوطن العربى الجريح بقيادة مغامرى المماليك يدافع بأبنائه العرب فى مغيب الشمس عن حوزة الوطن والدين . ونجح المقاتلون العرب فى أن يلهموا قادتهم الغرباء فضائل القتال ، وظهرت قيادة علماء الدين العرب لتفرض على الأتابك والأمراء والسلاطين ضرورات المواجهة للعدو المشترك ، وظهر صلاح الدين الأيوبى المسلم الكردى الذى عربه الإسلام ، وصقله الإيمان ، فكان بطل اللحظات الخطرة ، والسيف الذى قصم الله به ظهر الحروب الصليبية ودفعها إلى نهايتها الفاشلة .. ولم ينجح المغول كذلك فى غزو مصر فقد كان بها صفوة علماء العرب والمسلمين الذين ردوا فى الواقع الغارة وهم يدفعون المماليك من ظهورهم للقتال ويشتركون معهم .

لقد حدثت حقاً فوق أرض هذا الوطن العربى آيتان بهذا النصر الحاسم الذى انهزمت به الجيوش الصليبية والجيوش المغولية ، رغم الوهن والتفرقة وخراب الموارد .. لقد كان نصراً مزدوجاً وقع خلال قرنين من الزمان فى أشق الظروف وأفدح التضحيات ، ووراء قيادات غريبة مغامرة من المماليك الذين استغلوا هذا النصر ليديروا على الشعب العربى رحى الابتزاز ، وصراع السلطة ، وحرب التجهيل ، وغزو الأخلاق ، وإهدار الإنسانية فى حياة الحريم وأسواق العبيد . بحيث لم يتركوا فرجة أو ثقباً يمر منه الضوء والأمل إلى المحكومين المقهورين إلا سدوه بشراسة .

وهكذا أصبح الوطن العربى وشعوبه المضروبة بعد الجراح الشعوبية والصليبية والمغولية والمملوكية على أبواب مرحلة الإظلام التام فى عهد العثمانيين الذين أعادوا العرب بدورهم ليكونوا لقمة سائغة للاستعمار الأوروبى الحديث.

الاستعمار والاستشراق : لم يكن كل ما حدث على الأرض العربية منذ سقوط الدولة البيزنطية بعيداً عن متابعة القوى الجاثمة فى أوروبا وأعينها المفتوحة باتجاه الوطن العربى ترقب ، وأحياناً وأيديها المغامرة تشارك فى الخفاء فى الكثير مما يجرى هناك .

ولقد تعلم الأوربيون من مخططات الشعوبية فنونهم فى العمل المضاد للعرب والإسلام . وكانوا يدركون مدى الخدمة التى قدمتها الشعوبية للهدف المشترك عندما ساعدت إبان حكم العباسيين والبرامكة على شق الطرق والأخاديد الخفية لتنشط مؤثرات الفلسفة اليونانية وبخاصة عندما ظهر التنظيم الشعوبى لجماعة « إخوان الصفا » وظهر من هذا التنظيم أمثال « الفارابى وابن سينا » اللذين نقلا بؤرة الفلسفة اليونانية الوثنية بعد أن انتهت فى روما والإسكندرية وإنطاكية إلى بغداد ، واللذين حاولا وراء الأهداف الشعوبية العدوانية أن يعيدا صياغة المفاهيم الإسلامية بعد مزجها مزجاً فلسفياً أرسطياً يخرج بها عن حقائقها ، الأمر الذى حمل أبو حامد الغزالى على أن يكتب كتابه « تهافت الفلاسفة » وفيه يحكم على هذه الفلسفة الشعوبية اليونانية بأنها دعوة إلى الكفر بالإسلام والمعارضة لمنهجه ومبادئه فى عشرين مسألة على الأقل .

وكانت الحروب الصليبية بعد ذلك درساً قاسياً لأوروبا ، وضربة موجعة على أيديهم المتسرعة الجشعة فى الطريق إلى نهب الوطن العربى .. وكانت أيضاً مصدر تحول فى التفكير باتجاه تصحيح الكثير من معلوماتهم العلمية والحضارية القاصرة ، فلقد نقلوا معهم بعد الهزيمة إحساساً قوياً بالمرارة من تخلفهم ، وشعوراً بالاحترام الجبرى للمسلمين وإن كانوا أعداءهم ، وبالحاجة الشديدة إلى التعلم منهم ، وتغيير منهجهم فى التفكير ، وإنشاء المدن ، وكذلك تغيير نظرتهم إلى الإنسان وقيمته وحقوقه من خلال معنى جديد لكلمة « الناس » المغايرة تماماً لمفهوم الألقاب الطبقية التى تتقلص تحتها جماعات الرعايا البائسين وهى تتحطم تحت وطأة القهر والتجهيل والجوع والاستغلال .

لقد رجعوا إلى بلادهم ببذور الفكر العلمى فى المنهج العربى التجريبى الذى ظهر وتحدد ليس من بداية عمل ابن حيان كما يزعم الزاعمون .. وإنما منذ سجله الشافعى فى كتابه « الأم » عن علم « الأصول » الذى يعدد فيه عيوب المنطق اليونانى ويرفضه ، وقد استخلص الشافعى هذا المنهج عن القرآن والسنة

الذين حددوا أصول هذا المنهج العربى من طبيعة اللغة العربية ومن غايات الشريعة والعقل والعلم فى الإسلام .

وكذلك رجع الأوربيون إلى بلادهم ببذور المبدأ القومى .. وببذور الاشتراكية التى كانت عندهم – وبخاصة بعد الثورة العلمية والصناعية – هى البديل الحتمى للدين والإيمان بعد أن ثبت عجز العقل الأوروبى عن وعى الدين بمفهومه الإلهى السليم .

وكذلك رجع الأوربيون بتصور جديد للوسائل التى يمكن أن تساعدهم على غزو جديد غير عسكرى للوطن العربى ، لقد أدركوا أنهم – رغم حياتهم الطويلة فى معايشة وحكم كثير من العرب قبل الإسلام ، ومخالطة العرب بعد الإسلام – كانوا أبعد عن فهم هوية الإنسان العربى ، وعن اكتشاف حقيقة قدراته غير الظاهرة لهم ، أو تعليل سلوكه ، أو تحليل لغته وفكره . ولذلك فقد استبانوا حاجتهم إلى عملية « توهين فكرى » تتجه إلى زعزعة مقومات العرب ،وتشتيت أفكارهم ،وطمس ذاكرتهم ، من خلال غزوة فكرية طويلة الأمد متعددة الفصائل والوسائل التى تخدم وتحقق أهدافها

فمثل هذه الحرب النفسية غير الأخلاقية والتى هى أشبه حديثاً بحرب الميكروبات ، هى أقرب الوسائل فى نظرهم إلى جعل العامل العسكرى فى غزو العرب عاملا ثانوياً ، وإلى ضمان الاستغناء عن حرب صليبية أخرى طويلة الأمد يظهر خلالها أكثر من بطل عربى لجمع الشمل وتوجيه الضربة القاضية للمغيرين .

هكذا فكر الأوروبيون فى مناخ الحرب الصليبية ، وهكذانشأ الاستشراق متحالفا مع الشعوبية التى اندمجت فيه ، وأخذت منه شعاراته وألوانه ، ولبست ملابسه ومذاهبه

وهكذا نشأت الصهيونية منذ نحو قرنين بظهور حركة « هاسكالا » أو الصقل والتنوير سنة ١٧٨٩ باتجاه غزو وابتلاع فلسطين .. وهكذا كان كل

شيء قد تم عمله لتخدير العرب تماماً فى نظر الإنجليز الذين قرروا سنة ١٩٠٧ بتوصية اللجنة المؤلفة برئاسة رئيس وزرائهم (بنرمان) أن الوقت قد حان لتحرك يهود أوروبا إلى فلسطين فى غزوة سلمية استيطانية لأرض العرب الذين تفرقوا وناموا بالمخدر الأوروبى الإنجليزى .. إلى أجل غير مسمى !

ولكن الواقع أظهر أن العرب لم يكونوا نائمين .. كانوا فقط منهكين .. يرفضون المخدر ، ويتابعون البحث بين الأرض والسماء ، وفى أنفسهم ، عن هويتهم .. وكانوا يقاتلون أيضاً .. وتتسع دائرة صحوتهم ووحدتهم حول هذا القتال .

ثم تستمر الحرب الفكرية ضد العرب من جانب المستعمرين الجدد بعد أن ورثت أمريكا ملف القضايا الاستعمارية من إنجلترا وفرنسا، فهى تمضى بخلق الشرير ، وعقل المترف ، وغرور راعى البقر ، لتعيش الجريمة الصهيونية ضد العرب بكل أبعادها !

طلائع المستشرقين : وكانت البداية المنظمة لخطط وأهداف الاستشراق فى روما ، ومن قلب الفاتيكان ، حيث كانت السلطة الدينية الكاثوليكية ترى أنه من الضرورى تجنيد عدد من رجالها لتحقق الأهداف الظاهرة لها فى الوطن العربى ، فى مرحلة ضعف العرب ، هذا الضعف الذى كان أحد الأسباب القوية لإعلان الحروب الصليبية :

وكان من بين الدوافع التى أعلنها الفاتيكان ليفسر قيامه بتدريب عدد من المستشرقين أو المستعربين الرهبان رغبته فى تخريج مجادلين عن النصرانية داخل الوطن العربى يقارعون علماء المسلمين حججهم بحجج أخرى ، ويردون عليهم من القرآن والأدب العربى القديم والتاريخ ، بالطريقة التى تدربوا عليها جدلياً بقصد إيقاع البلبلة فى فكر أولئك العرب الذين اعتبروهم بالخطأ خصوماً لهم .

وكان أول من برز من هؤلاء المستعربين الذين نشأوا فى الفاتيكان صديق

للثقافة العربية هو جربرت دى أورلياك المتوفى سنة ١٠٠٣ وهو راهب بندكى كان مجال عمله الأندلس حيث تلقى علومه الأولى على يد أساتذة مسلمين فى أشبيلية وقرطبة ثم أصبح أول بابا فرنسى .

وكان من هؤلاء المستعربين البارزين أيضاً وممن اشتهروا بثقافتهم العربية ليوناردو فيبوناتشى وتوما الأكوينى وروجر بيكون .

ومع تعاقب القرون نتج عن هذا النشاط الكاثوليكى فى مجال الاستعراب وتجنيد المستعربين أن ظهر اهتمام الغرب بالعلوم والآداب واللغة العربية فى صورة العمل الحضارى « المشروع » والموجه لحماية وحراسة الثقافة والآداب واللغة العربية . وبذلك أمكن فى إبان التخلف الذى عاشه الشعب العربى فى نهاية الحكم العثمانى أن تنتقل اليقظة الثقافية العربية فى بلاد العرب إلى المدارس الأجنبية والطائفية التى أنشئت فى أكثر العواصم العربية لقيادة وتوجيه الفكر العربى الحديث ، وظهر كأنما اللغة العربية وآدابها لم يعد لها موئل إلا المدارس الأجنبية والتبشيرية حيث كان يبدو أن تعليم اللغة والأدب العربى ينتشران بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين .. كما يقول ساطع الحصرى فى كتابه « البلاد العربية والدولة العثمانية » ..

وتحت هذه القيادة حدثت أشياء كثيرة تعانيها الأجيال العربية المعاصرة بعد أن فتح أكثر الشباب أعينهم على ثقافة عربية من مصادر أجنبية تطوى أغراضاً مشبوهة ، ومعلومات مقلوبة ، مثل الزعم الذى تطوع به الأب شيخو فى بيروت بأن جميع أعلام الشعر العربى من شعراء المعلقات وغيرهم قبل الإسلام كانوا مسيحيين ، حتى عنترة الذى علمته أمه المسيحية مسيحيتها .. ولذلك فقط كانوا عباقرة !!

وعلى هذا الطريق نفسه ظهرت موسوعات ودوائر معارف ومعاجم مليئة بمغالطات شديدة الخطر على الشخصية والهوية العربية المتكاملة .. فى كلمات

مندسة كالألغام ، تنفجر فى العقول بغير صوت ، وتحرق الشخصية العربية ومقوماتها بغير دخان ودون أن يدرى أحد .. أو هكذا ظنوا ..

التحدى المباشر : ولكن هذا الاستعراب أوالاستشراق الذى تستر بستار المسيحية كان برغم خطورته متلطفاً ، ومتحفظاً ، وخفيض الصوت غالباً ، بينما كان من الطبيعى أن يقوم الاستعمار من وراء أقنعته المختلفة بتجنيد أخطر فصائله من اليهود والعقلانيين العلمانيين ، والعصابيين المسوسين، والمرتزقة المأجورين ، لكى يتحدى باسم الدراسة الحرة أركان ومقومات العرب والإسلام — تحدياً مباشراً ، ومتنوعاً فى كل مجال ، وبالتمويل الضخم الذى تخصصه القوى الاحتكارية وأصحاب الملايين اليهود لكى يرتبط الاستشراق والاستعراب بعجلة الاستعمار والصهيونية ، فيخدم أهدافهما من طريق مخطط مباشر يتوسع حتى يضم إليه مخطط محاربة الكتابة بالخط العربى ، وبالنحو العربى .. وتشجيع استخدام العامية ، والتركيبات والمصطلحات الغربية ، فى كتابات المثقفين أو أشباههم .

ونقدم هنا على هذا الاستعراب الاستعمارى والصهيونى الشرس هذه النماذج للإشارة فقط إليه فى حدود ما يسمح به الموضوع الأساسى لهذا الكتاب .

ظهر فى المجر المستعرب اليهودى جولد زيهر الذى توفى سنة ١٩٢١ والذى سار فى كل كتبه على تعميق الإحساس العام بنظرية الاستشراق القائلة بأن العرب ليسوا أهل دين . فهو يصرخ كالمعتوه فى كتاب له عن العقيدة والشريعة والإسلام ليقول لمن استعرب من أجلهم ، وتخصص لخديعتهم من العرب المسلمين : —

« لقد كانت مكة مسقط رأس النبى مركزاً من المراكز الهامة والخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام ، كما كانت مقراً للكعبة المقدسة والحجر الأسود ، ومع هذا كانت المادية وكبرياء الجاهلية ، وتحكم الأغنياء فى الفقراء — هى السائدة عند أشراف هذه المدينة الذين كانوا يفيدون من سدانة الكعبة فوائد

مادية لها خطرها ... » ؟ ولا يجد جولد زيهر من يضع أمام عينيه تاريخ الوثنية والأصنام والمادية والجشع والعدوان وعبادة المتعة كما نشأت نشأتها الطبيعية بغير رادع على أرض سادته اليونان .. كما لم يجد من يذكره بعجل آبائه الذهبي الذى ظل معبودهم المفضل إلى اليوم ، كما أنه لم يكن من أهدافه أن يبحث بأمانة العلم عن الجواب عن سؤال « لماذا تخلى إذن هؤلاء العرب فى الجزيرة العربية عن أصنامهم بالعودة إلى إلههم الحق بظهور الإسلام .. ولماذا بقيت الأصنام والتماثيل المعبودة حتى اليوم فى أكثر بلاد أوروبا والعالم الحديث .. وفى بلاده المحرر أيضاً ؟ ؟ » .

ويجيء المستعرب الإيطالى ليون كايتانى المتوفى سنة ١٩٢٦ ليدق على نفس الطبل وليصيح بدوره قائلا « إن الإسلام لم يكن حركة دينية إذ لم يكن فيه دينياً إلا الظاهر ، وأما الجوهر فكان سياسياً واقتصادياً » ثم يقضى كايتانى عمره بعد ذلك متخصصاً فيما هو بحسب ميوله من صميم الديانة ، وذلك باشاداته وتمجيداته لمعتقدات الفرق السرية من القرامطة والبابكية والاسماعيلية ، ومن الحشاشين المنحلين الذين كانوا الآلات المسخرة فى أيدى إله من البشر .. معبود بشرى يقودهم لحرب الإسلام والعرب ؟

ويجيء البلجيكى الراهب لامنس المتوفى سنة ١٩٣٧ ليتعبد أمام نفس الهيكل .. أمام هدف اغتيال التاريخ الصحيح للأمة التى ظهر بينها الإسلام ظهوراً طبيعياً كظهور الشمس من المشرق ، وكوقوع الرؤية بالعين ، فهو يدعى أن حياة العرب الدينية قبل الإسلام كانت طوافاً مستمراً حول الأنصاب ، وهى الحجارة المرفوعة فى كل مكان ليكتسبوا القوة منها . وأنه حتى بعد الإسلام بقى إثنان من هذه الحجارة المقدسة لعبادتهما هما الحجر الأسود ومقام إبراهيم . وأن العربى قبل الإسلام لم يكن فى وسعه أن يستشف شيئاً فى الدين أكثر من هذه الظواهر القليلة التى سرعان ما كانت « تستنفد تقواه القصيرة » .. وهكذا فى نظره الذى زاغ فى ضوء وبريق الأيقونات يرى أن العرب — فى الحقيقة التى لا يعرف سواها — ليسوا أهل دين .

ويجيء مارجليوث المستعرب الإنجليزى الذى اشتغل أستاذاً فى جامعة أوكسفورد منذ ١٨٨٩ والمتوفى سنة ١٩٤٠ فيحارب على جبهة أخرى هى محاولة إبطال جميع البراهين التى تقدمها اللغة العربية وآدابها وأشعارها قبل الإسلام على قيام حياة دينية أخلاقية راشدة لم يشبها إلا شرك طارىء قبل الإسلام .. إنه يحاول جاهداً وهو يلف ويدور لإثارة الشبهات الكثيرة ، ولتصيدها حول صحة الشعر العربى قبل الإسلام ؟ .. إنه فى نظره شعر منحول، لأنه بعباثه الإنجليزى ، أو بخبثه الاستعمارى لا يريد أن يصدق أن شاعراً عربياً قبل الإسلام يقول :

كل شيء مصيره للزوال غير ربى وصالح الأعمال

أو أن شاعراً غيره يقول : —

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

فهو لذلك يقول ويشكك فى كتابه « محمد وظهور الإسلام » (لقد رأى العلماء أن فى لغة القرآن مشابه كبيرة من لغة الشعر الجاهلى ، ومع أنه من العسير أن نكون لنا رأياً فى هذا الموضوع ، لأننا نرى أن الشعر الجاهلى فى معظمه مصنوع وموضوع على مثال القرآن ، فأنه يصح لنا أن نقبل رأى العرب فى ذلك ؟) ... ثم هو يحاول من خلال هذا الزعم الذى يدور من حوله إثبات جهل العرب بالقراءة والكتابة ، ويستخدم عبارات تدل على فقدانه الفهم والتعلم والاستيعاب للكثير من الكلمات العربية التى يستعملها مثل كلمة (كتاب) التى يجهل معناها كما أصطلح عليه العرب قبل الإسلام .. ثم ينتهى التعالم بهذا المستعرب الاستعمارى إلى أن يقرر أن شعراء العرب قبل الإسلام لم يكونوا كما يبدو من شعرهم « لسان الوثنية الناطق ، بل كانوا مسلمين فى كل شيء ما عدا الإسم » .. إنه هنا يسخر ويستغرب ويريد أن يفرض ما يتمناه وهو أن يكون العرب بدلالة الشعر واللغة قبل الإسلام « وثنيين » بينما يدل شعرهم بالتحليل لكلماته وتراكيبه ودلالاته العقلية

والاجتماعية على أنهم أقرب إلى أن يكونوا كما يقول « مسلمين » يعرفون الله الحق والمعروف ، وهذا ما يمقت مارجليوث أن يفكر فيه ، وما لا يستطيع أن يصبر عليه ، وما يعمل كادحاً مأجوراً فى طاعة آلهة الاستعمار للتشكيك فيه بين العرب المسلمين أنفسهم .

ومضاف فى الظلام : وحتى نكون منصفين نذكر بعضاً من هذه الحسنات الفكرية القليلة التى سجلها بعض هؤلاء المستعربين تأثراً بالحق بعد إدمان النظر فيه ، أو تغلباً على الجهل بعد طول الانصياع له ، وحتى من خلال طاحونة الأكاذيب التى كان يديرها المجندون المسخرون فى تنظيم قرامطة الغرب ، كانت تفلت بعض الحقائق الباسمة والمسفرة وسط أتون الغضب والشتائم ، ومحرقة الفطنة والتعقل ، وهذيان الكهان الكبار .

نذكر من كلمات المستعرب الفرنسى هنرى ماسيه — المولود سنة ١٨٨٦ والذى ظل يؤلف حتى سنة ١٩٥٦ — وقد كان يوماً ما مديراً للمعهد الفرنسى فى القاهرة ما بين ١٩١٦ و ١٩٢٧ ، كلمات شديدة الإضاءة داخل عـالم الظلمات الاستشراقية وذلك فى كتابه عن « الإسلام » حيث يقول : —

(وفى القرآن يظهر إبراهيم عدة مرات مع صفة « الحنيف » ويبدو أن هذا الوصف السابق لعصر محمد كان يدل على أناس لا يعتنقون المسيحية ولا اليهودية ، ويتطلعون بغموض إلى دين أكثر تجرداً من العقائد والمذاهب إلى توحيد كامل) .. أليس هذا تفسيراً صحيحاً للخط الأساسى لارتباط العرب بالدين الصحيح ، وانتظارهم للكتاب الذى يجتمعون به حول الدين الصحيح ؟

ونذكر من كلمات المستعرب الإنجليزى روم لاندو الذى تخصص فى شئون المغرب ، وعمل محاضراً للدراسات الإسلامية فى شمال أفريقية فى بعض الجامعات الأمريكية « إن الكثير من آيات القرآن تبين أن مفهوم المسلمين عن الله هو أكثر عقلانية مما قد يخرج به المرء من النظر السطحى لتراثهم » .. ويقول : « لقد مزج الإسلام ما بين الإصلاح الأخلاقى والعبادة الدينية مزجاً

ينسجم إنسجاماً رائعاً مع آمزجة العرب وحاجاتهم » ويقول : « الرفض العنيف للشرك والقول بقدرة الله غير المحدودة يشكلان الموضوعين الأساسيين فى آيات القرآن » .

مستشرقون عرب : وفيما عدا القليل من هذه الومضات العفوية فى سحب الاستشراق وظلماته فان الإلحاح المتواصل بهذه العواصف المرعدة والكتب الحاقدة على الإسلام والعرب من قوى الاستعمار الخفية والغنية والشرسة ، قد جعل أقدام بعض العرب تسوخ فى التيه ، وجعل عقولهم تضل فى الشك ، بل جعل حياة هذا البعض تقع رهينة الحاجة والضرورة أو الغواية فى قبضة هذا الاستعمار يشكلها كيف يشاء ، ويسوقها لتلطم وجهها بيدها ،وتجدف بتاريخها ودينها،وهى ترقص غائبة الوعى على دف الاستشراق ،مرددة معه أغنياته المبتذلة فى شتم العرب ، وتحقير عقلهم ، وتسفيه عقائدهم .

نذكر من هؤلاء فيليب حتى اللبنانى الأصل ، والأمريكى الجنسية ، المولود سنة ١٨٨٦ ، والمتخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت والحائز على الدكتوراه من جامعة كلومبيا سنة ١٩١٥

تعلق هذا العربى المشتت بين عروبته وجنسيته بهواية الاستعراب وخدمته فكتب فى وقت مبكر واحداً من أسوأ كتبه ، وأكثرها تضليلا ، وكان كتابه هذا يدرس — للأسف — فى كلية دار العلوم قبل انضمامها للجامعة .. واسمه « تاريخ العرب » .. فى هذا الكتاب الشاذ يقول فيليب حتى قرباناً لسادته « لو حكمنا على البدوى الوثنى فى عصر الجاهلية من شعره ، تبين لنا أنه كان (قليل الدين) إن كان له دين مطلقاً » ؟ ثم يقول .. « لقد كان البدوى لا يكترث كثيراً للدوافع الدينية ، بل كان يقف منها موقف الحياد ، وكان فى ممارسته للطقوس الدينية إنما ينساق وراء تقاليد قبيلته التى يتوارث احترام تقاليدها ، ولسنا نجد فى أى مرجع تصويراً لأى إخلاص حقيقى لأى صنم أو إله من الآلهة الوثنية » ؟

هكذا يتكلم فيليب حتى عن أسلافه معلناً عن حزنه البالغ لأنه لم يكتشف أى دليل على وثنية للبدوى تكون فى مستوى وثنية الإغريقى القديم ، أو عابد النار فى المعابد المزخرفة ، .. ولذلك فهذا البدوى هو قليل الدين فى نظر هذا العربى المستعرب ، قليل الأمانة فى مجال العلم !

ووراء بحثه عن علامات لوثنية أصيلة فى حياة هذ البدوى ليفرح بها قلبه يقول فيليب حتى ضيق الصدر لأنه لم يجد ما يبحث عنه « و تمثل الدين البدوى أول أشكال المعتقدات السامية وأعظمها سذاجة وبدائية . أما ديانات عرب الجنوب — يقصد اليمنيين — بما فيها من مظاهر النجوم والمعابد المزخرفة ، والشعائر الخلابة والقرابين فانها تمثل مرحلة أرقى وأحدث فى التطور الدينى ، أدت إليها حالة الاستقرار فى المجتمع إلى الوصول إليها » !

هكذا يكشف فيليب حتى عن مزاجه البيزنطى القديم فى اشتهاء السجود للتماثيل ، وتقبيل الأيقونات ... فيتهم أسلافه القدماء بالسذاجة لأنهم لم يكونوا وثنيين كما يشتهى ... ولذلك اتهمهم بالوثنية .. وقلة الدين !

ثم يتملك الغضب هذا الأستاذ الجامعى الذى شرق وغرب فى خدمة العلم. يتملكه فى خدمة الأهداف الاستشراقية والعلم الكاذب ... يتملكه على العرب الذين يكتب بالتدليس تاريخهم ، فهو يخلط بين العرب فى جميع الأطوار .. العرب الذين ظهر بينهم الإسلام ، وتنزل إليهم القرآن ، وكان منهم محمد وأبو بكر وعمر .. والعرب الذين انتهى أمرهم داخل حمأة الغوايات الفارسية واليونانية فى أشكال الحياة ، وألوان التفكير إلى مثل عصر الرشيد والمأمون والمتوكل .

يملأ فيليب حتى دلو أحقاده ليلقيها على رؤوس كل العرب ، هو ينسب لكل العرب ، ويتهم الإسلام ، بما قرأه من موبقات عصر البرامكة والقرامطة والإسماعيلية الذى يسميه عصر هارون الرشيد والمأمون .. إنه يتهم العرب بحب الخمر وبالزنا والشذوذ .. ويتحدث عن الجوارى والغلمان المرد ، ويقول :

« روى شاهد عيان أنه دخل يوماً على المأمون فى أحد الأعياد المسيحية فرأى بين يديه عشرين وصيفة يونانية متزينات بالديباج يرقصن وفى أعناقهن صلبان الذهب .. وفى أيديهن أغصان الزيتون .. »!

ثم يقول أيضاً لشفاء غيظه من أسلافه البدو وهو يتهمهم بجرائم حضارته :
« وتقول بعض المصادر إنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية شاطرنه فراشه، وهو قول يصعب تصديقه ، وجرت بين الولاة والقواد عادة إهداء الخليفة أو العزيز هدايا تشتمل على الفتيات اللواتى يأخذونهن من الرعية » !

ثم يطبق فيليب فمه ويغمض عينيه بعد أن رمى العرب بجرائم الفرس واليونان ، ونسى أن يرميهم بجرائم الفرنسيين والأمريكيين المعاصرة .

ثم نذكر واحداً آخر من هؤلاء الصرعى بخواء الاستشراق الاستعمارى هو إدوارد عطية اللبنانى المسيحى المولود سنة ١٩٠٣ والذى تلقى علومه بين لبنان ومصر ولندن فى معاهد أجنبية طبعته بطابعها وأسلمته لخدمة أغراضها ..

يصف إدوارد عطية مكة فى كتابه (العرب) فيكتب نفس المزمور المحفوظ عن ظهر قلب عن وثنية العرب القدماء الذين كانوا يعبدون الكعبة ، فهو يقول : « كانت مكة مركز الوثنية عند العرب ، وهى موطن مناسك الحج والأمن والقداسة بين القبائل المتناحرة ، وقد تهيأت قداستها عن طريق الكعبة وهى هيكل صغير مربع من الصخر .. وكان حجر الزاوية فى هذا الهيكل نيزكاً — الحجر الأسود — تربطه التقاليد بابراهيم ، وكانوا يعبدون هذا الحجر الإله صاحب الرئاسة الذى يضم تحت لوائه جميع الآلهة القبلية الصغيرة » .

ولكن إدوارد عطية — بخلاف فيليب حتى — تعاوده صحوات عربية فينطق بالحق أو قريباً منه ، ومن ذلك ربطه بين الإسلام وكمال اللغة العربية فيما وصلت إليه فى القرن السابع لتكون الأداة الكاملة لظهور هذا الدين .

يقول إدوارد عطية : « وما كان من الممكن تحقيق قيام الدولة العربية

والحضارة العربية بغير الإسلام واللغة العربية . فهذه الغاية المزدوجة لم يكن بلوَغها مستطاعاً لو لم يحدث أن أولئك الأقوام البدائيين من أهل صحراء جزيرة العرب قد أصبح لهم فى القرن السابع الميلادى أرق لغة ، وأبلغ عبارة ، صقلها وأبدعها عقل الإنسان ولسانه على الإطلاق . والإسلام نفسه لا يمكن التفكير فيه إلا بواسطة تعبيرات قوامها اللفظ العربى المتداول كلاماً . وعلة ذلك أن القرآن إنما تلقاه محمد مشافهة فى آيات لها روعة القافية، وجلجلة النظم، مع بهاء التصور، وقوة الفكر ،ومنذا الذى يستطيع أن يقرر مدى النجاح الذى كان يتاح للنبى العربى أن يبلغه فى التبشير بالدين الجديد لو لم تكن أداة تبليغه قد أوفت على هذه الدرجة من الكمال ، أو إذا لم تكن قلوب العرب وآذانهم، بفضل شغفهم بالشعر ومزاولته قد وصلت إلى هذا الحد من الحساسية العميقة لأساليب اللغة الخلابة » .

مدرسة بحر الروم : ولكن فى مصر — وفى العشرينات — وتحت النفوذ العسكرى الإنجليزى ، والنفوذ الثقافى الفرنسى — كان عدد كبير ممن تهجنت ثقافتهم ببرامج غربية قد تاهوا فى سراب الاستشراق ، وفقدوا الطريق إلى حد بعيد ..

وبينما قام الإنجليز بتنحية الشريعة الإسلامية عن وجودها الفعلى بعد هزيمة عرابى ، وشطروا التعليم الموحد إلى تعليمين : «دينى » بمعنى أخروى فقط ، و « مدنى » بمعنى دنيوى فقط ، وأقاموا الجامعة المصرية الأولى بهدف إحياء المدرسة الوثنية اليونانية القديمة بالإسكندرية فى شكل معاصر — فقد ظهر فى العشرينات رجل مثل طه حسين ليكون — بالظروف التى أحاطت به ، والحاجة إليه — هو المبشر والمؤشر إلى هذا الاتجاه الحثيث والمباشر صوب الثقافة الأوروبية اليونانية الجذور ... للتعفية على جذور الثقافة العربية بالقدر الممكن .

لذلك .. ومنذ أسلم الشاب القروى الأزهرى الضرير نفسه مكرها أو

قانعاً لمن يقوده .. ومنذ عبر بحر الروم ليستكمل إعداده فى فرنسا ، وقد تعلق قلبه ببحر الروم ، وتاريخ الروم ، وقرر أن ينذر نفسه وفكره وحياته ليتعلم كل علوم الروم ، وليذيع وينشر بين العرب فضائل هذه العلوم ، وفضائل الانتماء بها إلى الروم .

ولم يكن غريباً أن يكون طه حسين منذ كتابه « الأدب الجاهلى » مجرد تسجيل وتكرار الرجل المنوم لمقررات المستعربين الغربيين فى الجانب الوعر منها ، وهو القول والتأكيد والجزم بأن الشعر الجاهلى الذى يحمل سمات أمة راشدة تعرف الله ، ولها عقل وبيان وحضارة ، إن هو إلا شعر موضوع منحول ... وهو فى ذلك يقول فى كتابه المنحول عن المستشرقين : —

« إن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل : أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ، ولا عقليتهم ، ولا دياناتهم ، ولا حضاراتهم ، بل لا يمثل لغتهم .. أليس هذا الشعر قد وضع وضعاً وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام » .

لقد كان يريد أن يكون الشعر العربى قبل الإسلام كما افترض أساتذته المستعربون سلائل اليونان والرومان معبراً عن أمة وثنية ، جاهلة ، بدائية مثل قبائل أستراليا أو هايتى ، مشتتة العقل .. بل واللغة واللسان ؟ .. ولذلك يستقيم فى رأيه عن هذه الأمة البدائية الجاهلة ظهور الإسلام من بينها شامخاً هادياً مضيئاً يرمى بضوئه وهدايته وعلومه حتى أقصى أطراف الأرض .. لأنها كانت قبل الإسلام أمة وثنية بدائية جاهلة !

لقد انزلق الرجل المنوم فعلا رغم جميع الذين ساندوه ليقع فيما لا طاقة له على حمل أوزاره ، وليمضى من نظرية الشك فى الشعر الجاهلى ، إلى التشكيك فى وجود إبراهيم وإسماعيل فى مكة ، إلى الشك فى قيام وحدة لغوية استمع بها العرب الذين آمنوا جميعاً بالله والنبى للقرآن والشرع .... ومن هذا الهذيان ، والاستفحال بالعجز ، والتحدى الأهوج ، وصل الدكتور طه حسين إلى

النائب العام محمد نور متهماً بتكذيب القرآن فيما ورد به عن نسبة إبراهيم وإسماعيل إلى العرب ، وعن بنائهما القواعد من البيت ، وادعائه وترويجه لأقوال اليهود بأن هذا كان «حيلة قرآنية» ليكسب بها النبى صداقة أهل الكتاب!

ويقرر النائب العام — بعد دراسة علمية مستفيضة نشرت خلاصتها مجلة الهلال فى عدد يوليو سنة ١٩٧٠ أن الدكتور طه حسين ، بطل ثقافة بحر الروم لا يملك من دليل واحد على مزاعمه التى سلطها بالعدوان على تاريخ الأمة التى ينتسب إليها ، وعلى حقائق اللغة العربية التى لم يحمل صورة الإنسان إلا بها — غير هذه الظنون التى تضطرب بها نفسه فى مثل قوله « فليس ببعيد أن يكون .. » أو « فما الذى يمنع » أو « نحن نعتقد » .. أو « إذن فنحن نستطيع أن نقول » ... وهكذا .. فى البحران الرومى الطويل .

وعندما سأله النائب العام عن أصل هذه الأوهام التى حشرها فى كتابه « الأدب الجاهلى » وهل هى من عندياته أم منقولة ومنحولة عن غيره ، قال طه حسين وهو يبتلع لسانه وهراءه « فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد ظهور الكتاب أن شيئاً من مثل هذا الفرض يوجد فى بعض كتب المبشرين ... » .

ولكن القضية فى قصة هذا المستشرق العربى لم تكن قاصرة على هذا التكذيب للقرآن والتاريخ ، والانتقاص من العرب والإسلام ، بل كانت لهذه المقدمات نتيجة لم يجرؤ على مثلها باسم العلم وحرية الجامعة أسير آخر لثقافة وأهداف الغرب ؟ .. فلقد كان من الحتم بعد مقدمة التشكيك فى جذور الأمة العربية كلها بهذا الاستفحال غير المسئول — أن تكون النتيجة دعوته إلى قومية جديدة يفك بها القومية العربية حول مكة وقبلة المسلمين ليصنع ما يسميه رجوعاً منه إلى قائمة أملاك قيصر — قومية بحر الروم — قومية البحر المتوسط .. وهو فى هذا العبث المستفحل يقول من رؤوس موضوعات أملاها عليه وسواسه اليونانى الأقرب إليه من أنفاسه :

« العقل المصرى والعقل اليونانى متأثر كل منهما بالآخر » أو مثل « ليس بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم فرق عقلى قوى » !

نعم .. أراد البطل اليونانى بطل الإلياذة العربية المعادية للعرب .. أراد أن يقدم مصر مرة أخرى تابعة فى مجال الثقافة والفكر والانتماء الحضارى إلى عهد الإسكندر ويوليوس قيصر .. هذا الانتماء الذى يطوى الاستسلام لخطط العدوان الأوروبى فى العصر الحديث على مصر ، وعلى جارات مصر ، ويدعو بجرأة إلى قومية مخترعة تستر القهر الأليم لقوى العدوان والاستعمار الأوروبى القديم والحديث ، وتنشىء مدرسة فكرية رجعية فى مصر والوطن العربى تجدد خرافات ووثنيات مدرسة الإسكندرية اليونانية ... مدرسة تحمل عنوان ثقافة بحر الروم .. وفلسفات وأساطير بحر الروم .

ولكن طه حسين عاش — والحمد لله — حتى رأى بأذنيه ، ولمس بأصابعه ، غرق تخطيطاته ضد القومية العربية .. وانهيار الأسس الواهية التى وضعها لمدرسة بحر الروم .. ولثقافة الانتماء كما تصورها وأرادها باتجاه بحر الروم .

صوت الحق : ومع ذلك فإنه اليوم فى قلب ملحمة دفاع العرب البطولى عن حريتهم ومقوماتهم وأرضهم ، وحقهم فى تأمين شواطئهم الشرقية والجنوبية على بحر الروم ، ومستقبل أجيالهم وحضارتهم فى مواجهة الحرب الصليبية الثانية التى ترفع شعار نجمة إسرائيل — فان عدداً غير قليل من المثقفين المؤمنين بدينهم وعروبتهم يولدون ، ويظهرون كل يوم ، ليرفعوا أصوات الصدق والحق بين بروق القنابل ، ودوى المدافع ، واستباقات الشهداء ليشهدوا أمام الله ، وبين يدى أمتهم ورفاقهم على هذا الصدق والحق والإيمان الذى قاتل عنه أسلافهم ، وظلوا يقاتلون وينتصرون آلاف السنين .

فمثل هذه الساحة المضيئة بالشرف والمعبرة بملامح الواقع الصعب وبشاشاته ودروسه عن أصالة الحقيقة العربية واستمرارها ، تجعل مثل وساوس الزقاق المظلم لمدرسة بحر الروم عاراً فكرياً لا يحتمل البقاء ، وتفتح الطريق لكل

الجهود حتّى تتلاقى الأمة العربية وتنسجم بكل أجزائها ومقوماتها ومواردها وقدراتها ، وهى تستعيد وحدتها التى هى درعها السابغة وصورتها الطبيعية وقت الشدائد والأزمات لتصحو إلى ذاتها وحقيقتها ورسالتها وتبنى حضارتها من جديد .

ومع ذلك فقد كانت هناك بعض الومضات فى الظلام الذى أطبقت به بين العشرينات والأربعينات مدرسة بحر الروم .. حتّى بين تلاميذ طه حسين .. بل وتلاميذه الكبار جداً والمقربين مثل أحمد أمين .

ففى كتاب « فجر الإسلام » وفى محاولة للإجابة عن نفس السؤال القديم الجديد « لماذا ظهر الإسلام بين العرب » يقول أحمد أمين فى إحدى صحوات العقل والضمير كلاماً يهدم به ما تشبث به أستاذه وصديقه طه حسين من مكائد ومفتريات المستشرقين .. يقول أحمد أمين بعد أن ملأ كتابه بالضرورة من هذا السفه الاستشراقى فى مثل أقوال أوليرى ، وبهذا الخلط الشعوبى فى بعض أقوال ابن قتيبه وابن خلدون ، وبهذا التمجد بالفرس فى آدابها ودياناتها وهو يروج للزرادشتية المجوسية التى يراها من الناحية اللاهوتية توحيداً ، ومن الناحية الفلسفية ثنوية ؟ . ثم بهذه الإشادة بالزندقة وترويج الدعاوى الماركسية حول اشتراكية مزدك الذى أباح بمذهبه ذى الطبيعة الفارسية القديمة جميع النساء وجميع الأموال لجميع الرجال — إن أحمد أمين يقول بين ذلك ، ورغم كل ذلك فى تفسيره من ناحية علم الإنسان والبيئة قدرة العرب الطبيعية على التوجه باخلاص وصدق إلى الله الواحد الحق :

« ولا بد من النظر إلى تأثير هذه الصحراء فى النفوس ، ذلك أن الحياة فى الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر سواء فى ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الإنسان . فلقد خلت أرضها غالباً من آثار البشر ، فلا أبنية ضخمة ، ولا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة . فابن الصحراء يقابل الطبيعة وجهاً لوجه .. لا شيء يحول دون التفاته إليها . تطلع الشمس فلا ظل ،

ويطلع القمر والنجوم فلا حائل . تبعث الشمس أشعتها المحرقة فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهر لبه ، وتتألق النجوم فى السماء فتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أتت عليه .. أمام هذه الطبيعة القوية ،والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة إلى رحمن رحيم ، وإلى بارىء مصور ، وإلى حفيظ مقيت ، إلى الله.. ولعل هذا هو السر فى أن الديانات الثلاث التى يدين بها أكثر العالم نبعت من صحراء سيناء وفلسطين وصحراء العرب » .

ثم ينقل أحمد أمين فى كتابه كلمات مماثلة لابن خلدون فى بعض صحوات عقله التى تلوح فى مقدمته كومضة أخرى فى الظلام وذلك حيث يقول دون تمييز لتناقضه مع كلامه السابق :

« والعرب مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش — يعنى التبدى — القريب المعاناة ، المتهيىء لقبول الخير ... وهم أقرب إلى الشجاعة لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق ، قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، وأهل البدو منهم أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام وهم لا يزالون موسومين بين الأمم بالبيان فى الكلام ، والفصاحة فى النطق ، فالبيان سمتهم بين الأمم منذ كانوا ... » .

☆ ☆ ☆

٣ — ونظمت الماركسية فصائلها أيضا. ضد العرب والإسلام

لقاء مع شيوعي : فى سنة ١٩٧٠ كنت عضواً فى إحدى اللجان الدينية مع الصديق الشيخ أحمد حسن الباقورى وآخرين .. وأذكر أنى فوجئت يوما ما خلال تلك السنة بزيارة شاب سوفيتى مهذب ، شديد الاعتداد بما فى رأسه ، وهو كما عرفنى بنفسه « يورى جلوهوف » مراسل جريدة برافدا بالقاهرة .

كانت مفاجأتى هى أن زيارة (جلوهوف) لى لم تكن من جهة عملى الصحفى ، الذى ربما لم يكن يعلم عنه شيئاً .. وإنما كانت الزيارة من جهة مسئوليتى عن أعمال هذه اللجنة ، وعن رغبته فى أن يلتقى بى مع الشيخ الباقورى ليسألنا وليفهم .. هل من الممكن أن تكون هناك علاقة ما .. أى علاقة .. بين الإشتراكية التى أخذت تسير فيها مصر .. وبين الدين ؟ ؟

واتفقت مع الصديق الشيخ الباقورى على لقاء مشترك مع الشاب السوفيتى المتحمس يورى جلوهوف ، وأصر الشيخ على أن يكون ذلك فى منزله . وحدث اللقــاء .

كان واضحاً أن الشاب السوفيتى ، الماركسى جداً بالطبع ، يتعجب مما أحسه وسمعه وقرأ عنه من وجود (تحالف) — على الأقل — بين الاشتراكية التى تطبقها مصر منذ سنة ١٩٦١ وبين الدين .

وكان واضحاً من البداية لى وللشيخ الباقورى أن الشاب السوفيتى يريد أن يطرح على عقولنا كنوع من التحدى نظريته التى حفظها بالتكرار عن استحالة وجود ما نسميه (الله) .. لينظر ماذا يقول المفكران الإسلاميان اللذان أساء الظن بهما كثيراً .. فجاء فى أثواب فارس الشيوعية القوزاقى ليحاصرهما فى عقر دارهما بهذا السؤال ، الذى بلى من كثرة الإعادة على غير طائل .

وكان الباقورى هادئاً تماماً ، بل كان مستمتعاً بهذه اللعبة العقلية ، وتركته يرد عليه بما وسعه من محفوظاته عن علم الكلام ، الذى هو أقرب فى أصله اليونانى إلى نفس المصدر الفلسفى الذى خرجت منه جدليات المادية الماركسية . وعندما بدأ الإرهاق يظهر على الفتى المهاجم أمام الشيخ المدافع ، أخذت الكلمة لأنقل صديقنا يورى من حلبة الجدل الحماسى إلى التنفس الهادىء أمام الحقائق المقررة

قلت له — أولا — إن الإشتراكية بما يقال عن دعائمها فى المساواة ، وجماعية العمل ، وجماعية التملك هى مطلب إنسانى قديم وليست حكراً على الماركسية اللينينية . إنها دعوة وتطبيقات الدين كما ظهر اجتهاداً فردياً فى المسيحية ، وكما تجسد نظاماً ومجتمعاً ودولة فى الإسلام . كما أنها دعوة ومحاولات بعض الطوبائيين كما تسموتهم منذ أفلاطون حتى مور وأوين وسان سيمون ، وكما أنها تجربة المعسكر الشيوعى أو الماركسى فى هذا العصر ... التجربة التى لم تتمخض عن اقتناع كل العالم .. فضلا عن اقتناع كل الشعوب (الخاضعة) للنظام الشيوعى .. فيما عدا رجال الحزب بالطبع .

وقلت له — ثانياً — إن الماركسيين فى هذا العصر إذا اعتبروا أن (الإلحاد) هو عقيدة علمية ، وأنه هو نقطة البداية والانطلاق للعلاقة مع الشعوب غير الملحدة ، فانهم يخطئون كثيراً من الجانب العلمى نفسه الذى يدعون الاهتمام به ذلك أنه من الواضح بالتجربة — كما قال لكم الكثيرون ممن يؤمنون بالله — إنه إذا كان من غير الممكن للمؤمنين أن يثبتوا وجود (الله) داخل المختبر العلمى بالطريقة عينها التى يمكن بها إثبات وجود العناصر المادية الخفية فى المادة ، فانه من غير الممكن أيضاً — وعليكم أن تحاولوا — نفى وجود هذا (الإله) من خلال تجربة مشهودة ملموسة داخل المختبر العلمى . هذا مع الفارق فى الأمرين لصالح المؤمنين ضد الملحدين ، وهو أن عجز المؤمنين طبيعى عن إثبات الله باللمس والرؤية داخل المختبر العلمى من حيث أن خالق الأشياء لا يمكن الاستدلال عليه بالطريقة نفسها التى نستدل بها على الأشياء .. بينما عجز الملحدين عن نفى وجود الله فى المختبر العلمى غير طبيعى إذا كان نفى الله — كما يزعمون — حقيقة علمية مادية !

وقلت له — ثالثاً — ونحن فى مصر ، وفى كل الوطن العربى ، ننظر إلى الدين نظرتنا إلى أساس العدل ، والعمل الجماعى ، ورفض الاستغلال والطبقة ونملك حوافز أكثر وأصدق باتساع الزمان والمكان فى رؤيتنا الدينية لتحقيق هذا العدل وهذه السواسية الإنسانية بصورة أتم ، وبغير خوف ، وبكثير من أخلاق الإيثار التى تحرك الاقتصاد عندنا وتوجهه بدلا من أن يكون اقتصاد القهر وميكنة البشر والعقول وراء الآلات هما مصدر صناعة الأخلاق الاقتصادية ، فاقدة الشعور والحياة فى المجتمع الشيوعى .

ولكنكم بنظرتكم إلى المجتمعات العربية المتخلفة فى هذا العصر ، والمتحركة فى واقعها ببقايا آثار أعدائها فيها — تظنون أن الحل الحتمى لتقدم العرب هو التخلى عن الدين ، والتجمد فى زمهرير الشيوعية .. وهذا الظن يرجع أساساً إلى عجزكم عن رؤية الماضى الذى صنع العرب أعظم ما فيه من إنجازات العدل ، والعلم ، والعمل الجماعى ، والنزوع إلى السلام ، وإلى اعتناقكم بالنسبة لهذا الماضى الذى أضاء بالحضارة العربية الإسلامية نظريات مستشرقى الغرب الاستعماريين ، ونظريات اليهود ، ونظريات بعض بقايا الإلحاد والتنظيمات السرية القديمة المعادية للعرب مثل القرامطة والإسماعيلية ، ممن تستروا على معتقداتهم بالشيوعية ، ووضعوا لكم أسس الاستشراق الماركسى باتجاه العداوة الصريحة للإسلام والعرب ، وأوهموكم أن هذا هو الطريق السهل لانتشار التعاليم الماركسية فى الوطن العربى .

وقلت — رابعاً — للفتى السوفيتى يورى جلوهوف ، شديد الاعتداد بما فى رأسه : « لم يبق أمامنا نحن العرب والمعسكر الماركسى أو الاشتراكى كما تسمونه إلا أن نتوجه بالتعاون الخالى من التخطيط المسبق — حول نفس الأهداف التى تؤكد وجود مشاركة فى الاعتقاد بين المؤمنين العرب والملحدين الماركسيين — حول ردع الصهيونية ، وإحباط عدوان الاستعمار ، ودعم

السلام العادل ، وتعزيز حريات الشعوب لكى تحقق بإرادتها الحرة آمالها فى التقدم » ..

وأصبح يورى صديقاً .. ولكنه لم يعاود المحاولة .. ولم نره بعد ذلك .

مخطط كامل : هناك إذن بسبب ظروف تمزقنا الفكرى .. وكلامنا عن الدين بالخطب ، وابتعادنا عنه فى العمل .. وجهادنا باسم العرب بعقول مبلبلة حول من هم العرب ؟ وما هو دين العرب ؟ وتاريخ العرب .. هناك فى ظروف هذا المناخ المعتم فى حياتنا الفكرية ، وتناقضاتنا العملية ما يثير الاستخفاف عما نقول وبما نعمل وبما نأمل ، بل ما يشجع على التخطيط المعادى بين القوى العالمية التى تحملها مصالحها ، ومنافساتها ، وأطماعها ، على أن تهتم ببلادنا ، وتراقب ، وتفكر فى الكثير الذى يمكن أن تعمله ظاهراً أو خفياً .

ومنذ سنة ١٩٢٨ على الأقل ، ولم تكن الشيوعية قد اتسعت رقعة دولها إلى ما وصلت إليه اليوم فى مواجهة الرأسمالية الغربية والأمريكية — صدر كتاب لمستشرق مجهول الجنسية ولد فى القدس كما يدعى — بعنوان « الحركات الفكرية فى الإسلام » .. واسم هذا المستشرق أو المستعرب أو المتعارب (بندلى جوزى) ...

ولد هذا المنتمى المجهول إلى مدينة القدس سنة ١٨٧١ وقد نشأ فى هذه المدينة المقدسة كظاهرة من ظواهر المرحلة الغامضة التى تم خلالها الإعداد الدولى لانتزاع هذه المدينة المقدسة من أيدى المسلمين تركاً وعرباً . وفى سن مبكرة ذهب بندلى إلى جامعة قازان على نهر الفولجا فى أعماق الأرض الروسية وذلك بدافع رغبته كما كتب عنه المستشرقون الروس — فى دراسة اللغات السامية ، والتخصص فى المباحث الشرقية .. ثم تولى التدريس بعد ذلك فى معهد للرهبان فى القدس ، ومنها اتجه مرة أخرى إلى روسيا ليدرس فى جامعة باكو على بحر الخزر ، وظل بها حتى آخر أيامه ..

كان لهذا المجهول الهوية الذى ولد فى بؤرة الصراع بين العرب واليهود ،

والذى بعد أن سمع الكثير من الرهبان ، ومن القادمين إلى حائط المبكى ، وبعد أن رأى الكثير ، وربما شارك فيه أيضاً من جهود الغرب لتفتيت وتمزيق العرب — ألقى بنفسه إلى الشيوعيين بعد انتصارهم ، حيث قدم لهم فى كتابه أساساً لمخطط فكرى كامل يستند إلى الأقليات الشعوبية وبقايا فرق القرامطة والزنادقة والإسماعيلية لإحداث إنقلاب شيوعى فى الوطن العربى باسم تعاليم الاشتراكية التى نادى بها الإسلام ، وحققها الشيوعيون الأوائل بين المسلمين من أتباع حمدان القرمطى ، وبابك الخرمى ، وحسن الصباح ملك الحشاشين .. هكذا بالضبط كما يزعم بندلى جوزى فى المنافستو الذى نشره بالعربية ، ومن القدس ، سنة ١٩٢٨ .

دعوة للعمل السرى : يبدأ بندلى جوزى مهمته فى إسقاط التفسير المادى للتاريخ على التاريخ الإسلامى بنداء مخادع وتحريضى إلى « الشبيبة العربية الناهضة ، من الذين حرروا عقولهم من تأثير الخرافات الاجتماعية والقومية » . وهو يمضى فيفسر تاريخ ظهور الإسلام تفسيراً مادياً يطرح به الدين جانباً ، ويبرز العوامل الاقتصادية التى يصورها بالطريقة التى توافق أهدافه .

إنه يركز من أول الأمر على أن الدعوة الإسلامية بوصفها ديناً لم تعمل على استئصال الشر الاجتماعى بالطرق التى يعمل بها الاشتراكيون اليوم .. وأن النبي لم يتوصل إلى ما توصل إليه مصلحوا أوروبا مثل لينين وموسولينى — كتب هذا فى حياة موسولينى ؟ — « وإن كان ما فعله هذا النبي من الإصلاح فى أمة متأخرة جاهلة لا يجعلنا نقلل من عمله ، إذ ليس من العدل أن نطلب من النبي فى القرن السابع أن يستعمل الوسائل التى لم تهتد إليها الإنسانية إلا فى أواسط القرن التاسع عشر » يريد أن يقول إنها لم تظهر إلا بعد مولد كارل ماركس الذى كان يدعو إلى الشيوعية وهو عضو فى نفس الوقت فى الجمعية الصهيونية بباريس التى تعمل للعدوان وتؤمن بأنبياء بنى إسرائيل !

كان المبشر الشيوعى القس بندلى جوزى حريصاً على أن ينفى عن دعوة

النبي العربي أية صفة ترفع الإسلام — في حدود ما يصوره له غروره الماركسي إلى مستوى الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية، وهو يجتهد — تلطفاً — أن يرفض ما قاله بعض مؤلفي الغرب من هذا القبيل، وإن كان لا ينكر أن النبي وقف إلى جانب الفقراء والصعاليك والمظلومين، ودافع جهاراً عن مصالحهم الحيوية، ولكنه لم يتجاوز ما فعل المصلحون السابقون، وفعل أنبياء بنى إسرائيل .. فقط !

ويتمادى الداعية وهو يحرض بدعوته الشبيبة العربية على ثورة فكرية فى إتجاه العمل السرى للماركسية فيطرح المثال السرى لهذه الحركات الفكرية كما يسميها — ضد العرب والإسلام، فيقول مما هو أساس مخططه « هذه اللغة الإصلاحية الإسلامية التى تتحدث عن الجنة وثياب السندس والاستبرق، لم يستحسنها بعد عصرين من دعوة النبي جماعات الإسماعيلية والقرامطة، بل ضحكوا منها وانتقدوها مر الانتقاد. ثم نحن — أى بندلى جوزى والماركسيون فى زمانه — نخالها اليوم دعوة بسيطة ساذجة لا تؤثر على أحد منا، وإن كانت على أيام النبي لها أعظم تأثير على سامعيه وبخاصة من الصعاليك والأرقاء وأصحاب الحرف الصغيرة — يريد أن يفرض هنا كلمة البروليتاريا — فهذا معلوم، لأنهم كانوا يسمعون كلمة الإنصاف لأول مرة » !

وينتقل بندلى جوزى فى أسلوبه (القرمطى والإسماعيلى) الذى لا يخفيه عن وجهه ليعلق وسام لينين على صدر هذه التنظيمات السرية الإلحادية، الغارقة فى الجهل والطاعة لإله مجهول فى لسان إمام مستور، وهو يعلن أن القرامطة والإسماعيلية والحشاشين والبابكية هم الشيوعيون الأوائل فى الإسلام. وهم الثوار السريون الذين أعلنوا كراهيتهم الشديدة للإسلام، وحاولوا تقويض السلطة العربية.

هدم الأسرة : ويقفز القرمطى بندلى جوزى من هذه المقدمة إلى تحديد ملامح وسيرة هؤلاء الشيوعيين الأوائل الذين امتلأت كتب التاريخ بجرائمهم

ضد الإنسان والعقل فى الأسرة والمجتمع ، فيتحدث عن البابكية الخرمية ، ليس من وجهة الادعاء ببراءتهم مما نسب إليهم ، بل لتأكيده وتفسيره لهؤلاء الذين كان يتحدث إليهم فى عصره من الشبيبة العربية ويدعوهم للانخراط فى مثل أعمالهم ؟ فهو يقول إن خطط البابكية كانت هى نفس خطط المزدكية الذين يسميهم أيضاً شيوعيو القرن السادس ، وهى الدعوة التى استنكرها الفرس أنفسهم فى إباحية الأموال والنساء بقانون الفوضى والاغتصاب بدلا من التراضى والاحتيار .

ويروى بندلى من أمر هذه الشيوعية الأولى التى يبارك هدمها للأسرة ويدعو إليها فى الوطن العربى : « قال بلعامى المؤرخ الفارسى إن مزدك فسخ الزواج الشرعى ، وملكية الأراضى ، ذلك أن من يملك أرضاً واسعة لا يستطيع أن يقول إنى لا أعطى منها لغيرى ، وكذلك فان النساء مشاعة بين الناس ، أى إن إمرأة الواحد تخص الآخر وأمراة هذا الآخر تخص من يحب)! .

ويتضاحك القس الماركسى بندلى جوزى فى كتابه وهو يقول بعد أن حاول أن ينفى حفلاتهم المزدكية « الحمراء » .. إنه يكتفى بأن يقول « ونحن نرجح أن للبابكية ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، كما أننا لا ننكر أنهم كانوا ينكحون الأخوات وبعض ما حرم الإسلام نكاحه » !!

ولم لا .. إنه يرى أن من حق هؤلاء الشيوعيين الملحدين ، وقد كذبوا ما جاء به الإسلام ، أن يعلموا أن جنتهم الموعودة هى هذه الأرض ، وأنهم ليسوا كهؤلاء المسلمين الذين يقتلهم الورع ويبذلون حياتهم فى الجهاد من أجل وعد لا يكون .. من أجل الآخرة والجنة هناك .

نظرية العميان والحمير: ويتحدث القس بندلى جوزى عن الاسماعيلية مصدر طربه وعشقه فيطيل فى وصف براعتهم فى (التجنيد) و (التنظيم) ولا يبالى أن يفشى باسم الماركسية على عصره ما قد يكون سراً من أسرار

التكوينات الحزبية الماركسية ، أو ما قد ينسب إليها عندما يناقش قراء كتابه نظرية (العميان والحمير) التى نسبها إلى أحبابه الاسماعيلية .

يقول فى أن الإسماعيلية تظاهروا بغير حقيقة تنظيماتهم : « نحن لا ننكر أن الإسماعيلية لم تنبذ فى الظاهر شرائع الإسلام المنزلة ، والقرآن خاصة ، وذلك لأنهم كانوا يرون فيها فائدة لطبقات الشعب الدنيا — أى البروليتاريا كما هى فى الماركسية — أو طبقات (العميان والحمير) كما كانت الإسماعيلية تسميها . أما الطبقات العليا — أى بورجوازية الحزب طبعاً — فهى التى — كما يزعم — فتح الله بصائرها وأبصارها فكفروا بالأديان الموحاة وعقائدها الأصلية) .

ويمضى بندلى جوزى فيشرح من وسائل الإسماعيلية فى عبقريتهم التنظيمية الشيوعية بحيث يجمعون فى صفوفهم بين المتناقضين فكرياً ، ويجعلون من الجميع آلات مسخرة للهدم فى كل اتجاه ، وهذه هى الثورة الشيوعية التى يحرض عليها فى الوطن العربى بديلا من الإسلام .. يقول :

« إن تاريخ الإنسانية كلها يشهد شهادة صادقة على أنه لم يقم حتى اليوم حزب أو مذهب أو جمعية مثل الاسماعيلية الباطنية التى نجحت فى أن تضم تحت لوائها كلا من الغالبين والمغلوبين ، وأصحاب الأفكار الدينية الحرة — يعنى الملحدين والزنادقة — الذين ينظرون إلى الدين نظرهم إلى لجام ضرورى للطبقات السفلى من الناس فقط ، كما تضم المتعصبين للدين من جميع الطوائف وتتخذ من المؤمنين واسطة لنقل السلطة إلى الكافرين — يقصد إلى الإسماعيلية — وتستعمل الغالبين — يقصد العرب — آلة لهدم ما بنوه من الملك وتسليمه إلى غيرهم . ثم هى — أى الإسماعيلية الباطنية — تؤلف حزباً كبيراً متلاحماً مطيعاً تستند إليه لوضع تاج الملك عند سنوح الفرصة إن لم يكن على رأس مؤسس هذا المذهب فعلى رأس خلفائه » .

وفاق مع الخرافة : وربما كان أعجب ما فى هذا التحريض الغريب

والمخطط منذ، ذلك التاريخ، فى كتاب بندلى جوزى أنه لم يشعر قط بأن هناك تناقضاً بين معتقدات من يصفهم بالثوريين الاجتماعيين ويسميهم (الشيوعيين) الأوائل — وبين خرافاتهم ، وإيمانهم برجل هو عندهم (إمام الزمان) الذى يحل الله فيه ، وكلامه شريعة ، وهو مستور عن أعينهم ، ويحكمهم بواسطة مجهولين آخرين .. يحكمهم بالرمز وبالتدليس ، وهم فى أيديه آلات مسخرة للهدم والقتل والاغتصاب والتخريب ، وذلك لإسقاط دولة شرعية عربية على أرضها .. ليس للإصلاح كما يزعم بكل قحة ... وإنما لاستعادة الملك القديم .. ملك كسرى ومزدك ... وشيوعية الشهوات والنساء ، ليقوم ذاك مرة أخرى على أرض العرب .

يقول بندلى جوزى عن الإسماعيلية من تعاليم دعوتهم الواضح أنها للتخريب وهو يكشف عن بعض أساليبها فى تجنيد العميان والحمير والفلاسفة « أدع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن وجدت منه فهماً فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا ؟ » .

ثم يقول فى نفس الاتجاه مفاخراً برفاقه الذين اكتشفهم بين المخربين للدولة العربية الإسلامية « هذا شىء قليل من تلك الطرق التى كان يستعملها الإسماعيليون لاصطياد الناس وتأليف كتلة قوية موحدة الكلمة ، لقد توفقوا بهذه الأساليب إلى استمالة مئات الألوف إلى مذهبهم وتلقينهم مبادئهم الجديدة ، وجعلهم آلة صماء فى أيدى صاحب الزمان وأعوانه ، يقذفون بهم أينما شاءوا ، ويسخرونهم لقضاء أغراضهم » .

ما هى مبادئهم .. ما هى أغراضهم .. ؟ هل هذه هى الشيوعية كما يريدها الاستشراق الماركسى بديلا من الإسلام ؟ .. وهل هى حقيقة صورة متقدمة أو مبكرة للشيوعية التى دعا إليها ماركس .. وطبقها لينين ؟ ؟ .. أم هو مجرد وفاق مع الخرافة من أجل (اصطياد) .. و (استمالة) العميان والحمير فى

الوطن العربى إلى الماركسية .. إذا كان هناك حقاً كما يتصورون عدد يكفيهم من العميان والحمير !

ولكن الإسماعيلية التى أخمد العرب نيرانها رغم ضعفهم قدموا الدليل — بسقوط دويلاتهم ومؤامراتهم الواحدة تلو الأخرى — على قلة عدد العميان والحمير فى الوطن العربى ، وعلى أن العرب لا يزالون يعتقدون أن ضرر الإسماعيلية — كما أورد الكتاب المسلمون عنهم — لا يزال أعظم على الإسلام من جميع من عداهم من الزنادقة ، وأن فضائحهم — كما يقول الغزالى وغيره — (أكثر من عدد الرمل) .

القرامطة والحشاشون : ولا يتردد بندلى جوزى فى أن يمنح إعجابه وبركاته لأبنائه القرامطة والحشاشين الذين ساروا بتنظيماتهم السرية على نفس الطريق الذى حشر فيه أحبابه من (الشيوعيين الأوائل) فهو يقول إن القرامطة عظم من عظام الإسماعيلية .

وأعظم أمجاد القرامطة عنده أن زعيم عصاباتهم المسمى (الجنابى) تعمد الإغارة على طريق الحجاج لسلب أموالهم وقتل من يستطيع قتله منهم .. لقد كان هدفهم كهدف الإسماعيلية وغيرهم هو زعزعة الأمن وإثارة الشك فى قوة النظام والدولة المتمثل فى الخليفة العباسى والجيش ، ثم محاولة اختطاف هذه الدولة أو جزءاً منها لحساب أحد الطغاة المستورين ،.. وهى ليست إلا دولة العرب على أرض العرب .

ويتحدث بندلى جوزى عن إغارات الجنابى وعصاباته على مكة مرتين ، ذبح فى الأولى على ما قال نحو ثلاثة آلاف حاج .. وفى الأخيرة يقول الماركسى محب السلام « فدخل الجنابى وأصحابه مكة ، وأخذوا يقتلون أهاليها ومن كان فيها من الحجاج من رجال ونساء وهم متعلقون بالكعبة ، وردموا بالقتلى زمزم ، وفرشوا بهم المسجد ، وقتلوا فى سكة مكة وشعابها من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين ألفاً وسبوا من النساء والصبيان مثل ذلك » .

ويمر بندلى من خلال كلامه عن القرامطة فيتحدث قائلا عن خلية سرية من خلاياهم هى (إخوان الصفا) وهى حلقة علمية أسست فى البصرة لنشر المبادىء الإسماعيلية : « ونحن لا نعرف فى الشرق عصابة أخرى كانت تعول على قوة العلم والفلسفة فى تمهيد سبل السعادة للإنسان فى الحياة الدنيا مثلما كانت تعول عليها هذه الحلقة السرية (إخوان الصفا) .. » ؟ وينسى الكاهن بندلى أن يقول إن من أعضاء هذه الحلقة الفعالين « الفارابى » ، وابن سينا » .

ثم يقول عن الحشاشين : « وأما اغتيال الأفراد وقتلهم غرة فلم يكن معروفاً إلا عند فئة صغيرة من جماعة الحشاشين وهى فئة وإن كانت لها صلة بالإسماعيلية عرفت بالتطرف وكان لها برامج وغايات تختلف عن غيرها من جماعات الإسماعيلية ، ولها كذلك وسائط خصوصية تستعملها للوصول إلى غاياتها » .

ولم يشأ بندلى جوزى هنا أن يحدثنا عن علاقة « الحشيش » بهذه العقيدة الشيوعية الأولى فى إحدى فصائلها الإسماعيلية ذات الوسائل الخاصة .. فهو قد سكت عن تحريك لسانه حول ما كان يجرى فى قلعة حسن الصباح من امتهان إنسانية الإنسان ، الذى يغسلون عقله ونفسه ودمه من كل ما هو آدمى ليحيلوه إلى صريع الحشيش .. وعبداً لسيده الإسماعيلى .. وآلة للقتل ..وعدواً لأخيه الإنسان .

لم يحدثنا بندلى جوزى هل لا يزال القول الماركسى القديم (الدين أفيون الشعوب) صحيحاً .. ؟ ؟ وهل الشيوعية الأولى فى مثل ما ظهرت فى جماعات البابكية والقرامطة والإسماعيلية والحشاشين ما كانت لتنجح فى أطوارها السرية المتقدمة إلا من خلال حشيش البروليتاريا ؟ .. وهل صحيح أن الماركسية اللينينية وهى تقطع مراحل النضج والسلوك الدولى لم تلجأ كما لجأ أسلافها فى الوطن العربى إلى استعمال هذا (الأفيون المخدر) فى الإمساك بلجام الطبقات الدنيا .. فاذا كان نعم .. فلماذا تستمر الحملة الماركسية على مخدر الشعوب إلى اليوم ؟

ولكن بندلى جوزى الذى انقطعت حياته فى سنة ١٩٤٢ قبل أن يشهد متغيرات كثيرة لن يجيب عن هذا السؤال .. الذى ترك للأجيال من بعده أن تجيب عنه مفتوحة العقل والعينين .

معلم التاريخ : يبقى أن أشير مضطراً إلى أن سموم بندلى جوزى ، وكلماته الكهنوتية قد تركت بعض آثارها وهى تتسرب من هنا وهناك ، وتجد أكثر من تنظيم خفى ينفخ فيها لتصل إلى دوامة الصراع الفكرى والثقافى والعقائدى فى الوطن العربى . وتصبح بعض عاهات الثقافة العربية المعاصرة .

لقد ظهرت ، وخصوصاً فى ذروة المواجهة مع إسرائيل سنة ١٩٧٣ مجموعة كتب تنادى بهذه الآراء نفسها تحت عنوان (اليمين واليسار فى الإسلام) أو ما شابه هذا المسخ .. بل إن كتاب بندلى جوزى أعيد طبعه فجأة سنة ١٩٧٣ فى بيروت ... وأعجب من هذا كله أن يخرج صوت مصرى من رفات هذا الداعية الماركسى فى صورة معلم إسلامى ينشر فى عام الحرب مع إسرائيل نفس أفكار وأبحاث ودعايات (بندلى جوزى) حول تاريخ الإسماعيلية والقرامطة والبابكية والحشاشين ، ملتزماً نفس النظرية البندلية الماركسية فى فهم التاريخ ، ومنهج تحليله وعرضه ... نعم ... فى العام الذى عبرت فيه القوات المصرية خط بارليف فى إطار حرب عربية وتحت شعار (الله أكبر) ...

ففى منتصف سنة ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ نشر الدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق — مدرس التاريخ الإسلامى فى جامعة عين شمس — حلقات بحثه فى تاريخ تلك الحقبة من الأعمال السرية المخربة التى استهدفت الدولتين الأموية والعباسية ، ملتزماً فى بحثه نفس المنهج الشعوبى الماركسى للمستشرق بندلى جوزى ، بل وملتزماً نفس عنوان كتابه تقريباً حيث جعله (الحركات السرية فى الإسلام) .. بدلا من (الحركات الفكرية فى الإسلام) .

وعندما أصدر معلم التاريخ المبتدىء كتابه افتتحه بمقدمة لم يخف فيها حقده على تاريخ الحكم العربى للدولة الإسلامية التى أنشأها الخلفاء على أرض العرب هذا الحكم الذى نعته مشمئزاً بالثيوقراطية أى الحكم الدينى ، والذى يتمثل

فى النظام الأموى الهرقلى ، والنظام العباسى الكسروى كما سماهما وهو حين يختار البديل لهذا الحكم يختاره وراء واحدة من كبريات مغالطاته ، وهى زعمه بأن الحركات السرية لأمثال القرامطة والإسماعيلية والبابكية والحشاشين هى (ثورات اجتماعية معارضة) تستهدف العدالة التى يوحى بها الإسلام ؟ وهى ثورات يقوم بها هؤلاء الزنادقة والفوضويون فى وجه العرب المسلمين الذين كما يراهم بهذه النظرة الشعوبية الحاقدة قد عدلوا عن الحق ، وحادوا عن جادة الشريعة . يقول هذا التلميذ المعلم متبجحاً بادعاء العلم ، ومستهيناً بعقول القراء المسلمين وغير المسلمين ، وهو يتغافل عما هو ثابت فى أقواله ، وأقوال معلمه بندلى جوزى قبل ، من أن هذه الحركات السرية القائمة على الزندقة والطبقة الكهنوتية ، وعبادة البشر ، وتنظيمات الآلات المسخرة لهدم الدولة الشرعية ، لم تكن إلا انعكاس الأطماع السياسية لبقايا الكسروية والهرقلية من أجل استعادة حكم الطاغوت الشرقى أو الغربى على أرض العرب ، وإن ذلك لم يكن ليكون إلا باثارة الفتنة والشغب على الحكم العربى الشرعى ، وأن هذه العصابات قد جهزت نفسها لذلك « قومياً » باسترجاع كل معتقداتها الدينية الوثنية القديمة ، وعاداتها الاجتماعية ، وبذلك ظهرت وسط البحر العربى الإسلامى من البشر فى أشكالها المزدكية الإباحية ، ومفاهيمها المجوسية ، ونظم تشكيلها الطبقية وفلسفاتها ومجادلاتها اليونانية لتعمل تحت رايات تاريخها القومى على هدم المجتمع العربى الإسلامى فوق أرضه وانتزاعه من أصحابه .

وبينما المعلم الناشىء على مبادىء بندلى جوزى وأمثاله يحمد للإسلام انفتاحه وتقبله (للإسرائيليات والمشرقيات واليونانيات) ويرى أن هذا الانفتاح قد كتب للإسلام الحصانة ضد طعنات الشعوبية والزنادقة — نجده فى مثل روغان إمامه المستور بندلى جوزى يتبنى الدفاع — وهذه كانت مهمته الأساسية — عن هذه الشعوبية المتزندقة نفسها وهو يخرج زعماء هذه العصابات القرمطية والإسماعيلية والبابكية على مسرح الدعاوى الشعوبية القديمة والحديثة فى أثواب

« الأبطال » الذين نجحوا بالعمل السرى فى تخريب الدولة العباسية بعد أن أعانوا الدولة العباسية للقضاء على الدولة الأموية .

ثم هو يرى – كما لو كان هؤلاء الشعوبية قد تقمصوا بدنه ونطقوا بلسانه – أن الفرس والخراسانيين كانوا أصحاب حضارة قديمة ، وأنهم عاشوا فى الدولة العربية الجديدة التى ينسى أن يقول إنها الدولة التى حررت جميع العرب بالإسلام من طاغوت الكسروية والقيصرية – عاشوا كما يقول بدعوى الشعوبية كطبقة اجتماعية مغلوبة على أمرها ، وأن هذه الطبقة – بهذه الصياغة الماركسية – قد وجدت تناقضاً صارخاً بين ما يدعو إليه الإسلام من المساواة والعدالة بين جور الحكومات العربية الأموية الهرقلية والعباسية الكسروية ، كما يسميها ، ولذلك .. وهذا هو ذروة المنطق الزئبقى فى منهج المعلم ، فقد عادوا إلى دياناتهم القديمة وإلى إباحيات مزدك وأعياد الخمر والزمر .. وليلة الإمام التى يبيحون فيها الأخوات والبنات والأمهات !

إنه يقول هذا على الرغم من أن البرامكة من الفرس كانوا يحكمون بغداد ويتحكمون فى الخليفة الذى جعلوه فى قصره أشبه بكسرى الأسير ، أو كسرى تحت الوصاية ، فلقد كان هدفهم الأساسى الذى عجز أبو مسلم الخراسانى عن تحقيقه أول الأمر ، هو الاستيلاء على الدولة استيلاءً كاملا بالمفهوم السياسى الاستعمارى وليس بمفهوم هذا الأفك الجدلى الذى يخترعه اليوم بقايا الشعوبية والقرمطية والإسماعيلية القديمة ودعاة الماركسية الحديثة .

ولقد كان من الممكن أن نسكت عن هذه الصيحة العدوانية على تاريخ العرب ، وحقائق الإسلام بعد أن نشرت حلقاتها فى مجلة ، ثم ظهرت فى كتاب ، فالأيام تمضى والباطل يزهق ، والحق يبقى ، لولا أن هذا المعلم العربى المأزوم بكل هذه المفتريات ، والمهزوم فكرياً أمام تلفيقات أعدائه ، يواصل ضخ هذا الإفك فى عقول عدد من شباب الجامعة الذين يتولى (فتنتهم) كل يوم وهو ينقلهم من الرؤية الصحيحة للإسلام ، والتاريخ العربى ، إلى رؤية معكوسة على مرآة الأحقاد الشعوبية القديمة ، والإسقاطات

الماركسية الحديثة لهذا التاريخ ، مع أن نقد الأحداث التى وقعت فى هذا التاريخ هو من حق العرب قبل غيرهم ، ومن واجبهم فى نفس الوقت . فنحن الذين ننقد الأمويين دون أن نتجاهل فضائلهم وجهودهم للدفاع عن الوطن ضد أعدائه ، وعن الدين ضد من طعنوا فيه . وكذلك نحن الذين ننقد العصر العباسى دون أن نتجاهل الظروف التى أحاطت به دون أن نفقد العبرة من كل دروسه ، وبغير شك ونحن ندرك تماماً أن مؤامرات القرامطة والإسماعيلية والبابكية والحشاشين وفلسفة إخوان الصفاء وغيرهم هى التى تعاونت مع أخطاء العرب وغفلاتهم ليندفع التاريخ بأحداثه فى الطريق الحتمى الذى سار عليه .

إنه من غير المقبول أن نرضى بتسرب مثل هذا الفكر الدخيل إلى شباب جامعاتنا ، وإن كان من حق هذا المعلم وغيره أن يعلن عن رأيه كما يشاء بوصفه رأياً خاصاً منسوباً إليه وقابلا للاعتراض عليه بالرأى كما حدث بالنسبة للمقالات التى نشرها ، وللمواجهة النقدية الحاسمة التى تعرضت لها هذه المقالات فوراً من عدد من المفكرين المسلمين .

إنه من غير المحتمل تحقير التاريخ القومى فى تربية الشباب ، وقلب صورة الإسلام الصحيحة بتصوير المعترضين عليه ، والمستخفين به ، والمتزندقين فيه ، فى صورة الأبطال الذين يستحقون من شبابنا تمجيدهم ، أو اتباع طريقهم ، فطريقهم — كما ترسم هذه التمثيلية الماركسية — هو طريق العدل الاجتماعى والاشتراكية التى أوحى بها الإسلام .. وليس هذا صحيحاً مطلقاً .

إن هذه الصور والمشاهد التاريخية المزيفة التى يعرضها معلم التاريخ محمود إسماعيل عبد الرازق على مسرح أفكاره ومحاضراته داخل إطار وباخراج بندلى جوزى ، لا تعنى أكثر من عرض حقائق الإسلام (مقلوبة) بتسلسل سفسطى تظهر فيه الزندقة الشعوبية وكأنها هى الاشتراكية ، والشيوعية الأولى. ولما كانت هذه الزندقة — باستمرار العرض — ليست إلا ثورات مشروعة

تطالب بالعدل الاجتماعى الذى يدعو إليه الإسلام فهذه الزندقة المستبيحة للأخلاق، والمقوضة لدعائم الأسرة ، والمنظمة بالتشكيل الطبقى السرى ليست إلا التحقيق والتجسيد لعدالة الإسلام الحق ، هذه العدالة التى لم يتوصل إليها الخلفاء البسطاء ؟ أو اليمينيون من قبل ؟ ولا الحكم الأموى الهرقلى ، ولا الحكم العباسى الكسروى من بعد ؟ .. إذن فالإسلام الحق هو هذه الزندقة وتوابعها وتقاليدها .. وإذن فالإسلام أيضاً هو هذه الشيوعية أو التعاليم الاشتراكية على الأقل بهذا المفهوم الذى يخرج به عما كان يعرفه العرب (الجاهلون) من الحق الذى جاء به الإسلام ، والعدل الذى استقرت عليه شريعته .. كما ظهر به القرامطة والإسماعيلية الذين هدموا الأخلاق وأباحوا النساء ..!!

فهل مثل هذا هو ما يراد أن نبثه فى صدور أبنائنا وعقولهم ؟ ... هل نريد ونحن نواجه حرباً مصيرية حضارية مع إسرائيل وأمريكا وصراعاً على (الإرادة القومية) مع الغرب والشرق .. هل نريد أن نعلم أبناءنا أن العمل السرى لخدمة تعاليم مزدك أو بابك الخرمى ، أو ميمون القداح ، أو حسن الصباح ، هو طريقنا للانتصار فى هذه المواجهة الصعبة ؟ ؟ .

هل نريد أن نشيد على مسامع أبنائنا بأعمال العنف الإجرامى الهستيرى ضد ديانة الأمة ، وضد الكعبة وضد الآمنين ، وضد الحكم الشرعى للعرب على أرض العرب فى قصة القرامطة والإسماعيلية الدموية الطويلة ضد العرب والإسلام ؟ ؟ .

هل نريد أن نساعد على نجاح المخطط الاستعمارى والصهيونى والشيوعى فى تفتيت وحدة الأمة العربية الدينية والفكرية والحضارية ، وفى تمزيق ملامحها ولغتها وفكرها وأهدافها ، لتصبح مجموعة من الأقليات المغلقة على نفسها ، والمتخوفة من غيرها مزقاً وفرقاً ومذاهب وديانات وتنظيمات بين السنة والمتصوفة والشيعة ، وبين البكتاشية والمولوية والنقشبندية ، وبين القرامطة والإسماعيلية والدروز ، وبين المزدكية والبابكية والحشاشين ، وبين المازيارية

والراوندية والبهائية ، ثم أخيراً يضاف إلى هذه الأنواع —مع استمرار التفتيت— ماركسيون عرب ،وماركسيون مسلمون ، وماركسيون صينيون ، وماركسيون مراجعون ، وماركسيون مراجعون جدد ، بالإضافة إلى ما تحتويه بوادى شبه الجزيرة اليوم من وهابيين ، وزيدية ، وشوافع ، وأباضية ، وخوارج .. ثم بينما لا يوجد إلا القليل أيضاً من هؤلاء المسلمين حقاً .. المسلمين العرب على أرضهم الذين يقرأون القرآن بغير تفاسير ، ويفهمون القرآن بغير متشابه ، ويقيمون حدود الله بغير وهن ، ليرفعوا من جديد قوائم المجتمع المؤمن السوى مجتمع السواسية العامل المتقدم ، فوق كل هذا الطوفان المذهبي ، ورغم معاول الهدم الدولية النشطة من كل جانب ، التى تهدد وحدة العرب ، ولغة العرب ، وقومية العرب ، ودين العرب .. فوق أرض العرب ..

*
* *

نعم .. لا نريد بالتأكيد أن نعمق الجروح أو نساعد على التفتيت ، أو أن ننشر ثقافة العمل السرى ، أونحرض على العنف العدوانى ، أوأن ننكص عن الدين ، أو أن نتنكر للقومية عندما نجحد انتماءنا العربى .. إذن لماذا نسمح ، أو نغفل ، عن تسرب هذه التعاليم الباطنية الوثنية المدمرة إلى عقول شبابنا فى الجامعة ؟ :

النظرية والمنهج : ومن أكثر الأمور عجباً ، ومن أكثر الأمراض النفسية استعصاء هذا الكبرياء الذى يتوشح به هذا المعلم الذى لا يكاد يعلم ، وهو يزعم — فى حوار جرى بينى وبينه على صفحات المجلة (*) التى اختارها لنشر علمه المستور — أنه قد توصل إلى هذه النتائج بتحليل التاريخ الإسلامى من خلال رؤية عصرية شمولية ، ومنهج علمى ؟ وكان يرد بذلك على قولى له « إن منهجه الشمولى فى تفسير التاريخ الإسلامى ليس إلا عملية نقل أو محاكاة من كتاب المستشرق الماركسى بندلى جوزى « مع الحركات الفكرية

(*) مجلة روز اليوسف — عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٧٢ .

فى الإسلام » الذى كان هو الأصل بالنسبة إليه بينما هو لم يكن أكثر من الصورة المتشنجة المهزوزة لهذا الأصل الغريب » .

قلت ذلك للمعلم الذى خرج على الشعب العربى بهذا التفجير للتاريخ الإسلامى فى ملابس (إمام الزمان) المعصوم فكتب يدافع عن نفسه وعن منهجه العلمى دفاع علماء العصر فلم يقدم إلا الخرافة الآتية التى كشفت كل زيفه ، وغسلت كل أقنعته .. كتب يقول :

« إننى لا أدعى لنفسى منهجاً منفرداً . فطريقة البحث العلمى ليست حكراً على أحد ، ولا يمكن أن يختص بندلى جوزى أو غيره بمنهج فى البحث بعينه ، ويستحيل القول بصحة نقل فلان عن فلان منهجه فى البحث ، والدارس فى العلوم الإنسانية ليس أمام خيار فى تفضيل منهج على آخر ، لأنه ليس هناك تعدد فى المناهج ، فالمنهج العلمى واحد لا يتجزأ .. وإذا كان الباحث فى العلوم الطبيعية والرياضية يصل إلى نتائج صحيحة فى دراسة ظاهرة ما بالملاحظة والتجربة ثم التقنين ، فالدارس للعلوم الإنسانية يتبع نفس الأسلوب مع الفارق — حين يجمع معلوماته ، ويصنف ، ويقارن ، ثم يفسر وينتظر » .

ثم يقول :

« فاذا كان بندلى جوزى وغيره من المؤرخين الماركسيين — عن طريق تطبيق المنهج العلمى قد وصلوا إلى نتائج بعينها فى دراسة التاريخ الإسلامى ، فنفس النتائج يمكن أن ينتهى إليها غيرهم من الباحثين مستشرقين أو عرباً سواء بسواء دونما ضرورة لأن يكونوا جميعاً ماركسيين » .

لقد أراد أن يقول ببساطة إن العلوم الإنسانية مثل العلوم الطبيعية من حيث أن المنهج العلمى فى التوصل إلى نتائجها واحد ، والنتائج التى يقود إليها هذا المنهج حتمية ، سواء أكان الباحث ماركسياً أو رأسمالياً ، مستشرقاً أو عربياً ، مسلماً أو زنديقاً ، وعلى هذا فانه بقراءته للتاريخ الإسلامى فى ضوء هذا المنهج

العلمى الواحد قد توصل — ولا بأس عليه — إلى نفس النتائج التى وصل إليها أستاذه وملهمه بندلى جوزى .

أمام هذا الاعتراف الصريح بأن ما توصل إليه الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق من قراءته للتاريخ الإسلامى هو عين ما توصل إليه — كما يقول — أو هو عين ما اخترعه وصاغه فى شكل نظرية ماركسية شيطانية أستاذه بندلى جوزى ، فقد كتبت أجيب عليه بهذه الحقيقة العلمية التجريبية فى علوم الإنسان والمجتمع ، وهى أن نتائج المنهج العلمى الواحد تختلف باختلاف (عقيدة) الباحث ، أى باختلاف نظريته فى تفسير الحياة ، أو باختلاف أيديولوجيته كما يقولون ...

قلت له فى إزاحة قناع الإفك والصلف والادعاء عن وجهه .. أعنى كتبت فى الرد عليه أقدم هذا البرهان ضد ادعائه فأقول :

« لقد اشترك الفلاسفة الماركسيون والغربيون الرأسماليون فى استخدام المنهج العلمى الواحد وهم يبحثون عن النظرية الإساسية لعلم الاجتماع ، الذى هو فى أبحاثه حول حركة الطبقات وصراعاتها يعتبر الأساس الأعظم لعلم التاريخ ومنهج كتابته .. فماذا حدث ؟ ... لقد تأكد تماماً أن نتائج الباحث الغربى الرأسمالى فى ضوء نظريات دوركايم وبارتيو وبارسونز تختلف تماماً عن هذه النتائج التى توصل إليها الباحث الاجتماعى الماركسى فى ضوء نظرية الفيلسوف الروسى بوخارين مثلا . ومن هنا نتبين ببساطة أن العلوم الإنسانية ليست كما يزعم متحدة النتائج من خلال وحدة المنهج . ذلك أن نتائج الأبحاث فى هذه العلوم مختلفة ولا تزال تثير جدلا عنيفاً . ومن المحقق بالنسبة لدراسة علم الاجتماع الذى هو الأب والجذر لعلم التاريخ أنه يوجد بحسب اختلاف عقيدة أو إيديولوجية الباحث أكثر من منهج ، كما أنه بالتأكيد هناك أكثر من نتيجة وأكثر من علم للاجتماع وليست — كما يزعم — متحدة النتائج من خلال وحدة المنهج . ذلك أن نتائج الأبحاث فى هذه العلوم مختلفة » .

ثم أضفت فى الرد عليه أقول :

« إن هناك بالتأكيدعلم الاجتماع الماركسي الذى يقوم على نظرية (صراع الطبقات) ، كما أن هناك علم الاجتماع الرأسمالى أو البورجوازى الذى يقوم على نظرية (توازن الطبقات) .. وما أعظم الفرق بينهما فى المنهج والنتائج .. بل إنه فى جانب الفكر الماركسى منفرداً ظهر أكثر من منهج علمى لدراسة علم الاجتماع .. لقد ظهر مع تطور الفكر الشيوعى ومتغيرات العالم ، ومع ظهور علماء أكثر تحرراً — علم اجتماع متوسط لا يخضع لوجهة النظر الرسمية السوفيتية .. علم مستقل عن المادية التاريخية يرى دعاته أنه يمكن صياغة نظريات متوسطة تكون أكثر انطباقاً على ظواهر وعمليات فى المجتمعات المعاصرة لم يسبق لماركس أو إنجلز أو لينين أن وصفها أو قام بتحليلها .. » .

ثم أضفت أيضاً :

« إذن فالاختيار الأيديولوجى للباحث هو الذى يحكم كتابة التاريخ .. ولما كانت الشعوبية لها نظريتها القومية والدينية والاجتماعية المعادية للإسلام من خلال تطبيقات القرامطة والإسماعيلية وغيرهما فان التأثر الأيديولوجى بالشعوبية يؤدى من خلال الزعم بالمنهج العلمى إلى الدعاية والترويج لحركات القرامطة والإسماعيلية ، كما أن اتفاق الماركسية فى نظرية الإلحاد وفكرها الأممى مع الشعوبية يؤدى بالمنهج العلمى المزعوم فى مدرسة بندلى جوزى إلى نفس النتائج التى توصل إليها الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق ، وإن لم يكن بالضرورة ماركسياً » .

هذا ومن الحقائق التى لا ينبغى أن تغيب عن البال فى قضية البحث التاريخى فى تاريخ حافل بالتدافع بين عدد من الشعوب كالتاريخ الإسلامى أن مثل هذا البحث يلزمه أن يستوعب الباحث هذه النظرية الإسلامية القرآنية فى تفسير التاريخ ، وهى نظرية مختلفة بالتأكيد عن النظريات التى تأثر بها مثل الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق فى تصديقه لكل من المستشرقين الغربيين والمستشرقين الماركسيين وكتاب الشعوبية الذين اتحدت نظرياتهم فى مؤشرات

عدائية واحدة ضد الإسلام والعرب فى تحليل أحداث التاريخ الإسلامى واستخلاص مؤشراته .

فى ضوء هذه المؤشرات العدائية كانت ترجمة معلم التاريخ الناشىء للكثير من النصوص العربية والأجنبية قاصرة عن تحديد طريقه الصحيح .. لقد قرأ القرآن والحديث وما نسب إلى الأمويين والعباسيين ، وما ذكر من التمجيد بشأن أعدائهم من الإسماعيلية والقرامطة بأعين أخرى غير عينيه ... لقد توصل بمنهجه العلمى الوهمى إلى النتائج التى وضعوها له مسبقاً من خلال التأثير الأيديولوجى عليه ، أى من خلال حقن فكره ، وتنظيم هذا الفكر طويلا تحت تأثير الجملة المشتركة ، والنغمة المتكررة ، فى مئات الكتب — بهذه (النظرية) التى تتساوى فيها النظرة الشعوبية والاستعمارية والماركسية فى التصور المعادى للعرب والإسلام .. وهكذا أطبق فخ المنهج العلمى على عقله الأسير ، وجهده الضائع ، فكانت النتائج الأليمة هى هذا التكرار الممل لكلام الأعداء المتنوعين ولكن باللغة العربية المعاصرة .. وتحت شعار مضلل هو .. الرؤية العصرية .. والمنهج العلمى .. الشمولى .. على لسان معلم تاريخ .. ذهب ليصطاد فى تاريخ الإسماعيلية والقرامطة .. فاصطادوه . !

* * *

٤ — وأخذت الثقافة العربية تجنح إلى معاداة العرب والدين

تحت هذه المؤثرات العدائية ، والغزوات الفكرية المتواصلة ، من الشرق والغرب ، والداخل والخارج ، تضخم العقل العربى فى العصور المتأخرة بما تسلل إلى ذاكرته وحافظته وبديهته وواعيته — من الطفيليات الفكرية العالمية المتنوعة ، التى وجدت فرصتها فى تقاليد الكرم العربى ، والانفتاح الغافل غير المشروط ، وبقايا عنجهية العثمانيين فى الحكم ، وهذه الفجوة التى شقها المماليك والاستعمار بين الديوان والشعب ، وبين الدنيا والدين . لقد وجدت هذه الطفيليات النشطة فرصتها وطرقها المفتوحة لتدخل بكل أمراضها وأعراضها ، وشكوكها وفتكاتها ، إلى هذا العقل العربى الشاخص المفتوح ، وتلقى به إلى هذا الصراع الطويل داخل أنسجته بين التيه والرشد .. بين العدم والوجود .. بين جوابه الحائر على نفسه ليتحقق من هويته : « هل أنا .. أنا .. ؟؟ أم هل أنا .. هو ؟؟

وبين غياب هذه الهوية وحضورها تحركت على أرضنا فى ركود التخاف ، وعتمة الضياع ، وبقاء العصمة وحدها بالكتاب والسنة — هذه المسيرات الكرنفالية الشائهة التماثيل ، والظاهرة الزيف ، وهى تتعالى وتتطاول فى مجال التأليف والتدوين ، والترجمة والنقل ، والتعليم والتفهيم .. وتعددت — مع الوقت — سير (الأبطال) الذين فرضوهم علينا من تاريخ الغرب والشرق ، وأزيح أبطالنا وأئمتنا وعلماؤنا إلى مخزن مظلم مهجور فى ظهر التاريخ والحياة ، وبدأ العرب المحدثون يكتشفون تحت سوط الترويض الفكرى أن العصور الوسطى التى أضاءت بالإسلام كل العالم كانت هى العصور (المظلمة) لأنه هكذا هو وصفها فى تاريخ سيدتنا الراشدة (أوروبا) التى لم تكن قد أفاقت إلا متأخرة جداً من فراشها الجليدى على صوت العرب المسلمين الدافىء بالحياة.

وهكذا أخذنا نعيد ترتيب فهمنا للتاريخ لكى نفهم أن آدم هو (بروميثيوس) اليونانى ، وأن أول ظهور صناعة العقل كانت بظهور الفلاسفة العشرة قبل سقراط .. وأن سقراط المتهم بالشذوذ الجنسي هو (الفضيلة) وأن أرسطو هو سيد العلم الأول .. ! وأن الرومان كانوا أقوى البشر ، وأسعد الأقوياء ، لأنهم قهروا العرب القرطاجيين ، والعرب الكنعانيين ، ووضعوا عرب الشام ومصر فى سلاسل العبودية الذهبية ،وذبحوا منهم مراراً ،وألقوهم إلى الأسود الجائعة ليضحك الإمبراطور والحاشية بأجساد المسيحيين المؤمنين ، وقاموا خلال ما يزيد على خمسة قرون بمذابح جماعية للمسيحيين فى مصر ، حتى اضطروهم إلى اكتشاف (الرهبنة) وترك الأرض ، والفرار فى رؤوس الجبال .. ؟؟ وأن القرن العشرين بسبب كل ذلك ، وبعد سرقة نفائس الحضارة العربية الإسلامية ، وموارد العرب والآسيوين والأفارقة ، وقتل الهنود الحمر فى أمريكا ، وترسيخ الاستعمار على قواعد الدم والهدم والابتزاز والتجهيل والمخادعة — هو قرن النور والحرية وحضارة الرجل الأبيض .؟؟

لقد كان من المحتم أن تجنح الثقافة العربية — رغم مقاومتها — إلى الصخور والدوامات التى تتحطم عليها أكثر الحقائق ، وكان من المحتم أن تكون الثقافة المعبرة عن المرض الغربى أو الشرقى هى الطافية على السطح .. وأن تكون الثقافة القومية الصحيحة معزولة بنظرتها وتراثها وأحكامها بعيداً عن كل العيون وكل الأسماع ، وأن تظل هذه الثقافة القومية الصحيحة تقاتل وتنتصر ، وهى تستعيد أرض الحقائق والتاريخ الشامخ المعالم ، والمستقبل الواعد بالعدل والنماء والحق — شبراً بعد شبر .. وكلمة بعد كلمة .. وحقيقة بعد أخرى .

لقد كان من الحتم أن تكون الثقافة العربية شبه السائدة خلال قرون طويلة وحتى اليوم ، مطبوعة بهذا الجنوح نحو المعاداة للدين ، وللعرب .. فهكذا هى أكثر المصادر التى طمست تاريخ العرب والمسلمين ، والتى نرسل إليها أبناءنا فى جامعات الغرب والشرق .. وهكذا أكثر الموسوعات والكتب ..

وهكذا كما رأينا من تتابع هذه الزخات المرعدة بأمطار الحقد والإفك والمفتريات ، التى تطبق بها على العرب من علياء القوة والتمويل منظمات المستشرقين أو المستعربين .

وفى هذا الفصل أقدم ثلاثة نماذج فقط من تفكير بعض هؤلاء المؤلفين المرسومين مثقفين عرباً بدراساتهم ، ودرجاتهم العلمية ، وبانتاجهم ، لكى يقولوا فى أمور الثقافة العربية وأمور الدين ما يشاؤون .. يقولونه بغير سند من الحق أو العقل أو النقل .. إلا ما كان نقلا مستسلماً عن المستشرقين ، أو مؤرخى الغرب ، أو مصادر الوثنية الهندية ، أو شهوة الاختراع !

ومهمتى — وأنا أعرض لهذه النماذج التى هى صورة للكثير غيرها — أن أشير إلى أن استسلام هؤلاء المثقفين العرب للثقافات الأجنبية المعادية لم يقع بغير معاناة أو مقاومة ، أو محاولة متجددة للفهم .. ولكن هل يستطيع من يعانى الفصام الفكرى والثقافى أن يعالج نفسه منفرداً ؟ .. بالطبع لا .. فالعلاج لهذا الفصام المتحكم فى بعض الأفراد لا يكون إلا من خلال وحدة المجتمع كله على العقيدة التى تعيد بناءه الذاتى والفكرى والقومى من جديد .

يأكلون لحوم البشر : والفارس الأول فى هذه المجموعة النموذجية هو الدكتور عبد المنعم ماجد — أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية آداب عين شمس . وتأتى أهمية التمثل بعرض أفكاره المستوردة وغير العلمية فى تدريسه التاريخ الإسلامى العربى من كونه أحد مصادر تربية وتعليم الشباب العرب فى مصر ، وإعدادهم لمواقع العمل والقيادة فى المستقبل

والدكتور ماجد يقوم حالياً بتدريس التاريخ العربى الإسلامى مشتملا على عصور الجاهلية والنبوة ، والخلفاء الراشدين ، والدولتين الأموية والعباسية ، وقد وضع لذلك كتاباً من جزءين تحت عنوان (التاريخ السياسى للدولة العربية).

فماذا يقول أستاذ التاريخ فى هذا الكتاب ؟ .. سأكتفى بابداء ملاحظة واحدة على نزوع المؤلف إلى التحامل على العرب مستنداً إلى مراجع يسيء

النقل عنها ويتجاوز الأمانة العلمية فى تحرى الصدق والفهم لما ينقله عن هذه المصادر ، وبخاصة إذا كان المنقول (تهمة) لم يسمع بها أحد من قبل ينسبها أستاذ التاريخ العربى الإسلامى إلى العرب ، دون تحرج أو تعقل ، وهى تهمة « أكل لحوم البشر » كما يزعم الدكتور ماجد فى الجزء الأول من كتابه المذكور (صفحة ٦١) ..

يقول صاحبنا كأنما يتلو وهو نائم تسجيلا تخرج أصواته من بطنه :

« وكان أكل العربى زهيداً يتناسب مع بيئته مثل التمر واللبن ، ومن كان غنياً منهم يستخرج الخمر المصنوع من التمر . ولكن المجاعة وانقطاع المطر كانت تهدد العربى وأسرته فى كل وقت ، بحيث أنها كانت تدفعه أحياناً إلى أكل نحاتة قرون الخراف وأظافرها ، أو أن يفتح عرقاً فى جمل ليشرب دمه ، وأحياناً أخرى إذا زاد به الجوع ربط حجراً على بطنه . وكان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة (أسد) أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة (هذيل) .. »

هذا هو كلام معلم التاريخ يلقن به شباب الجامعة أن أسلافهم العرب الذين نشروا الإسلام والمكارم ، وحملوا أشرف اللغات ، وأصدق المناهج العلمية — كانوا يأكلون لحوم البشر .. يقولها كذباً وبهتاناً لا يبررهما شىء إلا الحقد الذى حمله على التزوير فى المصدر الذى نقل عنه وهو كتاب (البخلاء) للجاحظ .

لقد كانت مهمة معلم التاريخ أن يعلق أوزاره على مصادره ، ولهذا فقد أحال هذه الفرية الكبيرة على كتاب وضعه الجاحظ للإضحاك واللهو واللغو ، ومع ذلك فبالرجوع إلى هذا المصدر تكتشف عبث المعلم ، وسوء قصده ، وملامح شعوبيته ، فالجاحظ فى كتابه (البخلاء) الذى حققه العوامرى والجارم طبعة سنة ١٩٥٧ يحكى فى الكلام عن الأطعمة الممدوحة والمذمومة ما كانت تتهاجى به بعض القبائل كالتهاجى بأكل الكلاب وأكل الجراد وأكل الضيف

وأكل المرأة ، كما هجيت بذلك فى أشعار العبث أو الوضع قبائل أسد وهذيل والعنبر وباهلة . فهل هذا (التهاجى) بالعبث أو بالنكاية والمبالغة يرقى عند عبد المنعم ماجد – معلم التاريخ – إلى مستوى الحقائق العلمية .. فماذا يقول المصدر الذى نقل عنه ؟؟

يقول الجاحظ فى صفحة ٢١٢ : –

« وهجا أحدهم ثوب بن شحمه بأكل لحم امرأة ، وكان (ثوب) هذا أكرم نفساً عندهم من أن يطعم طعاماً خبيثاً ، ولو مات عندهم جوعاً » .. فهذا تعليق الجاحظ على واحدة من هذه الفكاهات التى كان يعرضها فى كتابه الإضحاكى « البخلاء » .. ولا يقف الجاحظ برأيه فى هذا السرد الإضحاكى لألوان من التهاجى العابثة أو الفاجرة بل هو يحيل القارىء على المصدر الشعوبى لأكثر هذه الأشعار التى جمعها أو وضعها أو اخترعها الشعوبية .. فيقول فى نهاية كلامه الإضحاكى فى باب الممدوح والمذموم من الطعام : « وهذا الباب يكثر ويطول فان أردته مجموعاً فاطلبه فى كتابى « الشعوبية » .. » إذن ففى هذا الكتاب الذى رد به الجاحظ على مثل هذه الأقوال التى أوردها فى التهاجى بأكل الكلاب والناس هو من أقوال الشعوبية ووضعها .

غير أنه كان من بداهة الأمانة العلمية أن يقيس معلم التاريخ مقدار الصدق العلمى فى هذه الألوان من الفكاهات الهجائية والهجائيات العابثة إلى أقوال المصادر المعتمدة فى تحقيق التاريخ .. فهل فعل ذلك أم تلقف (النكت) والعبثيات ليصم العرب بتهمة يبنى عليها أكثر ما أورده فى كتابه من التحقير الشعوبى والغربى لتاريخ هذه الأمة المجيدة .. وفى قلب القاهرة أكبر عواصم العلم فى أرجاء الوطن العربى .

ثم ، هل سأل المعلم ناشر الإفك الشعوبى فى كتبه المدرسية عن صحة هذه الحقيقة فيما أورده القرآن الكريم من مثالب العرب فى الجاهلية ؟ ... يقول القرآن الكريم فى بعض ظواهر المجاعات القاسية فى الجزيرة العربية :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم » فهل قال القرآن الكريم « ولا تأكلوا أولادكم .. أو ضيوفكم ؟ » وهل يأكل العربى ضيفه .. أو جارته؟ بينما إكرامهما هو من شوامخ أخلاقه ومكارمه ... نعم ... وعلى الرغم من أن معلم التاريخ قد رضى لنفسه فى القرن العشرين أن يأكل لحم أسلافه العرب بالإفك والبهتان .

ثم أنقل عن التقرير الذى وضعته الأمانة الفنية لمجمع البحوث الإسلامية بعض ما ورد من مواضع الطعن الحاقد على العرب والدين والنبى فى نقدها لهذا الكتاب نفسه الذى نرى صاحبه — فى عشوائية رخيصة — يحاول مفلول الحد ، ومشلول اليد ، أن يهدم كل شىء ، ويطعن فى كل شىء .

يقول التقرير فى كلمة عامة عن المؤلف : « والمؤلف يعلم أن هناك مستشرقين منصفين درسوا الحضارة الإسلامية والتاريخ العربى دراسة علمية بعيدة عن الهوى والتعصب ، وأنصفوا العرب والمسلمين ، وعززوا آراءهم بالأدلة الحاسمة والبراهين القاطعة ، ولكن المؤلف تركهم جميعاً ، واستباح لنفسه أن يسرد آراء المتعصبين الحاقدين دون دليل أو برهان ، كأنه يشفى غليلا فى نفسه أو يشبع ما حملته طبيعته من بواعث الهدم والتدمير » .

ثم يشير التقرير إلى هذه النقط التى أوجز منها ما يلى مع التعليق من خلال كلمات التقرير :

١ — يشكك المؤلف فى تاريخ مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقول إنه غير معروف بالضبط ، ويدعى أن ربطه بعام الفيل كان نوعاً من الفخر أرادته قريش لنفسها ..

٢ — يقول المؤلف عن أول بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم « وفجأة فى سن الأربعين يملك محمد موهبة النبوة » .. وهو فى هذا يعمد أيضاً إلى العبث فى عرض حقيقة الوحى ، واعتبار النبوة فناً من الفنون ، أو موهبة من المواهب المختلفة التى تظهر فجأة لكثير من الناس .. ؟

٣ ـ وفى منهجه الظاهر والمستور للتشكيك يوحى باختياره غير الأمين لبعض عباراته عن القرآن أن هذا الكتاب من كلام محمد ، وذلك حيث يقول مثلا « ومع ذلك فلم يرد على لسان النبى فى القرآن » .. وحيث يقول « وقد أناب محمد صديقه أبا بكر ليقرأ عليهم سورة براءة التى يتبرأ فيها محمد ممن يحج من المشركين » .

٤ ـ وبنوع غريب من الجرأة على التضليل وهو يريد حصر رسالة الإسلام فى العرب مع أنها رسالة الدين الخاتمة والعالمية كما أثبت التاريخ المستمر ذلك ، يقول عن النبى « وهو وإن كان قد أرسل إلى العرب وحدهم إلا أنه اعتبر نفسه مرسلا إلى كافة الناس » .. ثم لا ينسى أنه « تلميذ الغرب المجتهد » فيزعم فى مقابل ذلك أن المسيحية رسالة عامة وليست خاصة كاليهودية .. وهكذا يكون الإسلام خاصاً بالعرب .. والمسيحية عامة لكل الناس .. أما أى مسيحية يعنى .. فهذا شىء آخر .

٥ ـ ويسارع معلم التاريخ فى كتابه المترجم عن حثالات الآراء الحقدية على العرب والإسلام فهاجم أى رأى منصف لأحد قلائل المستشرقين : فهو يقول مثلا نافخاً صدره بكل الغرور « لا نوافق بعض المستشرقين فى قولهم إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماسة الدينية ، فمن غير المعقول أن يخرج البدوى — وهو لا يهتم بالدين — لنشر الإسلام » ... أى إن الفتوحات الإسلامية ـ كما يدعى المؤلف المسلم وكما يتصدى بالإنكار لأقوال بعض المنصفين ، كانت قائمة على النهب والسلب ، لا على نشر الإسلام والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس والمشقات .

هذا تقرير أمانة مجمع البحوث الإسلامية يشير إلى بعض ما حواه كتاب عبد المنعم ماجد من واقع ما يراه بأعين سادته وأساتذته من حقائق التاريخ العربى ومن مبادىء الإسلام ، ومن سيرة النبى .. وما يراه معهم بعينيه

الملونتين — من طول قراءته للأكاذيب — بزرقة بحر الروم ، وطاعة علوم الروم ، وخدمة أهداف الروم ؟

فهذه صورة واحدة لأحد طفيليات الثقافة المعادية ، مزروعة فى صميم أنسجة العقل العربى الحى .. العقل الشاب فى الجامعة .. لتعيد بالإفك والعدوان صياغة الثقافة العربية على احتقار العرب .. وازدراء الدين .. والعبث بكل حقائق التاريخ .

محنة فيلسوف : وننتقل إلى مثال آخر لجنوح الثقافة العربية مع المحاولات المستمرة وراء الفهم الصحيح ، والتقويم .. وهو عن واحد من الأساتذة والمعلمين الذين يكشفون بصراحتهم واحترامهم للجهد الإنسانى من أجل تصحيح المواقف ومعرفة الحق ، ومحاولة الرجوع إليه — عن محنة الفصام بين الثقافتين العربية والأوروبية وبين قطبى الاعتقاد بالإيمان أو الإلحاد .. ؟

والمثال هو معلم الفلسفة الدكتور زكى نجيب محمود ، الذى طال به العمر فترك منصة الجامعة ليصبح كاتباً بجريدة الأهرام ، ومؤلفاً لأنواع من الكتب ، يقص فيها من تجاربه العقلية ومن محاولاته وراء اليقين العقلى المفقود.

والدكتور زكى نجيب محمود يطرح مشكلته ، ومشكلة الثقافة العربية من بعض جوانبها ، فى كتابه (تجديد الفكر العربى) .. إنه يتحدث بصراحة من يحترم عقله عن اغترابه الطويل عن ثقافة وطنه العربى ، وذلك لأنه كما وقع له قد استنبت شجرة ثقافته من الجذور حتى الفروع على منابع الثقافة الأوروبية التى نشأ ليراها هى الفكر الإنسانى ولا فكر سواه . ثم يذكر الدكتور زكى تراث بلاده فيقول جاداً وصادقاً (إنه لم ينتبه لدراسة التراث العربى إلا بعد أن فات أوانه ، فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة يزدرد تراث آبائه ازدراد المتلفت العجلان ، كأنه سائح فى مدينة كبيرة يريد أن يرى كل شىء فيها فى يومين) ..

ويحكى الدكتور زكى — صادقاً أيضاً — عن أن دافعه إلى تدارك ما فاته قبل الشيخوخة من دراسة التراث العربى هو اكتشافه الصحيح أن المشكلة الثقافية فى الوطن العربى ليست هى أن نأخذ كل ما نريد وفوق ما نريد من ثقافة الغرب ، ولكن المشكلة هى « كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه — وبين تراثنا الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها » .

بهذه الصراحة التى يعترف بها الدكتور زكى بسبق الثقافة الغربية إلى تكوين وترتيب وتركيب عقله .. وبهذه المواجهة الصادقة لطبيعة المشكلة التى تواجهها الثقافة العربية فى هذا العصر لتبدى عن ملامحها وحقائقها ، ولتأخذ ما يلائمها وتعطى ما يعبر عنها لثقافة العصر الزاخرة بالغث والسمين من حولها — يضع هذا الفيلسوف الغربى المتعرب عقله المتفتح ، والدائب السؤال فى محنة شديدة ، ومرهقة ، وطويلة الأمد .. وهى بالذات محنة الكثيرين ممن مروا بالقليل أو الكثير من ظروفه .. ولكن الدكتور زكى — وهذا محمدة له — أتاح بصراحته فرصة التأمل والتحليل لعناصر حيرته ، والبحث عن الوسائل التى تخرج بالثقافة العربية كلها من مثل محنته !

فالدكتور زكى لا يريد أن يوازن بين ما جمعه بعد فوات الأوان من عناصر وحقائق التراث العربى وبين ما صار إليه عقله بعد التربية الأوروبية الطويلة لعادات تفكيره ، وحركات ذاكرته ، وقابليات هذا الفكر لسرعة الاستجابة وردود الفعل العقلية تجاه المعتقدات العامة والشائعة فى كل مصادر فكره الأوروبى ، وبخاصة إيمانه الراسخ بالفلسفة الوضعية الإلحادية .. هذه الفلسفة التى قام زكى نجيب محمود بتدريسها والدعوة إليها ، والتى هى بطبيعة اعتمادها على اللغة ترفض أى معنى فى كلمة لا يكون لها انعكاس فى الخبرة الحسية ، فهى فلسفة مناقضة لأساس الثقافة العربية ، بل مناقضة للدلالات التى تعطيها اللغة العربية الدينية فى تركيبها ونظمها ، وطبيعتها ، واشتقاقاتها ، ومعانيها الاصطلاحية على بطلان مثل هذه الفلسفة الوضعية الإلحادية .

إن الدكتور زكى أصابته سهوة عن هذه الموازنة التى تؤكد أنه لم يفد شيئاً من سنوات مراجعته مراجعة العجلان للتراث العربى .. إن عقله الشيخ لم تخصب فيه أية حقيقة أو نظرية ملهمة من خلال هذا التراث العربى الذى مر به مرور السائح العجلان ، والذى هو أيضاً ليس كل شىء ، وليس هو المصدر المقطوع بصحة كل ما فيه من مصادر الثقافة العربية المتعددة .. ولذلك فقد بقى تحصيله القديم متربعاً فى صومعة عقله الأوروبى ، يملى عايه ، ويحكمه ويتحكم فيه ، ويطيل فى محنته .. ويزداد الصراع حدة فى رأس الدكتور زكى الذى يتحدث كثيراً ليخفف من وطأة هذا الصراع على نفسه وعقله ، وذلك لأنه يريد فيما يكون قد تصوره من بلوغه « سنوات النضج » أن يترك فلسفة جديدة يسد بها الفراغ الذى يروعه فى الفكر العربى المعاصر .. وأن يجعل هذه الفلسفة جسراً يمتد بالتوفيق أو « المواءمة » كما يسميها بين الثقافة العربية وثقافة العصر .. وبذلك تتم راحة عقله بالتوفيق بين ما هو فيه من أوروبا فى ميعة الشباب وقوة الكهولة ، وما صار إليه من التراث العربى فى بضع سنوات من عمر الشيخوخة لم يزدرد منه فيها إلا لقيمات العجلان .

وهكذا تمضى محاولة الدكتور زكى نجيب فى فرض مشكلته العقلية الذاتية على عصره ، فهو لا يحاول أن يستكمل ما يمكن أن يسميه ، وأن يسميه الناس معه ، ثقافة عربية متكاملة .. أو نظرية كاملة فى الثقافة العربية ، وذلك حتى يمكن أن يناقش قضايا الوفاق والمواءمة ، وقضايا الخلاف والمصادمة مع الثقافة الأوروبية المعاصرة ، والحاملة لكل تراثها القديم معها فى أشكال عصرية ، ومذاهب خطرة .. ؟ إنه لا يفعل ذلك ، بل يريد العكس .. يريد — كما تشهد عليه كل كتبه ومقالاته الغريبة والمتصادمة مع نفسها — أن تستسلم الثقافة العربية فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ويكتب له — لهذه الثقافة الغربية التى تضغط وتغزو وتهدد بكل الأخطار الفكرية والانحرافات المذهبية هذا المجتمع المقاتل عن ذاته وهويته ، وعقيدته وأرضه .

فى هذا الاتجاه القسرى يفرض زكى نجيب محمود سؤاله الذى يطرحه بشتى الصيغ ، ويدور من حوله فى كل كتبه وكتاباته الأخيرة .. إنه يقول وهو يدفع العرب من ظهورهم ليتقدموا بارشاده ويبتلعوا الفلسفات الأوروبية وعناصرها الفكرية .. إنه يقول مستصرخاً من غرابة موقف العرب كما يراه : «كيف نعيش عرباً ، ومسلمين ، وفى الوقت نفسه نعيش متحضرين حضارة العصر الراهن... » ؟؟ هل هذا معقول ؟؟

بمثل هذه الصيحة الاستنكارية التى يرى فيها زكى نجيب محمود أنه لا يمكن الجمع بين المتناقضات وهى (العروبة والإسلام ، والحضارة المعاصرة) يظهر الفيلسوف الحائر فى ثوبه الحقيقى ، الذى كان يدخره للمواقف الصعبة .. يظهر فيلسوف الفلسفة الوضعية الإلحادية بعد أن تطير عن ملامح وجهه بشاشة لإدعاء بأنه « قرأ التراث ومر به مرور العجلان » .. تظهر طبيعة الكاهن القديم الذى ولد فى رأسه ، ورسمه عقلانياً وضعياً فى حياة دراسته وتحصيله ، ثم كبر أخيراً بعد التجارب الطويلة ليتربع فى صومعة عقله ، وليملى عليه ، وليحكمه ويتحكم فيه .

إن الطريق وراء هذه الصيحة الاستنكارية يتفتح أمام الفيلسوف الذى يطوى انفصامه ويبتلع محنته — لكى يقول ما يشاء فى تصوره الساذج أنه يستطيع أن يحول وجوه العرب للصلاة بثقافتهم العصرية شطر المحراب الذى يشاء ...

إنه يلخص فلسفته التوفيقية الجديدة فى قوله « إن العرب ليست لهم فلسفة فى هذا العصر .. ولكن الفلسفة لازمة للحضارة .. وهذه الفلسفة لا توجد إلا فى مراكز الحضارة فى العالم وهى أوروبا والهند .. ولقد عرف العرب الفلسفة يوماً فى عصور الحضارة الإسلامية » .

يريد الفيلسوف الحائر ، والمنشق على نفسه وتراثه ، أن يقول : إن العرب لم يعرفوا الفلسفة إلا عن طريق اليونان ، فكانت لهم بهذه الفلسفة —

كما يزعم — حضارتهم الإسلامية . وحيث أنه لا تقوم حضارة بغير فلسفة وحيث أن مراكز الحضارة الأساسية التى فيها الفلسفات هى أوروبا والهند ، فان على العرب — كما ينصحهم الفيلسوف الوضعى — أن يأخذوا من أوروبا فى هذا العصر فلسفة ما .. لتكون لهم حضارة ما .. حتى وإن كانت هذه الفلسفة هى الفلسفة الوضعية التى يدين بها داعية التجديد للفكر العربى فى القالب الأوروبى الإلحادى ... زكى نجيب محمود .

أما أن يسأل الشيخ الفيلسوف نفسه عن هذه الأسس الفكرية التى قام عليها المجتمع العربى الإسلامى الأول .. وعن المنهج العلمى الذى أخذ به المسلمون الأوائل .. وعن علم الأصول الذى وضع الشافعى أصوله فى مواجهة ورفض المنطق اليونانى .. هذا المنطق التجريدى الذى يصفه أفلاطون بأنه (الاستعمال المعقول للكلمات فى التفكير) وليس فى العمل .. فان فيلسوفنا يرفض ، أو يعجز .. أو لا يفهم معنى هذا السؤال الوحيد الذى يكفل له الجواب الصحيح عنه أن يخرج من حيرته .. ومن محنته .. ومن غيظه الذى سيطول .. من العرب والإسلام

وتظل أعراض حمى الفلسفة الوضعية تعترى عقل الفيلسوف الشيخ ، فينشط لينفث سمومها بين قومه من (أخلاط العرب) لابساً فى هواها كل لبوس ، وممتطياً إلى أغراضها كل صعب ، صانعاً صنيع القس الإنجليزى اليسوعى فى أواسط أفريقية . إنه — دون أن يثير ثائرة قومه المتخلفين — يريد أن يعلمهم عن طريق بروتوكولات جماعة فيينا ، ومعلم الفلسفة الوضعية اليهودى المسوى فيتجنشتين ، يريد أن يعلمهم أحدث فلسفة مادية تنشر الإلحاد عن طريق اللغة .. يريد أن يعلمهم من طريق الوسوسة والنفث والإيحاء والتخاطر أن الكثير من كلمات اللغة العربية التى نعتز بها ، لا معنى لها ، بل إن هذا الكثير والأساسى جداً من هذه الكلمات إنما هو محض هراء .. فذلك ما تقول به بروتوكولات سادته من فلاسفة (جماعة فيينا) .. إن هذا

هو ثمار آراء الفيلسوف اليهودى النمسوى لودفيج يوسف يوحنا فيتجنشتين ، وآراء رفاقه النمسويين رودلف كارناب ، وفردريك وايزمان ، وأرنست ماخ ، وغيرهم .. !

إن الكلمات الأساسية والقاعدية والأوكانية فى بناء اللغة العربية وصرح الإسلام هى عند هؤلاء لا معنى لها ، وليست إلا نوعاً من الفراغ فى الكلام ، أو الكلام الذى ليس فيه إلا الفراغ .. مثل كلمات : الله .. والوحى .. والملائكة .. والنبوة .. والآخرة .. والجنة .. الخ .

ودون أن يصرح بهذا الإثم الذى يرمى إليه يحتال ليوسوس به .. يقول الكلمة ويقطعها ، ويرمى بالنفثة ويخنس عنها .. وهو مستور داخل البوق الذى ينفخ فيه ، أو القناع الذى يتبرقع به .. وأحدث ما بلغ إليه تدبيره من هذه البراقع كتابه الأخير الذى تسلل به إلى موضوع الفلسفة الوضعية ، وذلك عن طريق دراسة اللغة ودون أن يشعر أحد — كما توهم — وهو يفتعل أن يتكلم جابر ابن حيان فى القرن التاسع عن دلالات وطبائع اللغة بنفس فلسفة فيتجنشتين فى القرن العشرين ؟ .. وبعبارة أخرى جعل من جابر بن حيان بوقه التاريخى الذى ينفث فيه آراءه العقلانية فى اللغة ترويجاً لآراء أحباره وأساتذته من فلاسفة جماعة فيينا ، وبخاصة آراء اليهودى فيتجنشتين .

يقول زكى نجيب محمود فى فصل (سر اللغة) .. من كلام ينسبه إلى ابن حيان « إن تركيب الكلام يلزم أن يكون مساوياً لكل ما فى العالم من نبات وحيوان وحجر » ثم يقول الدكتور زكى « ولو حللنا هذه العبارة تحليلا وافياً لكشفت لنا وحدها عن وجهة نظر (منطقية) تحدد موقف ابن حيان إزاء اللغة ، وعلاقتها بعالم الأشياء — أى إنها تحدد علاقتها فى نظره بالعالم المادى — وهو موقف — بقولى الدكتور زكى — جد شبيه بفرع من فروع المنطق الحديث الذى يأخذ به فيتجنشتين ؟ » .

ثم يعود الدكتور فينقل من كلام ابن حيان ما يراه موافقاً للفلسفة الوضعية وهو أن كل كلام لا يمكن تحقيقه بما يقابله فى الطبيعة المادية كلام مرفوض

وذلك حيث يقول : « لو بلغت اللغة حد كمالها المنطقى لجاءت مفرداتها مقابلة تمام المقابلة لما فى الطبيعة من أشياء بما لها من صفات ، وما لها من علاقات » .

فماذا يقول حبر الوضعية فيتجنشتين فى هذا الاتجاه الذى يروج له زكى نجيب محمود ؟ .

إنه يقول فى كتابه (رسالة منطقية وضعية) ما خلاصته : « الاستعمال الوحيد للغة هو أن نصور بها الواقع ، والاستعمال الآخر بعد ذلك هو أن نصوغ بها « تحصيلات الحاصل » .. وأى محاولة لاستعمال اللغة على صورة أخرى ليست « أمراً واقعاً » أو « تحصيل الأمر الواقع » فهو هراء ، وانتهاك خال من المعنى لاستعمال اللغة » .

ولكن فيتجنشتين لا يلبث أن ينتبه لخطئه فيغير من هرائه ليصوغه فى صورة أخرى يتدارك فيها ما غفل عنه من الوظيفة الاجتماعية للغة فهو يقول فى كتابه الأزرق « اللغة مجموعة من المناشط الاجتماعية يخدم كل منشط منها غرضاً مختلفاً عن سواه ، مع أهمية الالتزام بالاستعمالات الفعلية والممكنه للغة فى مختلف سياق الكلام ... أى التعبير باللغة عن العالم المادى » .

وهكذا يريد الدكتور زكى — عن طريق جابر بن حيان الذى جمع بين المنهج العربى القرآنى فى العلم وبين خرافة استخراج الذهب من الزئبق بالفلسفة ، واستعمال التنجيم وأسرار الحروف — يريد أن يقدم للعرب عالماً يصمه بأنه استمد أصول فكره من تراث اليونان ثم بنى عليه ما شاءت له قدرته ؟ .. فمن هذه القدرة مثلا استهانته بكل المعقول فى سبيل الذهب ؟ .. ومن هذه القدرة بحثه فى اللغة بمنطق اليونان مثل الدكتور زكى .. ومن هذه القدرة تصوره مع اليونان أيضاً أن الأصول الأولى لنشأة الكائنات هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .. ومن هذه القدرة أنه وضع للغة فلسفة وقواعد لم تثبت له صحتها عندما طبقها فى بحثه عن أسماء الذهب والفضة والزئبق والنحاس والحديد باللغات المختلفة : العربية والفارسية واليونانية ؟ .. ومن هذه القدرة

أخيراً أنه عندما أسقط فى يد جابر بن حيان فى تفسير سبب اختلاف اللغات، ولم يستطع رغم جهود الدكتور زكى فى استنطاقه واستجوابه أن يقدم دليلا مضاداً لمنطقية اللغة العربية التى تحمل كلمات مثل (الله والوحى والملائكة) تتجاوز عالم الأشياء المادى من الحيوان والنبات والحجر — عندئذ .. أسقط فى فلسفة الدكتور زكى أيضاً ، فطوى فصل اللغة وأسرارها إلى غيره .. مؤكداً بهذا العذاب الذى كتبه الله عليه صدق أستاذه اليهودى فيتجنشتين الذى وصف الفلسفة بأنها « سقوط فى حيرة ذهنية لاخلاص للإنسان منها إلا بالمنبهات » .

وهكذا فى كتاب (جابر بن حيان) تنحسم من خلال واقعة حياة الدكتور زكى نجيب محمود ، ومن تحصيل حاصل الفلسفة الوضعية الإلحادية محنته الذهنية التى لاخلاص له منها .. وهو يدور وراء أهدافه غير العلمية فى أزقة الزمن ، ويرحل إليها فى مجاهل الأرض ، ويتحدث مع نفسه فى صورة الخراسانى عابد الذهب ، واليونانى الفكر كأنه ظله : جابر بن حيان !

<u>الفهم العصرى للقرآن</u> : والفارس الثالث صحفى وقصاص ، ونجم تايفزيونى ، وتائه قديم فى بحر المذاهب والفلسفات الباطنية والبوذية واليوجية إلى أن شاءت له إحدى مغامراته الفكرية أن يلقى مراسيه ، طالباً للخلاص ، وهو يضع بعض أوزاره العقلية بين يدى (محاولة عصرية) لفهم القرآن .

والدكتور مصطفى محمود الذى طاف حول الأرض ، وزار أكثر معابد الهندوس والبوذيين ، واستمع وقرأ أكثر فلسفات المتصوفة واليوجا ، كان مثالا للتشرد النفسى بالقلق وراء الدين الحق الذى تعود به إليه ذاته المضيعة .. لقد كان يبحث عن نفسه خارج وطنه الذى ضاعت فيه نفسه ، بعد أن كان هذا الوطن هو المنارة ، والأمن ، والعلم لكل المشردين والضائعين ، وطلاب المعرفة فى العالم .

ويصف مصطفى محمود بداية التشرد النفسى فى حياته فيقول فى أول

صفحة من كتابه : « وكان عقلى آنذاك — أى فى طفولته — صفحة بيضاء لم يكتب عليها شىء ، ولم تتلق تأثيراً تربوياً خاصاً ، فقد نشأت فى أسرة كل فرد فيها متروك لحاله .. يحب ما يحب .. ويكره ما يكره .. ويلعب حتى يشبع لعباً » .

وإذا كان بالقلق والضياع قد خرج من وطنه ، فهو بهما قد عاد أيضاً .. عاد ومعه الكثير من الوهم الذى أراد أن يجسده .. وعاد ومعه من معابد البراهمة والبوذية والكونفوشيوسية واليوجا مفتاح (الأفكار الباطنيه) .. هذا المفتاح الذى جرب أن يديره فى باب الصرح القرآنى .. ولانه اعتاد ممارسة الاستغراق ، وتعلم أن يستبطن نفسه فيكون هو بداخلها وليس العكس ، فقد أصبح يرى فى شخوصه الباطنى ما لا يراه ، ويسمع ما لا يسمعه ، ويلمس ما لا وجود له .. ؟

وهكذا بدا له أن مفتاح أحلامه الباطنية يدور فى باب الصرح .. واكتشف متعته الجديدة فى أن يرى الكلمات التى يريد تفسيرها .. أو يحاول فهمها .. وهى تستبطن معه .. وتتقبل محاولاته .. وتصنع له كما يحب .. لقد رآها كما لم يرها عربى أو مسلم قط .. رآها تلتوى له .. فاذا سيقان ألفاظها تدور وراء أعناق معانيها .. وإذا أفخاذها عارية فى وجهه .. تحدثه عما لا يمكن أن يكون صحيحاً إلا فى وهمه .. فى تشرد عقله .. تحدثه عما فى كتب اليهود المحرفة .. وما فى الأفلاطونية الحديثة .. وما فى فلسفة الهند القديمة .. تحدثه عن الفيض والصدور ، والحلول والكشف .. تحدثه أيضاً عن الحب الحر وتقول له إن الجسد يتحرر .. لا يبالى بالخطيئة .. ما دام القلب بريئاً .. ؟؟ وهذه هى فقط عينات مما تحدث عنه فى غيبوبته الاستبطانية .. المهاتما مصطفى محمود .. وهو يحاول الفهم العصرى .. للقرآن .

ورغم التراخى والتسامح ، فقد أصدر مجمع البحوث الإسلامية بياناً متلطفاً فى وصف أعراض (الفهم العصرى) والتى ظهرت فجأة على

معقولات مصطفى محمود فى عبارات حديثة .. وناعمة جداً .. وفلسفات قديمة ووثنية تماماً .. قال المجمع فى بيانه وهو يحدد الظاهرة التى اتسم بها هذا الفهم العصرى :

« إن هذا المؤلف يتخذ غالباً طابع (الزئبقية) غير المستقرة ، بحيث يكون بهذا الطابع موهما ومثيراً للشكوك » .

الطبيب مصطفى محمود مريض إذن بحسب تشخيص المجمع بمرض الزئبقية فى الأسلوب .. والمنهج .. ولم لا تكون الشخصية أو النفسية هى الزئبقية أساساً ؟

فى قلب هذه الزئبقية يقول مصطفى محمود وهو يترجرج ويموه عن منهجه الباطنى ، ويهاجم الباطنية :

« .. وهذا أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن ، وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات .. وكيف يمكن أن تؤدى هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه » .

ولكن فجأة .. وبانفلاتة زئبقية ينقلب مصطفى محمود بالهوى الباطنى ، ليقول فى تمجيد باطنيته وتأويلاته التى يحاول بها وهو يلعب أن يقتلع الدين من أساسه : « فلا ننتقل إلى تأويل باطنى إلا بالإشارة أو إلهام من الكلمات القرآنية ذاتها ، فنفسر القرآن بالقرآن ظاهراً وباطناً ، على أن لا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر » ... ولكن كيف لا يتعارض الباطن والظاهر .. والباطن بداهة ليس باطناً إلا لأنه خلاف الظاهر .. وإلا كان امتداداً بالفهم لمعنى الظاهر .. وهذا ما تنكره هلوسات الباطن البوذى والهندى واليوجى فى تفاسير مصطفى محمود .

ومن هذا التعارض قوله وهو من صميم الهدف الباطنى الذى يخدمه بالزئبقية النشطة : « والمتصوف واليوجى والراهب كلهم على درب واحدة ، وأصحاب منطق واحد ، وأسلوب واحد فى الحياة هو الزهد » .. فهل توجد

باطنية فى التأويل تبالغ فى معارضة منهج القرآن الواضح أخبث من تكرار هذا التأويل .. نعم .. القرآن هو الصراط المستقيم .. وغيره هو السبل المتفرقة .. هذا هو ظاهر القرآن وباطنه المتحدين فى قوله تعالى :

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ولكن الزئبقى الباطنى ، والفقير الهندى — مصطفى محمود — يقول فى باطنيته العدوانية والمسبوقة .. يقول فى سذاجة صبى يلعب ، وزئبقية كاهن يخادع ما معناه أن الدين واحد .. كل الناس واحد .. الخير يساوى الشر .. وفوق يساوى تحت .. والإسلام والصوفية والبوذية واليوجية كلها واحد .. إذن فلماذا لم يقل هذا المفسر الباطنى .. مهندس التأويلات الزئبقية .. لماذا لم يقل .. « والماركسية أيضاً مع كل هذه الأديان .. دين واحد » .. لماذا .. وقد اعتبر وجودية الحب الحر .. والحرية فى الحب .. ديناً أيضاً يتسع للتسامح والغفران؟

وأخطر ما فى هذه الهلوسات كلها محاولته المتعمدة أن يبث النزوع الاستسلامى للظلم الاجتماعى وهو يحاول بفهمه المناقض للعصر ، ولكل عصر ، أن يختلس ويسرق المفهوم السياسى والاجتماعى للقرآن بوصفه نظاماً كاملا للحياة والاجتماع والحكم ... وليس مجرد كتاب نصائح ووصايا كما يزعم ..

والحق .. لقد كشف مصطفى محمود عن ساقيه وهو يدخل صرح التفسير .. فكشف من خلال غيابه الصوفى واليوجى عن باطنيته الراصدة لأدق المفاهيم الهندية القديمة ،وهو عندما يقول « إن القرآن لا يدق على باب السياسة ليغير مجتمعاً ، وإنما يدق على باب القلب ليهدى إنساناً » ؟ .. فإنما يمارس اختلاس المعانى التى لا يريدها ، وينكر العيان الذى يبهته .. ينكر أن القلب هو فى القرآن باب الفرد إلى المجتمع كما فرضه القرآن على أهله فى جزيرة العرب ، وترك الخيار فيه لمن يشاء خارج جزيرة العرب .. ولذلك كان الشرع .. وكان الحكم بالشرع .. وكان اختيار الأمير بهذا الحكم بإرادة من هم أمام الله سواسية فى الحقوق والواجبات .. ممن لم يعرفوا قط «أرستقراطية

الطبقة » .. ولا الإمام المستور ؟ .. لأن هذا القلب الذى لا يزال يدق فى صدر مصطفى محمود بأنغام هندية — كان فى حياة المسلمين الأوائل قلباً سليماً ، آمناً ، صادقاً ، قد منح الله به المؤمنين فى القرآن حقوق الإنسان ، ومسئولية وأمانةالإنسان .. ومثل هذه الحقوق التى لم يفطن المهاتما إلى شىء منها هى حقوق يصونها الإيمان الذى يقيم نظاماً ، ويبنى مجتمعاً ، ويرسى دولة وسياسة وثقافة وحضارة على أساس هذا الكتاب الكريم ..

وكان لا بد للطبيب الروحانى الزئبقى أن يكشف أخيراً فى بعض فهمه العصرى للقرآن — بعد جولة حطم فيها بالوهم ما وسعه من مصابيح الصرح — كان لابد أن يمر بالعرب الذين نزل فيهم القرآن ليتقرب إلى شياطينه بالسخرية منهم .. وليكشف عن قدر من جهله بلغة القرآن .. ومعانى القرآن .. وغيب القرآن .

ففى شأن الآخرة يتربع المفسر العصرى على بساط روحانيته الهندية ويطلق البخور ، ويعود تماماً إلى غيابه وغيبوبته ليتحدث باللغة الباطنية ، فيقول إنه قبل أن يفهم (أسرار الباطن) كان مما صرفه عن القرآن وصفه للجنة بأن فيها أنهاراً من العسل ، وأنهاراً من الخمر .. وهو لا يحب العسل .. ويقول إنه أيضاً لا يحب الخمر .. سبحان الله .. كأنما لم يكن فى تفسيره الزئبقى يعصرمن ثمار مفاهيمه الهندية خمراً .. يقدمها للمسلمين ؟؟ .

نعم .. فعندما اهتدى إلى التفسير الباطنى .. عندما حصل بالرياضيات اليوجية على مفتاح الكشف الباطن — أدرك أن هذه النعم « المادية » لا (تغرى) إلا الرجل البدوى البسيط .. الذى يحتاج فى قيظ الصحراء إلى الماء العذب ؟ كما أن الحر .. ويااللسذاجة .. يفسد اللبن .. إذن فهذا البدوى البسيط الذى نزل إليه القرآن قد فرح بهذا (الإغراء القرآنى) .. ولذلك فانه عمل أعمالا عظيمة جداً فى الظاهر ، وفى العالم ، وفى التاريخ ، يندق دونها عنق المفسر العصرى ،القاعد على روحانيته يتكسب بها ، ويمد يده للمتفرجين ويغمز بعينه

لهم .. فهذه الأعمال العظيمة جداً لم يعملها هذا البدوى البسيط إلا من أجل العسل الذى يفرح به ، والماء الذى يحتاج إليه ، واللبن الذى يخشى أن يفسد فى حر الصحراء .. حتى وإن كان الجزاء بهذه النعم فى الجنة .. وليس هنا .. وهذا هو الفرق العظيم بين البدوى البسيط والمفسر العصرى .. الأول آمن بأن هذه الجوائز المادية حقيقية فى الآخرة ،والمفسر الهندى العصرى رآها — لأنه لا يحب العسل ولا اللبن بسبب مرض معدته .. مجرد سرور(روحى) فى عالم ما هناك .. ربما بعد تناسخ طويل فى القطط والكلاب ينتهى إلى النرفانا ..!

ولكن هذا البدوى البسيط قد فهم بمقتضى صدق تدبره للقرآن ، وصدق عمله به .. فهم فى حياته المبرأة من الشك ، ، ومن الخوف ، ومن الاغتراب ، ومن الشخوص الباطنى .. فهم أن هذه الأنهار التى لا يملك أن يقترب إليها إلا الخالدون والصالحون .. هى مقومات خلوده ، وعناصر نعمة الله إليه ، ورضوانه عليه بهذا الخلود .. لقد فهم أن أنهار الماء هى قربه إلى مصدر الحياة. الحياة الخالصة من الصراع والخوف .. الحياة فى نعمتها الباقية (وجعلنا من الماء كل شىء حى) .. وفهم أن أنهار اللبن الذى (لم يتغير طعمه) هى قربه من منبع النماء ، وطعام السماء . . قربه إلى نعمة النشأة بغير توقف ، وبغير شيخوخة .. إنه طعام الطفولة النضرة والفطرة السليمة .. طعام الإنسان الكامل من حيث لا يدخل فيه من الصناعة شىء يفسده ، وهو غنى بما فيه عن غيره ..

وفهم هذا البدوى البسيط أن أنهار العسل تعنى قربه إلى مصدر الصحة ووحى العافية فى كل لفتة ، وكل نظرة ، وخاطرة .. العافية المجموعة (من كل الثمرات) .. التى فيها (شفاء للناس) .. ومن ثم فهذا البدوى البسيط فى هذه الجنة التى سعى إليها سعيها وهو مؤمن يرى نفسه فى ظل هذه المنابع من نعم الله الدائمة فى حال الإنسان المصطفى .. المطهر من كل ما يعيبه .. الناضر ببراءة

طفولة شابة ، وسلامة فطرة سمحة .. الآمن فى قلب شعوره المتجدد بنقائه ، وصحته وعافيته .. المنتشى بغير زهو بديمومة هذا الخلود الرحب — الذى استحقه — كما يرجو — بإيمانه وعمله وصدقه .. إنها نشوة الرضى عن ربه ؛ والرضوان من النعم عليه .. هذه النشوة التى لا توصف على الدنيا إلا بأنها مبرأة من الغول ، والإثم ... لا يصدع عنها المؤمنون .. ولا ينزفون ..

فالرجل البدوى البسيط الذى نزل إليه القرآن المبين ، فتدبره بعقله المستبين ، وصدقه بخلقه الأمين — قد طلب هذا الخلود بأسبابه ؛ وقدم حياته الطيبة على طريق استحقاقه .. وما كان ليرده عن ذلك شيء .. حتى ولو كان قد علم — بل لقد علم — أن على الأرض أشباهاً لهذا المفسر العصرى — عاشوا من قبل .. ويعيشون اليوم .... وسيعيشون غداً .. فى اغتراب الأنفس ، وشتات العقول ، وأهواء المحاكاة .. ليتهجموا على العرب بلغة العرب .. وليشككوا فى الدين باسم الدفاع عن الدين .. والتفسير لقرآن المسلمين .

ويمضى مصطفى محمود داخل هذا الطابور الطويل من الأشباه والنظائر .. يمضى وسط هؤلاء الذين تفرزهم غيابات العصر ، وسكرات القلق ، وهم يبحثون عن الثقافة القومية الصحيحة التى يكونون بها عرباً .. ويكونون بها مسلمين.. يمضى مصطفى محمود كما يمضى الظل الذى يتحدث عنه ، وهو سعيد بمنهجه الزئبقى الباطنى .. الذى تظهر به صورته ظهوراً ثنوياً فى النور والظلام فى وقت واحد .. والذى يبدو به فى فلسفته مثلا غريباً للزاهد المترف والجاد العابث .. والروحانى الدنيوى .. والمسلم اليوجى .. والمؤمن الذى يضع قدماً فى الإيمان وأخرى فى الشك .. ثم إذا ما لذعته الشكوك ، وحاصرته الأوهام ، نفضها على من حوله .. نفضها كما هى .. كلمة من الظاهر ، وأخرى من الباطن .. كلمة مع الله .. وأخرى مع بوذا ..

نعم .. إن مصطفى محمود يمضى بمزماره الهندى كما يمضى كل الزبد .. وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، ثم يرفعه الله إليه :

٥ ــ وباسم الإسلام كرهوا أيضا ..
قومية عربية مؤمنة

كل ما مضى فى الفصول السابقة من هذا الغزو الفكرى المتتابع للعرب — فى الخطط الشعوبية ، والأهداف الاستشراقية ، والاستعمارية ، والصهيونية.. ثم الماركسية — كان لابد أن ينتهى إلى تعطيل واستبعاد قيام الوحدة العربية ، وإلى حصار المبدأ القومى ومحاربته باسم الدين ، والعمل المستمر على طمس معناه الواضح فى القرآن الكريم . وتأكيداً لهذا الحصار كان لابد أن تتناول أكثر التفاسير القرآنية إطلاق المعنى العالمى للإسلام ، وتجريده بالنسبة للعرب من أى ارتباط حقيقى ولازم ومشروع بأرضهم العربية ، ولغتهم ودينهم ..

وهكذا فى مرحلة ركود الثقافة العربية ، وعلى الرغم من النشاط السياسى فى الاتجاه القومى السليم الذى فرضته المواجهة الواقعية مع إسرائيل وحلفائها — وصلنا إلى هذا الموقف الغريب من قيام جميع الأمم الإسلامية غير العربية بتأكيد وجودها القومى على أساس من لغتها وثقافتها وتاريخها ، بينما يواجه العرب ، بسبب ليس مجهولا فيما ذكرناه من قبل — تياراً عاماً باسم الدين يرى أن قومية العرب حتى وإن تأسست على الدين ليست حقاً لهم يبيحه لهم الإسلام ، أو يأمرهم به الإسلام ، مع أن هذا الحق لم يتحقق للعرب فى كماله وجلائه إلا ثمرة أولى لفضل الإسلام ، ورسالة الإسلام .

ولم يلبث هذا الشعار المظلوم (القومية العربية) أن تنازعته هذه الأهواء المتضاربة ، والتيارات الوافدة ، داخل الوطن العربى ، فأصبحت هناك (قومية عربية) ينادى بها العلمانيون بالمفهوم الأوروبى ، وأصبحت هناك « قومية عربية » يتستر وراءها القائلون بالإصلاح على أساس المنهج الماركسى .. بينما يقف الدعاة إلى (الأمة الإسلامية) يقذفون بالأحجار كل شعار عربى

مرفوع لهذه القومية العربية على أرضها .. حتى وإن كانت هى الدعوة الطبيعية والحتمية إليها على أساس الإسلام والدين ..

ونحن لا نهتم بمزاعم القوميين العرب غير الإسلاميين ، فالقومية العربية لا يمكن أن توضع فى قالب العلمانية الأوروبية ، أو الماركسية الشرقية .. ولكن ما هى حجة من يرفضون هدفاً حقيقياً على طريق الاسلام ، هو وحدة الأمة العربية على أساس من دينها وإيمانها ؟ .. إن حجتهم هى تفضيل هدف آخر يدعون إليه .. هدف خيالى غير واقعى وهو قيام (أمة إسلامية واحدة) تجمع على أرض واحدة ، وبلسان واحد ، وتاريخ واحد ، شعوباً مثل تركيا وإيران وباكستان ، وبنجلاديش ، وأندونيسيا والفلبين .. الخ .

إن مثل هذا الهدف الخيالى لا يمكن أن يتحقق مطلقاً بهذه الصورة . ذلك أن أقصى ما يمكن التوصل إليه هو إقامة (جامعة الدول الإسلامية) لتربط باسم الإسلام ما أمكن ، وعبر لغات مختلفة ، وأوطان متباعدة ، بين شعوب هذه الدول .. ولكن مثل هذا الهدف العملى نفسه لا يمكن تحقيقه بنجاح ما لم تتوحد الأمة العربية بقوميتها ولغتها ودينها ، وتصبح دولة كبيرة على أرض الوطن الأول للدين ، ومكان البيت ومنزل الوحى .. فهل هذا الهدف المشروع أو الحيوى للعرب داخل جماعة الدول الإسلامية لا يستحق الاهتمام به ، ولا المعاونة عليه .. أو على الأقل لا يستحق السكوت عن معارضته ، والتحذير منه ، والعمل على تعويقه .. ؟ .. لماذا ؟ ..

نعم لماذا .. ؟ .. هل تخشى الدول الإسلامية — مثل الاستعمار والصهيونية والماركسية — قيام دولة عربية واحدة لأمة عربية واحدة تبنى نظامها ومجتمعها وتقدمها وحياتها على أساس الإسلام ؟ .. هل هذا معقول ؟ .. إذن فهل يسر الدول الإسلامية هذه أن ينجح العلمانيون أو الماركسيون فى بناء هذه الوحدة العربية لحسابهم .. أوفى تمزيقها نهائياً ضد حسابات قوة العرب بالإسلام ؟ .

عناصر التناقض : قد لا يكون هذا الموقف الذى تقفه ، أو تحرص عليه بعض الجماعات الإسلامية ضد قيام وحدة الأمة العربية ما يثير الكثير من الغرابة ، وبخاصة وبعض هذه الدول يستنشق فى هواء حريته مناهج الاستعمار ويتأثر بثقافته ، ويرتبط بأحلافه — ولكن الغريب والمتناقض أن يسترخى لهذا الرأى المعارض للقومية العربية حتى وإن كان أساسها الإسلام — بعض علماء الدين العرب فى بلادنا .. فان قالوا حقاً إنهم لا يعارضون الوحدة العربية على أساس الإيمان والإسلام قلنا لهم فلماذا إذن لا تطالبون بتديين القومية العربية ، ومن ثم تؤازرون دعوة القومية العربية المؤمنة ، وترفضون الأخرى .. ؟

لقد كان يجب ، ولا يزال ممكناً أن يكون ، تنزه علمائنا المستنيرين عن الوقوع فى هذا التناقض الذى أشار إليه عالم تركى مسلم ، عاش فى سورية والعراق ومصر وأحب بلاد العرب ، وتكلم ووضع الكتب فى الدعوة إلى القومية العربية .. إن هذا المسلم التركى ساطع الحصرى يقول :

« لست أرى أى علاقة منطقية بين دعوة علماء المسلمين إلى العمل فى سبيل الوحدة الإسلامية وبين دعوتهم إلى عدم الاشتغال بالوحدة العربية ، إذ كيف يجوز لأحد أن يقول إنه يتحتم على علماء المسلمين أن يسعوا لتحقيق الوحدة بين العربى والإيرانى والهندى والتركى ولا يجوز لهم أن يشتغلوا بتحقيق الوحدة بين المصرى والشامى والحجازى .. ؟ كيف يمكن لأحد أن يأمل بتكوين وحدة البلاد الإسلامية التى تتكلم بلغات مختلفة دون تكوين وحدة من البلاد التى تتكلم بلغة واحدة ، ولا سيما التى تتكلم بلغة القرآن » .

ثم يقول :

« إنى أعتقد بأن الذين يتجهون بتفكيرهم إلى الوحدة التى يتطلبها القرآن — حسب تعبير بعض علماء الدين — لا يستطيعون أن يهملوا الوحدة العربية دون أن يناقضوا أنفسهم ، فيترتب عليهم أن يشتغلوا بالوحدة فى سبيل الديانة الإسلامية إن لم يكن فى سبيل الألفة القومية » .

القومية والشريعة : وينسى بعض علماء المسلمين فى الوطن العربى أيضاً أهم القضايا التى لا تقوم الوحدة إلا بها ، سواء أكانت عربية أو إسلامية ، وهى أن المستعمر عزل الشريعة الإسلامية فى أكثر البلدان العربية عن مجرى القوانين السائدة والحاكمة فى الحياة العملية . لقد عزلها فى مصر سنة ١٨٨٣ ولم يستبق منها إلا قانون الأسرة أو الأحوال الشخصية ، ولهذا فقد جاء الدستور الدائم — بعد كفاح صادق — ليفتح الطريق أخيراً لتحرر مصر من الاستعمار التشريعى ، من حيث جاء النص فى هذا الدستور على أن الشريعة الإسلامية مصدر أساسى للتشريع . ولا شك أن استعادة حق التقنين بمقتضى الشريعة الإسلامية هو أهم العناصر التى تخلق مناخاً ملائماً لتأسيس الوحدة العربية بالمفهوم الدينى لقيام القومية العربية ، وليس بأى مفهوم آخر .

ولا شك أن استعادة الشريعة وأحكامها ومقاصدها فى صياغة القوانين السائدة هى العامل الأول الذى يحقق تحرير القومية العربية من تأثير المطامع الأوروبية أو الماركسية ، هذا التأثير الذى يخرج بها عن مفهومها الصحيح فى تاريخ الأمة العربية منذ توحدت أجزاؤها بالإسلام ، وعاشت بالقرآن ، ومنذ فتحت حدودها وقلبها بالرعاية والإخاء والتساند مع جميع مسلمى العالم .

العروبة والإسلام : كذلك ينبغى أن يتذكر علماؤنا ، وأن نتذكر معهم أن التعريب والتعرب كانا طريق انتشار الإسلام . فالعروبة ومقوماتها من اللغة والدين والقرآن والوطن الذى به المسجد الحرام والمسجد الأقصى لم تكن بالدعوة إليها دعوة عنصرية أو عرقية ، بل كانت جهاداً سلمياً مشروعاً لنشر علوم الإسلام ، وتأصيل حقائق الإسلام ، وتمكين أخوة الدين ، وتوثيق مسئوليات الدفاع عن هذا الوطن العربى ، قاعدة الإسلام ، وحصنه الأول ، ومستقر مشاهده الأولى ومقدساته .

من أجل هذا المعنى فى الدين وليس فى العصبية العرقية كان النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « أنا أعربكم ، أنا من قريش ، واسترضعت فى بنى بكر بن سعد » .. وكان عمر يقول (العرب مادة الإسلام) .. فكيف

يكون العرب عرباً فى أرض مجزأة ، وشعوب متدابرة ، لا توحدها هوية ولا قومية ، مع توافر جميع المقومات لهذه الهوية والقومية ؟

ولقد مرت بالعرب تجربة سابقة تجاه موقفهم من الشعوب الأخرى، فعندما توحدوا فى الجزيرة العربية بالإسلام ، وعندما خرجوا يجاهدون لتحرير إخوانهم فى مصر والشام والعراق من سلطان الروم والفرس جعلوا ما بأيديهم من عطاء الله بالدين والعلم والعدل والرحمة للناس جميعاً دون استعلاء أو فخر ، ودون قسوة أو انتقام .. لقد جعلوا ما بأيديهم من الهدى والعلم والقرآن رحمة للناس جميعاً .. فهل كان يعنى هذا أنهم كانوا مطالبين من قبل ، ومطالبين اليوم ، بأن يجعلوا وطنهم العربى للناس جميعاً كذلك ؟ هل تعنى عالمية الإسلام حقاً عالمية الوطن العربى ؟ .. هل تعنى عالمية الإسلام أن يكون لكل شعب من غير العرب ، تلقى الإسلام على أيدى العرب — قومية ينتمى إليها ، وأرض يدافع عنها ،وتبقى الأرض العربية مباحة للجميع ، وأهلها وقوف عليها ، يمنعهم الحياء مثلا ، أو يمنعهم الدين .. أن يدافعوا عنها ؟؟

من قال هذا ؟ .. ثم ما الذى يجرى اليوم على أرض العرب ؟ .. من هم هؤلاء الذين يحملون وحدهم منذ أكثر من ربع قرن أعباء الدفاع بأموالهم ودمائهم عن بيت المقدس ضد الغزو الصهيونى ، وضد حليف إسرائيل الاستعمارى ؟ من هم الذين يدافعون اليوم عن أرض العرب .. وعن الطرق الممتدة إلى قبلة المسلمين جميعاً .. إلى المسجد الحرام .. إلى مدينة الرسول .. وكلها أهداف يتربص بها العدو ؟ ؟

إنهم العرب الذين يحملون وحدهم أعباء هذا الدفاع المتواصل عن أرضهم وعن الإسلام، وعن المدن المقدسة التى هى مقدسة عند جميع المسلمين .... فهل الأفضل فى مواجهة العدو المدجج بالسلاح والمدعم بالحلفاء ، أن يواجهه العرب شعوباً متفرقة تلعب بها الأهواء، وتضعفها الفرقة ، أم أن يواجهوه أمة واحدة ، مالكة لإرادتها ، محتشدة حول أهدافها ، قادرة على استثمار

مواردها الكبيرة لكسب معارك السلم والحرب ، حفاظاً على حريتها ، وحتى تبقى منارة الإسلام ، ولغته وعلومه ، مضيئة باتجاه العالم الإسلامى لا تنطفىء ولا تزول ؟

ليس هناك إذن ما يثير مخاوف المسلمين فى أنحاء المعمورة من نجاح دعوة القومية العربية فى تحقيق وحدة العرب ، عندما تمضى هذه الوحدة فى اتجاهها الصحيح . ليس هناك ما يخشاه أحد — غير الأعداء — من قوة العرب ، ووحدة العرب ، إذا اتحد العرب ممسكين بدينهم وكتابهم ، معربين بلغتهم وحافظين لتاريخهم ، وذاكرين قول الله لنبيه فى القرآن الكريم (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) ٤٤ : الزخرف .. أى إن هذا الدين رسالة يبقى بها ذكرك وذكر قومك العرب ، وسوف يسألكم الله عنها قبل أن يسأل غيركم .

إن الإسلام هو الرسالة التى وحد الله بها بين شعوب العرب وقبائلهم ، وألف بها بين قلوبهم وذلك حيث يقول الله (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) ٦٣ : الأنفال وحيث يقول (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) ١٠٣ : آل عمران .

هذه النعمة بوحدة الأمة العربية على أرضها بالإسلام .. على وطن الدين الأول منذ كانت الرسالات والدعوات والكتب لا يقصرها الله فى حكمته ورحمته على العرب .. إنه يفيض بها منهم على غيرهم .. إنه يعهد إليهم بعد النبوة بعهد النبوة.. لقد جعلهم لذلك أمة وسطاً .. وشهداء على الناس بعد الرسول .. وأمرهم أن يقيموا الدين الحق أسوة لغيرهم .. وأن يحفظوا القرآن ليحفظهم .. وليحفظه من شاء من الناس عنهم .. والله من بعد ذلك سيسألهم عنها .. فهل فى وسعهم أن يحملوا هذه الأمانة الكبيرة إلا وهم أمة عربية واحدة مؤمنة .. وإلا فكيف يسألون .. ولماذا يسألون .. وعن أى رسالة سوف يسألون ؟؟

٦ — وأخيرا .. هذه الحقائق البسيطة .. هي جواب السؤال الصعب

نعم .. هو السؤال الصعب .. الصخرة التى تناثرت عليها عقول الشعوبية وامتداداتها فى الصهيونية والاستعمار والماركسية ، فى وجهات النظر المنحرفة إلى صحوة العرب المفاجئة ، ووحدتهم بالإسلام ... كيف حدث هذا فجأة ؟ ثم لماذا ظهر الإسلام بكل هذه القوة داخل جزيرة قاحلة محاصرة بالأقوياء ، وبين قبائل فقيرة متفرقة لم تبد خلال ما يزيد على خمسة وعشرين قرناً على الأقل ، أى منذ عهد إبراهيم وإسماعيل حتى عهد ظهور النبى ، أى نشاط قومى خارج حدودها ، أو رغبة فى التدخل فى شئون الدول المحيطة بها ؟

إنه فى غير التجارة التى كانوا ينقلونها من مصر عبر سيناء ، ومن الشام عن طريق بصرى إلى اليمن ، وإلى موانىء البحر الجنوبية والجنوبية الشرقية إلى الهند ، لم يكن هناك أى شكل من أشكال المعايشة .. كانت لغتهم عالية .. وملابسهم بسيطة .. ودينهم فطرياً .. كانوا معروفين فى الشمال بأنهم (أبناء إسماعيل) .. كان هذا هو دينهم .. كانوا يعرفون الله .. والكعبة التى يحجون إليها إسمها (بيت الله) .. وكانت واجهة دينهم أخلاقهم فى التجارة .. كانوا أهل صدق وعهد وأمانة ... وقد فشلت كل جهود القياصرة أن ينشروا المسيحية بينهم .. لم يتنصر إلا بعض ملوكهم فى الشام والبتراء ممن أصبح بعضهم أباطرة فى روما .. أو أنداداً للأباطرة فى بلادهم .. ؟

وظهرت بعض البقع اليهودية فى اليمن ، والحصون اليهودية شمال الحجاز ، وبعض المتابعة على مجوسية الفرس من عرب عند موانىء الخليج العربى ليسوا عرباً على الغالب ، بل من طفح الخليج .. شراذم غريبة ألقت بها السفن فحافظت على دياناتها الوثنية وتعربت .. ؟

ألم تكن كل هذه الظواهر دلالات حفاظ على حقيقة .. وانتظار لأمر .. نعم .. لقد كانوا يخشون فتنة الديانات من حولهم ... وينتظرون كتاباً يهديهم إلى الدين الحق من ربهم .. وكانوا فوق جزيرتهم ، وبقوة اتصالهم عبر منافذها بمن حولهم .. دون أن يذوبوا فى أحد .. أو أن يعتدوا على أحد .. كانوا يقطعون بين أعظم النعم مراحل النمو ، والاكتمال ، والأهبة ، لظهور هذا الدين ، ونزول هذا الكتاب ..

الأميون والكتاب : كان محور التهجم على العرب ما أشاعه اليهود ، وفسرت به الشعوبية معنى كلمة « الأميين » التى وردت بالقرآن الكريم .. فسروها بأنهم (أولئك الذين لا يقرأون ولا يكتبون) وأن هذا تأكيد من القرآن الكريم على جهل هذه الأمة التى اختارها بسبب هذا الجهل والتأخر — بزعمهم — ليكون انتصارهم آية للإسلام .. ولا فضل لهم فى هذا الانتصار .. إلا فضل الدابة التى تحمل الأسفار ؟؟

والصحيح بالضرورة .. وبقوة قوانين الله التى نسمى علمنا بها علماً ، هو أن الله لم يكن ليغاير بين الأعضاء ووظائفها .. أو بين الكلمة ومعناها .. أو بين الأمة ورسالتها .. هكذا كانت الصوفية رسالة الهند .. والطاغوت رسالة الرومان .. والدين الإلهى رسالة العرب .. وما كان الله ليقول باصطفاء العرب لدينه ، واجتبائهم لرسالته فى قوله (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج) إلا ليؤكد للناس قانوناً علمياً هو وضعه الشيء فى موضعه ، وتوجيه كل نفس إلى ما هى ميسرة له .. وكل أمة لرسالتها .. ومن قبل فإنه تعالى قد غرس النخلة فى الصحراء ، والصنوبرة فى الصقيع ، وجعل الفيل استوائياً ، والدب جليدياً، والجمل بدوياً ، وجمع بين الأجزاء المتباعدة فى وحدة الحياة المتكاملة لتتعارف الأجزاء أو تختلف ، وليبتلى الله بهذا عباده بلاء شديداً ..

فالقول بأن الله اختار أجهل الناس ليتكلموا بالعلم إنما هو زعم مردود

بقولين ثابتين بالتاريخ ، الأول أن أجهل الناس كانوا هم الظالمين والمظلومين من حول العرب ، من ضحايا القهر والشهوات والخرافات ، والخلاف الدموى على الطبيعة والطبيعتين ، داخل إمبراطوريتى الروم والفرس قرونا قبل ظهور الإسلام .. والقول الآخر هو أنه إذا كان من نصيب أجهل الناس أن يحملوا رسالة العلم والعدل والسواسية فما هو نصيب أعلم الناس الذين هم غير العرب .. ؟ ماذا قدم الروم والفرس لحرية الإنسان ، وللعلم النافع له ، وللعدل فى مجتمعه ، وللسواسية بين أفراده .. من قبل الإسلام أو من بعده ؟ ماذا قدموه مساوياً لما قدمه العرب بالإسلام .. أو قريباً منه .. ؟؟ .. لقد تعلموا أخيراً بالمنهج العربى كيف يكتشفون قوانين الطبيعة ويقيمون الصناعة بها .. فماذا حققوا بما اكتشفوه وصنعوه فى عصرنا هذا الحديث .. وهم لا يزالون يفتقدون الإيمان .. وينشرون القلق .. ويروعون السلام ؟؟

لم تكن الأمية تعنى إذن الجهل بالقراءة والكتابة .. الأمية من كلمة الأمة ، والأمة فى لغة العرب ، وفى القواميس التى بأيدينا ، معناها : الدين والشرعة والطريقة والقصد . والأمة أيضاً معناها الجيل من الناس . أو طليعتهم المهتدية إلى الحق المخالف لسائر الأديان المحرفة . هذا المعنى من حفاظ العرب قبل الإسلام ، وهم أبناء إسماعيل وإبراهيم — على دين لهم يخالفون به سائر الأديان الشائعة حولهم — يحدد معنى الأمية فى الأميين بأنها اعتناق دين ، أو طريقة أو شرعة ، يميلون بها عن كل دين آخر .. ولكن ، هل كل من له دين أو شرعة يتمسك بها ولا يرغب عنها إلى غيرها يسمى (أمياً) ؟؟

هنا يتبادر إلينا من الحقائق المطموسة ما يعطى معنى كلمة (الأميين) أبعاداً جديدة تجعله خاصاً بالعرب ، وقاصراً على مرحلة تاريخية بذاتها ، انتظروا فيها هذا الكتاب الذى يهديهم إلى الحق فى دينهم ، ويصدقهم فيما انتظروه به من وعد الله لهم ..

من هذه الحقائق أن العرب كانوا حول الكعبة وبيت الله يتذاكرون فى

مواسم الحج كل عام تذاكراً جماعياً بكل قبائلهم أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل.. وأنهم على بقية من دين إبراهيم الحنيف ، ينتظرون ما توارثوه من وعد الله لهم بالكتاب والنبوة ، ينتظرون هذا الوعد فى جيل منهم أى « أمة » وينتظرون بعد « أمة » أى بعد فترة من الزمن ، وينتظرونه «حنفاء» عن أى دين غير دين إبراهيم ، فكل هذا صنع فيهم معنى « الأميين » .

لقد كانت كلمة (الحنيف) حية فى تراثهم ... كانت الدلالة والإشارة المشرقة دائماً إلى المستقبل .. كانت عنصر الحفاظ الأكبر على ما بقى لهم من وصايا الآباء .. ومن صحف إبراهيم .. وهم يميلون عن أى دين أو كتاب يخرجون به عن دائرة (الأميين) .. أى حدود الأمة التى تنتظر الرسول والكتاب والدين الحق ، فى أمة ، وبعد أمة . لذلك فقد كانوا بصفة عامة يتحنفون ، أى يميلون عن أى دين غير الذى بقى لهم من إبراهيم حتى ينزل عليهم فيه كتاب .. وكان حكماؤهم وشيوخهم يتحنفون أيضاً ... بمعنى أنهم كانوا يتعبدون أو يعكفون فى البيت ، أو حول البيت .. للتفكر .. والقرب إلى الله .. والدعاء له أن ينجز الوعد .. فيكون لهم الرسول والكتاب .. وهكذا كان تحنف النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء قبل البعثة .. لقد تحنف وتحنث بنفس المعنى وهو ينتظر وعد الله لإبراهيم وإسماعيل .. ويدعوه به .. وإن لم يكن يدرى فى أول الأمر أن الله كان يعده هو لهذا الموعود العظيم ؟

ولم تكن كلمة (الأميين) بمعنى الأمة التى تنتظر كتاباً ورسولا يهديها إلى الحق — خافياً عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى .. لقد ذكر القرآن أنهم كانوا يعرفون ويجحدون — إلا قليلا منهم — وذلك حيث يقول سبحانه عن اليهود فى المدينة (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) ٨٩ : البقرة . ويقول على لسان المسيح (ومبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد) ٦ : الصف . ويقول عن انتظار أهل الكتاب جميعاً له ويقينهم بحدوثه بين أبناء إسماعيل (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ٢٠ : الأنعام .

فإذا كان هذا هو توقع أهل الكتاب ، وانتظارهم لهذا الرسول فى هذه الجزيرة ، وبين هؤلاء العرب أبناء إسماعيل ، فهل يكون معقولا أن هؤلاء العرب أنفسهم ، وهم يطوفون ببيت الله العتيق على أرضهم ، البيت الذى أقام قواعده أبوهم إبراهيم ، الذى هو أبو موسى والمسيح من فرع اسحق ، وأبو إسماعيل الذين هم أبناؤه .. هل يكون معقولا أن لا تكون هذه الأمة ، التى لها دين وطريقة وشريعة تخالف سائر الأديان — لا تنتظر كما ينتظر أهل الكتاب .. ولا تعرف بالوعد والرسول والكتاب كما يعرف ذلك اليهود والنصارى ؟؟

إذن فقد كانوا أمة لها دين عن إبراهيم وإسماعيل .. وتنتظر كتاباً ورسولا فى وعد الله الحق لإبراهيم وإسماعيل .. الوعد الذى تناقلوه بالرواية كما تناقله أهل الكتاب فى الكتب .. الوعد الذى حافظوا به واستعصموا فرفضوا اليهودية والنصرانية .. وطلبوا ما هو أهدى لهم منهما .. إذن فقد كان (الأميون) فى آيات القرآن الكريم لا تعنى مطاقاً من لا يعرفون القراءة والكتابة ، وإنما تعنى من ينتظرون الكتاب والرسول ليكونوا أهدى إلى الله ممن سبق .. وهذا هو ما يؤيده كتاب الله لهم ، وسياق التاريخ الصادق الذى لا يزال يحمل أنباءهم ..

يقول الله فى انتظارهم الكتاب ، وقسمهم بالله أن يكونوا به إذا جاءهم الرسول أهدى من اليهود والنصارى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) ٤٢ : فاطر . ويقول (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم) ١٥٧ : الأنعام

بل يؤكد الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم أن ما أنزله إليهم من الدين والكتاب والإسلام لم يكن غريباً عنهم ، وكان منتظراً منهم ، كما يعرفون ن إبراهيم أباهم ، وأن الكعبة بيت الله على أرضهم ، وهو فى ذلك يقول لهم ببيان القرآن المبين (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم أم هم له منكرون) ٦٨ ، ٦٩ : المؤمنون .

لم يكن العرب إذن (أميين) بمعنى أنهم (لا يقرأون ولا يكتبون) .. وكيف يكون ذلك وقد كانوا أهدى سبيلا ، وأرجح عقلا ، ممن كانوا حولهم لا يكتبون إلا تلك الأوهام لأنفسهم وعبيدهم .. وكيف وقد كانت الكتابة نفسها بهذه الحروف الأبجدية معروفة لهم ، بل كانت من اختراع وتطوير فصائلهم فى سيناء ، وفى بعض المدن العربية على البحر الأبيض .. لقد كانت الكتابة اختراعاً إنسانياً أضاء به عقل عربى على طريق تخصصه فى الهداية والضبط والشمول . وهكذا تعلم اليونان والفرس ومن بعدهم هذه الأبجدية العربية بعد أن طوروها وحوروها بحسب أمزجتهم .. لقد علمهم العرب هذه الأبجدية التى لا يزالون يسمونها إلى اليوم (الألفابيتا) وهى الألف على شكل رجل ، والباء على شكل البيت العربى كما سجلها العرب الأوائل ، وإن اختلف ذلك فى حروف الغرب .

لم يكن العرب أميين إذن بمعنى (لا يقرأون ولا يكتبون) وإلا فمن ذا الذى كتب لهم المعلقات الخالدة التى علقوها على باب الكعبة إيثاراً لما فيها من اللغة والمعروف والحكمة وحياة البداوة التى هى حصنهم للحرية والمروءة والبيان — وإنما كان معنى (الأميين) أنهم هذه الأمة بذاتها من أبناء إسماعيل الذين كانوا ينتظرون كتاباً ورسولا من عند الله ، إلى أن جاءهم الرسول فصدقوه ، والكتاب فآمنوا به ، وكانوا كما قالوا أهدى به ممن سبق ..

يقول الله سبحانه (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) ٢ : الجمعة فهل يكون معنى هذا — على مفهوم التفاسير اليهودية والشعوبية — أن الله بعث فيمن لا يقرأون ولا يكتبون واحداً منهم (لا يقرأ ولا يكتب) .. هل يستوى هذا المعنى مع حقائق القرآن ، ومع ما أشرنا إليه موجزاً من أخبار هذه الأمة ؟ أم يكون المعنى واضحاً وجلياً هو أن الله بعث فيمن كانوا ينتظرون الرسول والكتاب ليهتدوا .. هذا الرسول الذى كان ينتظر ذلك مثلهم ؟

وكذلك يقول الله زيادة فى تأكيد المعنى الصحيح (فآمنوا بالله ورسوله

النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) ١٥٨ : الأعراف .. أى آمنوا بهذا النبي الذى يؤمن بالله وكلماته فى كتابه كما كان ينتظرها معكم ..

ويقول الله أيضاً للنبي (ما كنت تدرى ما الكتاب وما الإيمان) ٥٢ : الشورى . أى ما كنت وأنت تنتظر الكتاب مع قومك الأميين تدرى كيف يكون نزوله عليك بالوحى ، وكيف يكون حال (الإيمان) به ومظاهره فى الخشوع ، ولين القلب ، وسلام النفس والتطهر ، والتخلق بخلق هذا الكتاب وصدق المجاهدة للشرك والمشركين .... حتى كان الوحى ، ونزل الكتاب ، فعلمت ذلك بعد أن ثقل عليك الأمر أول نزول القرآن ..

ويقول الله (وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون) ٤٨ : العنكبوت — والمعنى ليس إثباتاً لأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب ، بل هو إثبات المعنى الصحيح أساساً وهو أن النبي على سنة الأميين من قومه كان لا ينظر باتجاه الكتب السابقة التى أصابها التحريف فى أيدى اليهود والنصارى ، وفى واقع حياتهم بين العرب . ولقد كان بوسعه أن يستمع إلى ما كان يعرضه أهل الكتاب منها ، وإن كان هو لا يقرأ .. ولكنه لم يكن ليفعل ، بل كان يتحنف فى انتظار الصحيح والحق .. أما كونه صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب فلم يكن ذلك قصوراً منه ، أو أمراً عاماً فى قومه ، بل كان فى مشيئة الله ليدفع عنه شبهة النظر فى كتب اليهود والنصارى ، وحتى لا يرتاب المبطلون فى أن ما نزل عايه إنما هو الكتاب الذى انتظروه طويلا من الله ..

ويقول الله فى تأكيد هذا المعنى أيضاً وهو خاص بالأميين من أهل الكتاب ، مع أنهم يقرأون ويكتبون ومعهم كتاب (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) ٧٨ : البقرة . والمعنى واضح فى اتجاه ما نراه وهو أنه مع وجود (كتاب) بأيدى أهل الكتاب فإن منهم من لا يملكون من هذا الكتاب الذى حرفوه وأضاعوه إلا (الأمانى) فهم بذلك قد عادوا بغير

كتاب .. غادوا أميين ينتظرون مع العرب هذا الكتاب الذى يهديهم إلى الحق وسواء السبيل .

وثمة فى شعر العرب القديم ، وفيما أشار إليه القرآن بعد نزوله ، ما يضيف ضوءاً جديداً إلى هذا المعنى فى كلمة (الأميين) وهو أن العرب فى جزيرتهم كانوا بعد الأمم السابقة يعيشون حياة المستخلفين بالله فى الأرض .. فلقد صارت إليهم الأرض والنعمة والتاريخ والعبرة بعد تلك الأمم .. فهم حيث يمرون فى ترحلهم القريب والبعيد يرون الحياة كتاباً مفتوحاً متجدد العلم والحكمة والدلالة والموعظة .. يرون كل شىء يصير إلى شىء .. وكل حال يخرج من حال .. فاليوم يمضى .. والغد يقبل .. وما تنقص الأيام والدهر ينفد .. فما هو اليوم: أناس يلهون ويسمرون، ويحبون ويأملون .. يكون بالغد فرقة وشتاتاً ، ودمناً وأطلالا ، ودموعاً وذكرى .. فما لشىء بقـاء .. وما لنعمة قرار .. وكل شىء مضى أو حضر هو فى صيرورة إلى الله ، وانتهاء إليه ، واعتبار به .. وهكذا كانوا فى أسفارهم البعيدة يمرون على بقايا الأمم التى عصت وبادت فتلك (مساكنهم لم تسكن من بعدهم) .. يمرون ببقايا عاد جنوباً .. وآثار ثمود وسدوم شمالا ، فيعتبرون ويتذكرون ، ويستمسكون بما فى أيديهم من وعد الله ووصايا الآباء وينتظرون .. ينتظرون الرسول والكتاب .. والحق والهدى فلهذا كانوا (الأميين) ، حتى ظهر الإسلام ، وتحقق الوعد ، فكانوا هم المسلمين .. كانوا الأميين على علم فى أيديهم .. وعلم مبين ينتظرونه من ربهم ..

يقول الله فى خلافتهم (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ١٤ : يونس .. ويقول فى نعمته عليهم وقد استخلفهم ليشكروه ويعبدوه (لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف).. قريش .

وأما العظة بمن قبلهم من الأمم ، وهم يمرون عليهم فى أسفارهم بالليل والنهار داخل الجزيرة العربية وخارجها ، فقد كانت جلية لهم ، ومرفوعة بالنذير أمام أعينهم ، وفى هذا يقول الله ليذكرهم بما يعلمون (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة) ١٤ : فاطر .. ويقول (ثم دمرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين) ١٣٦ و ١٣٧ : الصافات .

والآن .. إلى جولة قريبة بين نعم الله لهؤلاء (الأميين) الذين استمسكوا ببقية دين إبراهيم(*).. حنفاء به عن غيره .. حتى نزل عليهم الكتاب فطهرهم من غبار القرون ، وطول الأمد ، وعقابيل ما سقط عليهم من أصنام الأمم المجاورة ، ومن فتنة اليهود ومكائدهم ، ومن بوادر اللهو والبطر ، ومخاطر العصبية والفرقة ، وهو — أى القرآن — بينهم يكفكف أسباب العداوة ، ويلقى عنهم أوزار الحروب ، ويدفع بهم بعيداً عن شفا حفرة النار بالتفانى وتقاطع الأرحام .. ليؤلف بين قلوبهم بالإيمان .. ولينظم ألفتهم ووحدتهم بالشريعة .. وليجعلهم بنعمة الله ، إلى ما شاء الله ، إخوانا ..

أعظم النعم : لقد أتاح الله للعرب فى جزيرتهم بشهادته فى القرآن الكريم أعظم النعم التى تتاح لبشر ، ثم دعاهم إلى الشكر عليها ، وهو يخيرهم بين الطاعة والرضوان ، وبين المعصية والعذاب .. فاختاروا الطاعة لله ولرسوله .. ونصر الله جيلهم الأول بعد حروب تأديبية لم يزد شهداؤها وقتلاها من

(*) عاش العرب من بناء إسماعيل متمسكين بما معهم من دين ابراهيم ووصاياه نحواً من خمسة وعشرين قرنا ، فقد ظهر ابراهيم عليه السلام نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد وولد النبى صلى الله عليه وسلم على الأرجح لسنة ٥٧٠ ميلادية ، فكان استمساكهم بهذا الدين حول بيت الله رغم المتغيرات الكبيرة ، ورغم اليهودية والنصرانية هو فى حد ذاته آية من أعظم الآيات حققت لهم تقبل الاسلام على أكمل وجه عندما دعاهم النبى إليه .

المؤمنين والمشركين على بضع مئات ، هم أقل مما يذهب فى يوم واحد من ضحايا دولة معاصرة فى حوادث الطرق ؟ .. وبوحدة العرب فى كل الجزيرة ثبت الإسلام فيهم ، لينتقل منهم وينتشر بآلاء الله به فى أنحاء الأرض .. وليبقى معهم دائماً كتاب الله وسنة رسوله ليتجدد العهد .

هذه النعم فى تكاملها لم تكن فى تكوين العربى الأول عطية سهلة ، أو هبة معفاة من المشقة ، لقد كانت هى الاختيار الصعب ، والابتلاء المبين ، من أجل ما هو أفضل .. لقد كانت هى اختيار الجدب على الخصب ، والترحل على الاستقرار ، والبذل على الشح ، والحفاظ على الحرية ، بالسلاح على ظهور الخيل ، حفاظاً مع هذه الحرية على المعروف ، وحصانة النساء ، والجار ، والحقوق — بدلا من راحة الاستسلام وراء الجدران ، أو بعيداً عن الخطر ، تحت وطأة دولة تذهب ، وأخرى تجيء ؟

لقد كانت هذه النعم التى حباهم بها الله نعماً مدفوعة الثمن العاجل باليقظة والجد ، والمال والنفس .. وهو ثمن لا ينتهى سداده مرة واحدة ، بل هو ثمن يلاحقهم ويطاردهم بالغدو والرواح .. ثمن يتجدد عن كل لحظة من لحظات كمال الحرية ، وتمام المروءة ، وصحة النفس ، وسيادة الإرادة ، وصدق التعبير .. إنه هو نفس الثمن الذى طالب الله به بنو إسرائيل فما ظلوا وكذبوا مراراً ولم يدفعوه .. عجزوا عن دفعه .. بل طالبوا الله أن يدفعه عنهم ؟ .. لقد أخرجهم الله من نير فرعون بقوة (العصا) فى يد موسى ، وليس بجهدهم وجهادهم .. ولكنهم عندما رأوا البداء المشرق فى سيناء فزعوا . تداخلوا فى بعض وانخرطوا فى البكاء .. أصابهم الرعب من الآفاق والسكينة .. ومن الملكوت المسبح فى الأرض والسماء .. وعندما جاعوا وجاءهم العسل والسلوى زاموا .. وحنوا حنين الدجاج إلى العدس والفول والبصل .. لقد عجزوا عن ساعات فى صحراء سيناء التى عبروها إلى مدين شرقى العقبة حيث نزلت التوراة على جبل حوريب .. وفى طريقهم عبر سيناء غادوا مع البكاء

والخوف إلى عبادة العجل ؟ .. فالعجل المتجسد له بدن يلمسونه . وله خوار يأنسون إليه .. فهكذا كان العجل أقرب إليهم من الله .. وكان هو الرب الأجدر أن يتلاعبوا بدينهم بين يديه ؟ .. وكانت القاصمة أن يدعوهم موسى ليقاتلوا .. إذن فلقد كان تمريغهم الخدود تحت أقدام فرعون أحب إليهم مع الأمن من القتال .. لقد رفضوا بشجاعة أن يدفعوا ثمن الحرية .. ثمن الصدق بإرادة الإيمان .. قالوا لموسى (فاذهب انت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وهكذا تاهوا .. تاهوا في الأرض .. وعن أنفسهم .. وعن الله .. وفقدوا الحياة .. وإن كانوا حتى اليوم يعيشون .. ويبكون .. ويكذبون..ويسرقون ؟

فهؤلاء العرب الذين جعلوا الصحراء بقساوتها وجدبها حصناً لهم ،وخصباً لمكارمهم .. آلاف السنين وعشرات القرون .. فلا يكاد أحد يشنعر بهم ، أو يقتحم عليهم أمانهم .. هؤلاء العرب دفعوا ثمن النعم الكبرى التي أنعم الله بها عليهم .. دفعوها وهم يستخلصونها من الشمس المحرقة .. والليالي الموحشة . من الرياح والأعاصير .. ومن الجبال والأخاديد .. ومن الفلوات والقفار .. لقد استخلصوا الشبع من الجوع .. والأمن من الخوف .. والحلم من الغضب . والحرية من تشابك الأسنة ، وتقارع السيوف ، واسترخاص الموت .. ؟

ومن خلال ذلك كله تعلموا أن يحاكوا بأصواتهم في اللغة قوانين الطبيعة في التعبير والحركة والاتساق ، وأن يصوغوها على ما فهموا من حكمة الله في الخلق ، ومن مشيئة الله في الأشياء ، فجاؤوا بهذا اللسان المبين وحياً من الله في ألسنتهم من حياتهم .. وحياً يعبرون به وأعينهم وقلوبهم مفتوحة على الأرض والسماء .. وحيا يعبرون به في الكلمة الحرة عن الدنيوى والأخروى .. عن البشرى والإلهى .. عن الزائل والذى لا يزول .. فكانت لغتهم منذ نشأت في ألسنتهم وقلوبهم لغة الدين واليقين والحق .. اللغة التي شاء الله أن تجتمع في كلماتها ومعانيها — على هذا الحق — وحدة الصورة والإيقاع .. والظاهر والباطن .. والشهادة والغيب .. وبهذا أشرقت بكل كمالها ومرونتها وشرفها لينزل بها القرآن الكريم ..

الحرية الكاملة : لقد عاش العرب على أرضهم — بين هذه النعم التى صعدوا إليها درج المشقات ، واختاروها ، وعرفوا حقوقها .. لقد عاشوا أحراراً لا يذوقون هوان التبعية لأحد .. عاشوا أحراراً بالمفهوم الذى تفردوا به .. عاشوا هذه الحرية الكاملة التى تعنى (المروءة) .. أى صحوة الإنسان الكامل الذى تنزه بحريته وإرادته عن العيب ، وجعل نفسه بهذه الحرية سنداً للحق ، ونصيراً للضعفاء ، ومؤثراً أخاه على نفسه .. ولو بحياته .

وكان أول مظاهر هذه الحرية الواسعة ، هذا الأمن السابغ الذى اقترن فى حياتهم بجوار بيت الله ، هذا البيت العتيق الذى وضعه على أرضهم ليكون مثابة لهم وأمناً ، وليكونوا بالحرية أسواراً حوله وجنوداً ..

يقول الله (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين) ٩٦ : آل عمران . ويقول على لسان إبراهيم فى حكمة اختياره جوار البيت لنشأة ذريته : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة) ٣٧ : إبراهيم .. فمنذ رفع إبراهيم القواعد من البيت ، واختار الهجرة إليه لتسكن ذريته من حوله ، وقد ارتبط المقام فى هذا البداء بالدين والصلاة ، وارتبط البيت الذى هو منارة الدين بالأمن والغنى ، وما كان ليكون هناك أمن قط لو أن الله كان قد غرس بيته هذا فى واد به زرع ، ينبت فى حمأته الملوك والكهنة ، والمستضعفون والمستسلمون. لقد ارتبط بيت الله فى مكة بالدين والأمن ،.. وحيث مع البداء والرحلة حول البيت ، والتفرق والتجمع عند البيت ، أصبح هؤلاء (الأميون) فى رحلتهم للعيش ، وانتظارهم للكتاب ، وتوحدهم وتعايشهم فى مواسم الحج ، وشعائر الحج ، قادرين على امتلاك حريتهم ، وإرادتهم ، وتوجيه حياتهم بهذه الحرية والإرادة ليبقى بيت الله فى موضعه مثابة لهم وأمناً ، وهدى إلى الله وذكرا .. وفى هذا يقول الله : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) ٩٧ : المائدة .. أى حافظاً لوحدتهم وقوميتهم يقومون له ، ويجتمعون من حوله .

لقد عاشوا أحراراً يدفعون ثمن الحرية ليأمنوا من حولهم من جبابرة الحضارة مثل الإسكندر .. والإمبراطور قسطنيانوس الأول الذى حرض أبرهة على غزو مكة وهدم الكعبة .. ومثل كسرى الذى هزمت قبائل بكر جيوشه فى موقعة ذى قار على عهد النبي عليه الصلاة والسلام قبل بعثته .. فهؤلاء الجبابرة وأمثالهم لم يتركوا جزيرة العرب لأهلها زهداً فيها ، أو تعففاً عن ظلم أهلها ، فلقد كان فيها من الطرق التجارية التى تصل بين الشام ومصر واليمن ، وبين أوروبا والهند والصين ، والتى استقل العرب بنقل التجارة عبرها ، ما يسيل له لعاب الطامعين .. ولكنهم عجزوا كباراً وصغاراً .. أباطرة وعملاء .. أمام أرض حاميتها كل أهلها .. وقد انتبذوا فوقها بسلاحهم بعيداً عن الأسوار ، يقاتلون عنها كيفما شاؤوا .. على ظهور الخيل .. وفوق قمم الجبال .. يظهرون ويختفون .. ثم يظهرون مرة أخرى من حيث لا يتوقع العدو .. بينما الرمل والصخر ، والقيظ والأعصار ، والصمت والتيه تقاتل معهم .. وتثخن فى أعدائهم .. وتلقى فى قلوبهم الرعب .. وتهزمهم .

اللغة المبينة: بهذه الحرية فى كمالها ، والعرب يحرسون بها الأرض والدين والكرامة والمعروف ، والجار والضعيف ، بلغوا بلسانهم كمال التعبير .. وارتقوا ببيانهم إلى اللغة المرشدة .. وهم يعبرون أنواع المتاهات ويطلبون الهدى .. وينظرون فيما بين الأرض والسماء وينشدون العلم .. ويجدون آلاء الله فى كل شيء فيشكرون الله .. ويلهمهم الله .

نعم .. لقد كان مقتضي النعمة بكمال الحرية أن ينعم الله عليهم بكمال التعبير .. لقد توفرت للعربى هذه الحرية الفردية ، والاجتماعية ، والإنسانية ، بمعنى المروءة ، وحق الرجل والمرأة أن يحمى كل منهما الجار واللاجيء فوق سلطان قبيلته ، أو أية قبيلة أخرى ، إذعانا لحق الإنسان الآخر فى الحياة ، وواجب الإنسان أن يحفظ على أخيه الحياة ..

لقد توفرت لهم هذه الحريات المعدومة والمجهولة فى الأرض المجاورة لهم ،

والتى لا تزال فى حكم الخرافة والأساطير فى العصر الحديث — فتوفرت بها لهم حرية (الشعور) الذى انتظموا به مع الحياة الطبيعية وقوانينها بغير قهر .. أو قصور . وبالشعور الحر غرسوا قلوبهم وعقولهم فى قوانين هذه الطبيعة التى ارتاضوا لها ، فبثتهم يقينها ، ومنحتهم كنوزها ، ووهبتهم أصواتها ، وهم فى سعيهم بين مشاهدها ورياحها ، وأضوائها وغيوثها ، يرون الله فى كل شىء ، ويدأبون على التقصى والإدراك لكل شىء ، فى حدود ما يملكون بالحس رؤيته ، وما يبلغون بالبصيرة مداه ، متنزهين برشد العلم الممكن ، وبصيرة الشاهد المتمكن ، عن حماقة من حولهم ، من المتعالمين القاعدين الذين يسألون عن المستحيل ، ويتفلسفون فى الغيب ، ويجهلون المتاح ، ساقطين بذلك عن صهوة الحياة، لكى تطأهم الأفهام والأقدام دون علم الحياة ، وحكمة الحياة ..

لقد كان العرب بحرية الحركة ، وحرية الأخلاق ، وحرية الشعور ، وقد أسلموا قيادهم لثوابت الطبيعة ، واطمأنوا لعلمها ، وتطامنوا لفيئها وسرائرها وظواهرها كأنهم — وهم يستخلصون لغتهم على إيقاعها — عقل الطبيعة ولسانها .. كأنهم عقل الأشياء الناطق ، ولسان الأشياء المعبر ، ونشيد الطبيعة المكبر .. فى فم الإنسان ؟

من أجل ذلك صار العرب (عرباً) بقدر ما حملته الأسماء فى لسانهم من حقائق الطبع ، وحكمة الخلق ، وودائع الفطرة ، وبياناً عن بيانهم بهذا الإسم الذى صار علماً عليهم ، وإعراباً عن هذه الطبيعة الفتية القوية الشاهدة فى لغتهم على الله والخلق والغيب، بما لم تلخصه لغة قبلها ، ولم يعرب عنه لسان سواها ولا بعدها ..

لقد كانت الحرية الكاملة إذن هى طريقهم الممهد إلى حرية التعبير الكامل وكمال التعبير الحر ، الذى قادهم فى نعمة الله إلى الله ، وهم يعلمون أنه هو الذى أحسن على تلك الجزيرة خلقهم ، وأطلق بين آياته ألسنتهم ، وألزمهم

بهذا البرهان فى بيانهم حجته عليهم ، وأعدهم بذلك لينزل كتابه وقرآنه فيهم . ليسيروا بسيرته فى حياتهم ، وليشهدوا بسلوكهم به ، ودعوتهم إليه على من هم أحوج إليه ممن عاشوا حولهم .. من الذين صوروا الحق بغير صورته ، فأنكروه ، وقتلوه ، وهم يتظاهرون بالدفاع عنه .. وممن سموا الباطل بغير اسمه ، فتعشقوه ، وتظالموا فيه ، وهم يتظاهرون بالتبرؤ منه .

ومن أجل ذلك أيضاً سمى العرب من لا يعلمون علم لغتهم ، ولايستبينون حقائق بيانهم .. عجماً .. ومن العجمة فقدان الطرق إلى الحرية ، وفقدان التقويم والتكريم للإنسانية ، وفقدان الدليل إلى الله ، ولهذا فلم ينزل إلى العجم كتاب ، ولم يظهر بين العجم رسول ، ولم ينشأ بالعجم دين حق يكونون أهلا لتلقيه تلقياً مباشراً عن الله فى كتاب ورسول . فالتعريب الذى حاربوه بعد أن مالوا بكل ما فيه من اللغة والدين والحق إلى التأويل — هو طريقهم الوحيد إلى الدين الحق ، وإلى الإيمان الصادق ، وإلى التطهر المنيب .. من استطاع منهم إلى ذلك سبيلا .. ولكنهم لا يريدون أن يتعربوا ، ويريدون للعرب أن يستعجموا .. ؟

لذلك كان القرآن منذ نزوله هو أمانة العرب العظمى لأنفسهم ولغيرهم ، وذلك حيث يقول الله (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) ٢ : فصلت ،وحيث يؤكد الله استحالة أن تكون العجمة لسان القرآن ، أو من يراد له أن يتدبر القرآن ، ويؤمن بالقرآن ، فهو سبحانه يقول (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، بل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) ٤٤ : فصلت .

لقد جاء القرآن الكريم بما لم يسعه كلام من قبل ومن بعد برهاناً حياً وخالداً على ما وسعته هذه اللغة العربية من جليل المعانى ودقيقها ، ومن بداءة الصور وروائعها ، مما لا تزال تقصر عنه أى لغة أخرى . وفى هذه السعة التى أدركها بعض علماء اللغة المستعربين ، يقول ابن جنى فى (الخصائص) : « إن العربى

إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد إليه . فقد حكى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ، ولا سبقهما أحد إليها » .

ويقول المستشرق الألمانى نولدكه رغم تحامله على العرب وقصور فهمه : (إنا ليتملكنا الإعجاب بغنى اللغة العربية ، إذا ذكرنا بساطة الحياة العربية وشئونها وتوحد مناظر بلادهم وإطرادها) .

لقد تملك الإعجاب هذا المستشرق رغم ما يزعمه من (بساطة الحياة وتوحد المناظر) وكأنما بساطة العيش توقف وقائع الحياة اليومية ، وكأن توحد المناظر يلغى التدفق الغنى بهذه الحقائق التى يتاح للعربى وحده فى حرية حياته ، وحرية تعبيره أن يراها وأن يستوعبها ، وأن يعبر عنها أكثر من غيره ، من حيث كان يعتقد أن كل ما كان يقع عليه نظره — وما أعظمه وأرحبه وأغناه — ملك الله إليه ، ونعمته المسخرة له .

ولقد تملك الإعجاب باللغة العربية هذا المستشرق رغم قصوره ، ورغم أن الكثير مما زخرت به اللغة العربية من حكمة وشعر وتاريخ لم يصل إلينا . وفى هذه الحقيقة يقول أحد علماء اللغة العرب — أبو عمر بن العلاء — مخاطباً أهل الأمصار العربية « ما انتهى إليكم مما قاله العرب إلاّ أقله .. ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ..

ويقول التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وهو يقارن اللغة العربية إلى غيرها : « ما وجدنا لشىء من هذه اللغات نصوع العربية ، أعنى الانفراج فى كلماتها ، والغناء الذى نجده فى حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ، والمعادلة التى نذوقها فى أمثلتها ، والمساواة التى لا تجحد فى أبنيتها » ..

وحول هذا الكمال اللغوى ، الذى هو تلخيص كمال حياة وأمة ، والذى خشعت له كبرياء أكثر المستشرقين خصومة للعرب والإسلام ، يقول المستشرق واللاهوتى الفرنسى جوزيف أرنست رينان (ربما كانت اللغة العربية

هي الظاهرة الأشد غرابة ، والأكثر استعصاء على الشرح والتعليل . فهذه اللغة المجهولة ما قبل التاريخ تبدو لنا فجأة — بظهور الإسلام — بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي) »

بذلك استحقت اللغة العربية أن تكون عند من يعقل الحق،ويعي التاريخ، ويتبصر الواقع — هي اللغة الدينة — بين لغات البشر — التي كانت محور قومية العرب، وعنوانهم في التاريخ ، والتي أصبحت بعد نزول القرآن منبعهم الذي لا يغيض لوعي الإسلام ، والتزامهم أن يقوموا به ، وأن يدافعوا عنه .. ومثل هذا المعنى الذي تتأكد به وحدة اللغة العربية والدين ، ما يقوله الثعالبي في كتابه (فقه اللغة) « ومن هداه الله للإسلام اعتقد أن اللغة العربية في اللغات والألسنة والإقبال عليها ، من الديانة » .

الدين والمعروف : وكان الطريق من الحرية إلى اللغة ، هو الطريق الممتد إلى غايته من اللغة إلى الدين . فلقد عرف العرب عن هذا الطريق قبل غيرهم ، وأكثر من غيرهم طريق الله ، وسموه باسمه ، سموه (الله) الذي هو في ندائهم الإله الحق ، الذي لا يتجسد تجسداً بشرياً ، وليس له شبيه أو شريك ، إذ هو الأعلى فوق الخلق ، وفوق الشبيه ، وفوق الشريك ، وفوق الزمان والمكان والصورة .

لقد عرفوه من غير فلسفة ، ولا كلام في الماهية والجوهر ، أو القديم والحديث ، أو واجب الوجود وممكن الوجود .. لقد عرفوه باسمه الحق الذي تلقوه عنه تلقياً لغوياً صحيحاً كاملا ، في ندائهم الدائم له (الله) أي الذي هو في جلاء الإشارة بهذه الكلمة وجلالها (هو) .. في هاء الغائب .. هو المعلوم بأل التعريف ، والعظيم بأل التعظيم .. هو الغائب عن الحس .. الحاضر بمشيئته في كل شيء .. أمام وعي الإنسان وإدراكه وبصيرته ..

بهذه المعرفة الصادقة .. وبهذا الإسم الذي لا يزال هو اسم الله تعالى .. بينما تسقط أسماء الآلهة الكاذبة في مواطنها واحداً بعد واحد .. بهذا الإسم الحق،

والتوجه الصادق إليه من خلال القول والعمل ، عرف العرب الله هذه المعرفة (العملية) فى دوام حاجتهم إليه ، وشكرهم على نعمته ، وصبرهم على بلائه ، وتذكرهم له فى مواسم الحج ، ومواقف البأس ، وبشاشات المعروف ، وصحوات الحلم بعد الجهل ، والذكر بعد النسيان ..

لقد عرفوا أنهم أبناء إسماعيل ، يدورون فى حياتهم الواسعة حول مثابة مركزية هى بيت الله ، وقبلة الحج ، ومعتكف الصلاة .. وهم ببقية دين ابراهيم ووصايا إسماعيل ، التى تشبثت بها أعمالهم وأقوالهم ، وتمسكت بها ذاكرتهم وواعيتهم ، عرفوا المعروف ، وتواصوا به ، واستنكروا المنكر وتناهوا عنه .. وعند بيت الله كانوا يجتمعون حول أعلام المعروف وراياته ، المعروف الذى هو الدين بالفطرة ، والدين بغير معلم ، وكانوا يتعلمون من هذا المعروف أول الوفاء لعهد الله بحرمة بيته ، وأمن الحاجين إليه ، فأمنوا بهذا المعروف إلى بقاء الدين ، وبقيت ببقاء الدين كلمة (الله) ، ونشطت تحت كلمة الله وصايا إبراهيم وإسماعيل فى الحكمة والخطابة والشعر ، وتجمعت فى حشود هذه الكلمات قلوب المتنافرين ، وقويت ألفتهم بها ، واستقرت أوضاعهم عليها ، وكلما نسوا ذكرتهم الأشهر الحرم فرجعوا إلى الدين ، وأنابوا إلى الله ، واستمسكوا بالمعروف .. وهم من حقبة إلى حقبة ، ومن جيل إلى جيل ينتظرون هذا الموعود الحق .. كتاباً من الله .. ورسولا إليهم من أنفسهم .. يصدقونه .. ويحملون به الحق إلى العالمين ..

فهل مثل هؤلاء هم (الوثنيون) فى هذا العالم .. الذين لا يعبدون إلا الأحجار والأصنام .. واللصوص النهابون .. أكثر مما نهب الأكاسرة والقياصرة ، والمرازبة والدهاقنة .. والذين لم يسمعوا قط بكلمة (الله) .. ولم يهش قلبهم يوماً لمعروف .. أو يتفتح عقلهم لمعلوم .. حتى جاءهم القرآن ؟؟ فلماذا كان يجيئهم إن كانوا حقاً كذلك ؟. ولماذا إن كان هؤلاء المتهجمون عليهم يؤمنون بالقرآن لا يصدقون القرآن ، وهو الشاهد على أن الله كان هو (العلم

والمعاوم) لهؤلاء العرب بلا ريب .. وأن ما عداه كان غفلة ولهواً وبطراً لم يبق منه شيء ، عندما رجع إليهم دينهم ، ومعروفهم ، على صوت القرآن ، ودعوة الرسول ..

يقول الله فى أن الله الحق هو عمود دينهم وإيمانهم (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) ٢٥ : لقمان .. ويقول (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن العزيز العليم) ٩ : الزخرف .

ولكن الذين أرادوا الانتقاص من العرب بهذه الوثنية نفسها التى حذقوها ، والتى كانت كبيرة العرب عندهم — كما أشرنا قبل — أنهم لم يحذقوها مثلهم ، وأنها كانت فوق أحلامهم ومكارمهم ودينهم أثواباً خلقة فخلعوها ، وتبرأوا منها ، واستقاموا على الطريقة التى نشأوا عليها .. كانت هذه الأصنام فى جفائها، وفى أخلاطها الوافدة من الشام عن طريق اليونان وغير اليونان دليل الفتنة بها بعد حكمة ، والغفلة إليها بعد صحوة .. لم تكن قط أصنامهم ، ولا آلهتهم ، ولم يكن لهذه الأصنام فى حياتهم كتاب كالإلياذة ، أو الأفستا ، يحدد وظائف هذه الأحجار المجلوبة الذليلة فى تفسير الحياة ، وتصور الخلق ، وترتيب القوى الاجتماعية وفق هذا التفسير .. لقد كانوا مجتمعاً واحداً متساوياً بغير طبقة .. وبغير ملوك .. وبغير كهنة .. وبغير كتاب أسطورى ينكفئون عليه ، ويتظالمون أو يتراكبون به ؟ .. لقد كان معبودهم الحق هو الله .. وكان كتابهم الذى ينتظرونه كتاباً من الله الحق .. وليس من برهمن أو أهو رامزدا أو بوذا أو زيوس ؟؟

وأعجب العجب أن الذين أرادوا انتقاص العرب لا يكادون يذكرون أن شأن هذه الأحجار الجافية والمنثورة فى العراء أو المجلوبة إلى الكعبة — لم يكن شأنها فى حياة العرب بالغا عشر معشار ما يشاهد اليوم فى حياة عامة (المسلمين) من التضرع والدعاء لغير الله فى (الأضرحة) و (المقامات) .. مع أن القرآن يتلى عليهم كل يوم بأكثر مما كان يتلى فى أى عهد مضى ، بعد المخترعات

الصوتية ، ومحطات الإذاعة ، ومع أن الشيوخ والعلماء وقوف على رؤوسهم بالوعظ الذى لا يجدى ، والقول الذى لا يطاع ؟؟

لقد كانت القضية الخلافية فى دعوة قريش ومن حولها هى قضية (الشرك) .. وقضية التنافس داخل الأسر القرشية على شرف النبوة .. وكان جهاد الرسول بالقرآن هو لتطهير قلوب قومه من أى شرك بالله .. ومن أية آلهة كاذبة للزلفى تكون مع الله الذى لا يجادلون فيه ، ويعلمون أنه الله الحق الخالق البارىء القائت العزيز العليم .. ولكى يصدقوا النبى ببرهان القرآن ، ويؤمنوا به ويطيعوه على الشرع .

لم يكن الإسلام إذن كما أرادت الهمجية الشعوبية الاستشراقية أن تصوره للمتأخرين — ديناً مستحدثاً فى حياة العرب .. لم يكن ديناً طارئاً ، على مجوسية كمجوسية العجم تقول بإله النور وإله الظلام ، أو طالعاً على أفق مزدكية إباحية ، أو أبيقورية تنشد اللذة ، أو برهمية متاوتة .. لقد كان هو هو دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل .. وكانت الدعوة بهذا الإسلام تصحيحاً لدين قديم حق ، ثابت الأركان ، غفل عنه أهله .. وكان من المحقق فى وعد الله أن يذكروه ويعودوا إليه ..

فى هذا الفهم الصحيح لما كان من موقف العرب من دينهم نستمع إلى قول الله تعالى يؤاخذهم على الشرك بينما الله هو إلههم (أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون) ٦٣ : النمل . ويقول فى فضله على قريش بالمسجد الحرام (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء) ٥٧ : القصص . ويشهد الله باستغفارهم له فى حياتهم اليومية قبل أن يبرأوا تماماً من الشرك (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ٧٣ : الأنفال . ويقول وهو يحدثهم بما فى أنفسهم من الرجوع إلى الله لو أنه قد جاءهم العذاب الشديد (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه وتنسون ما تشركون) ٤٠ و ٤١ : الأنعام.

الغنى والأمن : ولقد كان جديراً بالعرب قبيل الإسلام ،، وقد قامت حياتهم على مقومات الدين من الحرية واللغة والمعروف — وإن لم تتكامل فى منهج ملزم ، وطاعة معقودة لله فى كتاب وشريعة ونظام — وكان جديراً بهم أن يجدوا بهذه المقومات الكثير الذى ألهاهم من الغنى والأمن ، فبطروا مع طول الزمن ، حتى تداركهم الله ، وأنجز لهم الوعد ،وكان أعظم هذا الغنى وهذا الأمن ظاهراً ومذكوراً فى حياة قريش عندما أشرقت الرسالة فى دعوة النبي وتنزيل القرآن .

لقد تحولت هذه المقومات والدعامات الراسخة فى حياة العرب الأولى إلى غنى بالتجارة ، وأمن من الغزو الخارجى بوفرة الحمية والسلاح والخيل ، وبقيت الثارات والانفعالات بين القبائل توقد الحروب الداخلية ، وتفرق الألفة النامية ، فى غيبة الكتاب الحاكم ، والشريعة الملزمة ، ولكن قريشاً التى اتجهت إليها الدعوة قبل غيرها وبعد غيرها لمكانتها الدينية فى نفوس العرب ولقيادتها الفعلية لقبائل وفصائل أبناء إسماعيل كانت فى غمرات هذه الحروب القبلية تستروح الأمن الذى حباها الله به فى جوار البيت ، والذى أعدها به لمكانتها المقبلة فى الإسلام ، وفى هذا يقول الله لهم وهو يذكرهم بنعمته عليهم قبل هجرة النبي إلى المدينة (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) ٦٧ : العنكبوت . أى فى هذه الحروب التى افتقد بها العرب الأمن ، وبلغوا حافة التفانى ، وانتظروا من أجل ذلك الكتاب الحاكم ، والرسول المطاع .. كنتم آمنين بالبيت .

وعندما جاء الكتاب كان الخيار واضحاً أمام قريش ، والعرب من ورائها .. لقد كان عليهم أن يختاروا بين الإنابة إلى الله ليتطهروا من أخطائهم ، وليتذكروا بعد غفلاتهم ، وليشكروا نعمة الله إليهم .. أو أن يستعصوا بالكفر والنسيان على الإيمان فتوهنهم فرقتهم ، ويفترسهم عدوهم ، ولا يغنى عنهم شركاؤهم ؟؟

ولقد كان فى علم الله وحكمته أنهم سيختارون جميعاً ما هو خير .. لقد اختاروا الشكر والذكر .. وبذلك عاد إليهم الأمن والغنى فى رحاب نعمة موصولة بالإسلام ، هادية نامية بالقرآن ، ما اخلصوا دينهم لله ، وما حفظوه ، واحتفظوا به ، وحافظوا عليه ..

المناعة من الفتنة : ثم كان من نعمة الله على العرب قبل الإسلام أيضاً هذه النعمة التى حفظت عليهم كل ما سبق من النعم .. نعمة الوقاية من ضياع النعمة .. نعمة المناعة من فتنة الآراء والفلسفات والوثنيات وأنماط العيش الخليع وغير المسئول فى الحضارات المجاورة لهم ، والمعتقدات المتصارعة حولهم.

لقد عاش العرب فى جزيرتهم التى ترتفع حولها أسوار الجدب ، وقسوة الطبيعة ، ومخافات التيه — فى شبه مصح أخلاقى ، ومعزل دينى — حال بين من حولهم — إلا القليل — وبين التسلل بأنواع الغوايات الحسية ، والموبقات الفكرية ، والمجادلات البيزنطية ، والخرافات الإسرائيلية إلى منازل حياتهم ، وأنماط عيشهم ، ومنهج فكرهم وكلامهم ..

لقد كانوا فى عصمة طبيعية ، ومنعة ظاهرة من اقتحام هذه التيارات التى تظالمت بها المجتمعات الفارسية والرومية من حولهم — لتبلغ إليهم ، وتبث عدوى التظالم والتغالب فى ربوعهم ، أو تدير رحى العبودية الساحقة لواحد من الأكاسرة أو القياصرة على أضلاعهم ، فيصبحوا كهؤلاء الذين ابتلعوا العبودية من حولهم أشباحاً تذوب بلا صراخ ، وتتململ بلا أمل ، وتقول بلا فهم ، وتنظر بلا هدف ، وتهلك فلا تبكى عليها الأرض ولا السماء ..

لقد كان العرب طوال عهودهم قبل الإسلام — فى غير القليل مما شاب حياتهم بتسرب اليهود وما معهم من تجارة المال والخمر والقيان والأسلحة والشرك — يتحصنون على دينهم وهويتهم ومعروفهم ولسانهم بهذه المناعة الطبيعية تجاه كل ما يسمونه ملك كسرى وقيصر ، وما أصبحوا يسمونه حضارة الفرس والروم .. لقد كان العرب فى ظل أعظم النعم التى أشرنا

إليها .. نعم الحرية واللغة والدين والمعروف والبيت .. لقد كانوا — رغم إغماضهم فيها ، ولوذهم بها — فى عصمة ممدودة أمامهم من اجتياح الفتنة لديارهم ، ومن اقتحام التفلسف والتكهن والتسفسط لعقولهم ، ومن تعرض النقاء والصحو والقصد فى حياتهم الفطرية لأعصار يدمرها ، وعجمة تأتى عليها ، وهى تحيل نهارها ليلا ، ونورها ظلاماً ..

لقد كانوا فى مناعة وعصمة ليس فقط لأنهم كانوا أحراراً لا يتبعون ظالماً ، ولا يخضعون لمستعمر ، بل لأن نعمة الله التى استوعبها العرب فى أنفسهم ، ورأوا حقائقها فى أمنهم وسلامتهم ، زهدتهم أعظم الزهد فى نقائص المحيطين بهم ، وهم يجوسون خلال الأمصار فى قوافل التجارة ، ويمرون بأهل الأمصار وبلائهم وشقائهم مصبحين وممسين ... ينظـرون ويفهمون .. ولا يتكلمون ؟

كذلك وقد تأكدت هذه المناعة للعرب من جهة أهل الأمصار أنفسهم ، الذين لم يسترع أنظارهم من العرب إلا ما كان موضع استخفافهم ، وهو أثوابهم الخشنة ، وأطعمتهم الزهيدة ، وإبلهم الصابرة ، وخيلهم الضامرة ، وخيامهم من الوبر والشعر .. وبذلك أغضى هؤلاء المتحضرون عن قياس أنفسهم إلى هؤلاء العرب بمقاييس الحرية والإرادة ، والعقل والسواسية .. وكرهوا بلادهم .. واستفظعوا أن يكونوا هم أهلها ، أو أن يتذوقوا عيشها .. وهكذا كان قديماً رأى القطط الأليفة والطيور الداجنة فى سباع الأرض والجو .. وبذلك تباعدت الطرق بين الجزيرة ومن حولها — على تعددها وانفتاح بواباتها — حتى ظهر الإسلام ، وهنا أخذت الجزيرة من كل أنهارها وروافدها وطرقها تصب الحياة والعقل واللغة صباً فى أجسام الأمصار الهزيلة.. بينما كان فى سنة الله أن يأخذ العرب مقابل هذا شيئاً فشيئاً رفاهة العيش واللباس ، وسكنى المدن والقصور .. وفتنة المغالبة على الشىء لا صحة الاستخدام للشىء .. فمن كان الكاسب ومن كان الخاسر ؟؟

فى هذا المعنى من صعوبة التبادل للأفكار قبل البعثة ، يقول أحمد أمين فى « فجر الإسلام » : (إن ظروف الجزيرة العربية أضعفت فيها حركة المرور ، فصعب على المدنيات المجاورة من فرس وروم أن تدخلها وتفيض عليها من « ثقافتها ») ؟ ثم يقول : (اللهم إلا ما تسرب منها فى مجار ضيقة معوجة) ؟؟

لقد كان هذا بالطبع لصالح العرب وليس فى صالح الفرس والروم ، لتبقى فيهم نعمة الله حية ، وظاهرة ، وليبقى لهم الشعور العاصم حتى اليوم بالهدى والعقل والكلمة ضد الترخص فى المعروف ، أو التجرد عن المروءة ، أو التحلل فى المعصية .. وقد أتيح لهم عبر الحقب والعصور أن يروا ما عليه تلك الأقوام المتحضرة المنسحقة من سوء المنزلة ، وفساد الرأى ، والجرأة على المنكر ، والهتك للحرمات ، والقهر والخوف فى غيابة لا مخرج لهم منها إلا بالتمنى والترجى والكذب فى مثل أضغاث الأحلام .. فكان هذا الذى لا يتغير من أحوال من حولهم أقوى لعصمتهم ، وأدعى لإمساكهم بما اعتصموا به على نجوة حياتهم ، ومفازات طرقهم .. كما كان هو هو العيان والبيان لحكمة الله فى اختيارهم لرسالته ، واجتبائهم لذروة فضله ، بالدين والقرآن ، وليكونوا كما شاء الله لهم هذه الأمة الوسط .. الشهداء على الناس .. الأهدى إلى الله سبيلا ، والأسرع إلى الحق بادرة ..

لقد كانوا كما علموا من أنفسهم ، وكما قال عنهم فى بعض صحوات العقل أحد المتهجمين عليهم وهو ابن خلدون : (والعرب أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراءتها من ذميم الأخلاق) .

بهذه النعمة الجليلة فى المناعة والحصانة ضد أخلاق من جاورهم ، ومعتقدات من ظنوا بأنفسهم من الوثنين والجبارين والمقهورين خيراً — بهذه المناعة والحصانة أنجز الله وعده لإبراهيم وإسماعيل فى ذريتهم من أبناء الجزيرة العربية ، الذين أتم نعمته عليهم ، وأكمل دينهم لهم ، ورضى لهم الإسلام ديناً ،

والقرآن كتاباً ، ومحمداً نبياً .. وليكونوا بذلك الأمة الوسط حقاً فى موقعها ، وزمانها ، وشريعتها ، وأخلاقها ، وعملها .. الأمة التى تعتدل بها حقائق الدين ومبادئه ، بين رهبانية المسيحية وعدوانية اليهود .. فيكون الإسلام هو الدين الحق الذى تشرق به البصيرة ، ويسود به العقل ، ويسفر به العمل ، ويثمر به العلم ، وتستقر به كلمة الله فى بناء مجتمع المؤمنين على قواعد السواسية ، والإيثار ، والرحمة والحب ، والعدل والسلام .. ما شاء الله للعرب فيما كان .. وما هو كائن ويكون .. إن شاء الله .

* * *

القسم الثاني

وهذه هي الحقيقة

العرب .. كما أعدتهم مشيئة الله
في جزيرة العرب لحمل رسالة الإسلام

مقدمة للإجابة

ما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٦٣ الهجريتين – كتبت فى مجلة « الأنصار » التى كانت تصدر فى القاهرة ، والتى كان لى حظ رئاسة تحريرها فى ذلك الوقت – مقدمة الجواب عن هذا السؤال الذى كان مطروحاً حينذاك ، كما لا يزال مطروحاً اليوم وهو « لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب » ؟

السؤال الذى كانت كل القوى المعادية لصحوة العرب بالإسلام تعمل على حجبه وإجهاضه فى الضمائر قبل أن يظهر ويكبر .. ولكنها لم تستطع أن تمنعه من الظهور فى وعى وإرادة أبناء هذه الأمة ، الذين لا يزالون – كما فى هذه الكلمات – يعماون جاهدين لتحديد جوابه التاريخى والعلمى والعالمى ... حتى يكون هذا الجواب الصحيح تياراً زاخراً بالحياة ، وبالحقائق التى تعود فتماسك بها ، وتتحد ، أجزاء هذه الأمة الوسط ، وهى تنهض على أقدامها ، متوحدة وآمنة وقوية .. فى ضوء رسالة الإسلام .

وكانت مقدمتى لهذا الجواب – فى تلك الأعوام منذ أكثر من ربع قرن – هى الكشف عن هذا القانون الإلهى الذى يحكم – مع وحدة الفطرة والدين الصحيح لكل البشر – توزيع المعتقدات والمذاهب الدينية على خريطة العالم ، وسطح الكرة الأرضية ، فتتكامل هذه المعتقدات فى حكمة الله داخل الكيان البشرى المتلاحم رغم تصادمها بين الهدى والضلال ، والإيمان والإلحاد .

فى تلك المقدمة لدراستى العربية الإسلامية الأولى أوضحت أن القوة الأساسية لهذا القانون المنظم بمشيئة الله لمعتقدات الجنس البشرى هى « عناصر البيئة والمناخ » .... فهذه العناصر التى تصنع فى كل إقليم تركيباً خاصاً تؤثر به الطبيعة على من بها من الأحياء ، والأشياء هى التى تؤثر خلال الأجيال الطويلة

على إنسان الإقليم فتعده لنوع من الإطمئنان والتدعي لتفسيره الخاص للوجود والحياة والإنسان والتاريخ والمستقبل ، وذلك من خلال ما توجهه إليه من نظرته العامة للأشياء ، ومن لغته المعبرة عن هذه النظرة ، ومن المحرك الأساسى لسعيه فوق هذه الأرض، ومن تصوره للمستقبل قبل الموت وبعد الموت .

واليوم ... فى جوابى عن هذا السؤال ، فى هذا الكتاب ، سأحاول التوسع فى عرض ملامح هذا القانون الذى هو بطبيعته علم عربى ، له مقدمات فى علوم العرب ، والذى لا يزال مجهولا حتى اليوم فى دائرة علوم الإنسان الحديثة ، وإن كان بعض من يحاولون تفسير الدين تفسيراً طبيعياً واجتماعياً من علماء الاجتماع المعاصرين يأخذون ببعض ومضاته أحياناً ولكن بمفهوم عكسى للتقدم ، وأحياناً أخرى يتجهون بهذه الومضات فى اتجاه داروينى خرافى نظرى .. وهم دائماً يسيرون فيه باتجاه لا يخدم إلا الاستعمار والصهيونية والماركسية .

هذا .. بينما يؤكد هذا القانون أن فطرة الإنسان كما خلقه الله واحدة فى كل العالم .. فطرة بدنه ونفسه وعقله ... وأن دينه الحق — الذى هو تفسير الوجود بالخلق الإلهى — واحد .. بالنسبة لهذه الفطرة فى حالة سلامتها .... ولكن هذه الفطرة فى البدن والنفس والعقل تتأثر فى حكمة الله بما تتأثر به من العوامل التى نلحظها بالعين فى فطرة البدن ما بين حال وحال .. ومناخ وآخر.

إن البدن فى المناخ الملائم لسلامته بالمعدل الذى تقرره علوم الصحة البدنية والنفسية يحقق فى ذروة هذه الصحة قدرته على ذروة الإدراك والتعبير ، ومن ثم تتجلى هذه القدرة فى الدلالة على الدين الحق ، وفى الإشارة إلى الله .

ومع الاختلال أو المسخ لفطرة الإنسان ، ومعدلات صحتها وسلامتها ، فى أنواع أخرى من البيئة والمناخ ، يقع النقص فى قدرات وملكات وطبائع البدن الحى ، ومع كل نقص يقع نقص مثله فى صحة النفس والعقل .. ومن ثم يقع

الخلل والانحراف فى التفكير .. لكى يظهر ويتكرر فى معيار الإدراك والعقل والتعبير .

ومع هذا الاختلال أو المسخ فى فطرة البدن .. سواء لأسباب بيئية مناخية أو لأسباب طارئة على البيئة كالأمراض الخطرة ، أو الوراثة الشاذة ، أو التعليم المنحرف — تهتز الإشارة الصحيحة فى الإدراك والتعبير والسلوك نحو الدين الحق .. أى نحو الله الواحد الرحمن .. إنها تنحرف لتشير إشارة أعجمية غير مبينة باتجاه آخر غير صحيح .. باتجاه الشركاء لله من أصنام وأحجار .. أو موتى لهم أضرحة .. أو بالخلاف على الله نفسه فى شبهات اللاهوت والناسوت.. أو التشبيه والتجسيد .. أو فى عبادة عناصر الطبيعة بأسماء بشرية .. أو بعبادة الطبيعة نفسها تحت عنوان فلسفى قديم أو حديث يجعل للوجود أساساً واحداً فى الواقع هو المادة .. ولا شىء سواها !

من هذا المنطلق فان الإجابة عن هذا السؤال « لماذا ظهر الإسلام فى جزيرة العرب ؟ » ستكشف — كما أرجو — عن أهمية وصحة الحقائق التالية : —

١ — إن الاختيار والإعداد الذى وقع للعرب فى جزيرتهم ليحملوا رسالة الإسلام إلى العالم كان فى حكمة الله وعدله خاضعاً لسنن عامة ، ولم يكن محاباة خاصة للعرب ، أو تميزاً يستوجب الادعاء بالتفوق .. إذ إن هذا الاعداد — كما ستثبت الفصول القادمة — كان نعمة ممكنة بأسبابها لكل شعب فى نفس الظروف ، بل لكل شعب إذا وعى أهمية ثمار هذه الظروف .. كما أن هذه النعمة نفسها تصبح غير ممكنة للعرب أنفسهم — كما حدث فيما بعد ولا يزال حادثاً — إذا جهلوا استثمار هذه الظروف ، أو على الأقل — بعد القرآن واللغة — إذا توقفوا عن تعريب حياتهم فى مواقعهم الراهنة لاستخلاص هذه الملكات والقابليات التى حققها العرب من أسلافهم فى تلك الظروف .

٢ — إن الكثير من هذه القوانين التى أثمرت سلامة الفطرة البدنية والنفسية والعقلية فى الجزيرة العربية خلال أجيال طويلة قبيل عصر الدعوة — هى مما يقره العلم الحديث .. ولكن .. حتى أهل الحضارات المتقدمةيعجزون بسبب قانون البيئة والمناخ ورغم وسائل التقدم فى الإدارة والأدوات والتعليم والتدريب وعلوم الصحة البدنية والنفسية عن إمكان الالتزام بهذه القوانين سواء فى فطرة البدن وما يلزمه ليبلغ معياره الصحى .. أو فى فطرة النفس والعقل ليصلوا بهما إلى حدود الأمن ضد القلق والنزق والإنحلال ، أو ضد الخرافة والكهانة بأنواعها والعدوان .

٣ — إن هذه القوانين الحافظة لفطرة البدن والنفس والعقل شاملة ومفصلة فى القرآن الكريم .. ومن الميسور للعرب — بغير حاجة إلى أن يعيشوا كلهم فى جزيرة العرب مرة أخرى — أن يستعيدوا قابلياتهم الأولى التى أعد الله بها آباءهم لحمل رسالة الإسلام والإنتصار به ، وأن يحتفظوا بها إلى أمد طويل ، وهم يذيعون فى العالم المعاصر فضائل هذا الدين الحق ، ومناهجه وأسوته من خلال تغيرهم به ، وسلوكهم بوحيه ونظامه فى حياتهم الخاصة والعامة .

٤ — إن واجب العرب المعاصرين فى استعادة أهليتهم وقابلياتهم لحمل رسالة الإسلام فى حياتهم اليومية ، والعماية ، والعالمية يتأسس على أن هذا الدين ليس فقط هو « رسالتهم » بل لأن وجودهم لا يتكامل ولا يستقر بغيره ... كما أن العالم المحيط بهم ،والذى تفرقوا عند ضعفهم حول محاكاة معتقداته ، والاستعجام فى تيه لغاته ، هذا العالم ، وإن لم يدرك ذلك بل وإن كان يحارب ذلك .. فى أشد الحاجة إلى أن يعود العرب فيؤمنوا عملياً بهذا الدين ، ويتحدوا فوق أرضهم بهداية هذا الدين .. وبذلك يتحقق التكامل الذى أراده الله فى تنوع معتقدات البشر ، وخلافهم

عليها ... بل يتحقق سداد هذه الثغرة المفتوحة بالنسبة للشعب المقترح ليكون — بين شعوب الأرض — هو المؤمن بالدين الحق .

نعم ... إنه باستعادة العرب ملكاتهم فى التعبير بلغتهم العربية ، والوعى لتاريخهم الصحيح ، والعودة إلى القرآن حتى لا يكون بينهم مسموعاً بالآذان ، مهجوراً بالقلوب ... تتحقق حكمة الله التى أرادها فى خلاف البشر حول الدين الواحد الحق .. ولكن مع وجود أهل هذا الدين الواحد الحق ... فى قلب العالم .. وفوق أرض الوطن العربى .

وفى هذه الحكمة البالغة يقول تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » ١١٨و١١٩ : هود

* * *

١ ـ فطرة الإنسان واحدة .. وسلوكه مختلف

١ ـ **فطرة البدن والنفس** : لا جدال فى حكم العلم ، وفى بيان التجربة التى يستند إليها العلم ـ أن جسم الإنسان فى تركيبه وتشريحه ، وفى مجموعة القوانين التى تتحكم فى توجيه حواسه وعصبه ووظائف أعضائه ، لا تتغير فى إنسان عنه فى آخر ، فاذا ما وعظ الله الناس ببعض الشواذ فى تركيب الأجسام ، لم تصلح هذه الشواذ للحياة ، مع خضوع الشذوذ فيها لنفس القوانين التى تخضع لها الأجسام السوية فى كمال فطرتها أو انحلالها ، وإن توهم البعض أن هذا الشذوذ انكسار أوخرق لهذه القوانين . فالجسم الإنسانى ـ إذا طبقنا عليه معقولاتنا الطبعية بصفةخاصة ـ يحيا مثل غيره من الأجسام الحية وغير الحية على فطرته التى يدور بحركته من حولها ، ويتعاقب فى آجاله ومصايره داخل حدودها .

على أن هذا الجسم البشرى الحى يطرأ عليه باختلاف مقامه فى أصقاع الأرض الحارة والرطبة والمخضرة والقاحلة ، والمضيئة والمظلمة ، ما ينال من هذه الفطرة فى الطول أو فى العرض ، فى اللون أو فى الوزن ، فى النشاط أو فى الاحتمال . ومعنى ذلك أن هناك جسما بشريا ـ نفترض وجوده عقلا ـ له كمال الفطرة فى طوله وعرضه ، ولونه ووزنه ، وصحته وقوته ، ونشاطه واحتماله . وأن هذا الجسم الكامل الصحيح يتعرض لمؤثرات بيئية مختلفة فيتغير عن فطرته طولا وعرضاً ، ولوناً ووزناً ، ونشاطاً واحتمالا ، فيكون هذا الجسم بحسب هذه المؤثرات البيئية صحيحاً من ناحية ، وعليلا من ناحية أخرى ، وقوياً من جانب وضعيفاً من الجانب الآخر .

وعلى سبيل المثال نذكر أن الجسم الصحيح لابد وأن يكون لونه أسمر آدم — نسبة إلى (الأدمة) وهى (السمرة) ومنها إسم « آدم » ذى الجسد الفطرى السليم الصحيح — وذلك لأن هذا اللون الآدمى يدل صحياً على كمال التمتع بالشمس وهى العنصر الفعال فى حيوية الأجسام وسلامتها . فإذا رأينا جسماً أبيض أو أسود دل ذلك على أنه جسم غير فطرى ، لأنه بلا جدال نشأ محتجباً عن الشمس فى سواد البيوت التى يكتنفها الجليد والضباب . أو بعيداً عنها فى مجاهل الغابات الاستوائية المظلمة وهذا هو أول الحرمان من عناصر التكوين الصحيح .

وعلى سبيل المثال أيضاً نذكر أن قوة أعضاء الجسم بدرجة متكافئة مع قوة الحواس شرط أساسى فى تكوين الجسم الفطرى . فلا تكون القوة متركزة مثلا فى الساقين دون الذراعين كما فى أهل الجبال ، أو فى الذراعين دون الساقين كما فى البحارة ، أو فى الأنف والأذنين دون العينين كما فى الزنوج . وكذلك لا يكون تضخم فى مواطن العضل يعوق عن الحركة السريعة كما فى الحمالين والفلاحين . فالجسم الذى لا يؤوده حمل الأثقال ويعجزه عدو الأميال يتعرض للهلاك المباغت فى أكثر الأحوال التى ينجو فيها الجسم الآخر الذى يحمل ماهو فى حدود طاقته ، ثم لا يثقله التضخم العضلى عن الوثب والعدو أميالا عديدة .

على أن هذه المؤثرات البيئية التى تنال من فطرة الجسم البشرى بالنقصان والضعف فى بعض جوارحه ووظائفه لا تقتصر على التفاوت البعيد بين بيئة وأخرى ... وإنما تظهر عليه حتى فى البيئة الواحدة ، ومن ذلك تنشأ حالة (المرض) التى هى انحلال التماسك فى شرائط العافية كلها . وتكون هذه الحالة المرضية بصفة (ثابتة) أو بصفة (طارئة) . أما الحالة المرضية الثابتة فتظهر فى بيئات الفلاحين وعمال المصانع والمناجم ، فإن لكل من هؤلاء العمال مظهر الصحة النسبية الواضحة ، أى بالنسبة لمن يمرض من زملائه ، بينما كل منهم يحمل فى جسده آفة المرض القاتل ، المتولد من أثر البيئة التى يعيش فيها .

والمثال بالنسبة لنا واضح فى حالة الفلاحين المصريين ، الذين يراهم الناظر لأول وهلة فينخدع بحالة الصحة النسبية فيهم ، مع أنهم يحملون الموت فى صورة أمراض مزمنة تتربص بهم الدوائر ، وهم يتقلبون بها فى مكانهم بين خبز الذرة ، وقواقع البلهارسيا ، وديدان الانكلستوما ، وانتظار الأمل فيما يزيد عن مستوى الطين والمرض والفقر ..

وأما الحالة المرضية الطارئة فهى الأعراض والمفاجآت التى تصيب الأجسام المريضة نسبياً فتقضى عليها ، كما فى حالة استفحال أمراض الضعف التى منها سوء التغذية والدرن ، أو فى حالات الأوبئة الفتاكة كما فى مختلف الحميات .

نرى من هذا أن الفطرة السليمة للجسم واحدة بالنسبة لجميع الأجسام البشرية كما خلقها الله . وكما أوحى فيها حركتها وغايتها . ولكن حالات البيئة ومؤثراتها تطرأ على السلوك الفطرى لهذه الأجسام فتغيرها من كمال العافية إلى انحراف المرض فى مختلف صوره النسبية ، أو أعراضه الواضحة . وليس عسيراً علينا بعد ذلك أن نطبق هذه القاعدة بنفسها على (النفس البشرية) فالفطرة فى هذه النفس واحدة ، من حيث الخلائق البانية للخير فى حياة الإنسان ، كالصدق والصبر ، والجزأة والجود .، والقصد والعدل . ولكن حالات البيئة ومؤثراتها تطرأ كذلك على السلوك الفطرى للنفس فتغيرها من كمال الإيمان والاستقامة والرشد إلى انحراف الضلالة والغى والكفران ، فى شتى الصور الخفية والجلية لهذا الانحراف النفسى . ولسوف نرى بعد أن من كمال خلق الله أن تكون صحة الأجسام أداة لصحة الأنفس . وأن يكون الجسم القائم على الفطرة فى خلقه هو وحده الوعاء الصالح للنفس الكريمة ، الساعية على فطرتها وهداها .

٢ — قانون البيئة : هذا القانون الذى أشرت إليه فى مقدمة هذا الفصل هو قانون شامل لكل أسباب التغير المستمر فى صور الأحياء والجمادات مما نلحظه فى مظاهر حياتها أو مماتها ، وحالات تماسكها أو تحللها ، ودرجات تفاعلها

أو استعصاها . وأن هذا القانون البسيط ليشتمل على كل هذه القوانين الفرعية للحياة التي نحياها ، والصور التي نتصورها . والأفكار التي نتدثر بها إلى أقصى ما يستطاع إدراكه من الشمول والإحاطة .

فى بعض المقالات التى نشرتها بمجلة الأنصار تحت عنوان (أثر البيئات فى العقائد) (*) كشفت عن الحقائق الآتية : —

أولا : الدين واحد للبشر ، ولكن عقائد الناس مختلفة .

ثانياً : الدين هو تجنب السلوك بما يخالف الفطرة أو هو « الكيفية التى توحى بها الفطرة السليمة حل المشاكل الإنسانية وفق شريعة إلهية »

ثالثاً : العقيدة هى « الكيفية التى يحل بها الإنسان جميع مشاكله فى الحياة ، متجهة به هذه الحلول إلى هدف واحد معين يحدده تفسيره للوجود ، أو دينه الخاص » .

رابعاً : إختلاف البيئات التى تعيش فيها الأمم أدى إلى اختلاف هذه الأهداف التى يهدف الناس إليها فى حل مشاكلهم ، مع أن الأصل ، أى الفطرة ، أن يكون هدف الناس واحداً .

خامساً : تنقسم البيئات التى يتقلب فيها البشر منذ خلقوا إلى ثلاثة أقسام بحسب العناصر المؤثرة فيها وهى : —

(أ) بيئة الكفاح فى جو حار مضىء (الصحراء) ..

(ب) بيئة لا كفاح فيها بسبب الخصوبة واعتدال الجو (أحواض الأنهار) فى المناطق الحارة والمعتدلة .

(جـ) بيئة الكفاح فى جو بارد مظلم (المناطق الجليدية) .

البحث فى هذه المؤثرات البيئية يؤدى إلى تفسير العلاقة القائمة بينها وبين العقائد المسيطرة على البشر على الوجه الآتى :

(*) فى الأعداد ١٤ و ١٧ و ١٨ و ٢٣ و ٢٧ من مجلة الأنصار .

١ — بيئة الكفاح فى الصحراء تدور حول (المـاء) .

٢ — بيئة التحلل فى أحواض الأنهار تدور حول (المتاع) .

٣ — بيئة الكفاح فى المناطق الباردة تدور حول (الطعام والدفء) .

ثم تزيد هذه الصورة وضوحاً على الوجه الآتى : —

١ — البيئة التى تكافح بقوة الظمأ عقيدتها « سيادة الحياة » .

٢ — البيئة التى تتحلل بتأثير المتاع عقيدتها (الخضوع للحياة) .

٣ — البيئة التى تكافح بضرورة الجوع عقيدتها (الأمل فى تغيير الحياة) .

ثم يزيد هذا الوضوح وضوحاً على الوجه الآتى :

١ — المعبود فى البيئة الأولى هو (الله) وهذا هو « التوحيد » وموطنه الأول الجزيرة العربية (١) .

٢ — المعبود فى البيئة الثانية هو (الرجل القوى) وهذا هو نظام العصمة والتأليه لبعض الأشخاص ، ومنبته فى الشرق (٢) .

٣ — المعبود فى البيئة الثالثة هو (الفكرة الجديدة) وهذا هو مبدأ البحران فى النظريات الفلسفية المتناقضة ومناجمها فى الغرب (٣) .

ثم تنتهى هذه الصورة أخيراً إلى تحديد مدى ما يناله أهل هذه البيئات من إدراك غاية الحياة الإنسانية الاجتماعية على الوجه الآتى :

١ — فى البيئة الأولى يتحقق بالفعل هذا (العدل) الذى تتطلبه الجماعة الإنسانية الصحيحة المتجانسة . وقد حققه العرب من خلال الدين .

٢ — فى البيئة الثانية تقنع الشعوب المتحللة ، المتولدة فى خصب النهر وخيراته

---

(١) من صحراء الجزيرة العربية خرج جميع الرسل ، وانبعث الدين الصحيح .

(٢) أمثال بوذا وبعل وفرعون من المتألهين القدماء ، ومثل الحلاج الصوفى الذى ادعى الألوهية بعد ظهور الإسلام فى الشرق ، ومثل البهاء الذى ظهر منذ مائة سنة فى إيران وادعى الألوهية وقتل . ومثل الميكاد والمتأله إلى اليوم فى اليابان .

(٣) بدأت الفلسفة الغربية بفلسفة اليونان ثم انتقلت منها فصارت لها مراكز فى كل من أوربا الوسطى والجنوبية والغربية والشمالية وأمريكا .

بالحياة فى ظل نظام الطبقات . وهى لذلك قلما تثور ، ولكنها تضطرب وتهيج حيناً بعد آخر كلما فزعت بتغير الحكومات .

٣ ـ فى البيئة الثالثة تسعى الطوائف المتناحرة على القوت وراء صورة (المثل الأعلى للعدل) وهى الصورة التى تلوح لها طوال القرون منعكسة من مرآة الفلسفة المقعرة ، وهى لذلك دائمة الثورة كلما لاحت لها فى هذه المرآة الخادعة صورة جديدة لهذا (المثل الأعلى) الموهوم

هذا هو قانون البيئة فى حدوده العامة ، التى يمكن بدراستها تفسير جميع أسباب التغير المستمر فى صور الحيـــاة ، وتياراتها ، وفى تاريخ الإنسان والجماعات والأمم . ومن الممكن الإحاطة بهذا القانون فى عبارة واحدة هى (قيام العضو بالوظيفة التى خلق لها ، أو عدم قيامه) وعلى ذلك تتخذ البيئات الثلاث هذه الصور النهائية فى تفسيرها البيئى ..

(أ) فى البيئة الأولى (يقوم الإنسان بوظيفته ويأبى غير ذلك) وبذلك يعدل مع نفسه .

(ب) فى البيئة الثانية (لا يقوم الإنسان بوظيفته ويقنع بما هو فيه) وبذلك يظلم نفسه .

(ج) فى البيئة الثالثة (يحاول الإنسان أن يقوم بوظيفته لتأكده من عدم قيامه بها) وبذلك يبذل مجهوده بالصراع الفكرى وراء حاجته إلى الشبع والمتاع حتى لا يظلم نفسه .. وإن ظلم الآخرين .

٣ ـ <u>البيئة والحركة</u> : مع افتراض صحة وعلمية (قانون البيئة) نرى لزاماً عليه أن يجيب عن إعتراض ظاهر ـ وهو :

إذا صح أن للبيئة أثرها المباشر فى معتقدات البشر ، فان عقيدة التوحيد التى نشأت فى الصحراء مثلا لاتستطيع اجتياز هذه البيئة التوحيدية إلى غيرها من البيئات الشرقية أو الغربية . وكذلك لا تستطيع الفلسفة الغربية أن تظهر فى

عواصم عربية شرقية مثل القاهرة والقدس ودمشق وبغداد وطهران، منتقلة إلى هذه العواصم فى مختلف العصور من أثينا أو روما أو مدريد أو باريس أو لندن.

والمشاهد الذى لا يقبل الجدل غير ذلك . فالإسلام — الذى هو دين الصحراء والضوء — قد خرج مجتازاً وطنه إلى أكثر المناطق الشرقية والغربية .. والفلسفة — التى هى دين الجليد والظلمات — قد زحفت شرقاً فى طريق انتشارها حتى استقرت فى عواصم الشرق العتيقة الناعمة الباذخة . والعقائد الشرقية قد سرت بدورها مجتازة آسيا إلى أوربا لتتجمد فيها على الصور الفلسفية التى يعرفها الباحثون ويلمسونها فى مادة الإصلاحات أو القصص والأساطير الأوروبية .

والجواب على هذا الاعتراض أن (قانون البيئة) خاضع للعامل الأكبر فى الحياة وهو (الحركة) فلولا الحركة ما كان لهذا القانون أية فاعلية، وما استطاع الناس من وراء حدودهم وبيئاتهم أن يتعارفوا ويتصلوا ، أو يختلفوا ويتقاتلوا ، وأن يعودوا إلى التعارف والصلة مرة أخرى . فالحركة هى عنصر الحياة فى هذا القانون وبهذه الحركة يصح أن نتصور حالة التبادل فى المعتقدات بين الأمم والشعوب بحسب معقولات بيئاتها كما يتم هذا بينها فى محصولاتها ، ومصنوعاتها ومعادنها .

فظهور التوحيد فى بيئة معينة لا يمنع تصديره بالسلم أو بالحرب إلى بيئة أخرى . وظهور الفلسفة فى بيئة أخرى لا يمنع تصديرها بنفس الأسلوب إلى غيرها . ولو لم يكن هذا القانون صحيحاً لوجدنا أن الإسلام الذى خرج من الجزيرة العربية قد جاد فى منطقة أخرى أوفر مالا وأكثر سكاناً ، ولكنه لم يزدهر فى غير الجزيرة على جدبها وقلة سكانها ، فهى أصله الراسخ ، ومنبته المبارك ، والناس من مختلف ارجاء الأرض يسعون إليها ليتمموا فيها معرفتهم بهذا الدين، وذلك من طريق تزودهم بما يكفيهم من هذا الأثر البيئى الذى يجدد للنفس المستعدة استحضارها لمقومات الإسلام الحق لتبقى أو تتبخر بحسب

درجة هذا الاستعداد . وكذلك لم يحدث ولن يحدث أن تجود الفلسفة الأوربية أو العقائد الشرقية فى غير مواطنها التى تنشأ فيها بحكم قوانين الحياة ، والتى تنتقل منها بعد ذلك إلى غيرها من البيئات مع الحركة العامة وتؤثر فيها .

إن هذه الحركة التى هى سر الحياة ، والتى تقوم بها جميع النواميس فى الأرض هى بدورها العنصر الأساسى الذى يبدأ به قانون البيئة ويتجدد ويستمر . ومن اليسير ملاحظة ذلك إذا تدبرنا توزيع درجات الحرارة على وجه الأرض . فالأصل فى الحرارة وتوزيعها حركة الأرض حول نفسها أمام أشعة الشمس فى مجال ومدار لا تتجاوزهما . ثم تنصب هذه الأشعة على سطح الكرة فى زوايا مختلفة فتختلف درجة الحرارة باختلاف هذه الزوايا . فلو لم تكن هناك حركة من الأرض وعليها لم يكن يتيسر انتقال أثر الحرارة الشديدة فى المنطقة الحارة إلى ما بعدها من المناطق المعتدلة والباردة .. أى لم يكن يتيسر تحرك الرياح محملة ببخار الماء من هذه المراكز الحرارية المتقدة لترمى بسيول الأمطار على وجه الأرض فى الأماكن المختارة بحسب حركة الرياح وزواياها .

فالحركة المتولدة من الحرارة هى التى توزع الرياح ، والحركة فى الرياح هى التى توزع الأمطار ، وسقوط الأمطار وجريان الأنهار هو الذى يوزع السكان ويجذبهم للوديان فى حركة تلقائية مستمرة . والسكان أنفسهم فى هذه الحركة حول الأنهار يقومون بتوزيع منتجاتها بالبيع والشراء فى مختلف المناطق التى لا زرع فيها . فتنتقل الفاكهة والحبوب والبقول والأعشاب الطبية وأخشاب الغابات من حيث تنشأ وتترعرع بطبيعة المكان وحرارة الجو ونسبة الماء إلى حيث لا يجد الناس شيئاً من ذلك . وإن الحاجة البيئية وحدها هى التى تحمل الناس على نقل هذه المحصولات النباتية من موطنها فى مقابل ما يكون من حاجتهم إلى المحصولات المعدنية ومصنوعاتها فى المواطن الأخرى التى تظهر فيها هذه المعادن والصناعات بحالة طبيعية .

وهكذا فى توزيع الحرارة ، والرياح ، والماء ، والمواد الغذائية ، نجد (الحركة) هى الوشيجة الوحيدة بين محصول البيئات المختلفة ، وهى الأوعية الناقلة للصادرات البيئية ووارداتها . فهل من المتعذر مع وجود هذه الحركة الحيوية الشاملة أن نجد صادرات العقائد والمعقولات والمشاعر البشرية ميسورة الإنتقال من مواطنها الأصلية إلى غيرها من المناطق التى تحتاج إليها .. ؟؟ أى أن نجد دين العرب فى أرض العجم ، أو فلسفة الغرب فى كتب الشرق ، أو أساطير الهند فى أدمغة علماء العصر الحديث فى أوربا وأمريكا ؟؟

إن استعمال الملابس الحريرية فى القطب الشمالى ، أو تناول الشاى فى إنجلترا أو استعمال التبغ فى بعض مضارب البدو لا يعنى أن دودة القز تعيش فى الجليد ، أو أن شجرة الشاى تنبت فى إنجلترا .. أو أن التبغ شجرة صحراوية .. وإنما الحركة التى وزعت الحرارة والهواء والماء على سطح الكرة الأرضية هى التى وزعت محصولاتها من الزرع والنسيج على مختلف المناطق ، وهى التى توزع فى النهاية تلك الثمرة العقلية العظيمة لجهود البيئة الحرارى والنباتى والطبيعى ، أى توزع الأخبار والأفكار والعقائد التى يثمرها العقل البشرى فى مناطقه المختلفة بحسب تأثراته البيئية وبحسب تفاوت قدرته على الغراس العقلى بين عصر وآخر .

٤ — البشرية جسم واحد : على هذا الأساس ننظر إلى البشرية كأنها جسم واحد وثيق التركيب ، لا جملة أجسام منقطعة الروابط متباعدة الأغراض . ولهذا الجسم أعضاء وجوارح ، وغدد وأعصاب ، وحواس ومسام تقوم بوظائفها بحسب تكوينها والحاجة إليها . وهذه أشبه من حيث درجات حرارتها وتفاوت عصاراتها ومحصولاتها بالمناطق البيئية المتكاملة على سطح الكرة الأرضية . فالأذن وحدها هى التى تتلقى المسموعات ... ولكن ذلك لا يمنع أن يسمع الجسم كله بقدر حاجته إلى المسموع . فالقلب يسمع وراء الأذن فيبتهج أو يحزن ، وأسارير الوجه تسمع كذلك فتنبسط أو

تكفهر ، والجلد يسمع أيضاً فتفارقه الدماء أو تغمره ... وكذلك شأن العين في المرئيات التي تنقلها في القنوات العصبية إلى كافة أجزاء الجسم على قدر ما تحتاج إليه من الرؤية . وهنا نعود إلى القول بأن وجود أثر الصورة المرئية أو النغمة المسموعة في تلافيف الذاكرة ، أو في نبضات القلب ، أو في حركات أعضاء الجسم الأخرى لا يعني أن الذاكرة ترى ، أو أن القلب يسمع او أن القدم أواليد أو العثنون قادرة على أن تنقل من الحياة صوراً ومسموعات من طريق مباشر إذا ما أجدبت العين أو تعطلت الأذن .

بهذا الإيضاح يستطيع السائل عن ظهور الإسلام في غير بيئته أو الفلسفة في غير موطنها أن يجيب أيضاً عن الاعتراض الآخر الذي قد يرد بالبال وهو : إذا كانت كل بيئة تختص بالعقيدة التي تنبتها أو بالفكرة التي تصدرها فأين الدين اليوم بالجزيرة العربية ، أو أين كان قبل ظهور الإسلام؟ وأين الفلسفة اليوم في اليونان ؟

أين سحر بابل ، وأين هياكل فرعون ؟

فالجواب على هذا الاعتراض هو كالجواب على اعتراض من يسأل عن الحنطة في مصر إذا أصابها القحط في أعقاب الحروب وموت الفلاحين ؟

أو من يسأل عن فاكهة الشام إذا ما نزل الجراد برياضها وبساتينها .

أو من يطلب أغنام المراعي الخصيبة في سنة جافة غير ممطرة ؟

إن البيئة كالجسم الحي ، لها مقوماتها ، فاذا اختل توازن عناصرها صارت إلى بيئة أخرى ، وهدف منحرف عما كان ، وإذا ضعفت بعض هذه العناصر ضعفت نسبة الحياة في محصولها وثمرها .

فالجزيرة العربية كانت تعرف (الحنيفية) قبل الإسلام ...

وكانت — قبل الحنيفية وبعدها — وقبل الإسلام وبعده — معرضة لفترات من الضعف بسبب كان يطرأ بالتناوب على بعض العناصر المؤدية لوضوح اعتقادها وهي عناصر داخلية وخارجية ، أي عربية وعالمية ...

والثابت بالمشاهدة أن كل التجمعات الدينية فى الجزيرة تنشأ دائماً على صلب الوحدانية الخالصة ، ثم تصدرها للناس إذا كانت الحاجة لازمة إليها .

فاذا لم يكن ذلك كان الغراس منه على قدر أهله . ويظهر هذا واضحاً فى تفاصيل أخلاق العرب وسجاياهم التى يتعاملون بها فيما بينهم ، سواء فيما كان قبل ظهور الإسلام أو فيما بعده إلى اليوم .

فالبيئة إذا ضعفت عناصرها ضعف محصولها المعاشى والعقلى مع احتفاظه بنوعه . أما إذا تغيرت عناصرها بأن صارت الصحراء أرضاً خصيبة ، أو صارت الأرض الخصيبة بيداًمقفرة ، فانها تتحول بذلك إلى بيئة أخرى ذات محصول آخر . وإن من أهم أسباب التغير فى محاصيل البيئات هو تلك الحركة العامة الجامعة التى تربط أجزاء الكرة الأرضية فى حرارتها ومائها وشعوبها وعقائدها برابطة واحدة ترمى بها إلى الغاية المكنونة فى قدر البشرية وقضائها ، كما شاء الله لها ذلك فى حكمته ورحمته ... ونعمته .

وخلاصة ما تقدم أن الأصل فى الإنسان قيامه على فطرته بالشعور والقول والعمل ، وأن ذلك لم يتم له إلا فى بيئة واحدة هى البيئة التى أوحى الله فيها ومنها رسالة الدين . وأن البيئات الأخرى تقوم فقط على (صورة) الفطرة أو على (فكرتها) دون (حقيقتها) . وبحسب الحركة التى تدور فى جسم البشرية لتوزع عصارات بيئاته ومناطقه تتم عملية التبادل فى المحصول العقلى بين أعضاء الجسم وجوارحه وحواسه ... ومما لا ريب فيه أن التاريخ قد سجل آثاراً كثيرة لهذه الحركة المستمرة فى نقل ثمرات البيئات وتوزيعها بحسب الحاجة إليها . وهذا الذى سجله التاريخ لا يخرج فى كل مراحله وانقلاباته عن ثلاث حالات : أما الحالة الأولى فهى اتجاه الحركة العالمية نحو نقل محصول

التوحيد من وطنه كما حدث بظهور الإسلام . والحالة الثانية اتجاه الحركة العالمية لتصدير محصول الترف والأساطير واللذات والمعتقدات التأليهية من الشرق ، كما جرى بسيادة فارس على الشرق الأوسط والأدنى قبل الإسلام . والحالة الأخيرة اتجاه هذه الحركة لنقل محصول الفلسفة الغربية كما حدث على عهد أثينا القديمة ، وكما يحدث اليوم تحت مظلة الصراع المذهبي بين الرأسمالية والماركسية .

* * *

٢ - منابع الفطرة في الجزيرة العربية

أصل العالم : لم يكد الباحثون في أحوال « الإنسانية » أو الآدمية ينظرون إليها باعتبارها مخلوقاً واحداً ذا أجل مديد ، وذا هيئة عامة كهيئة المخلوقات ، وذا قوة اندفاع وحيوية خاضعين لقانون البدء والنهاية ،وذا هدى وذا ضلال . فلقد بحث علماء الإنسان عمر الأرض مثلا ، وقاسوا أبعادها ، ونثروا طبقاتها ، وتخيلوا كيف بدأت ، وتظننوا كيف تنتهي ، ولكنهم لم يفكروا في هذه الهيئة البشرية النابضة المتداخلة إلا أنها النفس ، أو الروح للإنسان الواحد ، وكيف يكشفون أسرارها ، ويتفلسفون في تعليل ظواهرها ، ويتنافسون في الخروج بموضوعها من المعلوم إلى المجهول ، ومن البسيط إلى المركب ، ومن المحقق إلى المحتمل . والنفس عندهم جميعاً واحدة في قابليتها وطاقتها مع تغير الأحوال التي تطرأ عليها ، وتتأثر بها . على أنه إذا اعترضت هؤلاء ضرورة تعريف النفس البشرية كانت نفس الرجل (المتحضر) التي أتلفتها الشهوات ، وأذهلتها الخمر ، وأقعدتها البطنة هي الأجدر عندهم بالاعتبار والنظر ، وكانت أحكامها هي القمينة بالتصديق والتأمل . أما النفس (البدوية) الفطرية فلا تكاد تخطر لهم على بال .

والحقيقة التي تعلنها البسائط والبدهيات ، على رغم تطاول الفلسفات والنظريات ، هي أن للبشرية في عمومها جسما كجسم الفرد ، ونفساً كنفسه . وأن المجموعات من الأمم والشعوب تدخل في تركيب هذا الجسم بالقدر الذي تدخل به معقولاتها وعقائدها في تصوير هذه النفس . ويبقى على الباحث الرشيد بعد ذلك أن يحدد في هذا الجسم البشري — الذي تقاس أيامه بالقرون وساعاته بالأجيال — مكان الوعي والإدراك فيه ، وبذلك يستطيع أن يحدد هذا الشعب ، أو هذه الأمة التي تشغل في القوام الآدمي هذا المركز الواعي ، مؤدية منه في النفس البشرية عبر قرونها وأجيالها وظيفة العقل والرشد ، قائمة برسالة البيان والدين .

يقول الله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) فالبشرية تبدأ

وتنتهي كنفس واحدة لها جسم واحد ؟ والمفهوم بالبديهة أن ما يجرى من الأحكام والنواميس والطبائع على نفس الرجل الواحد يجرى على نفس البشرية كلها . ولقد جرب بعض الباحثين قليلا من التجارب المحدودة لإثبات التشاكل بين نفس الفرد ونفس المجتمع . على أننا فى مثل هذا المقام الذى نحدد فيه مركز اتصال الجسم البشرى بخالقه ، وموضع انفعاله بالهام الله ووحيه ، سنجد تنافساً شديداً بين الشعوب المختلفة على ادعاء هذه النيابة عن الناس فى الاتصال بالله ، وفى استقبال آلاء الفطرة والدين والبيان فيه .

فالشعوب المختارة — من غير العرب — كثيرة . وتداول القوة والسلطان فى هذه الشعوب على مر الأزمان جعل لمزاعمها ودعاياتها وجوهاً تظهر بها للناس بين الحين والآخر . ولكن فى مجال الحقيقة البسيطة التى سنستعرضها فى هذا البحث ستبدو كل هذه المزاعم والدعايات مفتقرة إلى ما يؤيدها وإلى ما يقيمها على أصول ودعائم ، فالثابت بالعقل أن أصل كل شىء لا يتعدد ، وأن الينبوع المتفجر بحياة الكائنات واحد فى ذاتها ، وواحد فيما حولها . فالشمس ينبوع الحياة للأرض الحية ، والنفس ينبوع الحياة للكائن الدارج على سطح هذه الأرض ، والعقل ينبوع الحياة للمجموعة البشرية التى سخر الله لها هذه الشمس وما تحمله فى أشعتها من حياة الأرض وخيراتها وألوانها فالأمة التى هى مركز الوعى لهذا المخلوق البشرى الموحد لا تقبل التعدد ، ولا يمكن أن تتداول الأمم المتباينة وظيفتها ، لأن الوعى والعقل فى مكانه من جسم الفرد لا ينحدر من الرأس إلى القدم ، أو إلى الأمعاء . كما أن حالة العقل (الواعى) فى الرأس الواحد لا تقوم مقامها حالة العقل (المتذكر) أو حالة العقل (الباطن) فأى أمة إذن هى هذه الأمة الثابتة التى أوحى الله فيها هذه الوظيفة ، وناط بها هذه الرسالة ؟؟

إنها (أولا) الأمة التى يتحقق لنا من استقراء التاريخ أنها نطفة البشر الأولى ، وأنها بدء حياة الإنسان . فان سلامة الفطرة فى البشرية لا تكون

على أتم ظهورها بالبداهة إلا فى هذه الأمة التى تنطوى فيها الأمم ، والتى تتفجر من صخرتها ينابيع الخصائص الأولى نقية قبل أن تتدنس بصراعات الحياة ، وتسقط فى أخاديد القهر ، وتدور فى منعرجاته ومآزقه . وهذه الأمة التى يقرر التاريخ الصحيح ابتداء البشر بهـا هى الأمة العربية لا جدال ضاربين صفحاً عن القول الشائع بقدم التاريخ المصرى أو البابلى ، فكلاهما ليس إلا أثراً متأخراً من آثار الهجرات العربية القديمة التى فاض بها قلب الجزيرة على أطراف الوطن العربى فكانت مصر فى فجر التاريخ وكانت بابل .

وهى (ثانياً) الأمة التى يقوم الدليل على أن الله خاطبها بالفعل ، وجعل لسان الحق لسانها ، ودعوة الخير فى الناس دعوتها ، وكتاب العدل فى البشر كتابها . ولقد قام الدليل الناصع الخالد على أنها هى الأمة العربية أمة القرآن وأمة الإسلام وأمة البيان .

وهى (ثالثاً) الأمة التى يثبت بالدليل أن لها من عناصر البيئة التى تحيا فيها ما يحفظ عليها كمال الفطرة الإنسانية التى نشأت عليها : فى قوام البدن ، وتقويم النفس . ذلك أن النفس والبدن فى اتحادهما على كمال الفطرة يؤلفان اتجاه العقل السليم ، وتتولد منهما حركة الدين الصحيح . وهذا ما سندلل عليه فى الكلمات الآتية :

البدن السليم : فطرة البدن السليم التى فطر الله أبدان البشر عليها لا تعلو بشجرتها ، ولا تؤتى ثمار عافيتها ونضارتها إلا إذا حافظت عليها من عناصر الحياة الأساسية العوامل البيئية الآتية :

١ — الشمس القوية الساطعة ، وتمام التعرض لها ....

٢ — الهواء النقى الجاف ، وتوفر الانتفاع به ....

٣ — الطعام الحيوى للجسم ، وعدم الفضول فيـــه ....

٤ — اتساع المجال الذى تعمل فيه حواس الإنسان ، وتحقق السيطرة الفعلية له عليه ...

٥ — تداعى أسباب الكفاح الصادق للإنسان بين هذه العوامل ، على وجه التكافؤ بين طاقات الطبيعة وعناصرها وبين حاجات الجسم الصحيح لها وحالات انتفاعه الكامل منها .

هذه العوامل التى تحفظ على فطرة البدن كمالها وسلامتها متوفرة بأكمل وجوهها فى الجزيرة العربية . وهى متوفرة بحكم أن طبيعة خلق البشر على صورة الجسم الحى الواحد قد يسرت ذلك لها ، لا بحكم المصادفة العمياء ، ولا بحكم أن العرب من دون الناس قد طلبوا ذلك لأنفسهم وحققوه . فكم من الناس يدركون اليوم ما فى هذه العوامل الطبيعية البسيطة من أسرار القوة والبقاء ، ولكنهم يعجزون مع تنوع آلاتهم الدقيقة ، ومولداتهم الكهربائية والحرارية ، وعقاقيرهم السحرية ، ونسبهم المئوية عن التماس الضئيل من منافعها . بينما عاش العرب بكل ذلك الخير منذ نشأوا عن طبع وفطرة ، لا عن إرادة أو اختيار . فذلك هو الفضل من الله ، وهو الحكمة التى ظهرت بارادته فى خلقه وسوف تظهر . وسنتحدث الآن بايجاز عن هذه العوامل الأساسية مستدلين على آثارها من الرأى الثابت فى الطب والقول الفصل فى القرآن الكريم .

آلاء الشمس : لم يكن من حظ أكثر أهل الأرض من المتحضرين أو القابعين أن يعرفوا قيمة الشمس بالنسبة للإنسان ، فهم فى جلدة الحضارة المترهلة المؤنثة يفرون من شعاعها اللاذع ، ويسترون عورات حياتهم عن مطالع نقائها ، وسطوة كفاحها ، ثم يتحللون من بعد بأمراض حرمانهم منها .

غير أن ظهور العالم الأوروبى فى أفق النضال البشرى فى القرون الأخيرة والتماع الشفق الذائب فى شمسه الغاربة على وجوه الناس فى هذا العصر قد أورى فى كثير من الحقائق المفقودة زناد البحث والتأمل . ولما كانت حضارة أوروبا وأمريكا بالقوة الطائشة المخترعة إنما تقوم بعالمها السحرى على قوائم من الثلج ، وبين حواجز من الظلام والجوع والخوف ، فهى كالشيخ المحتضر

الذى يتصابى ويتماسك بالغدد الصناعية ، أو كالمارد الدخانى الذى يضرب على أهدافه فى الهواء بلا عينين ولا أذنين ، فان الأبحاث الخاصة بكنوز العناصر الأساسية فى الحياة ، وفواعل القوة الفطرية فى البدن والنفس قد وجدت لها ضرورة مستمرة فى شفق الحضارة الأوروبية ، واتخذت فى أفقها الدامى ألواناً من العناية والتشبث والاستماتة ما إن يكن أكثره لا جدوى فيه فان أقله قد أشار إلى أكثر الحقائق الفطرية المفقودة ، وعبر عنها بالضرورة القاسية أقوى تعبير . ومن ذلك الكلام عن أثر (الشمس) وعن القوة البانية للجسم والعقل فيها ، وعن الوسائل الصناعية غير المجدية — إلا للنفر القليل من الأغنياء — التى يمكن بها الاستعاضة عن ذلك الحرمان الهائل من هذا المصدر العظيم للصحة والنشاط والإدراك ، وهو ضوء النهار القوى ... ؟

كتب الدكتور فيكتور دين فى كتابه (العلاج الشمسى) يقول فى بيان أثر الشمس ومفعولها :

« لم يكن مقصوداً إطلاقاً أن يكون لون بشرة الآدميين أصفر شاحباً باهتاً حتى ولا سكان الشمال بيض البشرة ، بل يجب أن يكون لون جلد جسم الإنسان مدبوغاً من أثر الشمس المشرقة والهواء النقى عليه ، فيتخذ لوناً مائلا لسمرة الجذابة المستحبة طبقاً لنوعه الأصلى (*) . ومما لوحظ أن ذوى الشعر الأحمر إذا ما التجأوا إلى العلاج الشمسى باستمرار يأخذ لون بشرتهم فى الاسمرار ... » .

« إن اصطباغ البشرة باللون الأسمر علامة أكيدة على أن قوى الشمس الفعالة قد نفذت إلى الجسم ، وتدخلت لصالح البدن ونشاطه . وأشعة الشمس وحرارتها هما خير دواء فعال يبيد الجراثيم ويقضى عليها ، وكلما امتص الجلد كميات كبيرة من هذه الأشعة زادت القوى المدخرة به والمبيدة للجراثيم .. »

« يتحمل الجسم التعرض لأشعة الشمس مدداً طويلة بدون ضيق بعدما

(*) نوعه الأصلى هو (آدم) العربى الذى عرف الحياة الدنيا أول ما عرفها بالجزيرة العربية واسمه (ادم) من (الادمة) هى السمرة المتولدة من كمال الانتفاع من شمس الصحراء .

يصطبغ الجلد ، ويصبح لون البشرة أسمر لطيفاً . وتوجد بالجسم كذلك كميات كافية من النشاط الشمسي المدخر به ، وهذا النشاط يكافح ضد أي مؤثر خارجي قد يهاجم الجسم فيهزمه ويجلب له المرض ، لهذا كان اصطباغ الجلد هو الهدف الأول الذي ينبغي أن يعمل للوصول إليه كل من يودون تجديد أجسامهم بواسطة قوى الشمس الفعالة ، وبعد ذلك ستهطل عليهم الصحة والقوة والعافية كالمطر المنهمر » .

ويقول أيضاً :

« يستطيع الإنسان أن يتأكد من أن كل المصابين بمختلف أنواع الأمراض ينالون فوائد عديدة إذا التجأوا إلى سلسلة من حمامات الشمس . وإذا ما أراد القارىء أن يلم بفكرة عامة شاملة عن قوى الشمس الفعالة وأن يعرف أسماء مختلف العلل والاضطرابات والأمراض التي تستفيد من العلاج الشمسي وتشفى منه فما عليه إلا أن يشتري قاموساً طبياً ثم يعي أسماء جميع الأمراض الواردة به ... ؟؟ »

« إن أشعة الشمس هي أفضل وأعظم من أي علاج شاف آخر ، وفي إمكاننا تسميتها بصدق وحق وبلا تحيز أو مبالغة (أكسير الحياة) ... »

ثم يقول كذلك وهو ينصح المفتقرين إلى هذا الينبوع الحيوي من أهل الجلدة البيضاء :

« قبل أن تذهب إلى فراشك لتنام في المساء ردد (الصلوات) التالية عدة مرات : سأستمتع في الصباح الباكر بحمام الشمس الذي سيفيدني فائدة عظيمة هائلة : وسأشعر عقبه بقوة كبيرة وصحة جيدة ، وحيوية متدفقة ونشاط كبير ... » .

معنى هذا أن هذه الشمس التي ينزوي عنها أهل الشرق فيترهلون ، ويفتقر إليها أهل الغرب فيتحللون -تعرضت لها جسوم العرب وحدهم منذ كانوا فلم ترتفع عنها،ولم تبخل عليها ، حتى لتبدو هذه الجسوم الآدمية النقية

الضامرة وكأنها وسط الضوء أطياف من قلب الشمس المحترق . إنها شمس كريمة زاهية ، قوية شافية ، تكاد من شدتها أن تذيب رؤوس الضباب . ولكن العرب راضوها وارتاضوا لها حتى أصبحوا فى كمال الملاءمة بينهم وبينها ينعمون بها فى الغدو والآصال ، ويعرفون فى سناها نعمة الله ، ولألاء الحق ، وصحة القصد .

يقسم الله بالشمس فى كتابه فيقول (والشمس وضحاها) ومعلوم عند من بحثوا أمر الأشعة الشمسية أنه فى الوقت ما بين البكور والضحى يكون أغزر ما تصبه الشمس من نضارها العجيب فى الأجسام الحية . وفى استقبال هذا الوقت السعيد من أفق الصحراء المفتوح يتسابق الشباب والفتيان فى البكور والغدو ، حتى ليسبقوا الطيور الجدة ، وهى غافية بعد فى وكناتها .. وفى ذلك يقول امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل ؟

ولقد اختصر أحد الأعراب فى وصف حياة الصحراء حين سئل « كيف البدو فيكم ؟ » فقال « نأكل الشمس ، ونشرب الريح » فأى قوة تفوق هذه التى يجتنيها بدن إنسان : خبزه الذى يقتات به فوق الخبز هو قرص الشمس ؟؟

وفى شدة أثر الشمس ، ووقع حرورها فى الأجسام العربية — يقول سويد اليشكرى فى أعظم قصائده :

كم قطعنا دون سلمى مهمها ... نازح الغور إذا الآل لمع
فى حرور ينضج اللحم بها ... يأخذ السائر فيها كالصقع

وفيما تخلعه الشمس الوهاجة على الوجوه فى الجزيرة العربية من وسامة العافية ، ونقاء اللون — يقول طرفه :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها ... عليه نقى اللون لم يتخدد

(*) الصقع : الحرارة التى تذيب الرأس .

هذه الشمس القوية بسطوعها ووهجها فى الصحراء وآلائها لم تقف عند حدود ما تمد به الجسم العربى من القوى المدخرة ، والعافية المتدفقة ، والحصانة الموصولة ، بل هى فى جلائها ووضوحها منحتهم أيضاً ما هو أحفظ لعافية البدن وسلامة العقل وذلك بقوة الاستشعار لمواقيت النهار والليل بحسب ما يوحى به وضوح دورة الشمس فى السماء ، من أول الشروق إلى آخر الغروب ، وبحسب ما يوحى به صفاء السماء بالليل — وهو من رد فعل الإضاءة الشديدة بالنهار — من أول الشفق إلى مطلع الفجر .

الليل والنهار : أقسم الله بالنهار والليل ، وجعلهما آيتين للإنسان ، وجعل آية النهار مبصرة . وهذا التقسيم للزمن الواحد بين النهار والليل كان وما يزال مظهراً لحكمة الله فى تركيب الإنسان والمخلوقات على فطرة السعى بالنهار ، والسكن بالليل . وهو القائل فى هذا (وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً) فالقدرة على السعى والنضال ترتبط كل الارتباط بتأثر أعصاب الإنسان وحواسه بالضوء . وإنه لمما يلاحظ على كل المخلوقات الصحيحة من الإنسان والحيوان والطير نشاطها للسعى بمجرد البزوغ أو الشروق . فملامسة ضوء الشمس لبدن المخلوق تحفزه للحركة ، وتدير أجهزته الراقدة ، وكأنما هى توقظ من ليل غفوته وراحته شمس كفاحه ومجهوده ، فيهب معها بعد الاستجمام نشوان طروباً ، يفتض خواتيم الأنوار ، ويشرب ندى الأسحار ، ويسعى إلى ربه بالسعى المحمود ، والعمل الصالح ، ويزداد علماً ونماء وقوة .

هذه الصلة الفطرية بين دورة الشمس فى السماء ومشاعر الإنسان على الأرض لها أكبر الأثر فى توجيه قوته ، وضبط حياته ، وتركيز نشاطه . ولتمام المقارنة نذكر حياة أولئك (الإسكيمو) الذين لا يرون الشمس ستة أشهر فى أقصى الشمال ، ونذكر متاعبهم وأحزانهم فى ليل طويل كالموت ، ونهار ضعيف واهن كأنه العلة المخامرة ، فهل يقوم فى العقل أن هؤلاء يدركون من محصول الصحة والرشد شيئاً يبلغون به أدنى مراتب الحياة الإنسانية ؟؟

إن الإسكيمو الذين لا يعرفون من اللغة إلا بضع عشرة كلمة قدسقطوا فى ابتعادهم عن الشمس إلى أقل المراتب ، وقد جاءت سحب العلل النفسية والعصبية والبدنية فألقت بمن يليهم فى البعد عن الشمس من سكان شمال أوروبا فى حالة (البحران) فى الحياة . فكم من الملايين الذين قضوا العمر تحت الأرض فى المناجم والمصانع قد دخلوا الحياة وخرجوا منها أقل وعيا من (قطاة) مرحت حياتها فى ضوء الشمس الشديد ، وهى أهدى من كل أولئك سبيلا .. ؟

إن الأهمية فى دقة الإحساس بالوقت تظهر فى تلك اللحظات التى تفصل بين النهار والليل عند الغروب . ولقد عرف العرب أهمية الإحساس بالغروب فقالوا إن اعتياد النوم خلاله يهدم الأعصاب ويؤدى إلى الجنون . وتعليل هذه الحكمة أن تركيب الجسم يقتضى حالة من التماثل الصحيح بين نظامه العصبى ونظام بيئته الضوئى . فلو غفل الإنسان بالنوم عن التكيف التام بحالة الغروب ، وعن العبور بأعصابه وحواسه بالتدريج من شدة النهار إلى سهولة الليل ، كان صحوه فى الليل بعد نومه بالنهار مفاجأة لأعصابه التى حرمها النوم فترة التدرج إلى معنى المساء والسكن . ويستطيع كل إنسان أن يقوم بهذه التجربة ليتبين صحتها ، ويرى قوة أثرها فى نفسه . فاذا كان العرب قد استطاعوا تحديد مراحل النهار والليل من جهة قوة الإحساس بحرارة الشمس واستدارة الليل تحديداً حياً صحيحاً لا يقاس به عمل الساعات الخرساء فان معنى ذلك أن الجسم العربى بلغ درجة أصح الأجسام التئاماً مع أصح الحالات الضوئية على الأرض بالنسبة لحياة الأحياء .

عرف العرب هذه الساعات الضوئية بالنهار وبالليل ، ووضعوا لها الأسماء الدالة عليها تمام الدلالة . فساعات النهار عندهم اثنتا عشرة ساعة هى : الذرور فالبزوغ فالضحى فالغزالة فالهاجرة فالزوال فالعصر فالأصيل فالصبوب فالحدور فالغروب . وهى أيضاً : البكور فالشروق فالإشراق فالرأد فالضحى

فالمتوع فالهاجرة فالأصيل فالعصر فالطفل فالحدور فالغروب . وهى كذلك : الشروق فالبكور فالغدوة فالضحى فالهاجرة فالظهيرة فالرواح فالعصر فالقصر فالأصيل فالعشى فالغروب . ففى أى أرض نجد مثل هذا الضبط الدقيق لعلاقة الأشعة الشمسية القوية بالأجسام الحية ؟؟

وأما ساعات الليل عند العرب فهى : الشفق فالعتمة فالسدفة فالجهمة فالزلفة فالبهرة فالسحر فالفجر فالصبح فالصباح ؟

يقول الله تعالى (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى) وفى هذا القسم بتجلى النهار ووضوح شمسه اظهاراً لخير حالاته،وبياناً لأبلغ هذه الحالات أثراً فى حياة الإنسان الذى يخاطبه الله هذا الخطاب ليظهر فضله عليه . وهو يقول أيضاً (وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً) وفى هذه الآية من البيان ما لعله يتضح في ضوء ما ذكرت . فالله خلق الإنسان الواحد أزواجاً فجعله ذكراً وأنثى ، وتوافقاً مع ذلك خلق الزمن الواحد أزواجاً كذلك فجعله نهاراً وليلا .. أو يقظة ونوماً ...

وفى هذه المقابلةالعظيمة بين الرجل والمرأة وبين النهار والليل ما يفصح عن بعض سر الخلق ، وما يزيح الستار عن قانون البيئة وخضوع الأحياء له . ففى النهار حيث يكون السعى يحكم قانون حفظ الذات وطلب الرزق ، والنضال للمجتمع . وفى الليل يحكم قانون حفظ النوع وتظهر الحاجة للسكن والسكينة والمودة والرحمة والذرية .

ولما كانت أعظم آيات الله فى خلقه أن يكون الرجل قوى النضال ، وأن تكون المرأة سابغة السكينة ، فان ذلك ما كان ليتم إلا بقوة الأثر المتسلط من جلاء النهار ، منبهاً لقوى الكفاح والسعى ، وبقوة الأثر المنتشر فى بسطة الليل ، هافياً على البدن بالراحة والنوم ، معيناً له به على استيفاء بناء الجسم والعقل . فذلك هو سبب القسم فى قوله تعالى (والنهار إذا تجلى) وهو سبب

الإشارة لمعنى النعمة فى قوله (وجعلنا نومكم سباتاً) أى أصح النوم وأحفظه للأبدان حيث تفيض صور هذه النعمة فى سياق الآيات :

« وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً » .

نعمة الهواء : لا جدال فى أن هواء الصحراء هو أصح هواء يحيا فيه إنسان فى أصح الظروف المناسبة لحياته . ويكفى أن نقارن بين الحالة التى تتطلبها الصحة من رجل المدينة ليأخذ كفايته من الهواء النقى باستعمال النوافذ المفتوحة على الدوام،أو بالخروج إلى الخلوات بين الحين والآخر، وبين الرجل العربى الذى يتخذ مسكنه بين جدران الهواء نفسه،ويجعل أول نوافذه فى هذا المسكن العظيم على حواف الأفق .

عرف الأوروبيون المحرومون نعمة الهواء ، وهم شهودنا فى هذا الموضوع فأوسعوا البحوث والتجارب فيه، وبلغت بهم الشهوة للهواء أن بعض علمائهم خرجوا بعد الحرب العالمية الأولى بضلالة مذهب (العرى) وأنشأوا فى مس من الجنون عدداً من المستعمرات للعراة فى مختلف الأماكن الخلوية ، وأحياناً فى قلب المدن لالتماس القليل من الشمس والكثير من الهواء . ونذكر فى قيمة الهواء للمحافظة على فطرة البدن سليمة قوية بعض العبارات للدكتور فيكتور دين سابق الذكر ، فقد خصص فى كتابه (العلاج الشمسى) جزءاً للهواء النقى وحماماته قال فيه (يحتوى الهواء النقى على خلاصة الحياة وعطرها وأكسيرها .. إننا لا نستطيع الحياة بلا هواء،لأن الهواء النقى يغذى الدم وينقيه مما فيه من الشوائب والدم بدوره يقوى الجسم ويحفظ صحة الجهاز كله ويصونها)

ثم يقول (من الحقائق الأولية المعروفة أن الماء هو المادة التى يستوطنها السمك ولا يستطيع أن يعيش بدونها . وعلى هذا القياس نذكر أن مادة الهواء هى المأوى الطبعى للإنسان . ولكنه الآن يقاسى خطر التمدن الزائد عن الحد فهو يعتقد أنه يكفيه أن يستنشق الهواء من خياشيمه ، والظاهر أنه لا يعرف

أن مسام جسمه هى صورة مصغرة للرئتين ، فيلزم أن يتعرض جسمه للهواء لتستنشقه المسام بدورها .) أ هـ .

يقول الله فى مخاطبة أطيب الناس وهو يعدد آلاءه عليهم فيذكر مساكنهم الصحية التى تمكنهم من كمال الانتفاع بالهواء الطلق النقى المتجدد :

« والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم » .

فهذه البيوت العربية من الأدم والشعر ، التى يستخف حملها عند الظعن والإقامة هى وحدها البيوت المثالية للإنسان الصحيح البدن ، لأنها تمكن جسده وجوارحه من البقاء فى الهواء بلا انقطاع . وإنها لنعمة أنعم الله بها على العرب ، وقد بلغت فى القرآن مبلغ الآيات التى حثهم على تأملها وهو يدعوهم إلى دينهم الذى فطرهم عليه .

وفى نعمة الهواء نذكر قول العربية ميسون بنت بحدل وقد نقلها معاوية بعد زواجه منها من البدو إلى الحضر :

لبيت تخفق الأرواح (*) فيه ... أحب إلى من قصر منيف
وأصوات الريـــاح بكل فج ... أحب إلى من نقـــر الدفوف
خشونة عيشتى فى البدو أشهى ... إلى نفسى من العيش الطريف؟

العدل فى الطعام : آفة الإنسان الأولى بطنه، ولو اهتدى الانسان بغريزته فى الطعام كما يهتدى الحيوان ما شكا وجعاً قط ، ولما نقص من تكوينه ، أو انهد من بنائه ما يعجزه عن صحيح الحياة . على أن الحضارة هى موطن هذه الآفة ، وبها مصارع هذه الغريزة الحيوية التى تهدى للقصد فى الطعام . فالحضارة فى الحقيقة وراء قناع ثقافاتها ما هى إلا بطن كبير ، يشقى جميع المتمدنين فى ملئه ، ثم يشقون فى تشهيته وتقويته ، ثم يشقون فى مصانعة

(*) الأرواح هنا : الرياح والنسمات .

أمراضه ، ثم يشقون فى رتق ثقوبه وفتوقه ، ثم يموتون فى النهاية به . وهذا هو علة كثرة الأطباء عندهم وقلة الأصحاء ؟

وهكذا لو أمن المتمدنون بطونهم أمنوا شر مصارعهم . ولكن كيف يأمن ذلك من غالته من عناصر البيئة غوائل الظل والخصب ، والإقامة والإخلاد ، وكسب العيش بلا مجهود على حساب الضعفاء والأرقاء والجهلاء . ثم فراغ الوقت فى كل ذلك للخضم والقضم . والجمع واللم ، والاكتظاظ والامتلاء .

تقوم فطرة البدن من جهة الطعام على العدل فى تناول ما يفيد منه . فالتخليط قاتل ، وإنهاك القوى الهاضمة بالطعام الذى لا فائدة فيه مهلك مميت. وقد وقى الله فطرة الأبدان العربية شر هذين العدوين ، فكان طعامهم كفافاً فى التنوع ، غزيراً فى الفائدة ، وذلك هو الكثير من اللبن والتمر والحب والفاكهة ، والقليل من اللحم ،

ولنرجع إلى أقوال المعاصرين فى بيان الأهمية الحيوية للأغذية فى مقاديرها وأنواعها لنبين أن الغذاء الكامل الصحيح الواقى كان وحده الغذاء العربى :

فى كتاب « الأغذية » لمؤلفه المتخصص الكيميائى حسن عبد السلام فصل عن اللبن فيه ما يأتى :

« يمكن اعتبار اللبن الغذاء الوحيد الذى يحتوى على جميع المواد الضرورية للحياة ، ولذا سمى بالغذاء الكامل . فهو يحتوى على الكربوايدراتات ، وكل من المواد البروتينية والدهنية والأملاح المعدنية والفيتامينات بكميات مناسبة لاحتياج الجسم إليها ، وبصورة يسهل على الجسم الاستفادة منها . كما أنه لا يترك بعد هضمه فضلات تجهد الكلى أو تزيد حموضة الجسم » .

ونلاحظ من جهتنا أن هذا اللبن الكامل التغذية كان الغذاء الرئيسى للعربى دون أكثر الخلق . وعلى سبيل المثال نذكر أن النظام الطبقى السائد إلى اليوم فى أكثر البلاد النباتية يمنع صغار الفلاحين من الاستفادة من اللبن

لأنهم يبيعون منتجاته فى حالة العوز والتخلف التى يحيونها ليسدوا ثغرات الحياة الشقية . كما أن التنوع والوفرة فى الأغذية التى يحتكرها الأغنياء دونهم وأمامهم تزهد هؤلاء الفلاحين — وهم كثرة الشعب — فى اللبن أن يعتبروه غذاء رئيسياً . وذلك فضلا عن أن الألبان التى يشربها العربى من الإبل والشياه لا يقاس بجودتها أى لبن آخر كلبن البقر أو الجاموس بسبب جودة المرعى فى الصحراء .

وأما من جهة الحبوب التى هى ثلث غذاء العربى فنحن نعلم أنه يطحنها على الرحى بقشورها ونخالتها ، بينما يتنافس المتمدنون فى تجريد خبزهم من هذه القشور ، حتى لا نكاد نتصور أحدهم مستطيعاً تناول كسرة من خبز الشعير أو البر الذى يعده العرب لأنفسهم ويستطيبونه من قديم الزمن . فاسمع الآن إلى قول باحث أوروبى هو الدكتور (الفرد كان) فى خاتمة مقال له عن فائدة النخالة التى يزيلها المتمدنون من الحبوب عند طحنها ، إنه يقول : « لو وضعنا جميع الأدوية والعقاقير التى يتعاطاها العالم المتمدن فى كفة ميزان ووضعنا هذه النخالة التى تستبعد من الحبوب عند طحنها فى الكفة الأخرى لتعادلتا . ومن قبيل وضع الأمور فى أضدادها أن ينبذ الإنسان النخالة وما تحتوى عليه من السيلولوز والأملاح المعدنية والفيتامينات الثمينة ، ويقبل على تعاطى الأدوية ، ولو أبقى على النخالة ولم يستبعدها عند صنع الخبز لما احتاج قط إلى الأدوية » .

ويقول الدكتور (ولمان) : (إنه إذا أكل الإنسان الحبوب بكامل أجزائها وأكل معها كمية كافية من الفاكهة وشرب اللبن بوفرة ، فانه يمكن بهذه الأنواع الثلاثة من الأطعمة الاستغناء عن جميع ما عداها ، لأنها تحتوى على كل العناصر الغذائية الموجودة فى كل أنواع الأغذية) .

هذا القول ينطبق بالتجربة والحقيقة على الغذاء العربى الذى يقوم على الحبوب الكاملة الفيتامينات وعلى كثير من اللبن ، وكمية كافية من الفاكهة

التى قوامها البلح . ولقد صار معلوماً بالتحليل فى هذا العصر أن تناول سبع بلحات يساوى من حيث القيمة الغذائية وجبة مقبولة للرجل الصحيح .

ومن خير ما تمخضت عنه التحايلات الحديثة أنها وضعت الأغذية العربية فى قمة الكمال من حيث احتوائها على ما يفيد من غير فضول ، أو تخليط ، أو استكراه للذوق ، أو تبليد للمشاعر من مثل مأكولات الشرق(١) والغرب التى هى أشبه بالحكايات الملفقة وبالأكاذيب ، والألغاز المبنية على التعقيد واللغو . ولنذكر فيما يلى نتائج التحليل للأغذية العربية جميعها من حيث القيمة الغذائية مقدراً ذلك بالنسبة المئوية :

اللبن ١٠٠ــ حبوب القمح ١٠٠ــ التمر والزبيب والفاكهة ١٠٠ــ الزيتون ١٠٠ــ اللحم المشوى ٨٠ــ ثريد المرق ١٠٠ــ عسل النحل ١٠٠ــ .

ويقابل ذلك فى أغذية الحضارة الرئيسية أن الخبز الأبيض والمكرونة ، والأرز المقشور نسبته صفر — وأن الحلوى والفطائر والسكر المكرر نسبتها أيضاً صفر —(٢) فقيمتها فى توليد الحرارة فقط .

إن أغذية العرب التى عافتها بطون الشرقيين من قديم الزمان حتى سخرت الشعوبية منها ومن أبناء العافية فى الصحراء — تحتوى على جميع الفيتامينات التى كشف العصر الحاضر عن قوة أثرها فى جميع الفواعل البانية للجسم ، والمعينة له على تمثيل غذائه واستمرائه . أما فيتامين أ ، ب ، ج فتوجد بوفرة فى اللبن والفاكهة وكبد الغنم والطير . وأما فيتامين ب٢ فيوجد بكثرة فى

(١) للأطعمة فى الشرق والغرب دولة تفوق دولة الدين النظرى والتصوف الغالب ولهذه الأطعمة أسماء وألوان لا حصر لها ، وخاصة فى الشام التى يسمونها « مطبخ الدنيا » ويقصدون بها (دمشق) . وكذلك فى بعض موانى مصر كدمياط ورشيد والاسكندرية . وأما فى أوربا فموضوع الطعام يطول شرحه ، ويكفى أن لكل أمة أنواعا من الطعام تنتسب عند الفاخرة إليها مثل مكرونة إيطاليا ، وحساء شمال أوربا ، وفطائر البلقان . . . الخ .

(٢) راجع كتاب « الأغذية » وأمثاله فى هذا الموضوع .

أجنة القمح ونخالته وفى الزيتون وزيته ، وفى الكبد . وأما فيتامين ﻫ المنظم للتناسل فهو أكثر ما يوجد فى زيت الزيتون وفى أجنة القمح .

ننتقل بعد ذلك إلى العامل الآخر فى إقامة البدن بالطعام وهو العدل وعدم الضرر أو التخليط الذى هو داء المدن . والذى تنقلب به طبيعة الإنسان فى الارتخاء والكظة وبلادة العقل، وفى بطء الحركة،وفتور النفس وسماجة الملامح . وفى ذلك يقول الدكتور (هاى) « إن الخلط فى تناول الأغذية هو السبب المباشر لجميع الاضطرابات والأمراض التى تصيب الجسم . وإن الإنسان إذا راعى فى تناول وجبات الطعام أصول الكيمياء والشروط الصحيحة لحدوث تفاعلات الهضم على أتم وجه فان البرد أو الرطوبة أو التيارات الهوائية أو الحمى أو الأوبئة السائرة وأنواع العدوى المختلفة لا تؤثر فيه ، حتى إذا تعرض لها تعرضاً مباشراً » .

أما العرب فى جزيرتهم فكانوا لا يملكون الخلط لو أرادوه ، ذلك أن البيئة وفواعلها وثمراتها جعلت طريقهم الغذائى معبداً يسيراً لا سعة فيه للخلط أو الاضطراب مع وفائه وغنائه . هذا إلى ما فرضته البيئة من وقاية أخرى هى ذلك الصوم الإجبارى فى حالة الإملاق الطارىء والسعى الطويل وراء الرعى .

نشأ بأمريكا فى العصر الحديث رجل غريب على بيئة الحضـــارة هو (مكفادن) الذى يسمونه (أبو التربية والعلاج الطبعى) ولقد قامت حركة هذا الرجل الذى أنشأ دوراً كبيرة للعلاج وصحفاً ومجلات كثيرة لها شهرة فائقة — على مبدأ الرجوع إلى طريق الفطرة لاكتساب الصحة ، ووقاية الجسم وشفائه من الأمراض . وهو يعتمد فى علاج أخطر الأمراض — حتى السرطان — على طرق طبعية بحتة كالصيام والمشى الطويل وشرب اللبن واتباع نظم غذائية خاصة .

حارب (مكفادن) صناعة العقاقير حرباً طويلة شاقة ، ورد عليه الحرب أصحاب مصانع الأدوية ونقابات الأطباء بعد أن فشلوا فى شرائه بالمال ، أو

كسر عوده بالتهديد : وهو لا يعترف بدواء فى العالم سوى اللبن : وهو يقوله عنه (إنه هدية من السماء إلى الأرض أعظم من المن والسلوى) . وهو يعده المثل الأعلى للغذاء . ولقد جرب ذلك فى نفسه ، وكان عليلا ضعيفاً فأصبح صحيحاً قوياً . كما جرب العلاج به فى آلاف المرضى الذين وفدوا عليه ليغسلوا أبدانهم من آفات العقاقير ، وتزييف الأطباء .

وهو يشترط فى تناوله أن يمتصه الشارب — على طريقة العرب فى شرب الماء — حتى يمتزج باللعاب فيسهل هضمه . وهو يقول عن اللبن فى عبارة جامعة (إنه أعظم مغذ وأعظم مقو ، بل هو الدواء الوحيد الخليق بالاحترام فى هذا الوجود) .

على أن هناك من أبحاث المختصين الأوروبيين فى الأغذية بحثاً آخر عن التغذية (النباتية) والتغذية (الحيوانية) والمفاضلة بينهما . والإجماع على أن المصلحة فى إدراك الخير منهما معاً . وأفضل الأغذية لذلك ما نجم عن مصدر نباتى فى بطون الحيوان ، وهما (اللبن) و (العسل) . ولقد أدرك العرب هذه النسبة العادلة بين النباتية والحيوانية فأمسكوا بناصية الخير كله فى صحة البدن والنفس .

يقول الله تعالى فى اللبن والنخيل والأعناب وهى أطعمة العرب ، مظهراً نعمته عليهم بخلقها لهم وهى أطيب الرزق (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) .

أما طعام أهل الحقول والبقول الذى يورث البطنة والبطء والإخلاد فيقول الله عنه فى قصة موسى وقومه : (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها

وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير : اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) .

ولقد ذكر القرآن الكريم فى مواضع كثيرة طعام الجنة فلم يختلف فى شىء عن طيب طعام البادية . أنظر إلى قوله تعالى فى وصف أطيب الرزق على الأرض (والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة ، والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان) .

ثم انظر إلى قوله فى وصف الجنة : —

« مثل الجنة التى وعد المتقون،فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهارمنخمر لذة للشاربين . وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات » .

وقوله : (وأمددناهم بفاكهة ولحم (ه) مما يشتهون) وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ... (فيهما فاكهة ونخل ورمان) .

فطعام الجنة كما عرفنا فى طعام أهل البادية هو اللبن والفاكهة والتمر والعسل ، والحبوب بأجنتها ، واللحم الصالح القليل ، وذلك وحده بتوافر الأدلة هو الرزق الحسن حقاً .

وضع الله للعرب فى دينهم فريضة الصيام ، وهو علاج ناجع للبدن والنفس . وكان العرب قبل الإسلام يجعلون من مفاخرهم قلة الأكل ، وخاصة فى العشيات انتظاراً للأضياف ، أو تحملا للمشاق . ونذكر ذلك فى بيتين يمدح بهما أعرابى أعرابياً :

(ه) أهمية اللحم للانسان هى ما فيه من النتروجين وفى سرعة امتصاص الجسم لمواده الأساسية وأكبر نسبة للنتروجين هى فى اللحوم التى يتناولها العرب من الإبل والغنم والطير — طير الصيد — يقول الله تعالى عن أرزاق الجنة « ولحم طير ما يشتهون » وفى لحم طير الصيد أكبر نسبة على الإطلاق من النتروجين وهى بين ٥ ٣ و ٥ ٢ فى المائة — راجع كتاب دكتور سيسيل جونسون (أصول التغذية الصحيحة) .

مهفهف ضامر الكشحين ، منخرق
عنه القميص لسير الليـل محتقر

تكفيه حـــزة فلذ (*) إن ألم بها
من الشواء ويروى شربه الغمـر

ويقول تأبط شراً فى وصف نفسه :

قليل إدخـــار الزاد إلا تعلـــة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

ويقول عروة بن الورد فى إيثار غيره على نفسه ولو جاع : —

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

سعة المجال : لاحظنا فيما سبق أن صحة الانتفاع بالشمس والهواء لا تكون إلا بتمام التعرض لهما . ويقتضى ذلك — بطبعه — حياة كحياة البادية . وفى مثل هذه الحياة يتسع المجال الذى تعمل فيه حواس الإنسان بالدرجة التى تمد فى قوى هذه الحواس ، وتبسط من حيويتها . ولما كانت الحواس الخمس هى القنوات والنهيرات التى تحمل للإنسان حقائق الحياة المحيطة به فيهضمها و يمثلها ، ويصورها فى صورة المدركات ، فإن وجود المجال الواسع الذى يعين على قوة هذه الحواس وغزارة منابعها ، وبعد أغوارها ، واستمرار فيضانها هو مما يقوم به صرح الإنسان الصحيح فى بدنه وعقله .

فالمعروف والثابت أن الحالة النفسية وليدة الحالة الحسية . وأن اضطراب الحس مؤد إلى اضطراب أعمال البدن : من التنفس والهضم والتمثيل والانتظام الجنسى مما يسوق الإضطراب فيه إلى الهلاك والتحلل . فسعة المجال أمام البصر والسمع والشم والذوق واللمس ضرورية إذن لتربية هذه الحواس الأساسية فى إقامة بدن الإنسان وتقويم عقله . ولقد أفاد العرب من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة فى البصر تميزهم بين الناس ، وقوة فى السمع لا تبلغ

(*) الحزة : القطعة والشريحة . والفلذ : كبد البعير .

درجتها قوة فى أسماع الآخرين . وأما حاسة الشم القوية فهى موضع افتخارهم ومنها يستخلصون أطيب خصالهم فى الشمم والأنفة . والفضل فى تضاعف هذه الحاسة عند العرب يرجع لتعرضهم المباشر للرياح فوق ظهور الإبل ، وعلى صهوات الخيل ، وفى ظلال الخيام التى لا تمنع الريح والهواء عنهم .

لقد صار من حق العرب فى هذه الحالة من الحياة وسط الهواء الطلق أن يستغنوا بملامسة الهواء النقى عن كثرة ما يلمسه المتحضرون من توافه الأغراض والدمى المتصلة بطعامهم ولهوهم ، والتى تؤدى كثرة ملامستها إلى خمول حاسة اللمس . وأما (الذوق) فان أطيب ما يتذوقه العربى هو (الماء) وإن أثر ذلك فى نقاء النفس وصفاءالسريرة لا يكاديعرفه إلا العرب، وإلاالذين عاشروهم على أرضهم فعربوا دينهم وألسنتهم ومشاعرهم . أو الذين نزلوا من العجم بربوعهم فى ضيافة أو سفارة . أو الذين لجأوا من سراة أهل المدن إلى شفاء النفس ، وعلاج البدن ، وتنقية الضمير برحلة ورياضة فى البيداء . أو غير أولئك ممن يجوبون الصحراء على وجل وخوف ورهبة حتى إذا ما احتوتهم أرواحها ورمالها وآفاقها وأشعتها أذعنوا لآيات الله بها ، وفاضت قلوبهم بمشاعر الحق فيها ، واستصغروا من شأنهم فى المدن ما كان من قبل عندهم كبيراً ؟

إن ضيق المجال أمام نشاط الحواس لا يؤدى فقط إلى إنهاك قوى الجسم وإضعافه ، وإنما يؤدى إلى سقوط المرء فى شراك الضعف العام فى عصبه ومشاعره ومعقولاته ، بل وفى رزقه مما ينتهى به إلى رضائه بالذل ، وإلى عجزه عن وقاية نفسه من الظلم . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم : قالوا فيم كنتم : قالوا كنا مستضعفين فى الأرض : قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) ٩٧ : النساء .

وفيمن تبلدت حواسهم فوهنت عقولهم يقول الله تعالى :

(إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ٢٢: الأنفال
هذا وفى مكارم الأخلاق ، وسعة الآفاق يقول عبد يغوث ابن صلاءة الحارثى :

وقد كنت نحار الجزور ، ومعمل المطـ
ـى ، وأمضى حيث لا حى ماضياً ؟

وفى هذه السعة الواسعة يقول تأبط شرا :

قليل التشكى للمهم يصيبـــــــــه
كثير الهوى شتى النوى والمســــــالك
يظـــل بموماة ويمسى بغيرهـــــا
جحيشا ويعرورى ظهور المهـــــالك

ويقول أبو وجزة السعدى فى مدح ناقته بأنها واسعة المدى فى السير :

حتى سلكن الشـــوى منهن فى مسلك
من نسل (جوابة الآفـــاق) مهداج ؟

الكفاح الصادق : يكثر المتسولون القاعدون ، والمتواكلون الخاملون فى البلاد التى تزخر بالأرزاق ، وتفيض بالخيرات : ومن ظلم الإنسان لنفسه أنه يصيبه الفقر حيث ينعم الله عليه فيبطر ويتواكل ، ويضعف بطول الخمول فيركبه القوى المارق ، ويهضمه المحتال الجشع . أما فى الجزيرة العربية فمن أغضى عن العمل مات ، وإن حاجة العربى إلى الماء ، التى هى أشد من حاجته إلى القوت لتجعل حركة سعيه متماثلة فى السرعة والحزم والاستمرار مع الضرورة التى تجعل (الماء) هدفه الأول فى الحياة . وهى ضرورة من مقتضياتها الرحلة الشاقة، والرضى بكفاف الزاد، فى غير تكلف الزهاد ، مع المعايشة لعناصر الطبيعة الغنية ، والمناعة ضد خطر الضيم والتبلد . وهل هناك من عوامل الكفاح الصادق أقوى من هذه العوامل ؟

إن حاجة العربى لقوام الحياة فى الماء أغلى قدراً ، وأبعد منالا من حاجة

أى إنسان يجرى الماء دافقاً تحت قدميه ، ثم يأسن ، فى أكثر البلاد التى يموتون فيها من الجوع مع وفرة الماء والغذاء ؟ ولذلك عظمت قوى الكفاح فى العربى كما عظمت ثمرات هذه القوى فى نفسه ، متميزة كثيراً عما يؤدى إليه هذا المجهود المحدود المقيد فى حياة أهل الحضر . وإن الفضل البدنى لهذا الكفاح ليبدو واضحاً فى أن الرجل العربى هو أصح الرجال بنية ، وأوفرهم قوة، وأروعهم قامة ، وأبينهم عافية، وأكثرهم إحتمالا لما لا يطاق من الشدائد والمشقات . وهذا الصبر الذى استثمر العربى نباته الطيب فى حياته يجعله من حيث الطاقة البشرية عدلا للكثير من غيره ، ممن يقتلهم ظمأ ساعة ، أو جوع يوم ، أو ركض بضعة فراسخ ، أو ضربة شمس تصيبهم بالهلاك المفاجىء :

يقول الله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى) ويقول : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ويقول : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور) .

وتقول امرأة عربية فى رثاء أخويها :

هما يلبسان المجد أحسن لبسة
شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما
إذا نزلا الأرض المخوف بها الردى
يخفض من جأشيهما منصلاهما (*)

وتقول أخرى راثية فتاها القوى المكافح ، النافع الضار :

فتى لم تلد الشمس طالعة يوماً من الدهر إلا ضر أو نفعا

(*) أى يهدىء من روعهما سيافهما وشجاعتهما .

وتقول ثالثة كريمة تعتز بقومها :

لا يبعـــدن قومى الذيـــن هُمو
سم العـــــداة ، وآفة الجزر (*)
النـــازلين بـــكل معـــترك
الطيبـــــين معـــاقد الأزر ؟

(*) أى الكرام الذين يكرمون بما يملكون ، ولا يهابون قتالا عن الحق ، ولا يعقدون مآزرهم إلا على الفضيلة والطهر فى أجسامهم ونفوسهم .

٣ ـ وتعلموا من الظماء... أن ينتظروا رسالة السماء

١ – **العنصر الفريد :** قلنا فى الفصل السابق إن فطرة البدن السليم بلغت كمالها فى حياة العرب بمعدلها فى علوم الصحة البدنية والنفسية ، وذلك فيما تطامن لهم من الحياة المباشرة مع آلاء الشمس الساطعة ، والهواء النقى ، والطعام الحيوى – ومع اتساع المجال الذى تعمل فيه حواس الإنسان ، ومع تداعى أسباب الكفاح الصادق وسط هذه العناصر الطبيعية الغنية على أساس التعادل بينها – بين وفرتها ونشاطها ، وبين حاجات الجسم إليها ، وتقبله للانتفاع الكامل بها . على أنه من الواضح أن تأثير هذه العناصر الطبيعية ما كان ليبلغ هذا الحد من الكمال فى تثقيف أبدان العرب وأنفسهم لو أنهم تأثروا بها باعتبار كل عنصر منها على حدة ، لا باعتبار انفعالهم بهذه العناصر مجتمعة فى مكان بذاته ، له ظروف وملابسات خاصة به ، بحيث يتولد فيه من هذا التجمع الحكيم فى العناصر الطبيعية عنصر جامع لآلائها جميعاً يقوم على توجيه الإنسان بسلامة فطرة البدن والحواس والنفس والعقل إلى إدراك الأساس الأول فى فهم هذا الوجود.. يقوم بتقريب الصورة الصحيحة للدين الحق فى قلوب المتأثرين بهذا المكان ، وعلى تعريب لسانهم فى اتجاهه ، وعلى طبع أخلاقهم بطابعه فى الأدق والأجل من صور حياتهم ، ومن تصورهم للحياة المحيطة بهم إلى أقصى مدى .

فليست الشمس ولا الهواء ولا القصد فى الطعام الحيوى مع البداء الواسع، والكفاح الصادق وهى عناصر صحراء العرب – إذا اختلطت فى مكان آخر بقادرة على أن تبلغ بالمتأثرين بها إلى مثل ما تبلغ بسكان الجزيرة إليه من جهة الأخلاق والدين ، ولكن إذا دخلت هذه العناصر فى (مركب طبيعى)

متحد الخصائص ، قوى الإلتحام ،نتج عنها ذلك (العنصر الفريد) الذى يكون له الفعل العجيب المحقق ، كالذى يكون لهذه المركبات العجيبة فى العقاقير والصناعة ثم لا يكون لعناصرها منفردة بنفسها أو مختلطة بغيرها غير متحدة ولا متفاعلة .

ففى بعض المناطق الاستوائية مثلا تجتمع بعض هذه العناصر الحيوية وهى الشمس والهواء ، وأحياناً الفضاء ، وربما بساطة العيش ، ولكنها لا تنبت فى الأجسام واللسان والأخلاق والخصائص ما أنبتته جزيرة العرب . كما أن بعض مناطق الشرق ، وولايات أمريكا فى الغرب ، تحظى بوفرة هذه العناصر أو بعضها ، ولكنها كذلك لا تعكس على الأخلاق والطباع واللغة والاعتقاد إلا آثاراً عكسية نلمسها فى كثير من ظواهر الوجودية الشرقية الثنوية ، أو العدوانية الغربية العنصرية .

والجواب عن هذا أشرنا إليه فى الفصل الأول حول (قانون البيئة) ، حيث ذكرنا أن عناصر الطبيعة من الشمس والهواء والقصد فى الطعام ، والبداء الواسع ، والكفاح الصادق قد اتحدت فى جزيرة العرب لتوحى بنوع فذ من الكفاح العظيم بحثاً يومياً عن (قطرات الماء) فى ينابيع الأرض .. أو سحب السماء .. لمقاومة الظمأ ..

لقد كان (الظمأ) إلى عنصر الحياة الأول .. إلى الماء الذى منه كل شيء حى .. إلى آية الخلق المتجدد .. والإحياء المتعاقب .. ليقوم النبات والحيوان والإنسان..لقد كان هذا «الظمأ» هو عنصر البحث الدائم عن الحقيقة والحق .. وعن طلب ذلك .. وعن التعرف على مصدره فى السماء .. وآثاره فى الأرض .. فى هذا العالم الذى ليس فيه من نعمة فى الحياة تسبق هذه النعمة .. قطرات الماء . لشفاء الظمأ .. وامتداد البقاء بالارتواء .

لقد اتحدت هذه العناصر الطبيعية إذن فى جزيرة العرب لتصنع هذا المركب الحافز ... هذه العصا فى شعاع الشمس .. عصا الراعى الحكيم فى يد

الطبيعة ترعى بها جموع القبائل العربية هنا وهناك .. وهى تسوقهم إلى الماء ... إلى المورد ... الذى وجدوا الله عنده فى السماء .. وفى الأرض .. وجدوه فى الحياة والموت .. وجدوه فى الرحمة والغضب ... وجدوه فى العلم الذى أدار السماء والأفلاك ، وفى البشارة التى رعدت فى الرعد ، وبرقت فى البرق ، ثم هطلت بالغيث وبالحياة .. فى قطرات رقيقة .. نقية .. أليفة .. تلخص أعظم حقائق الحياة ، وأبعد أهدافها ، وأعجب آياتها فى السماء والأرض .

وفى بلاد الجليد لا يشربون الماء أبداً .. وفى بلاد الأنهار لا يعرف أحد قيمة الماء .. إلا الفلاح الذى يلتصق مصيره بحقله .. ولكنه لا يعرف قيمته أكثر من ذلك .. وفى بلاد الأنهار لا يزال أهل أوروبا يقتلونها بفضلات المصانع .. وأما الشرقيون فيلقون فى الأنهار التى يشربون منها جثث الحمير والكلاب .. والبشر أحياناً .. حتى اليوم !

إن أحداً — فى غير الجزيرة العربية — وفى بعض القصص الخيالية أحياناً — لم يقف مرة واحدة أمام سر الحياة العظيم ، فى مأزق ظمأ قاتل ، لكى تنكشف له فجأة أمام عينيه هذه الحقيقة التى لم ينكرها العرب قط قبل الإسلام أو بعده وهى أن الله وحده هو الخالق .. وهو المحيي .. وهو العزيز الرحيم .

٢ — عرفوا الله : إنه فى الشرق والغرب والشمال تنحنى الشعوب وتتقوس ظهورها نحو الأرض مسوقة بعصا الجوع ، تبحث عن القوت ، وعن المتاع تحت القوت .. وعن الشذوذ تحت المتاع .. بينما عاش العرب فى جزيرتهم « يتقاطرون » بمحنة الظمأ ، ويتوزعون كالسحب فى تلك الآفاق الوساع ، وقد تعلموا من الظمأ أن يرفعوا رؤوسهم دائماً إلى السماء .. يتعلمون علمها ، ويترقبون خبرها .. وينتظرون رسالتها .. رسالتها بالغيث الذى منه الحياة ..

ومن بعد — كما فعلوا — ينتظرون رسالتها بالوحي .. بالكتاب .. الذى فيه حياة الحياة .

لقد عرفوا أن الله هو واهب الغيث ومنزله ، وهو صانع القطر ومرسله ولم يكونوا سذجاً أوسكارى مثل اليونان ليتصوروا أن إلهاً على صورة بشر يعيش فى السحب لينزل المطر .. وأن إلهاً بشرياً آخر يعيش فى البحر أو فى الرياح ليحرك الرياح .. لقد عرفوا الله الحق باسمه وصفاته كما أورد أكثرها القرآن بعد .. لقد عرفوه وسموه بلسان القرآن قبل أن ينزل القرآن فقالوا « الله » من غير تجسيد أو تشبيه .. أى إنه (هو ... وحده .. الغائب عن الحس .. الحاضر فى كل شىء بالمشيئة والفعل).. إنهم مع إدراكهم أن الما مصدر الحياة لم يسموا الله « الماء » كما عبد اليونان النهار وسموه (زيوس) .

لقد عرفوا هذا الإله الحق .. غير البشرى .. الخالق والمنعم ، المنزه عن المشابه لخلقه .. لقد عرفوه عياناً مراراً من خلال سلطانه فيهم .. وقيامه على أمر حياتهم .. يوماً بيوم .. ولحظة بلحظة ... عرفوه من خلال رحمته وعطائه .. ومن خلال آياته وكلماته .. وليس من خلال كلمات الكهان المطلسمة ، أو أسفار المعابد المحرفة ، أو تصورات أخرى أعجمية ممزقة عن الوجود والطبيعة كتصورات الروم والفرس .

لقد عرفوه بصفاته .. ونادوه باسمه .. واقتربوا منه .. وصلوا إليه كما لم يفعل شعب مثلهم قبلهم .. صلوا إليه قبل الإسلام صلاة (الاستسقاء) فكان يستجيب لهم .. ويعصر السحب لهم غزيرة فى أفواههم حتى تسيل بها أوديتهم ، وتمتلىء بالغيث مشاعرهم وآبارهم وثمائلهم ، وتخضر المراعى ، وتمن الأنعام ، وتدر الضروع ، ويدوى النحل .. وترتفع قامات النخل صاعدة بالشكر والذكر والتمر نحو السماء .. وهى تهز أذرعها الدائمة الخضرة .

٣ — الكتابة الدينية : لقد عرفوا الله فى جزيرتهم وهم يمارسون مخلوقيتهم تجاه خالقيته ، ويروضون عبوديتهم تجاه ربوبيته .. وأيقنوا فى دينهم وطريقتهم

بعد إبراهيم وإسماعيل أن الله الحق أكبر مما وصفه اليهود .. وأبعد مما افتتن فيه النصارى .. لقد عرفوه وكانوا بما عرفوه على دين وطريقة وشرعة .. كانوا هم (الأميين) الذين ينتظرون كتاباً من الله مصدقاً لدينهم إليه ، ورسولا ينزل عليه هذا الكتاب – من أنفسهم – ليدعوهم به .

لم يكونوا الأميين أبداً بمعنى من (لا يقرأون ولا يكتبون) .. وإنما بالمعنى الصحيح وهو صفة هذه الأمة التى ملكت من ميراث الدين الحق ، والعلم به ، والعمل بالكثير من وصاياه ، ما يجعلها تنتظر هذا الدين كاملا فى كتاب ، وظاهراً فى دعوة رسول ، وشاهداً فى عمل نبى وأسوته .

هذا الميراث من الدين والعلم ، وهو برهانهم على الوعد ، وحجتهم فى انتظار الكتاب ، كان محفوظاً فى صدورهم بالرواية ، ومسجلا فى كثير من أخبارهم وأشعارهم وحكمتهم المدونة ، التى كتبوها بالقلم العربى على الأديم والورق والقرطاس والمهارق وغيرها . ولم تكن هذه الكتابة التى عرفها العرب فى جزيرتهم بما هو أوفر وأصح استعمالا مما عرفها به غيرهم – طريقاً للبحث عن العلم المجهول ، والحق المفقود ، كما كان ذلك شأن فارس والروم – بل كانت الكتابة عند العرب الأوائل تسجيلا وتقييداً لما عرفوه فى حياتهم اليقينية باتجاه الله من العلم والمعلوم ، ومن الحكمة والحق ، فكانت هذه الكتابة الدينية بطبيعة موضوعاتها ، وبخصائص لغتها ولسانها – مواثيق للحق ، ومصاحف للدين والحكمة – كما كانوا يسمونها – حتى نزل بكماله الكتاب ، وظهر فى مصحفه القرآن ، فكان ما سبقه من المحفوظ بالرواية ، والمدون بالكتابة ، من أشعار العرب وحكمتها وآدابها ارهاصاً به ، وبرهاناً عليه ، وجلاء لآيات الله الخالدة فى هذا القرآن العربى المبين .

كانت كتابات العرب التى أنكروها عليهم سفها بغير علم هى إذن كتابة دينية فى كل ما سجلته من حكمتهم فى الحياة ، ومناشطهم فى السعى ، حيث الله الحق الذى عرفوه هو البدء فى كل أمر ، وهو المنتهى وراء كل غاية

فكانت أعظم عنايتهم تسجيل ما يقع لهم من الحكمة الدينية التى تذكرهم بما معهم من وصايا آبائهم إبراهيم وإسماعيل .

فى حديث سويد بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لعل الذى معك مثل الذى معى) فقال له النبى (وما الذى معك ؟) قال سويد « مجلة لقمان » — يريد كتاباً فيه حكمة من حكمة لقمان . قال له النبى صلى الله عليه وسلم (أعرضها على) فعرضها سويد عليه فقال له (إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى هو هدى ونور) .

ثم كان مما عظمت عنايتهم بتدوينه عهودهم ومواثيقهم التى يبدأونها باسم الله فى قولهم (باسمك اللهم) ويتواثقون فيها بما يرون أنه حكم الله ، والحق الذى يرضاه . .

وقد كان من ذلك الكثير الذى دونوه من أحلافهم ومواثيقهم فى الجاهلية ومن عهود المصالحة بين المسلمين والمشركين ، حتى شاء الله فجمعهم جميعاً على الهدى .

فمن مواثيق (الجاهلية المشهورة *) حلف ذى المجاز ، وهو عهد مكتوب بين بكر وتغلب رجوعاً منهما إلى ما يهديهما الله إليه من حقن الدماء ، ومحاذرة الجور ، وقد جاء ذكر هذا الحلف فى شعر الحارث بن حلزة اليشكرى وذلك فى قوله :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء

والمهارق كما يتحدث عنها الجاحظ ويصفها فى كتابات العرب قبل الإسلام هى الكتب عندما تكون كتب دين ، أو كتب عهود ومواثيق تبدأ وتبرم باسم الله .

(*) راجع فى التفاصيل كتاب الدكتور ناصر الدين الأسد (مصادر الشعر الجاهلى) .

وأما ما كان من عهود الصلح المكتوبة باسم الله فهو صلح الحديبية المشهور الذى عقده سهيل بن عمرو العامرى — عن قريش ، مع النبى صلى الله عليه وسلم عن المسلمين . وقد رضى النبى أن يبدأ عهد الصلح بكتابة (باسمك اللهم) على ما أراد سهيل من التعاهد على سنة العرب وقريش قبل الإسلام من هذا الإستفتاح ، إلى أن ألف الله بالإسلام القريب إليهم بين قلوبهم فاتحدوا وساروا إلى اليوم على استفتاحهم وراء القرآن باسم الله الرحمن الرحيم .

من أجل هذا الدين والحكمة والأخلاق فى كتب العرب وصحفهم ومهارقهم ومن حيث أصبح شعر العرب قبل الإسلام فى وحدة اتجاهه العام نحو الله المعروف هو كما يقول ابن قتيبة (مستودع علومهم ، وحافظاً لآدابهم) فإن عمر بن الخطاب دعا العرب بعد الإسلام وحضهم على رواية الشعر القديم وحفظه وتدوينه وتربية أبنائهم بعد القرآن عليه ، مع أنه أحرق كثيراً من كتب التفلسف و (التهوك) كما سمى النظر فى هذه الكتب الأعجمية عندما بدأت تطل بعد الإسلام بقرون الظنون والشبهات على غير ما ألف العرب فى سعيهم ووعيهم من البرهان الظاهر ، والحق المبين .

وهكذا ارتفع ضوء هذه الحياة ومرشدها وراء الماء .. ارتفع مع الظمأ وعلومه نحو استشراف المنبع ، إلى أن اتحد فى السماء نزول الغيث بنزول الوحى .. ونور البرق بنور الكتاب .. وما تحيا به الأجسام بما تحيا به الأنفس .. وصنع هذا الاتحاد اللغة .. وقال الله — وهو يقسم بلغتهم — ويذكرهم بما فى السماء من رزقهم وهدايتهم — (وفى الأرض آيـات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ٢٠ إلى ٢٣ : الذاريات .

٤ — أصل الحياة : ليس عيباً بعد هذا أن يكون هذا الماء ، وهو مصدر الحياة وقطب الرحى فى حياة العرب — هو أصل الحياة ، والموزع لأرزاقها بمشيئة الله ، والمخطط لصورها وخرائطها واقتصادياتها وساساتها وأجناسها ؛

وهكذا تتجلى حكمة الخالق فى أن يجعل من وعى العرب لتفجر الحياة من الماء أساساً لدينهم ، ونشأة لغتهم ، وضبط حياتهم ، وبسط نظرتهم الكلية والشمولية لأبعد مدى فى السماء والأرض ، بعد أن جعل منه هذه القوة المسيطرة على جسم البشرية ، وأوحى فيه الهيمنة على سطح الأرض ، وجعل له السلطان المطلق على حياتها وأحيائها ، وفى ذلك يقول سبحانه « وجعلنا من الماء كل شىء حى » .

فالماء أصل هذه الحياة على الارض منذ بردت حرارتها تدرنجياً بعد انفصالها عن الشمس : ذلك أن أول تساقطه أمطاراً على سطحها — بعد أن انقلبت معادنها من السدم الدخانى إلى سبيكة سائلة حارة ، ثم بردت قشرتها ، وصار لها محيط من الهواء يسمح بدورة البخار فالمطر — هو أول نشأة الحياة على هذه الكرة . فالماء هو قوام حياة النباتات والحيوانات ، بل هو لازم لنمو بللورات بعض المعادن .

على أن ما هو أعظم من ذلك فى شأنه وهيمنته أنه العامل المباشر فى تخطيط وجه الأرض ارتفاعاً وانخفاضاً ، إذ يتدفق تاركاً وراءه وأمامه من البحار والجبال ما يفصل فى حظوظ البشر ومنافعهم . فهو حين يتنزل من السماء ، منعصراً من السحب الثقال ، يرتطم بصخور القشرة الأرضية الصلبة فتتآكل تحت وطأته ، وتتفتت ذائبة فى سيوله ، فينطلق بها بين حفافى أنهاره التى يخططها عبر الأحقاب حتى يلقى بها إلى البحر ، فترسب فيه طبقة فوق أخرى حسب طبيعتها ، إذ يستقر الرمل أولا ، ثم الطين والجير . ومن فوق هذه الاندفاعات والسيول التى يسيطر بها الماء على حياة الأرض تحلق أجنحته (الرياح) متكيفة بدرجات الحرارة ، فتذهب يميناً ويساراً ، مؤيدة له فى سعيه المستمر لتعرية القشرة الأرضية من ناحية وتغطيتها من ناحية أخرى حسب ما أودع الله فيه من سر سلطانه ، وما أوحى له من كتاب نشاطه ، وقوة جريانه .

هذا الماء العمم الذى يسود الأرض ويملؤها قد انحسر عن الصحراء إلا قليلا من عيونه ومنابعه فى مزن السماء ، وأجشاء الرمال . فكانت قوة البحث عنه وهو (أصل الخلق) دافعة للعرب إلى التفكر الدائم فى قدرة (الخالق) والابتهال له . بينما كانت كثرة المياه فى تلك الأراضى الخصيبة ، أو وفرة الأمطار والغابات ، من أقوى العوامل التى صرفت جموع الشعوب الأوربية إلى الانكباب على ما تحت أرجلها من هذه الأرض المثمرة ، أو التى لما تثمر ، وإلى التحديق فى الكائنات شهوة لا عبرة ، أى إلى الانبهـــار بظاهر الحياة دون حكمتها ، وبالمعنى الذى يبلى منها وليس الذى يبقى بعدها .

٥ — الظمأ المعلم : لو لا الظمأ فى البيد ما أشرق التوحيد : هذه الحقيقة الكبيرة يعرفها العربى الفطرى ، الذى كان أكبر سعيه وراء الماء ، وأكبر حظه من الدنيا — بعد المكرمات والمآثر — أن يشرب نهلا وعللا من عين ثرة باردة ، فى يوم قيظ وحرور .

وفى الكلمات التالية نتتبع بعض أثر هذه الحقيقة العربية لنستشهد على ما كان للظمأ فى جزيرة العرب من هداية أصبحت بها الخلائق العربية على هذا التقويم الحسن ، الذى أشرق به الدين الحق فى كل أيامه .

(أ) التركيز — يقف الظامىء محترق الجوف على أديم الصحراء ، لا ينى يحدد نظره إلى الآفاق البعيدة بحثاً عن الماء . فهو منذ ينشأ يتناوبه الظمأ ، فيرسل بصره وخواطره ليركزها فى ذلك الهدف الواحد البعيد . ولما كان هذا الماء البعيد هو (أصل الحياة) ، فان هذا الظامىء المتنقل وسط الصحراء يعتاد منذ نشأته النظرة الكلية الشاملة لكل شىء إذ تتحد أجزاء نفسه وبدنه بهذا الفكر المركز فى نبع الحياة . ولقد كان انصباب النفس العربية بكل وحدتها فى مجرى نهر الحياة ، وأصل الحياة هو الذى فتق لها الحكمة فى أفعالها وأقوالها ، وأوحى لها الحق والصواب فى حياتها بمجرد إجالة النظر ، وتوجيه الفكر .

(ب) التوحيد — يدفع العربى ظمأه إلى أن يمد بصره بعيداً ، وإنه ليبصر الأفق دائماً ولكنه لا يجد الماء غالباً . فهو يشتد فى إنفاذ بصره لعله يرى ما يسعى إليه ، حتى ليحس من شدة إدامة النظر كأنما نفسه تسرى به فى شعاع عينيه إلى ما وراء الأفق لتجد عنده غايتها ، فهناك الماء ، بعيداً وبعيداً جداً ، ذلك الهدف الذى لا يتغير ، والذى منه كل شىء حى ؟ فكل ذرات جسمه قد احتشدت واتجهت إليه . وكذلك كل ذرات نفسه المتحدة فى جسمه . فهو هدف واحد جامع ، تندمج فيه مفردات الأهداف ؟ وهذه الظاهرة المتكررة فى حياة العربى الواحد ، وحياة العرب جميعاً ، تفسر لنا طابع (التوحيد) و(التوحد) باليقين مع الهدف الشامل فى كل خصائصهم . كما تكشف لنا فى حياتهم العقلية عن سر جلاء بصيرتهم التى تعتمد على قوة إنفاذهم البصر فى قلب الحياة وصميمها . وهكذا فان قوة الإلهام النفسى (البصيرة) تنبنى بمرور الزمن فى الصحراء العربية على قوة الإدراك الحسى (البصر) .

(ح) « التجمع » يجد الظامىء نفسه عند اشتداد الظمأ به وكأنما هو كائن منصهر يتبخر ؟ فنفسه وبدنه يتصاعدان معاً إلى أعلى ، وهما فى حالة اتحاد وتوحد عضوى بفعل الاحتراق . والعربى فى هذا التبخر يستشعر على الدوام أهمية السرعة فى العمل لإنقاذ حياته . وإنه ليحس — عندما يوشك لهيب الظمأ أن يفصل بين ذرات نفسه وجسمه فترتفع الأولى وتهبط الثانية — أن نفسه فى سرعة حركتها توشك أن تبلغ به إلى غايتها فى الحصول على هذا الماء العذب ، الذى هو طمأنينتها المفقودة ؟؟ وتكشف لنا هذه الظاهرة عن الأصل فى نشأة الكثير من السجايا العربية السباقة ، مثل حب الاستشهاد ، ومثل الحمية والأريحية والحماسة والاندفاع فى النجدة . وإن أعظمها لهو سجية التجمع فى البناء القبلى على هيئة واحدة ، وخليقة معلومة موروثة على مثل ما تتجمع ذرات الجسم الظامىء ، ونفسه ، متحدة على اختلاف وظائفها فى

سبيل (الماء) هدفها الواحد الظاهر ، الذى تشعر معه كل ذرة فى الجسم بصلتها الحقيقية الفطرية بالله ؟ حقاً : إن قوة التجمع والتصاعد هى التى رفعت دائماً من أنفس هؤلاء البشر الكرام إلى السماء . فجعلت منهم الغيث على الناس حيناً بعد حين بالإيمان والبيان .

(د) « العدل » : يبحث الظامىء عن الماء فى دائرة واسعة منظورة وغير منظورة ، وهذه الدائرة غير المحدودة يغمرها الضوء الظافر ، والنور الباهر ، فترى العين فيها كل شىء ، وترى النفس فيها كل شىء . فليست هناك ظلال للشجر تنطفىء فيها النظرة ، أو منشآت من الحجر تتفرق عليها الفكرة ، وإنما هو جسم وثيق ينظر نظرة واحدة ، ونفس طليقة تفكر فكرة واحدة . وقد اندمجت النظرة والفكرة فى هذا الإنسان المتحد المتجمع ، وانطلق إشعاعهما من بعد ذلك يرتاد آخر الآفاق ، فى تلك الدائرة الواسعة الشاسعة فعن أى شىء يبحث هذا الإنسان الذى أضاءت نفسه بمعنى واحد ، وتوجه جسمه إلى هدف واحد ؟؟

إنه يبحث عن شىء يبذل فى سبيله كل شىء .. إنه يبحث عن قطرة نقية من الماء العذب يبل بها ظمأه ؟ ولكن هل هو يبذل كل شىء فى هذا البحث من أجل نفسه وحده ، دون الجميع ؟؟ كلا ... فان الماء إذا ظهر كان كافياً لسقى الجميع . وإنه لا تفاضل فى الشرب كما نجد بين الناس من التفاضل فى الطعام . وإنه إذا وجد الماء وجد الطعام بجواره بالطبع ، أى وجد النخيل والزيتون والكلأ . وهى مواد لم تكن لتصنع المراتب والطبقات المتفاوتة بين الناس . وإذا كان النزاع قد اشتد بين بعض القبائل على الماء ، فلقد كان نزاعاً بين جماعات متحدة لا بين أفراد متفرقين . ونضال الجماعات والقبائل والشعوب يؤدى دائماً إلى تنمية الفضائل النفسية والجسدية فى أفرادها . بينما يؤدى نزاع الأفراد المتفرقين إلى انحلال أخلاق هذه المجموعات الواهية التى

تضمهم ، وإلى شيوع خلائق التحايل بينهم ، وإلى استكثار طغاتهم من وسائط الظلم والاستبداد فيهم .

وهذه الظاهرة فى كفاف الماء تكشف لنا عن مفعول الظمأ فى تراحم العرب أفراداً ، وشدتهم فى حرب أنفسهم وغيرهم عشائر وقبائل ، وتكشف لنا من وراء ذلك عن أصل سجاياهم فى الكرم وحسن الجوار والصبر ، وعن طبائعهم فى القناعة من لذات العيش بلذة واحدة هى إرواء الظمأ ، وفى ازدراء جمع المال ، وكنزه به ، والتفانى فى بذله وإنفاقه . وإن هذه الظاهرة نفسها لتكشف لنا فوق ذلك عن الأصل فى نشأة المساواة الحقيقية بين العرب . فان معركة الحياة عندهم لا تدور إلا على الماء . وإنها لمعركة أسلحتها الصبر والصدق ، وعدتها الجرأة والحسم ، وأساسها القابلية فيهم للاندماج فى المجموع فى سبيل الهدف الواحد المشروع . فاذا ما ظفر الظافر منهم بالماء فليس من آثار ظفره أن يكون أفضل من عشيرته بما يملكه منه ، لأن المملوك واحد وهو هذا الماء النقى العذب ، فهو مملوك للجميع ، والجميع يشربون منه على هيئة واحدة ، ويحمدون الله من وراء الظمأ على طبيعة متفقة . فلا يبقى من مقاييس الفضل والتفاضل بعد ذلك إلا تفاوت النسبة فى المكارم ، وتباين الجهاد الصادق .

لذلك لم يكن ميسوراً لأية أمة أن تتساوى وتتفاضل على هذا القانون العادل كما تيسر ذلك للأمة التى نشأت فى صحراء العرب . وإننا لنملأ العين فى كل يوم من مشرق هذا القانون العادل العظيم فى شريعة بمفردها فى العالم هى الشريعة الإسلامية ، ثم ما أبلغ بعد ذلك أن تكون كلمة (الشريعة) فى دين العرب مأخوذة من أصلها الحق فى لغتهم وبيانهم وهو « مورد الماء » .

(هـ) **« الطمأنينة »** : يملأ الظامىء كفيه من الماء إذا ورد مورده بعد الجهد فاذا ارتوى منه شعر بارتياح فضفاض ، وامتلأت نفسه بشعور الرضى والسعادة والحمد . وإن ذرات نفسه وبدنه لتتألق جميعها عند ارتوائها بهذا

الاطمئنان السابغ الذى تبدو فيه أسمى مظاهر الشكران نحو الخالق ، وأعظم صور الإيمان عند المخلوق ، وهذه الظاهرة تكشف لنا فى النفس العربية عن بلوغها أقصى درجات الرضى بعد اجتيازها أشق (مراحل الكفاح) وعن شعورها فى حياتها الجاهدة بكثرة القليل ، وكفاية الكفاف ، وعظم المثوبة. وهى تكشف لنـــا أكثر من ذلك عن استطاعة العربى فى هاتين الحالتين العظيمتين من الظمأ والرى أن يفتح بصره وبصيرته على كنز الخالق فى خلقه . فجرعة الماء التى لا يكاد يشعر إنسان فى العالم بقيمتها تساوى عند العربى ملك هذا العالم ، وإنها لأصل هذا العالم كله بالفعل . فالعربى قد أعدته بيئته إذن لكى يربط بين قلبه مباشرة وبين أصل خلق الحياة والإنسان . وأن يعرف من هذه الصلة الراسخة القوية بينه وبينها سر الحياة ، وأن يتأثر من هذا السر الذى يضىء فى نفسه وجسمه بعظمة الخالق وجلاله ، وقدرة الله ووحدانيته ، فينبع من ذلك نبع الدين والإيمان فى قلبه على الدوام .

ويستطيع القارىء بعد ذلك أن يتبين الآثار الأخرى التى يولدها « الجوع » وهو المهيمن على أهل الشرق والغرب على الخصوص ، وذلك ليقارنها بما أوجزنا بيانه عن مؤثرات الظمأ . وعلى سبيل المثال نقول إن الجوع يسوق المرء إلى البحث عن كثير من المواد المتفرقة المطلوبة للجسم ، لا عن شىء واحد يتركز فيه الاهتمام كالماء فى حالة الظمأ . وكذلك فان الجائع العاطل أو المحروم يبحث فى المدينة عن مطلوبه تحت قدميه لا بعيداً عنه عند الأفق ، فهو يتطلب القوت من الأرض ألتى ينحنى عليها ويجوس فى أزقتها باحثاً أو سائلا غير الله ، حتى من يتكلفون التزهد ، ويتماوتون بالصبر والمراءاة ، لا يملكون فى المدينة صبر ذلك الإنسان الكامل ، وسماحة وجهه وهو يرفعه إلى الله ويستسقيه فى البادية .

ومن أعراض الجوع (التفتت) و (الانهيار) لا (التجمع) و (التسامى) وهذه الأعراض تظهر فى معركة الطعام القاسية بين أهل أوروبا حيث تتطاحن

الطبقات فى الظلام ، مستخدمة أدنأ ذرائع البغى ، والخداع ، على رغم ما يتستر الأوروبيون به أمام ضحاياهم من غشاوات الرحمة والمثل الخلقية الكاذبة .

وأخيراً ، فان جرعة من الماء بعد الظمأ إذا كانت تملأ النفس رضى وطمأنينة فان اكتظاظ المعدة الجائعة بالطعام يرين على وعى صاحبها بغيبوبة من الشهوات قد تسفل بخيال المتخوم إلى الدرك الأدنى من الحيوانية العمياء ، والبهيمية العجماء . وإن كثيراً من النـــاس ليشعرون فى الحالات العادية بالاشمئزاز من أنفسهم إذا ما ملأوا وعاءهم بخبيص الطعام المختلط . ولذلك كان العدل فى الطعام شعار كل مؤمن ، وطبيعة كل عربى ، وإن وجد ما فوق الكفاية . هذا إلى قيام العدل بالطبيعة فى نوع طعام البادية الذى هو اللبن — ويسمونه أحد اللحمين — والتمر ، والشعير المطحون بقشره والعسل والفاكهة واللحم ...

٦ — الماء فى اللغة : ينصب مفعول الماء فى جميع ما يظهر من حياة العرب .. ولكنه كما نراه أشد ظهوراً فى (الحلق) من جهة أنه موضع الشعور بالظمأ . ولما كان الفم باب الحلق طبيعة ، وباب النفس والقلب حقيقة ، فان أثر الظمأ فيه هو العامل المباشر فى تكييف النطق العربى ، وتصنيف الأحرف العربية على ما هى عليه من كمال لا يدانيه كمال فى الصوت والنبرة والمدادة والجهارة والإيقاع . فالحلق العربى هو الذى بعث من النفس البشرية كل أسمائها ومعانيها ، وميز العرب بكمال النطق ، واستكمال مخارج الأحرف والكلام ... فبينما نجد اللسان العربى يهز جوانح الأرض بقرآنه ونشيده وبيانه ، فان ألسنة أهل الشمال كما نسمعها اليوم — بعد أن أغلق البرد والتربص أفواههم — ما تزال تزعج العالمين بأخبث لهجة ، وهى تنزل الهزيمة بكل ما يشرئب إليه البشر من العدل والأمن بما تفاخر به من لحن رذائلها ، ووسوسة شرورها ، ومفاخر عدوانها .

نشأت أحرف القرآن ونطقت على أوتار هذا الحلق العربى ، ولذلك جعل الله هذه الأحرف آية من آياته حين أقسم بها فى قوله « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى (*) والقرآن العظيم » فمن هذه الحروف تنزلت تراتيل القرآن الكريم إلى قرار الأنفس المستعدة له . ولما كان الأساس فى أثر القرآن الكريم هو القراءة الناطقة المسموعة شأن الشعر العربى وأخبار العرب المروية — فكان من ذلك تسميته بالقرآن — فان بيان القرآن فى الأنفس لا يتم تمامه إلا إذا رتل اللسان الصادق آياته ، وأخرج أحرفه هذا (الحلق العربى) ، الذى تجوفه الحر ، وصقله الظمأ ، وشغفه الماء ، فصار للرنين العميق الشاغف الجاهر فى مثانيه ذلك الأثر العجيب فى الأنفس العربية ، إذ يهز شغافها ، ويفض مغاليقها ، ويبلغ إلى سويدائها بنور الله والحق .

وننتقل من الحروف إلى الكلمات التى نشأت منها أصول الحياة العربية فنجد أصل أصول هذه الحياة هو (الحرية) ذات السعى الدائب ، والخلق المتين : والحرية فى لغة العرب وحدهم هى من (الحرارة) ، (الحر) اللذين يتولد منهما الظمأ ، وكذلك فان (الذل) من (الظل) كما أن الضعة من (الدعة) وهما حليفان ينشآن عند كثرة الماء ، والتكاثر عليه وإهدار نعمة الله فيه .

(*) السبع المثانى — على خلاف رأى الأعاجم من المفسرين — هى الأربعة عشر حرفا التى أقسم بها الله فى أوائل السور فى مثل قوله « الم » أو « طسم » أو « كهيعص » وهى بين حروف اللغة العربية نصفها الذى يمثل قطب الايجاب أو أفق الشروق فى تأليف المدنى ، وقد سميناها لذلك الحروف (الشمسية) كما سمينا الحروف الاخرى (الحروف القمرية) وعددها أربعة عشر حرفا كذلك ... فالسبع المثانى هى الأربعة عشر حرفا الشمسية ، لان مثانى جمع مثنى كما هو معروف . وهذا القول الفاصل هو مفتاح البحث العربى فى اللغة العربية . وقد غلط أكثر المفسرين الذين ذكروا أن السبع المثانى هى سبع سور ، أو سبع آيات .... الخ .

على أن أبين آثار الماء تتجلى فى طرائق تعبير العرب ، ومناهج حياتهم ، ومساق تقاليدهم ، أكثر مما فى اشتقاق كلماتهم . أى إن أثر الظمأ المعلم يتجلى بروعة هدايته فى وعى اللغة العام أيسر مما يبدو فى مفرداتها .

فالعرب يدعون بسقى الماء لكل من يحبون وما يحبون ، حتى الدمن والأطلال . فهم يقولون (سقياً لك) ... كما يقولون :

سقى دمنتين لم نجد لهما أهـلا بحقل لكم يا (عز) قد رابنى حقلا

وهم يستسقون الله للقبور كأنما الأنفس فيها ما تزال ظامئة إلى موردها من الماء العذب . بل يجعلون من ظمأ النفس معنى يسمونه (الهامة) يتذكرون به الثأر لأبطالهم وأعزائهم حين يتصورون أصوات أنفس القتلى على قبورها تطلب الماء إلى أن يؤخذ لها بالثأر فترتوى وتطمئن..والهامة من الهائمة،وهى من الهيمان ، أى العطش والصدى .

وأحب شيء من متاع الحياة عند العرب قاطبة هو (الماء النمير) لا تلك المشتهيات الغلاظ فى حياة القواعد والمخلدين من أهل الأنهار والحضارات ، وفى ذلك يقول حاتم وهو يمدح جوار من جاورهم من بعض القبائل فى قوله :

جاورتهم زمن الفســاد فنعم الحى فى العوصــاء واليسر
فسقيت بالمـــاء النمـير ولم ينظر إلى بأعـين خـــزر

والملك عند العرب هو ملك (الماء) لا ملك (الطين) — فاسمع إلى قول زهير بن جناب :

فقد أضحى لحى بنى جنــاب فضاء الأرض والمـــاء الرواء
نفينـــا نخوة الأعداء عنـــا بأرماح أسنتها (ظماء) ؟

وكانوا — وما يزالون — يعتقدون أن الله لا يسقى بمائه من سمائه إلا الكرام ، إذ الماء أكرم ما أنعم به على البشر ، وكيف لا وقد اتخذه لعباده وضوءاً لصلاتهم ، وطهوراً لحياتهم .. وفى هذا المعنى يقول زهير بن عوف المازنى :

إذا الله لم يسق إلا الكرام فسقى وجوه بنى حنبل

ولذلك كان العرب لا يستسقون إلا بوجوه كرامهم . وكانوا — على عهد الرسول الكريم — يستسقون بوجهه الطيب ، فلما مات استسقوا بوجه عمه العباس ...

ولقد كان أثر حب الماء ، وشغف الظمأ أشد جلاء فى خصائصهم البلاغية فى التشبيهات والاستعارات ، فهم يقولون للكرم : الندى ؟ ويعتبرون الشعر « نبعة حياتهم » وحين نراهم يصفون القبائل التى يكثر فيها الشعراء بأنها (عين ماء العرب فى الشعر) وحين يجعلون الحكمة بصراً بمواقع الأمور (ورداً وإصداراً) أى ذهاباً إلى مورد الماء ورجوعاً منه ؟ وحين يجعلون مواضع الماء أفخر أنسابهم فى الأرض فى مثل قول حسان بن ثابت :

إذا سألت فانا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسان

وحيث يقول السموءل المذحجى فى وصف نقاء نسبه العربى :

ونحن كماء المزن ما فى نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

وكذلك جعل العرب نسبة حب الموت عندهم — وهو عمود قوتهم وشجاعتهم — إلى حالة الظمأ — وفى ذلك يقول وداك :

« هيم » إلى الموت إذا خيروا بين تباعات وتقتال

والهيم هى الإبل الظماء العطاش ومنها (الهياء) أى المفازة لاماء فيها. وكذلك جعلوا نسبة (الحب) وهو أساس (صلات الرحم) إلى الظمأ ، وإلى احتراق القلب به حين جعلوا أسمى مراتبه (الهيام) و (الهيوم) أى أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه وهو مماثل لذهابه على وجهه بسبب غلبة الظمأ عليه ، وتطلبه قطرات الماء ، جوهر حياته ؟ ولذلك تجد شعر الغزل عند العرب (مزنة) من معانى الماء ، وروائع التشبيه به . ومن ذلك نجد الخلاف بين (اللثمة الرطيبة) التى تبرد بها عند العرب حرارة الشوق ، وبين (القبلة

الحارة) عند الأوربيين الباردين ، الذين يدفئون قلوبهم الميتة بالحب ، بعد إذ يضعون له الوقود فى بطونهم من أخلاط الطعام الحضرى المغصوب .

ومن تشابه الوجد بالحب عند العرب بالوجد بالماء قول الشاعر :

قلت وجدى بها كوجدك بالمـا ء إذا ما منعت بـرد الشراب

وكذلك فان أعظم تشبيهات العرب عن الحرب تخرج من حركة الماء فى شتى مظاهرة الرائعة ، ذات الخلابة والسيطرة والاندفاع .

وفى مثل ذلك يقول الشاعر فى وصف الحرب ولقاء العدو :

فجاؤوا (عارضا) بردا وجئنا كمثل (السيل) نركب وازعينا
فلما لم ندع قوسـا وسهمـا مشينا نحوهم ومشوا إلينـا
تلألؤ (مزنة) برقت لأخرى إذاحجلوا بأسياف ردينـا

ويقول تأبط شراً يصف فتى فاتكاً :

« غيث مزن » غامر حيث يجدى وإذا يسطو فليث أبـل
(ينهل) الصعدة حتى إذا مـا (نهلت) كان لها منه (عل)

ويتحدث السموءل عن خير ما ورثه عن أبيه فيقول :

بنى لى (عاديا) حصنا حصينا و (ماء) كلما شئت استقيت؟

ولقد أضاءت بروق هذه التشبيهات ، وسال سيلها فى حياة الكثير من الأمم الشرقية ، التى رويت بماء العرب ودينها ولغتها بعد ظهور الإسلام . وليس فى الوسع هنا تعقب ذلك فيها ، فضلا عن أن نستوعبه قبل ذلك فى حياة العرب أنفسهم .. فعلى القارىء العربى أن يتبين ذلك لنفسه بعد اليوم فى كل ما يقرأ من أدب أجداده وتراث شعرهم وبيانهم . بل فى كل ما يعرفه من مختلف آثار العرب القديمة ، ومظاهر حياتهم الراهنة فى البادية التى ما تزال والماء قطب رحاها ، وموضوع أسمارها ، وأول سوءال يلقيه العابر على العابر.

ونستعرض للقارىء — على سبيل المثال — جانباً من هذا (الذوق المائى) عند

العرب فى تسمية أسمائهم ، فتقدم له أمثلة من هذه الأسماء الكريمة التى فاضت من منابع الماء ، أو هطلت معه من السماء :

فمن أسماء العرب على الماء : جعفر (ومعناه النهر الملآن) ، وغدير ، ومطر ، ومطير ، ومعن (المعن : الماء) ومتمطر ، وغيث ، وقطرى ، وماء السماء ، والندى ، وحباب . ومن أسمائهم على صفته : الريان ، راوية ، رغوان ، الفياض ، هطل ، المنهال ، العوام . ومن أسمائهم على مصادره فى السماء : مازن ، مزنة ، مزينة ، ضباب ، معصر ، براق ، برق الأفق ، رياح ، بحر الريح ، مدرج الريح . ومن أسمائهم على آثاره فى الأرض : الربيع ، ربيعة ، رويض ، ومن أسماء نسائهم فى مثل ذلك كله : أم السلسبيل ، أروى ، ريا ، الرباب ، بريقة ... الخ .

هذا فى الناس ، على أن لهم فى أسماء الخيل (حصونهم وسلاحهم) كثيراً مما استقوه من تشابهها بالماء فى كثرة الجرى ، أو سرعته ، على مثل ما عرفوا من طبيعة فيهم وفى أنعامهم كطبيعة الماء . فهم يسمون من أنواع الخيل (السكب) و (البحر) وهما تسمية الرسول الكريم لبعض خيله . ومنها (الغمر) و (المدرار) و (المسح) و (اليعبوب) و (السابح) ... الخ .

وهذا فى الأسماء إجمالا .. على أن لهم فى وعى تركيب أنفسهم وأبدانهم على هذه (الخلقة المائية) ما لا يستطاع حصره فى غير مجلد ضخم ، وثبت مبوب . فمما لا شك فيه أن العرب كانوا على تمام الوعى لوظيفتهم فى هذا العالم الأعجمى المحيط بهم حين يندفعون فى مد الدين إليه ، وانحسارهم فى انحلال هذا العالم عن الدين .. وإنهم ليعون ذلك كل يوم ، حتى فى حركة الجمل فى مده وجزره براكبه ، إذ يندفع به ويرتد ، وهو متقدم دائماً فى سعيه الذى لا يتغير نحو الماء ، كسعى العرب الذى لا يتحول نحو الدين ؟ وإنهم ليقرأون القرآن الكريم — ويقرؤه المتأثرون بهم — على هذه الحركة نفسها ، التى يتخشع بها الجمل فى سيره ، حيث نرى قارىء القرآن يهتز

بالفطرة متخشعاً إلى الله ، وكأنما يسعى إليه بقلبه فى مهامه الوساوس والآمال والمخافات ، مهتدياً فيها إلى ذلك النبع العظيم الذى ورده مراراً ، ونهل منه تكراراً . ويكفى أن نذكر من وعى أسلافنا العرب لحقيقة تركيب الجمل على شكل الموجة — وهو مطيتهم فى الهجرة إلى خارج الجزيرة — قول شاعرهم يصف هذه الظاهرة المائية العظيمة فى طبيعة سير الجمال غير قاصد إليها بذاتها :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

أى وسعينا فوق المطى .. مندفعين كالأمواج بين الأباطح والوهاد ؟

٧ — الماء فى القرآن : تقوم دعوة الله العرب إلى الإيمان به على دعامة راسخة هى الشواهد الكونية الناطقة بتوحيده . وحسبنا أن نرجع إلى هذه الشواهد فى القرآن الكريم لنجدها فى قلب الصحراء أدنى إلى قلب العربى ونفسه ومقومات حياته ، ومجال حواسه . وفى هذه الصحراء التى يحيا بها العربى يدأ بيد بين شمسها وآفاقها ، وقمرها ونجومها ، ورياحها وأمطارها ، وخيلها وإبلها ، يسبح كل شىء بحمد الله . وفى هذه الصحراء يرفع طالب الماء رأسه البصير عن الأرض ليستشرف بعينيه إلى كل عظيم جليل تحتويه السماء من آيات الخالق وآلائه . وقد علمه الظمأ الشمم ، واسترعى قلبه أنه يسمع فى كل يوم وراء رعيته من النعم والشاء نشيد الصحراء القديم فى ذلك الثغاء الموصول ، ذى المقطع العذب الواحد (ماء ... ماء) فأى حديث عن هذا الماء فى القرآن الكريم : ماء الدين ، وباعث مجادة العرب ، ومحيى مكارم البشر ؟؟

يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إن جميع الكائنات الحية تنتسب إلى الماء (وجعلنا من الماء كل شىء حى) وهذه الحقيقة الجامعة أصبحت من حقائق العلم فى هذا العصر ، ولكنها ما كانت أبداً من حقائق القلوب ، ولن تكون فى غير الحياة العربية ، ولقد وعى العرب هذه الحقيقة العظمى حين خاطبهم الله بها ، لأنها من طبيعتهم ، وهى هى أصل جميع الحقائق العلمية

التى خاطبهم بها ففهموها ، والتى هى مع ذلك أساس علوم العصر الذى لا يعى أكثر أهله من العلم شيئاً ، وهم القارئون الكاتبون .

ويقول الله إن أعظم ما يثاب به الإنسان فى حياته الأخرى هو أن ينهل من شراب طهور ، يتفجر من عيون خالدة دافقة . وجعل الله ذلك إشارة إلى تضاعف شعور الإنسان بالحياة عند مثوبته ، لأنه يجد فى الجنة ما تمده بأصل هذه الحياة وهو (الماء) : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) و (يسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا) و (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) ثم يقرر الله أن أقصى عقوبة الإنسان فى الحياة الأخرى تكون فى حرمانه من هذا الماء فى مذاقه العذب الطهور ، وفى فاعليته القوية النقية (إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميماً وغساقا) بل إن الله يقول فى نعمة الماء ، وما ترمز إليه عقوبة الحرمان منه وهو أصل الحياة ، ومعين حقائقها (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) وذلك بعد أن قال عن الماء فى الدنيا فى معنى قوة الحياة به : (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتا) ...

وحسبنا بعد هذه الإشارة أن نذكر بشرى الماء فى كل مرحلة من مراحل يقظة الدين فى حياة العرب ، وفى حياة العالم تبعاً لذلك ، وذلك حين نذكر أن نشأة إسماعيل بجوار مكة تبدأ بتدفق ماء (زمزم) وأنه قبيل ظهور الإسلام عادت هذه البئر للظهور ففاضت بين يدى عبد المطلب جد الرسول الكريم فكان تدفق الماء منها بشرى وحى الله ... وما أقرب ما نجده من توافق هاتين الكلمتين : (الماء .. والسماء) شكلا ومعنى فى لغة العرب وحدها ، فليس بينهما من فرق كما نرى إلا فى زيادة حرف (س) التى نعتقد أنها س الرسالة ، التى يوحى الله بها كالغيث من السماء فتحيي موات القلوب .

النفس .. بين حقائق الإيمان
.. وشبهات الفلاسفة

إمتدادا للفصل السابق عن العناصر الطبيعية التى توفرت بها فى الجزيرة العربية كمالات الفطرة للبدن السليم ، واتجهت بها ضرورات الحركة والسعى وراء الماء والمرعى باتجاه الخالق المنعم ... نتحدث عن العوامل التى حفظت على (نفس) الإنسان العربى فى عصر ما قبل الإسلام هذه الفطرة المهتدية المطمئنة التى أحاطت بها مقوماتها ومنبهاتها فى بداءتها المضىء الفسيح، فاصبحت أهلا لحمل رسالة الإسلام بالوعى والعقل ، واللغة والسلوك .

ولكن مثل هذا الحديث عن نفس الإنسان العربى ، وعوامل اطمئنانها واهتدائها يتطلب أن نخصص هذا الفصل للحديث عن النفس بعامة فى صدورها بالخلق عن أمر الله وذلك فى الحدود التى تحددها حقائق القرآن ، متنزهين بهذه الحقائق عن شبهات الفلاسفة ، وعن أخلاط أوهامهم التى أشاعوها حول كلمة (الروح) بديلا للكلمة القرآنية (النفس) .. فان شيوع كلمة (الروح) بين المسلمين فى عصور انحلالهم قد نقل إليهم من طريق الحلوليين من المتصوفة والمتفلسفة والباطنية هذا البديل من الوثنيات الهندية واليونانية والفارسية القديمة لحنيفية الإسلام .. ومحجته البيضاء .

١ — **الله والنفس** : خلق الله آدم (الإنسان الأول) فى الجنة التى أعدها له .. وأعده لها .. وكان فى فطرة خلق هذا الإنسان أن يخلد .. أن يخلد بالحق، وحمل الأمانة تجاه الخالق ، ولكن آدم عصى ربه وغوى .. تعجل امتلاك الخلود فنسى شرطه وهو يفتتن به ... وهبط آدم إلى الأرض ليخلد على

أقساط .. ليخلد بالتوالد .. ليخلد نفساً من نفس .. بينما يقضى على الأرض مرحلة كاملة للابتلاء والتطهر .

وقصة الخلق الأول فى القرآن الكريم موجزة فى حدود ما يطيق عقل هذا الإنسان المبتلى بالغيب أن يعلم .. لقد خلقه الله من ماء وطين ... وسواه وهو يقول للملائكة (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ٧٢ : ص .

هذه الآية المبينة عندما رجع إليها المسلمون ليفهموها بتأثير الفلسفات الهندية واليونانية الوثنية بعيداً عن القرآن الذى هجروه فى عصور الانحلال فهموها على أن الله سبحانه قد أعطى آدم بهذه النفخة قدراً من روحه ليحيا بها ، وأن الروح بذلك أصبحت فى جسمه إلهية — بشرية .. وهذا بكل ما يعنيه هو صميم المذهب الوثنى القائل بوحدة الوجود .

يقول نصر الدين الحسينى فى شرح هذه النظرية فى كتابه (الفلسفة الهندية) وبيان أن « برهمن » إله الهندوس أو الروح الأعلى يحل بروحه ويتحد بأرواح البشر : (ما هو الفرق بين روح الفرد وبين الروح الأعلى ... أو برهمن ؟ ... يرى الفليسوفان الهنديان (شنكرا ورامنوج) أن روح الإنسان لا يمكن أن يكون جزءاً للبرهمن ، لأن البرهمن لا يمكن أن يتجزأ .. ولا يمكن أن يكون مختلفاً عن البرهمن ، لأن البرهمن واحد لا ثانى له ، ولا هو البرهمن المتطور لأن البرهمن غير متغير .. إن روح الإنسان هو الروح الأعلى نفسه .. هو برهمن) ! .. وهذا هو وحدة الوجود فى وثنية الهند .

النفس إذن فى القرآن الكريم هى خلق الله ، وقد خلقها بروح منه أى بأمره ومشيئته فى الإنسان الأول (آدم) .. وهى من بعد تتوالى بقوانين الله الحافظة لاستمرار حكمة هذا الخلق ، وغاية الخلق ، حتى تقوم الساعة .

يقول الله سبحانه (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ٨٥ الإسراء .

فمعنى أن الخلق بروح الله أنه (بأمره) ومعنى أنه (بأمره) هو أنه (بعلمه وسننه) التى يخلق بها الخلق ، ويحفظ بها الخلق ، وهو يرفع السماء ، ويحرك الأفلاك ، ويحيي الأرض والبشر والأنعام والشجر .

فالنفخ من روح الله فى الطين والماء ليس بمفهوم الوثنية الهندية نفخاً حسياً بشرياً فى قطعة من الطين يسويها الله بيديه ... إنه ليس نفخاً يقوم به فى التصور الكليل إله بشرى مثل (برهمن) وهو يخلق (مانو) آدم الهند فى أساطير الهندوس ... أو مثل أهورامزدا الذى خلق الأرض وأرساها على قرن ثور ليحملها ثم خلق (كيومرد) آدم الفرس ليعمر هذه الأرض؟ .. أو كما تشير أساطير الإغريق الخرافية اشتركت آلهة اليونان فى خلق بروميثيوس اليونانى الأول على طريقتها .

ذلك أن قول الله تعالى « ونفخت فيه من روحى » إنما تعنى أنه خلقه كما خلق السماوات والأرض فى أيام إلهية لا نعرف مداها بالسنين الشمسية أو القمرية . لقد خلقه كما خلق كل شىء بعلمه الذى ما أوتينا من إدراكه إلا القليل ... خلقه بهذه السنن السارية فى كل شىء ، وبهذه القوانين التى أوحى بها لتقوم به على كل شىء.. فليس الإنسان بدعاً فى الخلق وهو سبحانه القائل (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) ٥٧ : غافر .

والله سبحانه لم يخلق السماوات والأرض فى (نفخة) تتصورها الفلسفات والأساطير الوثنية بصورة حسية بشرية يقوم به إله وثنى بشرى .. بل خلقها بزمانها ومكانها وأطوارها بعلمه وسننه وأمره وهو فى مثل هذا المعنى يقول : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ٧ : هود .

فهذه الأيام ما مداها وما حسابها بحسابنا .. وهو قد أراد سبحانه أن يضرب لنا مثلا لتقدير ذلك بمدى ما قد نملكه من العلم القليل فقال (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ٤٧ : الحج وقال (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ٤ : المعارج .

فالنفخة من روح الله تعالى لخلق الإنسان بأمره وعلمه وسننه إنما هى فى هذا الخلق المحكم المتسق بغير تفاوت أو قصور — إحياء للجزء الإنسانى فى الكل الدنيوى الذى يظهر فيه بمشيئة الله ، ويعيش منه ، ويتسابق معه إلى غايته وغاية الخلق ... حيث شاء الله أن يرتبط خلق الإنسان بخلق السماء والأرض .. وأن ترتبط نهاية الإنسان بقيامته وقيامة السماوات والأرض .

يقول الله فى البداية (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء) ٢٩ : البقرة . ويقول أيضاً (وعلم آدم الأسماء كلها) ٣١ : البقرة فهل يكون آدم معزولا بهذا العلم للأسماء وخصائص كل الأشياء ، وقابلياته للنظر فيها ، والحكم عليها ، أم إنه فى هذا الخلق الكلى خلق متكامل فيه ، ومرتبط به ، ومسوق إلى غاية معه ؟؟

ويقول سبحانه عن النهاية المشتركة للإنسان والخلق الأكبر بعد هذه المرحلة التى نراها (إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت) ١ إلى ٥ : الانفطار .

هكذا فان النفخ من روح الله للخلق لا يكون فى حدود الحقائق القرآنية نفخاً حسياً بشرياً كما تتصوره الفلسفات والأساطير الوثنية عجزاً عن التفكر ، وقصوراً عن إجلال الله فى قدرته وعلمه ، وفى مشيئته وحكمته . ولقد ضرب الله لنا مثلا على الخلق فى آية المسيح .. عندما نفخ سبحانه من روحه فى مريم .. أى أعدها سبحانه بأمره وعلمه وسننه ليكون المسيح من غير أب .. فلم يكن ذلك كسراً للقوانين ، وكيف يكسرها مبدعها وهى برهان الخلق عليه ،

ودليلهم إليه ؟؟ .. بل هو بالقوانين التى لا نعلم منها إلا القليل أظهر لنا هذه الآية .. وهو فى ذلك يقول (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) ١٢ : التحريم ويقول أيضاً (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ٥٩ : آل عمران .

لم يكن هذا النفخ إذن نفخاً كما يتصوره البشر بأفواههم ، وكيف يمكن أن يكون .. ولم يكن إضافة أوحلولا أو فيضاً من روح الله بالمفهوم ذاته على الطريقة الهندية الوثنية — فى جسم مريم ليكون ولدها .. ولم تكن كلمة (كن فيكون) فيما يخلق الله به الخلق هى كما يشاع فى كرامات « القديسين والأولياء » .. وإنما كان ذلك بروح الله ، أى بأمره ومشيئته وعلمه الذى ما أوتينا منه إلا القليل .. ولن يضرنا فى ديننا وإيماننا وسلام أنفسنا وصلاح أعمالنا ، وعمران أرضنا أن لا نعلم كيف الخلق كما وقع ، وكيف الخلق فيما لا يزال يقع .. بل إن الجنوح عن طريق العلم الممكن ، والعمل المفروض ، والقعود بالرفض للسؤال عما كان ، والظن حول ما كان ، بغير أداة صالحة ، وسوء استخدام للأدوات المتاحة هى السراب الذى تجاوزت فيه بعض النفوس والعقول أفلاكها لتنفجر فى الفراغ ، وتتحطم فى الوهم ، ولا تبلغ من غاية أمرها إلا العجز واللغو واليأس .

والله سبحانه وتعالى يقول فى الحد عن هذا التطلع إلى أبعد مما يلزم السير والعلم والعمل نحو الغاية التى يتسابق إليها الخلق (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) ٥١ : الكهف .

نعم .. ولكننا نستطيع فى حدود ما نشهده من آيات الخلق أن نرى أن الجنين البشرى وهو ينبثق بمشيئة الله من (النطفة) فى أطوار للخلق تتتابع فى الشكل والنمو والتكامل فى تسعة أشهر — إنما هو آية من آيات الخلق يحوطها ويسرى فيها ويقوم بها أمر الله وعلمه وسننه وقوانينه ظاهرة لنا فيما نعلمه ، وخافية عنا فيما لا يزال الإنسان يحاول علمه . وهو سبحانه فى ذلك يقول

(يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) ٦ : الزمر .. فليس الأمر إذن فى هذا الخلق الذى يقع أمام أعيننا والذى ندركه بقدر علمنا، أنه نفخة من روح الله تعالى نتصورها بالتجسيد الوثنى الجهلانى كنفخة الخزاف فى صلصاله يصنع قارورة أو إبريقاً .. بل هى سنن الله التى نلمح طوراً منها فى النطفة وما بعدها ، هذه النطفة التى تحدرت فى سنن الله أيضاً — على طريق الخلق — من أطوار سابقة فى أصلاب الرجال وترائب النساء .. إلى أطوار لاحقة .. وهكذا .

إننا بهذا البيان الفارق بين الحكم القرآنى وبين اختلاط الفلسفات الوثنية الباطنية المعتمة نستطيع أن ننزه مفهوم (النفس) البشرية — فى حدود الحقائق القرآنية — عن الكثير مما علق بمعناها تحت الإسم المبتدع لها وهو (الروح) .. أو عالم الأرواح ... أو منازل الأرواح ؟ .. وذلك كما يلى :

(١) النفس البشرية منزهة فى مفهوم القرآن للخلق الإلهى عن نظرية الصدور أو الفيض عن الوجود الأول بمفهوم (وحدة الوجود) .. ذلك أن نظرية (وحدة الوجود) الوثنية تتنافى مع حقيقة الخلق من العدم كما يقررها القرآن الكريم ... كما أنها تتنافى بالتأكيد مع تصور أن هذا (الموجود الأول) الخرافى مثل برهمن أو أهورامزدا أو زيوس هو الله الحق .

ولقد أدرك الكثير من العلماء المسلمين هذه المتناقضات فى أقوال بعض فلاسفة العجم مثل الفارابى وابن سينا عندما حاولوا إلباس هذه الأخلاط الوثنية الهندية واليونانية أثواباً إسلامية . وقد اشتهر الغزالى بمهاجمة هؤلاء فى كتابه (تهافت الفلاسفة) .. وعندما حاول ابن رشد أن يدافع عن هذه الرطانات الأعجمية فى الفكر الإسلامى بالرد على الغزالى لم ينجح فى أن يمحو وصمة الزندقة والبطلان عن الأقوال الوثنية والمبتدعة فى رسائل هؤلاء الفلاسفة بوجه عام .

(٢) بانتفاء نظرية الفيض فى القول بوحدة الوجود ينتفى أخطر المفاهيم

الوثنية التى تجعل من النفس البشرية تحت ستار كلمة (الروح) جزءاً من الله أو من روح الله بتحريف معنى روح الله إلى أنه ذاته وليس كما هو فى القرآن الكريم (أمره) ومشيئته وعلمه وسنته .-

ولقد ذكر الله فى مقام الأبانة عن ذاته كلمة (نفس) منسوبة إليه تعالى فقال — على لسان عيسى — (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) ١١٦ : المائدة .. وقال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ٤ : الأنعام ... ولكن نفس الله هنا لا تدل إلا على ذاته عندما يتكلم عنها .. ونحن بالتأكيد لا نعلم ولا نخوض بشىء عن (نفس الله) .. ولكننا كما ألهمنا وعلمنا بالإيمان ننزهه بنفسه عن الشبيه والشريك .. ومن هذا فان النفس البشرية كما خلقها الله وكما يعرض لها من النقص والكفر والهوى والخيانة والأمر بالسوء — ليست بمفهوم وحدة الوجود متحدة بنفس الله ، وليست كذلك جزءاً من نفس الله .. وبذلك تسقط نفس الشبهة عن أن يكون للإنسان روح — بدلا من نفسه أو بمعنى نفسه — تكون كما يزعم فلاسفة الوثنية — متحدة بروح الله ، أو جزءاً من روح الله .

يقول ابن سينا فى شرح مذهبه وهو يفسر قوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) (قوله من روحى .. إضافة نفس الإنسان إلى نفسه لكونها جوهراً روحانياً غير جسم ولا جسمانى) !

ويقول فى أن الإنسان ليس هو بدنه بل هو روحه : (المراد بالنفس مايشير إليه كل أحد بقوله (أنا) وهى جوهر روحانى فاض على هذا القالب البدنى وأحياه واتخذه آلة فى اكتساب المعارف والعلوم ، حتى يستكمل جوهره بها ، ويصير عارفاً بربه ، عالماً بحقائق معلوماته ، فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرته ، ويصير ملكاً من ملائكته فى سعادة لا نهاية لها ، وهذا هو مذنب الحكماء الإلهين..ووافقهم عليه جماعة من أرباب الرياضة والمكاشفة

فانهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم ، واتصالهم بالأنوار الإلهية) . !!

وبمثل هذه النزعات الحلولية ، والسعادة فى غيابات الوهم ، وجرأة العاجز على الله وهو يتصوره رجلا مثله ، جالساً على عرش أمام عينيه — سقط الفكر بين بعض المسلمين عن عصمته بالله الحق ، وعصمته بالعلم المهتدى إلى الله .. وأصبحوا منذ تلك الأيام ، وحتى اليوم ، يسألون عن سبب الانحلال .. والعجز .. والسقوط .. ومثل هذا هو بعض السبب ..

(٣) هذه النفس البشرية التى تعى بالخلق قدراً من غيبها قبل الهبوط إلى الأرض .. وتدرك بالعلم والكسب فى رحلتها على الأرض هذا الاتجاه إلى امتحانها كما قضى الله بنعمته عليها بالأشياء .. أى امتحانها بالعمل شكراً له أو كفراً بنعمته .. هذه النفس وهى تجاهد حتى لا تكفر ليست خالصة النقاء .. بل تعمل على التطهر .. وليست نورانية .. بل قابلة للاهتداء بالنور .. إنها نفس كثيرة الانقسام .. كثيرة التلفت .. كثيرة الوساوس .. يقول الله (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ١٦ : ق .. وإنما تكسب النفس المؤمنة نقاءها وطهرها وتوبتها بالهدى من الله ، والهدى إلى الله .. إنها هبطت وانبثقت فى بدنها لتكابد حمل الأمانة .. لتكابد الاختيار الذى اختاره الله لها .. اختيار الخير دون الشر .. والشكر دون الكفر .. يقول الله عن هذا الإنسان فى نفسه وبدنه المتحدين معاً (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) ٣ : الإنسان .

من هنا ينكشف التلبيس الذى تسللت به الفلسفات الوثنية بأنواعها قادمة إلى الأرض العربية من أعماق وغابات الديانات الوضعية وذلك فى المعادلة المقلوبة التى تضع النفس فى (المقام النورانى) و (الجوهر الروحانى) أى الإلهى بمستوى آلهتهم .. والتى تضع الأشياء التى هى امتحان الله للإنسان ، ونعمة الله على الإنسان .. الأشياء التى هى الماء والسماء ، والأرض والشجر ،

والشمس والقمر .. الأشياء المؤمنة بالله بغير شرك ، والمسبحة بحمد الله بغير فتور .. فى مقام الشهوات السفلية ، وعلائق الحياة المرفوضة .!!

لا شك أن هذا التلبيس فى مقام الإيمان الحق مرفوض ، وهو فى نور الحكم القرآنى إفك مفترى ، وضلالات بغير سند ، تقلب الحقائق الجلية ، وتطمسها ، وتغير اتجاهها .. إنه تلبيس لا سند له إلا العجز عن الإجابة للحياة. هذا العجز الذى حمل كهان هذه الفاسفات على الانطواء كالأجنة فى داخل أجسامهم .. وإغلاق الحواس عن نعمة الله فى تعاقب الليل والنهار .. وعن كسب الخير وتجنب الشر .. وبذلك عطلوا (العقل) .. ليعودوا فى بؤرة الظلام والعماء ليتحدثوا عن غير المعقول بآلة البرهان الذى فقدوه فى العقل الذى عطلوه :

إن الأشياء فى السماوات والأرض مؤمنة .. ومسبحة بحمد الله : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ٤٤ : الإسراء و (قالتا أتينا طائعين)١١ : فصلت وهذه الأشياء (حيادية) كذلك تجاه اختيار النفس الإنسانية للشكر أو الكفر .. إنها لا توحى لأحد من البشر بأمر واحد .. إنها لا توسوس فى نفوس البشر . ولكنها تعكس جميع اتجاهات الأنفس وتفكراتها .. إنها تعكس جميع غفلاتها أو تذكراتها .. فالنفس المؤمنة تجد براهينها فى خلق السماوات والأرض ، تجد برهانها على الله ودليلها إلى الله فى الأشياء ، ومن الأشياء ... والنفس الجاحدة الغاوية تجد فتنتها عن الله فى زينة الحياة الدنيا .. فى حيرة النظر فى السماء والأرض .. أو غفلة النظر عن السماء والأرض .

أما هذه النفس فقد هبطت إلى الأرض مثقلة بذنوبها .. ومشوبة بوساوسها لقد هبطت إلى (الدنيا) التى هى (دنيا) فقط بالقياس إلى المستوى الذى نزلت عنه فى (الجنة) ... من أعلى إلى أدنى .. ولكن هذه الدنيا كما تراها فى رحلة امتحانها هى حقل تجاربها ، وسوق معارفها ... هى برهانها إن آمنت

على خلق الله العظيم ... هذا الخلق المتسق فى حركته ، وغاياته .. ومتغيراته .. وصيرورته بالزمان والمكان...

ومثل هذا البرهان الذى تتطهر به النفس المؤمنة وهى تسترشد إلى الله .. مثل هذا البرهان الذى تجمعه كلمة (آيات الله فى السماوات والأرض) لا يوصف بأنه (سفلى) أى غير روحانى .. وبأنه المحسوس أى غير المعقول .. كما تدعى ذلك نفوس كانت ولا تزال ترسف وهى محرومة من نعمة الحياة والإيمان والعلم — فى أغلال الغباء والهباء والعماء .

لقد ترددت مثل هذه الأقوال فى فلسفة أفلوطين اليونانى الذى ولد بمصر والذى ابتلع الكثير من أوراق فلسفات فارس والهند ... لقد ترددت وذاعت فى القرن الثالث بعد الميلاد فى حقبة من أشد الحقب ظلاماً وفسادا فى تاريخ العالم القديم .. لقد ترددت لتخلق تياراً بارداً بالموت فى كثير من المفاهيم الصوفيةوالرهبانية التى ظلت تزحف حتى اختلطت فيما بعد بالمسلمين بعد عصور التحرير العربى للعرب بالإسلام ، وبعد مرحلة حاسمة من التنوير بعلوم القرآن الكريم وثقافته وهداه .

كان أفلوطين يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا طلباً للسعادة فيما بعد هذه الحياة ، وهو يعطى المثال على أفكاره الهندية الباطنية الحلولية فيقول : (إنى ربما خلوت إلى نفسى ، وخلعت بدنى جانباً وصرت كأنى جوهر متجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، راجعاً إليها ، خارجاً من سائر الأشياء ، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً) !!

هذه صورة مركزة لبعض حماقات العجز ، أو أمراض العقل ، أو متاهات النفس ، يتداوى بها بعض الحمقى ، أو المرضى النفسانيين بدرجة فلاسفة أو لاهوتيين — عن آلام العجز عن الرؤية الشاملة ، وعن التغيير لما فى النفس ليتغير ما حولها ، ولينفتح الطريق المسدود فى وجهها .. وبهذا يتساقط هؤلاء المرضى ومريدوهم منسحقين تحت أنقاض المجتمعات المتظالمة ،

والإمبراطوريات المنهارة ، وهم يتوجعون كبراً وحمقاً بهذه الخرافات ، ويموتون بها .. لتحمل الرياح — من بعدهم — هذه العدوى بالعدوان على الحق ... وعلى الخلق ... وعلى النفس ... إلى أماكن بعيدة ... وأزمان لاحقة.

(٤) كذلك فان النفس البشرية فى حدود الحقائق القرآنية لا تجول بعد الموت ، ولا تمرح فى الفضاء بغير قيد .. كما أنها لا تتناسخ بالمفهوم الوثني فى الهند كتناسخ الأرواح عندهم .

إن النفس البشرية كيفما كانت علاقتها بجسمها تعود بالموت إلى الله الذى يتوفاها عند أجلها .. إنها تعود إليه فيمسكها حتى يقوم البعث ، فيبعث النفوس كلها كنفس واحدة كما خلقها كنفس واحدة ..

يقول الله تعالى فى إمساكه بالأنفس بعد الموت (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ٤٢ : الزمر .

ويقول سبحانه فى بعثها كنفس واحدة (وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ٢٨ : لقمان .

معنى هذا أن (النفوس) أو الأرواح كما يسمونها — لا تتجول بين الناس ولا حولهم .. لا قبل البعث ولا بعده .. كما يزعم الكثيرون من الممسوسين بمس الفلسفات الوثنية ، وكما يزعم طاليس اليونانى فى القرن السابع قبل الميلاد (إن العالم مشحون بالأرواح والشياطين) (وأنهم يجولون من بين أيدينا ومن خلفنا ، وأنهم يرون الناس من حيث لا يراهم الناس) ..

إن هذا الذى يصح على الشياطين كما جاء فى القرآن الكريم لا يصح على الأرواح بمعنى الأنفس . يقول الله عن الشيطان (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ٢٧ : الأعراف — ومعنى هذا فى نظر طاليس أن الأرواح كما يتخيلها تفعل فعل الشياطين .. ولكن الشياطين لها عمل فى خفائها وحرية حركتها مع الإنسان فى نفسه وفى هواه .. ولكن ما هو عمل (النفوس) أو (الأرواح)

كما يزعم بها بعد أن فرغت من امتحانها ، وانتهت من عملها ، وذهبت إلى ربها فأمسكها إلى يوم بعثها ... حيث يبعث النفوس كنفس واحدة .. كما خلقها كنفس واحدة ؟

ولكن أصحاب نظرية وحدة الوجود ، والقائلين بتناسخ الأرواح من أبدان البشر إلى أجسام القطط والكلاب .. ثم إلى أبدان البشر من العظماء والدهماء مرة أخرى .. يفترضون فى عقلهم المعطل ، ووراء حواسهم المغمضة ، أن تقع هذه (الفوضى) فى حركة (النفوس) أو الأرواح طالما أن الوجود متوحد فى الموجود ؟ .. وطالما أنه لابد من تبرير لعبة (التناسخ) ...حتى يصاب جميع البشر بالهذيان عندما ينظرون إلى أعين القطط والكلاب والجرذان فيرى بعضهم أرواح بعض أسلافهم .. أو أصدقائهم الموتى .. وطالما أنه بهذه الفوضى ينفتح الطريق إلى تبادل الاجتهاد بين وثنيات الشرق حيث يتوهمون تحضير الجن .. ووثنيات الغرب حيث فى هذا العصر تجرؤوا على الادعاء بتحضير الأرواح ... أى استحضار أنفس البشر التى أمسكها الله بعد موتها .. ثم الزعم بأن هذا التدليس والاحتيال والهوان العقلى — علم من العلوم له شيوخ ودجاجلة وكهنة ... علم يقيم به من يسخرون منا (بعثاً) لهذه الأنفس التى أمسكها الله !!

(٥) وهذه النفس البشرية كما نفهم عنها فى حدود الحقائق القرآنية غير منفصلة عن جسمها ، وغير متباينة معه .. إنها غير منفصلة عنه بالخلق الأول عندما سوى الله جسمها من الماء والطين .. وعندما نفخ من روحه فى هذه العناصر ، أى من أمره وعلمه وسننه ، فكان الأنسان فيما شاء له الله أن يكون فى طوره الأول فى الجنة .. ثم فى طوره الثانى فى الأرض .. ثم بعد ذلك فى رحلة العودة إلى الجنة .. أو إلى العذاب .. إنها فى هذه الرحلة الأخيرة وهى تخرج من جسدها بالموت حيث يمسكها الله إلى يوم البعث إنما تخرج حاملة

صورة جسمها كاملة فى عملها وفى شهادة هذا الجسم على هذا العمل بكل أعضائه .. فى يوم الحساب .

وفى مرحلة النفس فى حياة الأرض نشهد من اتحاد النفس بجسمها أن النفوس فى تعاقب الأجيال بالميلاد إنما تدخل فى الأرحام، وتتخلق فى الأحشاء حاملة معها (أمشاج) الوراثة من نفس أخرى متحدة بجسم آخر .. إنها تدخل الأرحام والأحشاء حاملة معها الخصائص الوراثية (الجينات) المستخاصة بعلم الله وسننه من أجسام وأنفس سبقت من خلال وحدتها فى العمل كما قضى لها الله وكما ألهمها الله .. إنها تدخل دائماً حاملة حصيلة الوفاق أو التدافع أو الصراع بين الأنفس والأجسام السابقة التى انحدرت منها .. حول الهوى والرشد ... حول الغفلة والتذكر .. حول الكفران والشكر .

إن النفس لذلك تحمل إسمها فى لغة العرب من ظاهرة (التنفس) فالنفس بسكون الفاء هى من النفس بالفاء المفتوحة دلالة على ظاهرة استنشاق الهواء ، هذه الظاهرة التى تعد نقطة اتصال أساسية للنفس بالعالم المحيط بها من خلال جسمها الذى تحل فيه ، وتتحد فى الحياة به ، ويتحد بها ... إنه من هذا الاتصال تجرى الحياة فى دورة الدم ، ويدق القلب دقاته المنتظمة التى تعلن عن هذه الوحدة التامة بين نفس وبدنها .. نفس تحيا داخل آلتها القائتة لها فى الدنيا والضابطة لأفعالها ، والممتحنة لحقيقتها ، والرقيب والشاهد عليها فى نفس الوقت — حتى تكسب المعرفة .. وتحمل الأمانة .. وتحدد الاختيار .

بمثل هذا الجزء اللغوى فى كلمة النفس العربية نجد أن كلمة الروح أو النفس باللغة الإنجليزية والفرنسية وهى **Spirit** ترجع إلى الأصل اللاتينى وهو **Spiritous** ومعناه (يتنفس) .. إن معنى هذا الاتفاق بين اللغة العربية الأقدم واللغات الأوروبية الأحدث على اختيار اسم النفس أو الروح من ظاهرة حياة النفس باتحادها مع الجسم هو أن الفطرة الإنسانية عندما تتاح لها حرية الحكم على الأشياء تأتى بالصواب الواحد ، الذى لا يتعدد .. ولكن

الفلسفات تنشط بالانطواء ، والتظالم ، واحتراف العلم ، وخدمة السلطة والملوك فى كهنوت لا ينقطع ، فتغير من حقائق الفطرة وبدهياتها ، كما تغير معنى كلمة Spirit بالكثير من الدلالات الفلسفية والدينية والثقافية والحضارية المتناقضة فى هذا العصر .

لقد أصبحت كلمة (الروح) أو (النفس) فى اللغات الأوروبية المعاصرة تعنى فى الفلسفة (العقل)، وغير المحسوس، وغير المادى .. وتعنى بمفهوم الدين : الحياة عند الله بعد الموت ، وتعنى (الروح القدس) وهو الأقنوم الثالث فى المسيحية .. وتعنى فى الأخلاق عموم الفضائل حسب اختلاف معاييرها ، كما تعنى الذكاء .. والهمة .. والقوة المعنوية .. وطابع العصر ... وكما أصبحت تعنى أخيراً فى مجال الشعوذة العلمية وسرقة المرضى النفسانيين والمخبولين والثكالى خرافة (تحضير الأرواح) .

ولكن كانت هناك كلمة أخرى فى اليونانية القديمة تعنى أيضاً : النفس والروح والعقل وهى psyche أو سيكة التى تظهر فى واحدة من أساطير اليونان مع من جعلوه إلهاً على الحب واسم الأسطورة (سيكة وكيوبيد) هذه الكلمة تدور الآن من خلال الأبحاث الحديثة فى علم النفس حول مفهوم للنفس أقرب لواقع تعاملها واتحادها مع البدن فى حياة الإنسان اليومية ، رجوعاً إلى كل من حياته الوراثية وبيئته المعاشية . لقد أصبحت كلمة psyche التى منها psychology بمعنى (علم النفس) أصبح دلالة على النفس الإنسانية المتحدة ببدنها ، إلى حد أن تؤثر أمراض النفس على البدن،وتؤثر أمراض البدن على النفس .. ومع ذلك فى خلال مخاطر الفلسفات الوثنية أصبح علم النفس بنفسه وبخاصة منذ الملفق سيجموند فرويد (بؤرة) جديدة لخرافات علمية مبتكرة تحت أسماء (الأنا الأعلى) أو (العقل الباطن) أو تفسيراته للجنس وعقدة أوديب وعقدة اليكترا ... الخ مما أصبح يعكس بالتجديد عليه أو الدوران فيه متاهات جديدة للنفس بمفهومها فى واقع الحياة البشرية تنافس

تلك المتاهات التى صنعها الفلاسفة للروح فى عالم الخيال ، وما وراء الطبيعة ... وبانسلاخهم عن الواقع الحى .

٢ — روح الله : ومرة أخرى نقول إن الروح فى القرآن الكريم هو أمر الله ومشيئته بالإحياء ، وهو منسوب إلى الله وحده بما يؤكد استحالة نسبته إلى غيره إلا بالسقوط فى غاشية القول الوثنى بوحدة الوجود ، أو فيض الروح الأعلى (بريم آتمان) فى روح الفرد (جيو آتمان) كما يقول البراهمة فى الهند وغيرها ...

يقول الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ٨٥ : الإسراء . فالله تعالى بأمره أى بمشيئته وعلمه وسننه يحيى ويخلق كما أحيا الإنسان الأول (آدم) (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) ٢٩ : الحجر .

وهو بأمره — أى بمشيئته وعلمه وسننه — قائم بالخلق والإحياء لما يشاء : (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ٦٨ : القصص .

والله بالروح من أمره يحيى الإنسان حياته الأعظم والأبقى بالإيمان والهدى والتقوى والقربى إليه .. فهو يقول عن الوحى مخاطباً محمداً صلى الله عليه وسلم (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ١٩٣ : الشعراء .

ويقول فى تأييد البشر المؤمنين بروح منه ليزدادوا إيماناً (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) ٢٢ : المجادلة . أى أيدهم بسنن من سننه الهادية لهم والمثبتة لقلوبهم بالكيف الذى لا نعلمه . ولكنه كيفما كان فهو إحياء لقلوب عباده بالإيمان .. إحياء لها بأمره وبعلمه الذى به هداها وأمنها وتقواها .

الروح بهذا الوضوح الذى لا شطح فيه ، وبهذا القصد القرآنى الذى لا زلل فيه ، أصبح علماً مهجوراً كأكثر حقائق القرآن الكريم — من الأمة العربية المعاصرة .. التى لا تزال أمة القرآن .. والحافظة لرسالة القرآن .

وإنه لم يكن غريباً قط أن تتدافع أشباح الأمم الأعجمية تحت غاشية العمايات الوثنية والأوهام الفلسفية، لتصنع عالمها الخاص الذى يمتلىء بالأرواح البشرية والأرواح المتناسخة، والروحانيات والمكاشفات والتجليات ... ولكن الغريب غير الطبيعي وغير الصحى أن تصاب الأمة العربية فى الكثرة من جماهيرها بهذه الإصابة التى تعكس إنهاكها الحيوى، وإعياءها العقلى، وانشطارها النفسى... فمثل هذه الإصابة بلاء عارض ينبغى على العرب فى طريق صحوتهم إلى الله، ووحدتهم بالقرآن، أن يبرأوا ويتطهروا ويتحرروا منه، فلقد طال ما ركنوا إلى هذه الأوهام، وما استسقوا من هذا السراب .. وآن لهم بعد الغفلة أن يتذكروا ... وبعد الحيرة أن يهتدوا ... وبعد الهجر للقرآن فى خضم التفاسير الأعجمية أن يتعربوا ... وأن يرجعوا إلى الله الحق ... ويتلوا القرآن وينيبوا إلى الله.

ثم نقول : إن هناك فى هذا المجال عن النفس والروح ما ينبغى أن نشير إليه وهو هذه القوانين والسنن التى تشمل القليل الذى نعلمه، كما تشمل الكثير الذى لا زلنا باعتراف العلماء المعاصرين لا نعلمه .. هذه القوانين التى يقوم عليها أمر الله فى الخلق أى يقوم عليها (روح الله) بالإحياء .. وفى قوله لما يريده سبحانه (كن فيكون) .. ونحن نسأل فى الكلام عن الروح والخلق، هل لهذه القوانين داخل المادة التى تتحرك وتتغير بها .. هل لها جسم مادى ؟ هل لها وزن كوزن المادة ؟ لقد زعم بعض علماء اللغة الفرنسيين فى قصة مسلية من اختراعه أنه أمكن تحضير الروح فى زجاجة .. وأنه أمكن وزن هذه الروح ؟ .. وبالطبع مات العالم وحبيبته .. وانكسر الناقوس الزجاجى بما فيه من الروح .. وضاع السر .. ؟ فهل من الممكن حقاً وزن أى قانون علمى .. أو لمسه .. أو رؤيته وراء الظواهر التى يحدثها ؟؟

هل من الممكن لأى عالم فى أى زمن أن يرى أو يزن قانوناً واحداً من قوانين نيوتن وهو يجول بين الأرض والسماء كما تجول الأرواح المزعومة ...

هل من الممكن أن نرى قانون تجمد الماء فى درجة الصفر .. أو غليانه فى درجة ١٠٠ ؟؟

هل من الممكن أن نطمع فى رؤية بعض ملامح نظرية النسبية فى بعض ما يصح من قوانينها ؟؟ .. هل من الممكن حقاً أن نرى شيئاً من هذه القوانين التى تسرى فى أجسامنا ، وتتباين بها أنفسنا ، وتسيطر على عالم الأشياء حولنا ، وهى كلها من أمر الله ، ومن روح الله ... وهى كلها تتحرك بهذا الأمر فتتحرك بها مواكب الأشياء من قطرات الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، إلى أوراق الشجر وأمواج البحر .. وشحنات الكهرباء .. وتكاثرات البشر ... وتدافعات النجوم ... تتحرك إلى غاياتها القريبة والبعيدة وهى تتغير وتتجدد .. وتتوحد وتنحل .. وتحيا وتموت .. وتهتدى وتضل ؟ . أو ليس هذا العلم الذى لم نوت منه إلا القليل هو من (روح الله) ؟؟ أليس هو من حيث أنه غير مادى فى المادة .. وغير جسمانى فى الجسم .. ولا يوزن ولا يرى ... أليس هو من حيث أنه من أمر الله وعلمه فى الحياة والخلق والتدبير أقرب إلى (روح الله) كما أوجزه لنا .. إن لم يكن هو روح الله ؟

أو لم يجعل الله لبعض هذه السنن التى لا تتبدل ولا تتحول أسماء أطلقها على بعض ملائكته مثل ملك الوحى ، وملك الموت ، وملك البعث ؟؟

فاذا كانت هذه القوانين هى (الروح) كما سمى الله أمره بملك الوحى جبريل ... أفلا نكون قد اقتربنا فى ضوء القرآن الكريم من منطقة الصواب فى الفهم لبيانه سبحانه عن الروح .. وأنها أمره بمعنى مشيئته وعلمه بوقوع الخلق بسننه وقيام الحياة بأسبابها فى مشيئته ؟

فان لم تكن هذه القوانين غير المادية .. وغير المرئية .. والصادرة عن أمر الله تعالى بغير ريب — هى روح الله أو من روح الله .. فهل هى روح أخرى ... أم هى من المعقول الذى تنطوى عنه بعض العقول ..

نعم ... كيفما كان الأمر ... فقد علمنا أن الله علمنا أن لا نخوض فيما

لا نعلم بأكثر مما نعلم .. وليس لأحد من العلم إلا ما أغنى الله به فيه ، وما هدى به إليه ... نعم ... وكيفما كان الأمر ، فان نسبة الروح إلى الله حق .... ونسبتها إلى البشر بديلا لكلمة النفس ومفهومها فى القرآن الكريم ... وهم وباطل ... وقد نزه الله لغة العرب عن هذا الوهم قبل الإسلام وبعده حتى جاء من يخوضون بفلسفات الهنود والفرس واليونان فيما نهى الله عنه ... وما ينبغى أن ينتهى من يقرأون القرآن عنه .. من المسلمين .. العرب وغير العرب ..

٣ — النفس والعقل : والنفس كما خلقها الله ليست فى خفائها عن الحس بعيدة عن الملاحظة ، ولا عن الاختبار الحسى ، طالما هى متحدة بجسمها المعبر عنها .. طالما هى تطل من عينى جسمها المفتوحتين بملامحها المميزة لها ، فتراها الأنفس الأخرى بأعينها ، وتتوسم حقيقتها .. وطالما تحقق لنا بالاختبار الطويل أن النفوس فى أعماق الأعين لا تتشابه ... وطالما أن للنفس أكثر من نافذة مفتوحة غير عينى جسمها تطل منها بملامحها الخاصة على الأنفس الأخرى وعلى العالم الخارجى ..

إن للنفس نافذتها المفتوحة ، وقنواتها الموصلة فيما بينها وبين هذا العالم المحيط بها ، وذلك بالحواس التى تصنع العقل .. وهى عندما تصنع عقلها تطل به من خلال لغتها وبيانها على الأنفس الأخرى ... إنها تطل بهذا العقل ومواقفه وأحكامه على ما حولها ومن حولها ، وهى تبدى بجسمها باشاراته وكلماته عن ملامحها ومواقفها العقلية .. إنها تقرر أو ترفض .. تحب أو تكره .. تنصح أو تغوى .. تفرح أو تحزن .. تجد أو تهزل .. تؤثر إيجابياً بالصدق ، أو تفرز أثرها السلبى على الحياة بالأكاذيب والمخادعات والأوهام ..

على أن النفس — وهى تصنع عقلها — إنما تصنعه ببصيرتها التى منحها الله لها .. تصنعه بالهام الله لها بالهدى أو الضلال كما خلقها ، وكما يسر لها ... إن عقلها إذن هو كسبها الدنيوى المترجم عن بصيرتها ، عن ذاتها التى

لا تفارقها ... هذه البصيرة التى تحمل جوابها — كما يلهمها الله — عن إيمانها بهذا الغيب فى قضية الخلق ، وقضية الإيمان ، وقضية البعث .. ومن ثم فان العقل بتوجيه هذه البصيرة ينشط ليصنع بكل ما تجمعه له الحواس من الصور والأصوات ، ومؤشرات الأفعال ، وردود الأفعال — أفكاراً وأحكاماً توجه أقوال النفس وأعمالها باتجاه إلهامها .. أى باتجاه كسبها من التقوى .. أو الضلال

من هنا نتبين أنه كما تختلف الأنفس البشرية فى تعبيرها عن مكنوناتها وغاياتها بالنسبة لقضايا الغيب والشهادة .. قضايا الخلق والإيمان والبعث ، فان العقول البشرية تختلف أيضاً بقدر اختلاف هذه الأنفس ، من حيث أن العقول هى البراهين الفكرية المكتسبة لتحقيق معتقدات النفس فى الحياة العملية .. معتقداتها حول الخلق والإيمان والبعث ..

إننا نتبين كذلك أن كلمة (عقل) فى استعمالات البشر لها لا تعنى (الرشد) دائماً ، ولذلك تختلف لغاتهم فى الأساس الذى وضعت به كلمة العقل للدلالة على مهمته من معاونة النفس على تصور العالم الخارجى بنقل صورته الصحيحة إليها ، أو بتبرير تغافلها عن هذا العالم ، وحياتها داخل نفسها فى غيره . لقد اختلفت كلمة (عقل) بين الأمم بحسب اختلاف وسائلها ومناهجها وأهدافها فى مجال التعقل والتفكير .. وبذلك يمكن أن يقال إن كلمة « عقل » إنما تعنى الدلالة فقط بالمواقف الفكرية عن اتجاه النفس وهى تترجم حياتها إلى أقوال وأعمال : صادقة أو كاذبة .. مهتدية أو ضالة .. مؤمنة أو جاحدة أو غير واعية .. ؟

بهذا المفهوم يكون العقل (المؤمن) هو العقل السوى المعبر عن البدن الفطرى السليم ، وعن النفس المطمئنة فى كمال فطرتها ويقظة بصيرتها ، من حيث أن العمل الظاهر لهذا العقل هو بحسب الكلمة العربية : إدراك الحقائق والمعالم الصحيحة (وعقلها) أى الإمساك بها ، والإمساك عن غيرها ، ثم تركيب هذه الحقائق المعقولة فى أفكار وجمل مبينة تجسد التزام النفس بجميع الأعمال الممكنة

والتى لا نكوص عنها للحفاظ على دين الإنسان ، ومروءته ، وأمنه ، ووحدة أجزاء نفسه ، ووضوح طريقه وغايته فى مفازة الحياة عبر الدنيا .. ونحو الآخرة كما شاء الله .

استعمل العرب اصطلاح (العقل) لمعنى الإدراك والتحصيل للحقائق من معنى حسى هو : عقل البعير يعقله بضم القاف أى يمسكه بقيده حتى لا يضل عن صاحبه ، أو حتى يمسكه عند مرعاه .. ومن هذا المعنى خرج اصطلاح (العقل) بمعنى (الدية) التى تمسك أصحاب الدم عن الثأر ... وخرج منه أيضاً (العقل) بمعنى (الحصن) والملجأ كالمعقل .. ثم ارتفع فوق كل ذلك معنى العقل بمعنيين متلازمين فى مفهوم العقل البشرى .. فالعقل يكون بتمييز الحقائق والعلوم من كل ما يدور ، ثم إدراكها ، أى الإمساك بها ، وتنظيمها فى سجل الحافظة والذاكرة .. والعقل يكون بمعنى الضبط وقدرة الرفض والتميز للخطأ أو الشر أو الزيف ، وبذلك يستقيم الطريق لمهمته الأولى وهى تحصيل المدركات السليمة ، والعلوم ، والحقائق التى تحفظ النفس والبدن وتهديهما إلى سواء السبيل .

يقول الشاعر العربى « مرة بن عداء » فى العقل بمعنى الدية للقتيل :

فلا تأخذوا عقــلا من القــوم اننى

أرى العــار يبقى والمعــاقل تذهب

ويقول ذو الأصبع العدوانى فى العقل بمعنى التسجيل والعلم :

لم تعقــلا جفــوة على ولم

أوذ نديما ولم أنــل طبعــاً(*)

(*) أى لم تعلما عنى جفوة على أحد ، أو أذى لصاحب ، أو أنه نالنى طبع أى دنس .

ويقول سوار بن المضرب فى العقل بمعناه فى نفس الإنسان من التمييز وإدراك الصواب :

إنى سأستر ما ذو العقـــل ساتره
من حـــاجة وأميت السر كتمانـــا

وفى القرآن الكريم يأتى العقل بمعنى إدراك الحق ، والإمساك به بعد تمييزه من غيره ، والقيام به حيث يصبح العقل طريق العلم والعمل ...

يقول الله :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ٤٣ : العنكبوت .

ويقول عن اليهود الذين بعد أن يميزوا الحق والعلم بعقولهم يعكسون ما عقلوه إلى غيره من الباطل :

(يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه) ٧٥ : البقرة .

ويقول عن إدراك العقل ببيان اللغة وأصواتها ونظمها فى القرآن الكريم :

(إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) ٣ : الزخرف .

ويربط القرآن الكريم العقل الصحيح بصحة الحواس وقيامها بعملها فى ترجمة الواقع إلى فكرة حية (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) ٤٤ : الفرقان .

ويقول أيضاً (إن شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون) ٢٢ : الأنفال.

٤ — النفس والقلب : ولا يمكن الكلام عن النفس دون الكلام عن القلب .. وأول ما نلاحظه أن أكثر تراث الحضارات الفلسفية الوثنية يحصر مهمة القلب فى العواطف الإنسانية تجاه الحب والكراهية ، والإقبال والنفور ، ويكاد القلب لا يختص به فى ذلك التراث — وحتى اليوم فى أعراض الحضارة الأوروبية الحديثة — إلا الشعراء والمتهوسون بالحب فى أضيق نطاق تكون الشهوة قائده بين بعض الرجال والنساء ، ويكون الابتذال والتحريض على الفجور والشذوذ طابعه فى المسرح والسينما وأغانى الأرصفة وأمثالها .

ولكن القلب فى الحضارة الدينية العربية يظهر فى شروق القرآن فى لياقته الكاملة ، وفى حال سلامته التى تعده لمواجهة النفس فى كل المواقف ليذكرها بالإيمان ، ولينبهها إلى مقتضى الفطرة فى هذا الإيمان .. مرتفعاً عن مستوى الأهواء – التى تحصره فيها الحياة الوثنية – إلى مستوى الصوت الإيجابى للعقل نفسه حين يقول للنفس : نعم للإيمان .. وهو يمنحها الأمن والسكينة .. وحين يقول لهذه النفس : لا للكفر ... ولا للمعصية ... ثم ينذرها بالقلق والخشية والاضطراب حتى ترجع إلى الله والفطرة ...

فالقلب الذى يحمل معنى التقلب بين السلامة والمرض ، وبين الذكر والغفلة ، وبين الأمن والخوف ، يعيده القرآن الكريم على أساسه فى لغة العرب قبل الإسلام إلى معناه الأصيل للدلالة على وظيفته الحيوية فى قضية الدين كما هى وظيفته فى قضية الحياة . هذه الوظيفة التى تتجاوز كونه عضلة أو مضخة لضخ الدم الصالح بعد تنقيته – إلى مهمة الرقابة على النفس ، والتحذير لها كلما ضلت طريقها الصحيح بالقول والعمل إلى الله . إن القلب يفعل ذلك تأسيساً على وظيفته الحيوية الأولى بضخ الدم .. إنه بهذه الوظيفة ينبض نبضاً منتظماً فى حالة الأمن ، وينبض نبضاً متسارعاً فى حالة الخوف .. ولما كان الأمن فى فطرة الإنسان هو علامة الصدق ودلالته وثمرته .. ولما كان أصدق الصدق فى الفطرة هو الإيمان .. فقد أصبح القلب السليم .. القلب الفطرى يعطى دائماً مع الإيمان علامة الصدق .. أى يعطى بانتظام نبضاته وسكينة شعوره ، هذا الإحساس الكامل بالأمن .. فاذا حدث العكس . أى عندما تحدث النفس نفسها بالتغير عن الإيمان والصدق .. والميل باتجاه مضاد للفطرة .. باتجاه الغفلة والكفر .. أعطى القلب السليم على الفور علامة وقوع الكذب .. أعطى إنذاراً بوقوع ما لا ينبغى لسلامة النفس والبدن أن يقع .. أعطى بالقلق .. وتسارع النبض .. واضطراب التنفس .. دلالة زوال الأمن ..

دلالة الخطر المحدق على الحياة بمعناها البدنى الزائل .. وعلى الحياة بمعناها الأخروى الذى لا يزول .

القلب إذن فى حالة سلامته الفطرية هو جهاز النفس لقياس الأمن ... وما دامت النفس لم تقع بعد فى غاشية العجمة اللسانية والعقلية فان هذا الجهاز المثبت تحت الصدر يقيس الأمن بمفهوم الدين .. بمفهوم : مع الله وذاكراً له ومتقرباً إليه .. وليس بمفهوم : مع الدنيا .. ومقبلا على أهوائها .. ومتلفاً لأكبر قدر من نعمة الله بها ..

إن (القلب) هنا بلغة القرآن الكريم يعنى (العقل) فى أسمى درجاته أى إن القلب يعنى مرتبة العقل الذى يتجاوز نقل العلم .. إلى العقل الذى يدعو إلى الالتزام بمعقول العلم .. وهذا المعقول الأول لأى علم هو الإيمان .

بل إن القلب هنا فى حالة سلامته يمثل فى حكمة الله ما هو أعظم من مجرد البشير والنذير .. أو قياس الإيمان والكفر بقياس الأمن والخوف ... إن القلب هنا بنبضاته التى تحصى عمر الإنسان ، وبوظيفته فى تنقية الدم البشرى وضخه ، وهو يعبر بذلك عن مصير وحقيقة آلة الحياة البشرية وهى الجسم ، إنما يعطى بوقفة التنبيه والتذكير للنفس بفطرتها ، وبرحلة عبورها للحياة الدنيا من أجل تطهرها — أقول إنما يعطى الدليل على أن الدنيا المظلومة بالإنسان تقدم له من خلال قلبه صوتها الداعى إلى الإيمان .. صوت الأشياء المستخلصة من طعام الأرض وهوائها ، ومن موازين السماء وأضوائها .. صوت الأشياء المؤمنة والمسبحة ... التى تمنح النفس الأمن من طريق هذا القلب .. أو تثور فى وجهها بالخوف والقلق والاضطراب .. من أجل الإيمان ..

ليست الدنيا إذن .. ولا المواد والأشياء والعناصر .. شريرة فى ذاتها .. وإنما الشر فى إخلاد النفس إلى الدنيا .. الشر فى نسيان النفس من أين جاءت .. وإلى أين بعد الحياة تمضى .. إلى أن يأتى القلب السليم.. فى حالة سلامة الفطرة، المتولدة من سلامة الحواس ، وتكامل العناصر الموجهة لها .. فيحمل أمانة

المقياس الدقيق للنفس .. وليكون هو العقل المجادل عن مصيرها .. يجادلها ويحاورها بأصدق العلم .. وأصدق الدلالة .. وأعظم البرهان .

ولكن عندما تمرض الفطرة بمرض البيئة .. وعندما يمرض العقل بعجز الحواس فى البيئة غير الصالحة .. وعندما يمرض القلب بمرض العقل .. فى بيئة يقعد فيها الإنسان بالعجز والقهر عن موكب الحياة .. وعن حرية الحياة .. وعن إرادة الحياة .. هنا تمرض النفس وتضل .. هنا تقع النفس فى غيابة أحد الشرين : الزهد والانطواء .. أو الفجور والبغى .. تقع فى فلسفة برهمن والمايا واليوجا حيث يتحول العقل المعصوب على حواسه إلى بيات باطنى .. إلى تدفق وانسكاب للمعقولات الوهمية .. كتدفق ماء المحتلم العاجز عن الزواج أو الراهب المنقطع .. أو يقع العقل فى تبرير الانحراف والشذوذ .. يقع فى غيابة الإسراف والانفجار الذاتى .. يقع بالعدوان على ذاته وعلى الناس وعلى الأشياء وهو يجر قلبه وعقله وحواسه وراءه كما يجر الأسرى .. وراء الشهوات المغصوبة .

وهكذا . . حيث هذه البيئة التى اختارها الله لظهور حكمته فى الخلق .. وجلاء آياته للأعين والأسماع .. حيث العقل يترجم الواقع الدال على الله بأمانة ، وهو يعقله من خلال الجهد والصدق والمواجهة والاستخلاص .. يعقله من خلال أسنة الرماح ، وغشيان الحتوف ، واقتحام المخاطر .. ولا يعقله قاعداً مقوس الظهر ، منطفىء الحواس ، منطوياً فى الظل ، منسكباً بمعقولات عقله الوهمية باطنياً — على روحه — أو على نفسه ؟ .. إنه هكذا فى هذه البيئة الحرة والحارة ، والمحررة ، والمنذورة لعبادة الله ، ورسالة الله ، ودين الله .. حيث القلب السليم يقود علوم العقل وأخباره ، ويوجه أصوات الأشياء ودلالتها للإشارة دائماً إلى الله .. الإشارة الصحيحة فى عمق الشعور .. وفى جرس الكلام .. وفى بريق العمل .. الإشارة بالبشاشة .. وبالسكينة .. وبالأمن وبفيض السرور على السريرة التى ليس بعدها سر على الله .. وقد أمنت

بإيمانها .. وأشرقت بنور ربها .. إنه فى هذه البيئة حيث عاش العرب أجيالا يعلمهم الله ، وتربيهم نعمه ، وتبشرهم بشائره ، وتحذرهم نذره .. لا عجب أن يظهر بينهم الإسلام .. وأن يكون آخر هذه النعمة فى الأرض .. نعمة الدين المنتصر فى رسالة وكتاب وأسوة ونظام وتاريخ .. إلى هؤلاء الذين لا يزالون برغم كل الأعداء يعيشون .. وعلى الرغم من كبواتهم وعثراتهم يأملون يوماً أن تصحو قلوبهم ، وتعقل عقولهم ، ويصح إيمانهم ، ويصدق دينهم ، وهم يرجعون إلى الله وينيبون .

يقول الله عن سلامة القلب ثمرة لسلامة الفطرة ، وسلامة البيئة ، فى صفة قلب إبراهيم ، الراعى الفتى ، الذى أراه الله فى تحركه وتفكره ملكوت السماوات والأرض : (وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم) ٨٣ و ٨٤ : الفرقان .

وجعل الله القلب الذى هو قياس الأمن بالإيمان أول منازل الوحى فى بدن النبى كما يقول لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم (فانه نزله على قلبك لتكون من المنذرين) ١٩٤ : الشعراء .

نعم .. لقد أنزله الله على قلب النبى .. ولم يتمل — سبحانه — على عقله فما أشبه عمل القلب السليم تجاه نفس صاحبه بالمنذر والمبشر .

ويقول الله فيما يعنى أن القلب الذى هو مقياس الصدق والكذب ، والجهاز المؤشر فى سلامته إلى الله — هو موضع الشهادة بهذه الإشارة على كل قضية : (ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه) ٢٨٣ : البقرة .

ويجعل الله القلب محل السكينة والأمن بدلالة ذلك على صدق الإيمان : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً) ٤ : الفتح .

ويجعل الله القلب بسبب هذه الدلالة على الإيمان موضع الخير به فيقول : (إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) ٧٠ : لأنفال

ويجعل الله القلب بدلالته على الإيمان فى حال سلامته غير قادر على

الدلالة على الإيمان ونقيضه معاً .. إنه إله واحد يشير القلب إليه ، أو يعجز فلا يشير لشيء ، وفى ذلك يقول سبحانه (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ٤ : الأحزاب .

ويجعل الله القلب فى حال الشرك مقر المخاوف والزعازع النفسية ، فيقول (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله) ١٥١ : آل عمران .

ويقول الله إن القلوب تمرض فتعجز عن القيام بمهمة التذكير (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) ١٠ : البقرة .

ويقع مثل هذا المرض بطول الأمد على الغفلات (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) ١٦ : الحديد .

ويقرر القرآن أن هذا المرض يصيب القلب إذا سمع فلم يسمع ، ورأى من خلال العين أو العقل ، فلم ير .. وذلك حيث يقول تعالى : (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ٤٦ : الحج .

لذلك فان الله يرفع القلب إلى مستوى العقل المؤثر على الإنسان ونفسه ، والمذكر له ، والمحذر فى كل مواقفه — فهو سبحانه يقول :

(أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ٤٦ : الحج .

ويتحدث العربى الأول عن القلب فى حالة السلامة ورؤية البصيرة — فيقول :

وقلب جلت عنه الشئون وإن تشأ   يخبرك ظهر الغيب ما أنت فاعل

ويصف غيره القلب الغارق فى هوى النفس وشئونها ، فهو يطلب إليه أن يفيق :

ألا أيها القلب هل تنهاك موعظة   أو يحدثن لك طول الدهر نسيانا ؟

ويقول زهير بن أبى سلمى فى أن القلوب موضع الهدى إلى البر — وهو أساس الدين :

ومن يوف لم يذمم ومن يهد قلبه   إلى مطمئن البر لا يتجمجم

ويقول أعشى قيس فى أن القلب موضع الانقياد بغفلته إلى الهوى :

قادت فؤادك فاستقاد ومثلهـــا   قاد القلوب إلى الصبــا فأمالها

ويقول امرؤ القيس يصف قلبه بالتوجس من ضياع سعادته فى ليلة حب محرم وهو يعكس فى الحقيقة اضطراب قلبه لما يقارفه من الفجور :

فبت أكابد ليـــل التمـــا   م والقلب من خشية مقشعر ؟

والعرب تسمى القلب إذا كان القصد لبه وعمقه « فؤاداً » .. وهو فى هذه الحالة يعنى أصدق الوعى ، وأعمق الإدراك ، ويقوم مقام العقل البصير . يقول الله فى نعمته بالأسماع والأبصار والأفئدة : (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ٩ : السجدة .

ويقول الله فى مسئولية الإنسان عما يكسبه بهذه الوسائل فى سمعه وبصره وفؤاده من العلم والإدراك (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ٣٦ : الإسراء .

ويقول فى تثبيت فؤاد النبي بالحكمة التى يعلمها له (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) ١٢٠ : هود .

وعن الفؤاد الذى هو لباب القلب يقول زهير بن أبى سلمى يصف الإنسان فيلخصه فى أمرين : فؤاده ، ولسانه ، ولا شىء غيرهما ذو بال ...

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وفى هذا المعنى بلغة النبي صلى الله عليه وسلم يقول (المرء بأصغريه : قلبه ولسانه) ففى القلب عقله ودينه ، أو علمه ودينه ، وفى اللسان شواهد هذا العلم وهذا الدين فى أقوال تدل على الأعمال التى تتحدث عنها .

وفى كلمة « الفؤاد » يقول عبد قيس بن خفاف البرجمى يتحدث عن جدل السرائر حول الأفضل :

وإذا تشاجر فى فؤادك مـــرة   أمران فاعمد للأعف الأجمـل

وكذلك فى الكلمات العربية التى تعيش بمعانيها النفس نجد كلمة (الحلم)

تعنى مرتبة أعلى من العقل أو القلب فى هذا المعنى الذى يتحد فيه علم العقل مع بصيرة القلب .. الحلم فى لغة العرب والقرآن وليس فى لغة سواها هو العلم العقلى موجها بالحكمة التى تعنى الدين والمعروف والأخلاق .. فهو بهذا الوصف أعلى مراتب العقل والقلب معاً .

يقول الله للمشركين يزجرهم على تقولهم على النبي بالكهانة والشعر (أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون) ٣٢ : الطهور .

ويقول قيس بن زهير فى صفة الحلم الذى هو ضد الجهل بمعنى الغضب الذى يتجاوز الحكمة :

رأيت الحلم دل على قومى   وقد يستجهل الرجل الحليم

ويقول معبد بن علقمة عن غضب الأيدى وحلم الرأى :

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ....   ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

٥ — النفس والعمل : من كل هذه الجوارح والنوافذ التى تطل منها النفس، وتتعلم من طريقها النفس، تحقق النفس ذاتها من أيسر الطرق ، أو بعد جدل وصراع ، أو موافقة فامتناع ، ويكون تحقيقها الكاشف عن خيمها وحقيقتها هو عملها .. هذا العمل الذى كان فيه بلاؤها ، وفيه بانتهائه انتهاء غايتها . لذلك فالنفس فى القرآن هى (العمل) فنفس الإنسان لا تزيد ولا تنقص عما يعمله المرء فى حياته من خير أو شر . وأداة هذا العمل هو الجسم . ولذلك لا يمكن الفصل بين نفس الإنسان وجسمه ، كما لا يمكن الفصل بين معنى الكلمة ولفظها . فان ما فى النفس من خير أو شر تبدو حقيقته فى هذه الأعمال المتصلة التى يقوم بها جسم لا فكاك له من نفسه ، لأنه هو هى ، حتى تفرغ النفس من أعمالها فيفرغ الجسم من وجوده ، وعند ذلك ينتهى أجل المرء ، فتكون وفاة جسمه هى وفاء نفسه بما فيها من أعمالها .

يتجلى هذا المعنى ظاهراً فى آيات القرآن الكريم ، حيث يقول الله فى كون

الإنسان هو عمله فقط : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ٣٩ : النجم . و(كل نفس بما كسبت رهينة) ٣٨ : المدثر و(يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت) ١١١ : النحل .

وقوله (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت) ٢٨١ : البقرة .

والأصل فى النفس فى القرآن هو الخير . وقد جعل الله هذا الخير فى فطرتها ، فاذا ما ضلت عن هذه الفطرة ضلت عما تطمئن له فى الدنيا والآخرة . فمرجع الهدى والضلال إذن هو فى الاستجابة أو الانحراف عما توحى به الفطرة التى خلق الله الناس عليها حين خلقهم من نفس واحدة . ومحل هذه الاستجابة أو هذا الانحراف هو فى اتصال النفس من طريق جسمها بهذه الحياة المحيطة بها ، المؤلفة من مكان وزمان وأحوال . فمن طريق الحواس تأخذ النفس من الحياة نصيبها من الحياة . ومن طريق الحواس أيضاً ترد النفس إلى الحياة شيئاً مما بها من الحياة . فما تأخذه النفس من الحياة وما تعطيه لها ، هما عمليتان يقوم بهما الجسم بالتعاقب آخذاً بحواسه من البيئة ، ومعطياً بحواسه من النفس . وهما فى الحقيقة عملية واحدة كعملية التنفس ينكشف بها سر النفس ، وتظهر نزعاتها ، وتتجلى حقيقتها ، وينتهى أجل امتحانها والحكم عليها .

ويتضح هذا المعنى بتمامه فى آيات القرآن الكريم ، حيث يقول الله :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ١ : النساء

وإنها لنفس خيرة قطعاً . فلو كانت هذه النفس شريرة فى الأصل ما جاز أن تكون خيرة بعد ذلك إلا بخلق جديد . ولكنها خيرة فى الأصل لأنها واحدة. ثم هى فى تناسلها تلقى امتحان الحياة ، فيثبت على الخير منها ما يثبت ، ويضل عنه ما يضل . وفى هذا يقول الله :

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت) ٢٨٦ : البقرة .. أى لها ما حافظت عليه من الخير المكسوب لها بفطرتها :

وعليها ما جنته من الشر المكتسب بمخالفة هذه الفطرة .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ٢١ : ق فالسائق هو عمها الذى تنساق به لحسابها ، والشهيد هو جسمها الذى قام مترجماً عنها بهذه الأعمال، وشاهداً عليها بما قام به .

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ٢٤ : النور— فالشهادة تقع على النفس ، أى على العمل الذى ظهرت به ، وهى تكون بأداة العمل أى بجوارح الجسم .

ولما كانت النفس تكتسب مما حولها بطريق جسمها ، فانه لابد وأن تنشأ بين النفس والجسم أداة يتم بها تسجيل حركة الأخذ والعطاء ، وضبط عملية لانفعال والفعل بحسب ما النفس عليه ، ومايكون الجسم إلا مصوراً للنفس به، هذه الأداة التى تنشأ مع الإنسان بمجرد حياته ، وتأخذ فى النمو بقدر سنه تجاربه ومواهبه هى (العقل) كما ذكرنا . فالعقل هو الجهاز النفسى الذى يمثل مجموعة معرفة الإنسان مما كسبه من تجاربه بحسب ميل نفسه واتجاهها . ولذلك هو ينمو بنمو تجارب الإنسان ، حتى إذا ما عرفت النفس نفسها، وأوشكت على الوفاء بما عندها ، بدأ هذا العقل يضمحل فى الشيخوخة، فيكون اضمحلاله نذيراً باضمحلال الجسم من بعده ، وتحلله بانتهاء أجله . ثم تبقى النفس من بعد ذلك حيث يمسكها الله بالموت حتى يبعثها بعملها ، ومعها شاهد من جوارحها التى كسبت عمل الخير فى طريق الفطرة ، أو اكتسبت عمل الشر بمخالفتها . ولن يفيد النفس فى ذلك إلا عملها ، أى إلا نفسها ، كما لن تنفعها شفاعة فيما اقترفت إلا ما شاء الله :

(واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة) ١٢٣ : البقرة .

(فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) ٨٤ : النساء .

(هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) ٣٠ : يونس :

فطرة النفس المطمئنة فى حياة العرب

١ — النفس المطمئنة : ننتقل بعد هذه المقدمة إلى الكلام عن شرائط الاطمئنان النفسى مما تهيئه البيئة الفطرية ، والبدن الفطرى ، بالغين بهذه (النفس المطمئنة) غاية الكمال الذى يدركه الإنسان فى حياته ، بسلوكه الطريق المستقيم لفطرته ، وبإتمامه دائرة وجوده عند خير نهاية، حيث يرجع بنفسه المطمئنة هذه إلى ربه فطرية كما خلقها ،راضية مرضية ، مخلصة نقية ، وهذه الشرائط كشرائط للبدن السليم ،فهى تقابلها بحسب ما ذكرناه وجهاً لوجه، وتتكافأ معها مرحلة مرحلة . وبيانها كما يأتى :

١ — وضوح الغاية : بمثل ما تعرضت أبدان العرب للشمس طوال الدهر حتى تخللت مسامهم ، وسرت فى لحومهم ، وذابت فى نخاعهم ، وصيرتهم من مادة الشمس شموساً متحركة ، فان ضوء الحق فى حياتهم الفطرية ملأ نفوسهم كذلك ، وأنار بصائرهم ، وفاض فى مشاعرهم ، وبذلك عرفوا الغاية من حياتهم أفضل معرفة ، ولخصوا هذه الغاية فى (السعى والعمل) وجعلوا لواء حركة السعى فى (المجد).ولم يكن هؤلاء الأحرار العقلاء خياليين فاعتبروا السعى والمجد أمراً واحداً . ذلك أنهم ما داموا على الصراط المستقيم فكل سعى لهم مؤد إلى إدراك مجد يمسكون بأطرافه .

ولقد تنوع المجد عندهم وهو فى أصله واحد . فالمجد هو حفظ ما بنى الأولون من المكارم بالإباء والحرية والأنفة ، والمجد هو هذه المكارم نفسها وهى لا عداد لها وإن تفرعت كذلك على أصل واحد. وتبعاً لذلك اعتبره العرب

(السعى) إلى الرزق (وسيلة) من وسائل المجد ، فلم يجعلوا غاية المجد تكديس المال ، وتخليد المتاع . فمثل نفس البدوى فى ذلك مثل نفس كريمة يحملها بطن ضامر لا يؤودها ولايسودها ، فكلاهما يجتمعان كالسهم لينفذا فى كل مكرمة.

أما الصورة العكسية فما يعانيه أهل الحضارات القديمة والمعاصرة تحت عناوين وشعارات مختلفة .. بطن كبير يتصارعون على ملئه ، ونفوس واهنه بالقهر والحرمان أو بالجشع والتزيد تتحرك وراء هذه البطون .

إن أكثر أمم الحضارة تطلعوا إلى غايتهم فيما وراء الآفاق الوهمية ، وهى مجهولة عنهم لأن أحداً أمام أعينهم لم يحققها ، ولم يعرف كنهها . ولأن أحداً منهم فيما يوقنون فى أنفسهم لن يحققها . وذلك عندهم هو « المثل الأعلى » الذى يتقدمون إليه خطوة ، ويتراجعون عنه خطوتين ، وهم لا يعرفون (ما هو ؟)

أما العرب فى عصر النبوة فقد عاشوا ليروا المجد من ورائهم ، والمجد من أمامهم ، والمجد فى كل ما يسيرون فيه بوحى الطبائع والسنن التى سنوها وتواصوا بها ، وهم يكتبونها كل يوم بحوافر الخيل ،وأطراف الأسنة ،وبسط الأكف بالندى ...

يقول الشاعر العربى فى بناء المجد عند العرب ، وهو بناء (الخلق الكريم) لا بناء (الهياكل والأهرامات) :

بنى البنـاة لنـا مجداً ومأثرة — لا كالبناء من الآجر والطين

ويقول الشاعر العربى فى قيام كل منهم بنصيبه من هذا المجد لا يغنيه ما كان من آبائه :

لسنا وإن أحسابنـا كرمت — يوماً على الأحسـاب نتكل
نبنى كمـا كانت أوائلنـا — تبنى ونفعل كالذى فعلـوا

ويقول لبيد :

تراك أمكنـة إذا لم أرضهـا — أو يرتبط بعض النـ ـس حمامها

وما يظهر فيه كون المحادة عند العرب هي (السعي) الذي هو هدف الحياة الأكبر لأن كل سعي جديد هو مجد جديد — قول الحصين بن الحمام المري في مفهوم أخلاقي لتقدمية العرب الأولى :

تأخرت استبقي الحيـاة فلم أجد   لنفسي حيـاة غير أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدمـا

فهو قد اعتبر الحياة في مجرد التقدم : في السعي .. ثم فسر هذا السعي بأنه الصراع الذي يضرب فيه المرء بسيفه إقبالا على الحياة ، فيقطر الدم منه ومن أعدائه على القدمين مقبلا مندفعاً إلى الأمام ، لا على الأعقاب منهزماً متراجعاً إلى الوراء . وهذا المعنى سيظل يعجز عنه في تحديد المسئولية الفردية من أجل الجماعة من لا يزالون ينتظرون بركات المثل الأعلى ، من الذين يتقدمون كثيرا إلى الأمام بأمانيهم وأقوالهم ، ويرجعون دائماً إلى الوراء بواقعهم وتظالمهم .

وتظهر غاية المجد والحياة عند العرب في السعي في كافة أحوالهم ... في الحرب والسلم . فاذا استنجدهم حليف للقتال معه كان همهم القتال نفسه ، فان معنى النجدة أو فكرة النجدة مقررة من قديم الزمن في أنفسهم فليست هذه الفكرة هي غاية المجد والحياة . وإنما الغاية هي تنفيذ النجدة في حينها ومجالها ، ولا يكون ذلك إلا بانجاز القتال والنصر للخليف . ويقول وداك المازني :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو   لأيـة حـرب ، أم بأي مكان

ويقول غيره :

أشارت له الحرب العوان فجـاءها   يقعقع بالأقراب أول من أتى ؟

ويرثي عتي بن مالك العقيلي صاحبه (عداء) فيقول :

أعداء : من لليعملات على الوجى   وأضياف ليـل بيتوا لنزول ؟؟

اليعملات : النوق السريعة .

وترثى عمرة الخثعمية ولديها بمثل ذلك فتقول فى أروع قول :

شهابان منــا أوقدا ثم أخمــدا
وكان سنى للمدلجين سناهمــا
لقد ساءنى أن عنست زوجتاهمــا
وأن عريت بعــد الوجى فرساهمــا

فالذى ساءها هو انقطاع نسلهما إذ عنست بموتهما زوجتاهما .. والذى حز فى قلبها انقطاع سعيهما إذ تعرى ظهر فرسيهما منهما ، بعد أن كانت حوافرهما تبلى فى كثرة الأسفار والحروب .

ونختم الاستشهاد على هذا الباب بقول الفتى الكريم (عروة بن الورد) وكان يجمع الشيوخ والضعاف ثم يغزو ويعود بالغنائم فيقاسمهم كواحد منهم. فهو يقرر غاية العرب من الحياة فى السعى على ما انطبعوا عليه من قصد المكارم ، فاذا لم ينل بالسعى غرضاً فقد أبلغ نفسه عذرها ، وأنجاها من مذمة الخمول وعار الجبن إذا لم يقاسم من يشحون بالمال جقه عليهم ، وحق ذوى الحاجة فى هذا المال ولو بالقتال :

ومن يك مثلى ذا عيــال ومقترا
من المــال يطرح نفسه كل مطـرح
ليبلغ عـذراً أو يصيب رغيبــة
ومبلغ نفس عـذرها مثـل منجـح

٢ — **المجاهرة والبدو** : اقتضت معرفة العربى غايته أن تتجه نفسه نحوها فهو لا يضيع مجهوده فى التأمل فى باطن نفسه ، أو نسج الخواطر والأفكار فى أقبية عقله، وإنما هو يندفع بكل قواه لهذه الغاية التى تشرق له ، ويرى الناس من حوله ، ومن قبله ، ومن بعده يندفعون إليها . وإنها لغاية كل الحياة المضيئة فى مواكبها من حوله . وهذه نفسه بطبيعة نمائها ونماء حواسها فى هذا الظهور والوضوح لا تجد عن السعى لهذه الغاية الكريمة حولا ، ولا دونها

منصرفاً . فهى تنفذ فى غايتها نفاذ الشعاع فى مرماه ، ناصعة خاطفة ، ومطمئنة شاغفة . وهل تجد الوساوس وعقد النفس وتأملات الباطن مكمنا فى نفس الصحراء النقية تكمن فيه ، أو ضعفاً تلوذ به ؟ .. وكيف ؟؟

ينشأ البدوى وليس وراءه جدار أواستقرار . فالشمس تغمره ، والريح تحمله ، والأفق يركض أمامه ، والنجم يسرى معه . فكل مافى النفس تستدعيه الحياة للظهور ، وقد صنعت الشمس والهواء والبيداء ومنابع الماء من صحة بدن العربى مجالا لصحة نفسه ، ومنبعاً لحقيقة حياته ، وطريقاً لتيار عمله . ففاض على سجيته .. ولم يأسن ، وجرى على طبيعته ، ولم يستنقع . وأصبح اتجاه حياته على ما تقتضيه الفطرة السليمة أن يبدأ من نفسه دائماً وينتهى عنه غاية حياته . فأفكاره الثابتة عن الحياة وطريقته فيها تشع من نفسه الموحدة ، وتندفع إلى الخارج لتتحول بغاية السرعة إلى الأعمال التى يريدها .

لقد نشأ توحد أفكاره ووضوحها كما ذكرت من توحد غرضه ووضوحه. ولذلك فان مرحلة تفكيره فى كل أعماله لا تكاد تتجاوز اللمحة ، ثم يولد العمل ناصعاً نافذاً . وما أشبه التماع فكرته فى نفسه بالبرق الذى يلتمع فى السماء ثم يسح المطر ، أو البريق الذى يبرق فى الفضاء ثم تنفذ الطلقة فى هدفها . وإن نتائج ذلك من ناحية الصحة النفسية لفى غاية الأهمية . فان معنى ذلك أن العربى يواجه حياته بعد مرحلة التفكير ، أى إنه يخرج بمشا كله إلى خارج نفسه . فليست المشكلة عنده فى كيف ينظم صلته بغيره من أفراد المجتمع العربى ، أو العشيرة العربية ، ولا كيف يعامل جاره ، ولا كيف يقيم بيته . ولا كيف يربى ولده ، وإنما كيف ينفذ ما استقر عليه الرأى من ذلك كله تنفيذاً يبلغ به غايته من كمال النجاح والتوفيق ، بحسب ما يعرض له من الظروف والأزمنة والأمكنة التى لا سلطان له فى اختيارها ، وإن كان له السلطان بفرض سيادته على كافة مشقاتها ومشاكلها بحسب ما فى وسعه .

فاذا ما صادف البدوى عائق وعر ، أو ألم به خطب جلل كان موقفه

من هذا العائق أو الخطب ظاهراً بين يديه فى وضح النهار ظهور كل شىء فى حياته ونفسه ، لا مختفياً فى تلافيف رأسه ، أو متدسساً فى خرائب عقله بين ظلمات التوهم والخوف . فهما خطتان لا ثالثة لهما : إما انتصار مبين على هذا العائق يأتى من جهة ركوبه وقهره ، أو تجاوزه بالرحلة عنه — وإما بالموت على الكرامة والعزة والإباء . وكثيراً ما يصاب البدوى فى حياته ، ولكن الغلبة له على مصائبه تأتيه دائماً من ظهورها . فهى بارزة فى وعيه ، وليست غامضة فى حسبانه . وهى نتيجة لعمل قام به بالفعل كالحرب أو الهجرة ، وليست أثراً لامتناعه عن عمل جبن عنه فحاق به الذل فى نفسه وعرضه وعقله .

هذا الوعى الذى يعى به العربى أحداث الزمان معه قد مكنه أكثر من غيره من الإدراع بالصبر ، ليحتمل هذه الأحداث ويدفع غوائلها . فما دام قد كشف مشاكله خارج نفسه فان باستطاعته أن يضع على هذه النفس المحصنة من الداخل درع الصبر السابغة ، أمام هذه الأحداث والخطوب ، وما تسفر عنه من مصائب وأتراح ... فلنتصور أنه لم بكن كذلك ، وكانت مشاكله تموج فى نواحى نفسه نتيجة عجز أفكاره وتحيرها ، وتسيب أعماله وضياعها ، فكيف كان يدرع بالصبر على نفسه ضد نفسه ، وهذه مشاكله تتوالد فى عقله الضرير الخامد ، ونفسه من داخله غير محدودة ولا مكفوفة ولا منتهية .

خلاصة ذلك أن العربى يسطع أفق الحياة أمام عينيه فهو ينطلق مستقيماً لغرضه . ولو لم تكن بيئته كذلك من البداء فى الشمس والهواء ، ومن الحركة الضرورية المنظمة وراء الماء ، ما كان إلا كذلك المتحضر ، الذى انكفأ فى بؤرة حياته يستدبر أفق الحياة وينطوى فى نفسه ، وقد أخذت القوى المحيطة به تنصب فيه ، لتمحو معالم إرادته ، وتذهب بملامح نفسه ، وهو غالبا يعجز عن تحويلها إلى عمل يريده ، أو أمل يحققه ، فهو بخلاف البدوى يبدأ مما حوله وينتهى فى نفسه ، وتصبح نفسه فى هذا السيل المنهمر عليها ، خزانا غاثراً لأفكاره التى لا تحقيق لها ، ولمخاوفه التى لا نجاة له منها .

لقد أصبحت حياة العربى فى ظهورها ، وانبساط آفاقها ، ووضوح غايتها (فكراً عاملا) فلم تنعكس آيتها الفطرية فتصبح كما هى عند الحضرى (عملا تفكرياً) وبذلك تمت نجاة نفسه من أهوال التضخم الفكرى ، ومن أغلال الكبت القهرى ، كنجاة بدنه سواء بسواء من أى داء يقعد به ، فى مثل ظلام المدن واكتظاظها وضجاتها وضياع الناس فيها ، وضيق مجالها . وكانت هذه النجاة من مخاطر الانفصامات النفسية والعلل البدنية هى مظهر التكافؤ والتوائم فى حياة البداوة بين النفس والجسم ، وعنوان الانطلاق من عبودية التفكير فى الوسيلة إلى حرية التنفيذ للغاية . وفى مثل هذا التوائم النفسى والبدنى فى ظاهر الحياة الواسعة المشرقة يمكن القطع بأنه لا يوجد للنفس العربية (عقل باطن) وإنما لها هذه (البداوة) التى تطرح مشاكلها تحت ضوء الشمس ، ثم تذر بقاياها للرياح تذروها فلا تصيب نفسه بشىء من تضخمها أو تعفنها أو تحللها وتوالد طفيلياتها فيها .

وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى لغة البدوى الدالة على طبيعة أعماله وطريقة حياته مشتقة كلها من عناصر بيئته . وأن تكون أصول هذه العناصر كلها مشتقة من أصل واحد جامع هو (الظهور) و (الوضوح) ...

فالبيئة العربية قاعدتها (الصحراء) وإليها ينتسب الفعل (أصحر) بمعنى ظهر واتسع . و (البيداء) ومنها ينشق الفعل (بدا) بمعنى ظهر ، ومنه (البدو) و (البداء) وغيرهما فى هذا المعنى . و (السماء) ومنها خرج الفعل (سما) بمعنى ارتفع ، والارتفاع حالة شاملة فى الظهور . و (النجوم) ، وإليها يرجع الفعل (نجم) بمعنى ظهر كذلك . و (الرياح) ومنها ظهر الفعل (راح) للأمر يراح رواحاً بمعنى أشرف ، وراح للمعروف يراح راحة أخذته له نشوة . ومنه الأريحى ، والأريحية : سعة الخلق ، والراحة للندى . ومنه الارتياح وهو النشاط وظهور الغبطة .

وفى البيئة العربية غير ذلك (الشمس) بمعنى القوة والمنعة و (القمر)

بمعنى الكثرة ، و (الجمل) بمعنى الجمع ، والجمال أيضاً ، فى صورة الإبل المتسقة الملامح الصحراوية والكونية حيث خفافها مطمئنة على الأرض ، وأعناقها مشرئبة للسماء . ومصدر قوة الجمال فى أنه (ظهور) حكمة الخالق على أجسام المخلوقات. وأما (النخل) فهو بمعنى الاصطفاء والاختيار .. وذلك ظهور الظهور .

٣ — اللغة والتاريخ : وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى مقومات العرب القومية وجدناها صفوة (الظهور) و (الوضوح) وهى ثلاثة : اللغة والوطن والتاريخ

أما لغة العرب فهى العربية أى (البينة الواضحة) ومن ذلك سموا كلامهم بالبيان .

وأما وطن العرب فهو (العروبة) وهى المشتملة على دينهم فى توحيد الله ونصرة الحق، وإباء الضيم، وإكرام ذى الحاجة، ومنع الضعيف . والعروبة والعربية ضد العجمة (*) هما صراحة الحق ، المبنية عليها مكارم الأخلاق . والإعراب إبانة ، والتعريب التهذيب وحذف اللحن ، والعرب النشاط ، وعرب النهر كفرح فاض ماؤه ، والبئر كذلك . والعربة النفس . والنهر الشديد الجرى .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفخر بعربيته لأنها آساس دينه فى القرآن والبيان والمعروف ، وكان يقول لغير قريش (أنا أعربكم ، أنا من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر) ... أى فى فصاحة البادية .

(*) أعجم : ذهب بكلامه إلى العجمة ، وهو ضد أعرب . ويماثل ذلك (حضرم) بمعنى لحن فى كلامه ، وقد نحته العرب من كلمة (الحضر) كالفعل السابق من كلمة (العجم) .. و (الحضرمة) الخلط وهى كالأعجام ، وهما مما ضد البداء والابانة والوضوح . ومن (الحضرمة) فى هذا العصر علوم التصوف والنفس والروحانيات ونظم التربية الملتوية وطرائق التعبير عن رغبات الاصلاح فى برامج وهمية . ومصير الحضرمة دائماً هو هذا الشقاء المبين الذى يلازم حياة الحضر فى كل عصر مالم يعتصموا بالدين الحق .

على أن كلمة « عرب » وما دتها البيان والإفصاح وحقيقتها هى الحنيفيه والإسلام ، وسبيلها هو الحق والتوحيد، قد انكشفت لها كل هذه المعانى على وجه التحديد فى أصلها اللغوى ، لا من جهة الاستنتاج من القرائن فحسب ، أو الاعتماد على أصل الإعراب والإبانة فى معنى الكلمة . وذلك فى بعض أبحاث أحد اللغويين ممن بحث الأصول العربية القديمة للكلمة فى مختلف مراجعها السامية كالبابلية والعبرية . وانتهى إلى ترجيح أن كلمة (عرب) أصلها (على الرب) ، ثم توحدت الكلمة فصارت بالإدماج (عرب) ثم طبق أبحاثه على كلمة (عجم) فوجد أن أصلها (على الجم) أى (على الماء) والمعنى الأول فى كلمة عرب واضح فى أنه (الرحلة إلى الله) والمعنى الثانى فى كلمة عجم ظاهر فى أنه (الإقامة على الماء) وبذلك استقر للباحث الرأى فيما وصل إليه فى صحة المعنيين المتقابلين من قديم الزمان بين البداوة العربية وقوامها الدين ، وحضارات الأنهار وقيامها على التكاثر والملك والطبقات .

على أن تاريخ العرب — وهو ثالث المقومات العربية — يعطى مؤشراً آخر على خصائصهم البدوية ، فاذا كان التاريخ هو ما مضى من أخبار الآباء كما هو عند جميع الأمم ، فان فعل (مضى) عند العرب ينفرد باشتماله على الاتجاهين معاً (الماضى والمستقبل) فمضى بمعنى (انقضى وأدبر) هى بنفسها مضى بمعنى (تقدم ونفذ). فتاريخ العرب بذلك يمضى وراءهم وأمامهم فى وقت واحد . ولم يكن ليتيسر لهم ذلك الانطباق بين طريق الماضى والمستقبل إلا لأنه لا خلاف عندهم بين ما بناه الآباء من المجد فى الماضى وبين ما وقر فى الأنفس والطباع أن يبنيه الأبناء على مثل بنائهم فى المستقبل . فحياة العرب فى ذلك كالدائرة المفرغة المحكمة لا يدرى أين طرفاها . وفى هذا المعنى يقول الشاعر العربى حجر بن خالد الثعلبى قبل الإسلام :

وجدنا أبانا حل فى المجد بيتـه ... وأعيا رجالا آخرين مطالعـه
فمن يسع منا لا ينل مثل سعيـه ... ولكن متى ما يرتحل فهو تابعه

ومعنى أن تاريخ العرب ماض أمامهم مضيه وراءهم آنه صار كأنفسهم خالياً من عقدة العقل الباطن،فهو ظاهر لهم ظهور صحرائهم ولغتهم، وغاياتهم وأنفسهم . وبذلك تم لهم فى حياتهم الطبعية الفطرية تمام الظهور والوضوح والتصوع والصدق فى كل شىء . ويتجلى ذلك على التحقيق فى أعمالهم ، وردود فعلهم ، ونظمهم ، وأقوالهم ، التى اتصفت كلها بصفة الصراحة والمجاهرة ، وخلت جميعها من أى أثر للكبت ، والحبسة النفسية أو العقلية واللسانية ...

إن أدل الصفات على هذه الصراحة والمجاهرة عند العرب حب الموت ثمناً للحياة ، كما يريدونها كريمة وحرة ، ذلك أن الحياة لكى تبقى كريمة ينبغى أن ترتفع من حولها أسلحة الدفاع عنها، وعن الإرادة الحافظة لها، وأول هذه الأسلحة طلب الموت فوق ساحات هذا الدفاع ، وإلا فقد الإنسان الحر إرادة الحرية وإرادة الحياة بكراهية الموت . وخروج حياة المرء عن إرادته يعرضها لضغط إرادة غيره ، من الذين يلتمس إرضاءهم ليحيا . وهذا الضغط على النفس هو الذى يجعل للرجل نقاباً على وجهه فوق رغباته ، وينشىء له خزانة فى أسفل عقله يلقى فيها بحطام آماله ، ويقبر بها رفات حريته ..

٤ — الحقيقة والشهادة : لما كانت نفس العربى بطبيعة انتظام جوارحه واعتدال رغباته ، وقوة حواسه لم تتعرض لما يفسد فطرتها ، فقد احتفظت نفسه طويلا بوديعة الله فيها من الخير الفطرى ، والخير فى أية صورة يابى إلا الظهور والجلاء . وتلك هى العلامة الفاصلة بينه وبين الباطل الذى يتستر بالخفاء والظلمة ، ولذلك فان العربى لا يقبل مصادرة حريته ، لأن الخير الذى فيه لا يقبله ، ونتيجة ذلك أنه لا يقبل الضيم ، لأن الضيم — فى كل صورة من صوره — نوع من المصادرة والضغط . وأصبح العربى فى سبيل المحافظة على هذه الحالة الأصيلة فيه والتى يسميها (الحقيقة) أى حقيقة الظهور والوضوح — يحب الموت حباً للحياة الظاهرة الحرة كما يريدها . لأنه يعلم أن هذا الموت هو

أقصى ما يستطيعه الأحياء الأقوياء من غاية الظهور بمكارمهم ، والتثبيت لحقيقتهم ، وتخليد هذه الحقيقة فى حياة الأبناء والأحفاد . ولذلك تنافس العرب فى حب الموت، فكان السبق فيه لأكرمهم وأعزهم، كما يتنافس المتحضرون فى حب الحياة، فيكون الفوز باستبقاء الحياة غالباً من نصيب أخبثهم وأهونهم ..

يقول زيد الخيل ، أو زيد الخير كما سماه رسول الله :

أنا الفارس الحامي الحقيقة والذى ... له المكرمات واللهى والمآثر
وقومى رؤوس الناس والرأس قائد ... إذا الحرب شبتها الأكف المساعر
فلست إذا ما الموت حوذر ورده ... وأترع حوضاه وجمح ناظر
بوقافة يخشى الحتوف تهيبا ... يباعدنى عنها من القب ضامر
ولكننى أغشى الحتوف بصعدتى ... مجاهرة إن الكريم يجاهر

ويقول عمرو بن كلثوم :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا ... على هالك ، أو أن نضج من القتل

ويقول من يذكر إحدى الحروب ويرثى أخاه :

وكان أخى (جوين) ذا حفاظ ... وكان القتل للفتيان زينا

ويقول دريد بن الصمة :

أبى القتل إلا آل صمة إنهم ... أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر

ويقول السموأل :

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب يتمادحون بالموت قتلا وقعصاً ، ولا يرون الجدارة بالقتل إلا للحر الكريم . وهم يتذامون ويتهاجون بالموت حتف الأنف على الفراش .

ويقول معبد بن علقمة :

وفى الكف منى صارم ذو حقيقة ... متى ما يقدم فى الضريبة يقدم

ويقول غيره :

ألم تريا أنى حميت حقيقتى   وباشرت حد الموت والموت دونها

وكان حاتم الطائى يجود بكل شىء من ماله إلا فرسه وسلاحه ، وذلك أنه يحمى بهما حقيقته . ولا خير فى كرم من ضعيف غير قادر ، أو لئيم يمحو بمنح المال بعض ذنوبه رياء ، أو عاجز يعطى المال وحوزته مستباحه .

ويقول الشاعر العربى يصف الكرام فى أبلغ عبارة :

لا قوم أكرم منهم يوم قال لهم   محرض الموت عن أحسابكم ذودوا

ويقول على بن أبى طالب ناطقاً بلسان العرب فى كل عصر (بقية السيف أنمى عددا ، وأطيب ولدا) .

وتقول الخنساء فى ذلك :

نهين النفوس ، وبذل النفو   س يوم الكريهة أبقى لها

وتقول عائشة بنت زيد ترثى زوجها عبد الله بن أبى بكر الصديق :

فلله عينا من رأى مثله فتى   أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا

إذا أشرعت فيه الأسنة خاضها   إلى الموت حتى يترك الموت أحمرا

٥ — العفة والمناعة : الحياة الجنسية ، والنظم التناسلية فى كل أمة هى المرآة التى تثبت عليها صورتها العقلية . ذلك أنه فى سلسلة العلاقات الجنسية التى يرتبط بها الجيل من جهة الآباء والأبناء تظهر وتتأكد نتائج ذلك التفاعل التلقائى بين أجسام أفراد الأمة وبين أنفسهم فيما سميناه (العقل)..فاذا كانت العلاقة بين أجسام أفراد الأمة وبين أنفسهم علاقة فطرية صحيحة ، لأن أجسامهم وأنفسهم معاً نشأت نشأة فطرية صحيحة، كما شرحت فيما سبق، فان العقل المتولد من هذه العلاقة يكون عقلا فطرياً سليماً ، وسجلا دقيقاً منتظماً لأصح العلاقات . وأصدق الأعمال ، وأعظم النتائج . وإذا لم تكن الأجسام والأنفس كذلك كان العقل المتولد بينهما كما تتولد البؤرة بين مصدرى

الإشعاع — مضطرباً مختلا متضخماً بالقدر الذى يبتعد به هذان المصدران عن الكمال والاعتدال والنشاط فى بيئتهما الناقصة أو الفاسدة .

إن غراس البيئة يظهر ثمره فى الحياة الجنسية لكل أمة ، فيحكم لها إن كان حلواً بنعمة الدين والعدل ، وإن كان مراً قضى عليها بظلم نفسها فى حياة عقلية تعسة، ومشاكل اجتماعية لا آخر لها . وباعد بينها وبين صحة الحكم فى أى شىء . وإن كانت أمثال هذه الأمم تغطى سطح فاجعتها بالتعللات الوهمية التى تحاول بها أن تحجب الحقيقة عن بصائرها . فالملاحظ أنه لا تنتعش فنون التخدر ، ولا تتقد نيران المسرات الظالمة التى تحترق الأمم من تحتها بالأمراض المريبة والعلل العقلية والخلقية ، إلا فى عصور الازدهار الوهمى لهذه الأمم ، حيث تموت وتنتهى فى قبر حضارتها كما تموت الحشرة العمياء فى لفائفها الحريرية .

إن وضوح الغاية فى حياة العرب كما أسلفت ، ووضوح أعمالهم وأقوالهم بعد ذلك بقوة الدفع الذى يندفع به المعروف فى أنفسهم . قد جعل من الحتم والمعقول لهم أن يلتزموا فى تزاوجهم تلك الخطة الجديرة بهم فى مثل هذه الحياة وهى الاصطفاء والانتخاب . فالرجل الذى عرف غايته ، وحدد طريقه ، أصبح يحمل المسئولية التى خلق الله الإنسان ليحملها ، وقل من حملها ، وهى مسئولية سلوكه الطريق المستقيم إلى تلك الغاية الكريمة . ولذلك اشتد التفاته إلى ولده وعشيرته ، لأن الانفراد إلى هذه الغاية لا يغنى . كما أن الكثرة فى غير النجباء من الأولاد تضر ولا تنفع . فكانت النجابة فى الأبناء وسيلة الآباء للمنعة. وأصبحت المنعة بأعمالها وأمجادها نواة وحدة الأمة. وعرفت البيئة العربية من هذه الركيزة فضل الأمهات فى بناء حياتها ، فصارت بطون النساء بهذه الرسالة العظيمة معسكراً للفتيان الأبطال ، والرجال الكرماء . واستقام بالمرأة الطريق إلى الأمومة الكريمة بعيداً عن غاية الاقتناء واللهو والزينة . ومن هنا انتظم قانون الأنساب فصار أفقاً محيطاً بالحياة العربية . كما صارت الأعمال الشريفة والبطولة الباذخة سراجاً منيراً يضىء للعامل حسبه فى هذه الحياة ،

فيرقى بهذا الحسب حيث يضع نفسه فى مكانها من الشرف والنجدة والعمل ، لا بحسب ما عنده من الأموال والألقاب والحيل .. ؟

كان (نقاء النطفة) هو الدعامة الطبيعية لمثل حياة العرب التى هى نموذج الحياة للإنسان الكامل . وقد أعان على ذلك فى بيئتهم التى بسطت طرفاً من خبرها ما سأوجز الكلام فيه من العوامل الآتية :

أولا : عناية العربى الذى ذاق نعمة الخير بأن يختار ولده قبل مولده ، وذلك باختياره الوعاء الصالح له . وليس صالحاً من النساء عنده إلا من يتقابلن ويتكافأن فى الخير معه ، أو يزدن ، من ذوات الآباء الكرام . وقد سمى الرسول الكريم ذلك الناموس (تخير النطفة) وهو فى ذاته وصفاته خير دليل على هذا القانون الذى سار العرب عليه والذى صاغه لهم رسولهم ،وأكرم نطافهم الكريمة ، فى أبلغ عبارة حيث قال (تخيروا لنطفكم فان العرق دساس) يقول زهير فى هرم بن سنان وعشيرته :

وفيهم مقامات حسان وجوههم	وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم رزق من يعتفيهم	وعند المقلين السماحة والبذل
وما كان من خير أتوه فانما	توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه	وتغرس إلا فى منابتها النخل

ثانياً : حرث الرجال الطيبين النساء الطيبات ، لإنجاب خير الفتيان وكرام الفتيات قد جعل للمرأة حرمة ، وللبيت حمى ، وفى هذا الحمى انتظمت قواعد البيت حول دعامته الراسية وهى (العفاف) عند كل من الرجل والمرأة ، كما اشترك الرجل والمرأة معاً فى إسدال الحجاب بينهما فى غير ما يباح فيه السفور. وبذلك أصبح الناشئون الجدد ينشأون فى حصانة من خواطر السوء، ومشجعات الاستهتار . فالطفل والطفلة ، والغلام والفتاة ، ينشأ كل منهم سليم الفطرة نحو أساس الحياة وهو (الذرية الصالحة) وإلى غايتها — وهى العمل

الصالح — وإلى حصنها وهو (العفاف) ، وإلى لسانها وهو (الصدق) فالمولود يولد ليعمل ، والعقيدة القوية التى تملأ قلبه هى حماية هذا البناء الذى نشأ فيه : فاذا بدت بداوته ، وتفتحت براعمه لم تتأخر الصراحة فيه أن تطلب جواب هذه الحالة بالزواج . وأما فى الفتيات فليس أنفس منهن فى هذه الحياة الطيبة ، وكلما كرم أصلها زاد الطلب عليها . وهى فى الاختيار حرة لأنها كصاحبها تأبى أن يتحللها غير النجيب . وأحاديث العربيات فى تخير الكرماء تفيض بها صبابة ما بقى من أخبار العرب الأوائل ، وتمتلىء بها تحسرات من بقى من العرب الأواخر .

ثالثاً : الحاجة إلى قوة العشيرة ، مع وضوح حكمة النسل فى أعين العرب رجالا ونساء مع العفة المانعة من الإنحراف ، ومع الصراحة المانعة من الكبت ، جعل التبكير بالزواج سنة عربية ، وجعل تعدد الزوجات (*) سنة أخرى . ذلك أن العدل فى أمة عفيفة محاربة يقضى بأن لا يعزل الرجال من يزدن عن الحاجة من النساء عن حق الزواج . فمع العفة يصبح الزواج حقاً للجميع مثل الماء والهواء والخبز . والزواج فى وضح النهار لاستثماره، والقيام بأعبائه ، هو سلوك الرجل الفطرى الكامل . ولهذه الأسباب عينها صار الطلاق اجراء عربياً يملكه الرجل ، كما تملكه المرأة . ولقد جاء الإسلام فنظم هذه السنن العربية على أكمل وجه ، وأقامها فى أحسن تقويم ... ولكن عندما عجز المتحضرون عن ذلك بتفاسدهم ورقة دينهم ، اتهموا الشرع ولم يتهموا أنفسهم .؟

هذه العوامل الثلاثة التى أعانت على (نقاء النطفة) فى الحياة العربية نشأت بذورها من نقاء النطف الأولى . فانه ما كان يهتدى إليها بالبداهة ذوو

(*) ولكن فى العصر الحديث انقلبت الآية ، فأصبح الشعب العربى يعانى الكثرة فى العدد ، والتخلف للنوع مما يقضى بضبط النسل ، واختيار الخصائص ، وتأصيل التربية والثقافة القومية والدينية للأطفال والشباب .

النطف الفاسدة . ولقد سبق أن أشرت إلى أن الأصل فى النفس الفطرية هو الخير ، وأن عمل البيئة العربية كان — من جميع الوجوه — معيناً على احتفاظ الجسم والنفس بحالة الخير التى خلقها الله عليها . وعكس هذه القاعدة صحيح تماماً بالمشاهدة ، فان العوامل المغايرة لهذة العوامل السابقة مما تتأثر به حياة المتحضرين قد أعانت على فساد النطفة ثم على استشراء فسادها . وأن ذلك بدوره قد بدأ منذ اختل قانون الاختيار الصحيح لمستودع النطف فى النساء ، وانهدمت قاعدة الكفاية الخلقية والنفسية بين الزوجين . وإذا كان الثابت فى تاريخ العرب أن الانتخاب للنطفة والخصائص قد ضاعف من تأكيد خلائق الخير وتركيز قواها وشد عراها ، واستنباط خوارق الأعمال منه ، فان الأمر كذلك فى الوضع المعاكس حيث يؤدى تفاسد النطاف فى العلاقات غير المشروعة التى تتسلل أجيالا مع انهيار الحضارات بين فئات المخمورين والزناة والخلعاء واللصوص والملاحدة إلى استفحال شقاء الجيل الأخير ، وتضخم علل عقله المختل ، وسريان السم فى أوصال بدنه المنهار . ثم موته بسكتة العهر ، أو سكرة الانحلال ، أو خنقة الظلم . ثم تتجدد على رفاته الأجيال المتداعية من نوعه ليلقى المجتمع فى نهايته ذات المصير التعس كما لقيته حضارات اليونان والرومان والفرس القديمة ..

يظهر مما ذكرت أن انتظام عقل أمة ، ووضوح إشعاعه فى مشاكلها ، وقوة نفاذه فى دقائق أغراضها يتصل كل الإتصال بطهارة حياتها الجنسية ، ووضوح مسالكها الحيوية ، وقوة اندفاعها نحو غرضها الذى لا تحيد عنه ، ولا تضطرب دونه. وسواء أكان خلو الأمة من الأمراض الجنسية والتناسلية ، ومن العقد النفسية والعصبية يعتبر دليلا على سلامة عقلها فى حياة فطرية سليمة ، أو إن سلامة عقلها هى التى تدل على سلامة أبدانها وأنفسها من هذه الأمراض المستعصية والإصابات المهلكة فاننا لا نحتاج كثيراً إلى حاسة اللمس لنثبت سلامة الحالتين للعرب فى بداوتهم وصحة حياتهم وطهارة أنفسهم . فمن يؤمن

من آثارهم فى العالم بكمالهم العقلى يستطيع أن ينفى عنهم الإصابة بالعقد الجنسية أو العلل النفسية ، وأن يرجع ذلك إلى أسبابه الفطرية فى بيئتهم الرحبة المضيئة الصادقة ، الكثيرة السعى ، المأمونة العاقبة على الخير والعقل والدين .

ومن لم يؤمن لهم بشىء من ذلك فلعله إن لمس بيده مصيبة الأقوام الآخرين — وهو بينهم — فيما أحاط بهم من طوفان الأمراض الجنسية ، وما كبلهم وصفدهم من أغلال العقد النفسية ، وأصفاد الاضطرابات العقلية أن يستروح شيئاً من نسيم الحق ، وهو يرى إشارة الأطباء فى كل حالة تتجه نحو الإنقاذ فى صورة للحياة المثلى لا تنطبق فى أفضل عواملها إلا على الحياة العربية البدوية.

إن من أبلغ المظاهر على سوء حالة هذه الأمم كون هذه الآلام والمصائب مجهولة منها مع انتشارها . فانِ اليأس فيها من النجاة جعل الغريزة المتحكمة فى فسادها أكثر اندفاعاً ، مع شدة الأذى ، إلى تغطية الجرح ، وإخفاء القيح ، وإطلاق الضحكة المجنونة مكان العبرة الآسية ، وإلى مقاومة الذعر بالمجون ؛ وطرد أشباح الخوف باحراق الأنوار فى كل مكان ، ودق الطبول ، ورفع العقائر بالغناء المتهتك ، وإشعال الشعل الغاوية ، وتمزيق عصب الأوتار فى بحران الموسيقى المحرضة ، والرقصات المعربدة ، وترصيع المنابر بعد ذلك بالخطباء الواهنين المتمسكنين ، مع تنميق موضوعات الصحف المضللةوالإذاعة العابثة بأحاديث الأمل والرجاء ..

٦ — مقارعة الدهر : خطونا الآن بضع خطوات مع أسباب اطمئنان (النفس المطمئنة) فى الحياة العربية الفطرية ، وقد أصبح من المستطاع فى هذا الضوء أن نبصر حقيقة الأسوة والمثال الإنسانى فى أركان هذه الحياة الآمنة ، وأن نتمثل ذلك فى قوة هذا الإنسان الكامل على مقارعة الحياة ومغالبة الدهر ، أى على مناجزة الظروف التى تحيط به بقوة نفسه وعقله وبدنه ليستخلص منها بالسعى ما هو قادر عليه من ثمرة الذكر الحسن ، والعمل الصالح ، والأسوة الباقية .

تيسرت للإنسان العربي مقارعة الدهر من جهتين ، بعد أن نجا بقلبه ونفسه وبدنه . وهاتان الجهتان هما : ابتداؤه بنفسه فى المسئوليات ، وتجنبه الفضول فى التفكير .

ومعنى الأول أنه يبدأ صلته بالحياة من بداية نفسه . فاذا كان أمر من أمور الحياة فى خصوصها أو عمومها بدأ بسؤال نفسه عن نصيبه من العمل فى أقامة هذا الأمر وإصلاحه . فهو المسئول الأول فى كل ما يمس نفسه ، وأبناءه ، وعشيرته ، وقبيلته ، والناس أجمعين بعد ذلك . ولذلك فهو لايكاد يتصل بالحياة ابتداء من نفسه حتى ينتهى إلى الوفاء بجميع الأعمال المنوطة به من سعى للرزق ، وإكرام للضيف ، ودفاع عن العشيرة ، وضرب فى الآفاق مخافة الضيم . وبقيام الفرد بحمل هذه المسئولية عن فطرة واعية أصبح مجتمع العرب (مجتمعاً عاملا) تتردد من جوانبه أصوات الرضى بالأعمال الشريفة التى تمت بالفعل . ولو لم يكن الأمر كذلك ، أى لو كان على كل فرد أن يحيل الواجب على غيره ، وينتظر البداية بالعمل من سواه لانقلبت صيحات النصر بتمام العمل إلى صرخات وتوجعات يتجه بها الضارعون منهم نحو باب الآمال التى لم تتحقق ، والأعمال التى لن تتم أجيالا وقروناً .

ولقد دفع العربي إلى حب العمل أمر طبعى للغاية هو تمام الصحة فى أعضاء العمل بدنية ونفسية وعقلية . ومن الثابت المعروف أن صحة العضو تصحح الوظيفة ، وتوحى بها أيحاء قوياً ، وتدفع إليها دفعاً لا يقاوم إلا بعقبات طارئة ، وليس مثل هذه العقبات بشىء فى الحياة العربية ، حتى الموت الذى اقتحموا أسوار الحياة إليه وصوروه (أحلى من العسل) بعد أن ذاقوا طعمه مرات ومرات ، بينما يعجز المتحضرون اليوم — رغم العلاجات والمسكنات وحتى فى أمريكا وروسيا — عن تذوق طعم الحياة ؟ فهذا الحب الصادق للموت هو الذى يدل على أن غاية الحياة الحقيقية هى العمل لا الحياة ، ففى أداء العمل الصحيح بالأعضاء والجوارح الصحيحة ما يفتح فى النفس منابع

السعادة الحقيقية التى تطمسها بالتردد والخوف أيدى المرضى العاجزين الضالين.

وأما الأمر الآخر فى التمكن من مقارعة الدهر وهو (تجنب الفضول) فذلك أيضاً من تمام الصحة البدنية والعقلية والنفسية الذى تمت به للعرب وظيفة الحياة على الوجه الذى أرادها الله به . فلم تعد لهم بالتمام حاجة إلى النقص، وأصبحت حياتهم التامة البسيطة المستوفاة بعيدة فى يقظتها وراحتها عن عذابات الأحلام المفزعة ، ومحاولة تعويض النقص بأنشطة سلبية من أمثال (التفلسف) أو (التصوف) ، أو معاناة إنشاء الهياكل والتماثيل ، واختراع القصص والأساطير ، أو معالجة ألوان الشذوذ فى العلاقات الفردية والاجتماعية ، أوتعاطى المخدرات وعقارات الهلوسة وأحلام اليقظة !.

ولنضرب أمثلة من الشعر العربى القديم على معانى الكفاية التامة لأسلافنا العرب فى مقارعة الدهر ومناجزة الحياة . ونبدأ ببيتين يرثى بهما الشاعر أخاه فيصفه بأنه كان القريب إلى أصدقائه عند حاجتهم إليه ، والبعيد عنهم عند حاجته إليهم . وهذه الصورة الكثيرة البيان فى الحياة العربية تفسر مدى كمال النضج الاجتماعى فيهم وقد جمعها القرآن الكريم فى الآية : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) » ٩ : الحشر .

يقول الشاعر :

فتى كان يعطى السيف فى الروع حقه
إذا ثوب الداعى ، وتشقى به الجزر(*)

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
إذا ما هو استغنى ، ويبعده الفقر ؟

وتقول إمرأة من طىء :

متى يدعه الداعى إليه فانه سميع إذا الآذان صم جوابها

(*) أى تشقى به الإبل التى يطعم بها الضعيف وعابر السبيل .

هو الأبيض الوضاح لو رميت به ضواح من (الريان)(١) زالت هضابها

ويقول بشامه بن حزن :

او كان فى الألف منا واحد فدعوا

من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

ويقول طرفه :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى

عنيت فلم أ كسل ولم أتلبد

ويصور عمرو بن معد يكرب مقارعة الدهر أروع تصوير فى قوله :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا

إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا

أعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى (٢)

نهدا ، وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا

كل امرىء يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

كم من أخ لى صالح بوأته بيدى لحدا

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاى زندا(٣)

ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا

أغنى غناء الذاهبين ، أعد للأعداء عدا(٤)

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فرد

---

(١) الريان : جبل .

(٢) أى درعا وجوادا .

(٣) أى إن بكائى لايفيد لأنه لا يرد شيئاً مفقوداً ولو كان قليلا .

(٤) كان معد يكرب يعد من فرسان العرب بألف فارس قبل الإسلام وبعد الإسلام .

ويقول تأبط شرا :

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا

به الخطب إلا وهو للقصد مبصر

فذاك (قريع الدهـــر) ما عاش حول

إذا سد منه منخر جاش منخر ؟

ويقول غيره فى العض على الزمان حتى لا يغلبه بعار يلحق به :

وإنا على عض الزمان الذى نرى نعالج من كره المخازى الدواهيا

ويقول غيره فى مساواة الدهر وملاحقته بادراك المطالب :

كأنك لم تسبق من الدهر ليلـــة إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب

فهو يرى التأخر عن نيل المطالب تأخراً عن اللحاق بالدهر السائر فى موكب أيامه ولياليه ، ويرى العزة فى مسايرة الدهر جنباً إلى جنب ، وهذا معنى آخر من تقدمية العرب .

ويقول المتلمس فى اليقين بالموت ، وعدم الوسوسة بشأنه ، وتجنب الحياة بالذل بعد إذ وضح هذا اليقين :

ألم تر أن المرء رهن منيـــــــة صريع لعافى الطير أو سوف يرمس

فلا تقبلن ضيما مخـــــافة ميتـــة وموتن بها (حرا)وجلدك أملس؟

وما النـــاس إلا ما رأوا وتحدثوا وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

وفى البيت الأخير يختصر المتلمس فى شطريه طبيعة الحياة العربية ، وطبيعة الحياة المناقضة لها . فالناس فى ميزان الحق هم أعمال صلحة ، يرونها من أنفسهم فيتحدثون عنها ، ويفخرون بها ، بينما يتجنبون فضول التفكير ، وفضول القول ، وفضول العمل ، متنزهين عن المتشابه فى ذات الله ، وما قبل الحياة ، وما تخفيه الحياة ، وما بعد الحياة ، متحصنين من الظن فى كل ذلك باليقين . فاذا لم يستطيعوا العمل الذى يفخرون به ، ويتحدثون عنه ، بأن خضعوا لغيرهم ، وقعدوا وجلسوا للضيم فهذا هو العجز . وبذلك جعل

الشاعر آية العز فى منطق أمته فى القدرة على العمل ، ومقارعة الدهر . وجعل آية العجز فى انعدام مجال العمل الإرادى ، والقعود للضيم . وقد جرت الحياة العربية على فطرة هذه النفس المطمئنة فكانت كلها أعمالا رآها العرب فتحدثوا عنها ، ورآها غيرهم فتحدث عنها . وقد كان الناس قديماً ، وما زال الناس حديثاً يتحدثون عما رأوه أو سمعوا به من هذه الحياة العربية الخارقة الصادقة ، العاملة الكاملة ، البالغة أقصى حدود الكمال والوضوح والإيجاز بما هو فى طاقة البشر .

٧ — إنتصار النفس : على هذه الأسس العربية من وضوح الغاية فى النفس ، والمجاهرة بالأعمال ، والمناعة الجنسية ، ومقارعة الدهر ، اتسع للنفس العربية مسلكها ، وتعبد طريقها ، وتم اطمئنانها وانتصارها ، فهى تحيا فى هذه الدنيا مطمئنة منتصرة ، وترجع إلى الله فى الآخرة مطمئنة راضية . وخلاصة القوة فى اطمئنانها أنها لا تضل طريقها إلى الله بالعمل الصالح ، وأنها دائمة السعى إلى لقائه بهذا العمل سعياً لا يكذبه الواقع ، ولا يشوبه التوهم . وأنها بطبيعة الوضوح فى غايتها وتصرفاتها ، والمناعة فى قواها وروابطها ، والشدة فى مقارعة زمانها وظروفها قادرة على تمييز مخاطر طريقها . فهى دائمة الانحراف عما تنحرف به ، والاستقامة على ما تهتدى إليه . ولذلك فهى فى نجوة من ظلمات التصوف ، وأحابيل الأوهام فى كل مراحل سيرها الحثيث . وهذا هو معين الاطمئنان ، وطريق الانتصار .

يقول قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموت لا تلف حاجة   لنفسى إلا قد قضيت قضاءها

ويقول حاجز بن عوف الأزدى :

فان تأتنى الدنيا بيومى فجاءة   تجدنى وقد قضيت منها مآربى

ويقول الراجز فى اطمئنان نفسه الذى لا يجعل شيئاً يؤرقه :

متى أنام لا يؤرقنى الكرى   ليلا ، ولا أسمع أجراس المطى

ويتجلى انتصار النفس العربية الموحدة فى جملة مظاهر — نذكر منها :

١ — الإيمـــان وعدم الشك ، وقـد تطهر بذلك أدب العـرب من (الميثولوجيا) واعتصم عقلهم فوق الصخرة الواقعية القريبة من الشمس ، البعيدة عن هاوية الفلسفة والخرافات حول أصل الوجود ..

٢ — التشابه التـام بين الأفراد ، فكأنهم جميعاً جنود جيش واحد ، كامل التعبئة ، هو الأمة العربية ، وهم ينتسبون فى هذا الجيش إلى فرق مسماة هى القبائل . وهذا التشابه والتقارب فى الطباع والزى والملامح جعل نعمة الشعور بالإنسانية فى العرب الأوائل مضاعفة ، بل إنهم تميزوا بقوة هذا الشعور الإنسانى عن غيرهم . كما يتميز المعدن الذى لم يفقد إشعاعه ، والحديد الذى انتظمت بالمغناطيسية ذراته وجزيئاته ..

٣ — الشعور الفطرى بالمساواة بين الجميع . وقد جعل العرب هذا الشعور عدتهم فى كل مكارمهم . فليس من طبع العربى أن يؤثر نفسه بشىء مما تقوم به حياة الناس من المال والنفس . فهو يعطى من ماله ومن نفسه ، لا يفرق بين أحد من أصحاب الحق فيما فى يده ، ثم هو ينمى سجية الكرم فى نفسه وفى غيره فيفخر بها فخراً بليغاً خالداً ، ويحمد الله عليها . فالظاهرة الكبرى فى حياة العربى هى تلك الظاهرة التى نجدها فى خصائص الماء إذ يتداعى دائماً فى الأوانى المستطرقة أو النهيرات المتصلة ، إلى (منسوب واحد) مهما اختلفت أشكال هذه الأوانى ، أو هذه النهيرات التى يجرى فيها .

أما الإيمان فى العرب فهو أصل الاطمئنان . ذلك أنه يلغى كل الأسئلة الفلسفية الوهمية التى يوسوس بها الضعف ، ويوحى بها الخوف من الحياة ، ويسببها العجز عن الجواب عن هذا السؤال الحقيقى المحيط بكل إنسان وهو : (ماذا فى وسعك أن تعمل وأن تنفق لترجع إلى ربك راضياً مطمئناً ؟) .

إن الإيمان الحق يجعل للإنسان جواباً واحداً عن كل هذه الأسئلة التى انتشر بها وباء الفلسفة ، وتراكمت منها الظلمات فوق سماء الناس وبصائرهم ، هذا الجواب هو الحياة .. هو العمل والإنفاق ؟

فمن أين جئت ...

ولماذا خلقت ...

وإلى أين أذهب ..

وما هى الروح ... وما النفس ... وما الإنسان ؟

كل هذه الأسئلة ليس جوابها فى بضاعة الفلاسفة وشطحات المتصوفة من الظن الحائر والغرور المتصل .. وإنما جوابها الحق هو :

« سوف أحيا كما تهدينى الفطرة إلى الله، فتلك الحياة الظافرة حتى الموت هى المعرفة المتزايدة لما ينبغى أن أعرفه وأعلمه وأعمل به من الحقيقة » .

لقد نشأ الإنسان وما يزال ينشأ على الفطرة والإيمان ...

ولكن بيئته التى تؤثر تأثيراً مباشراً فى بدنه ونفسه إذا لم تكن مما يحفظ هذه الفطرة على سلامتها فى البدن والنفس فان آثارها تغير منه حتى يقع من أمر حياته فى تيه وبحران ، ويحل فى نفسه الخوف محل الأمن ، ويظهر ذلك عليه فى غيبة الإيمان بتعرضه لغزوات الشك فى نفسه ، والشك هو التحير فى الجواب عما يتوهمه العاجز من الأسئلة المتضاربة ، ومن الشك تنشأ (الفلسفة) ومن الفلسفة تنشأ الظنون التى تسوقه إلى حب الحياة فيخاف أن يفقدها ، ولا يموت فى سبيل تكريمها .. أو تقوده إلى رفض الحياة فيموت بها وهو قاعد فى يأسه يعلن عن رفضها ..

عرفت جميع الشعوب غير العرب تهاويل الخوف الذى حل فى قلبها محل ما كان لها فى البداوة من قوة الاطمئنان ، ولذلك تألف تاريخها من الأساطير والفواجع التى تعبر عن مخاوفها العقلية والنفسية والبدنية .. وقد خلا من ذلك تاريخ العرب حيث اقتصر على ما حفظوه من أخبار من يعرفونهم واحداً بعد آخر من آبائهم وأهلهم ، وما قاموا به فى ماضيهم من أعمال متماثلة تم بها كسب النصر بالكفاح المستمر على الضعف والخوف ، والذل والفقر . وهذا التماثل المستمر فى تحقيق هذا الانتصار هو دليل الاطمئنان للخير المتحقق

فى أعمالهم ، وآية السلوك الفطرى المتدفق فى طرائق حياتهم التى يسيرون فى حل مشاكلها مع تنوعها على (سنة واحدة) أوحاها الخالق سبحانه فى الناس ، كما دبر هو أمر هذا الخلق مع تنوع أشكاله وأحواله على (سنة واحدة) فطر عليها كل شىء .

عرف الهنود الخوف من الحياة فى أكبر مدرسة لوثنية الرفض ، وهى هذه الطبيعة المخضرة المطيرة ، المتطرفة فى جبروت الثراء والخصب . فكان من كتبهم فى فلسفة الخوف ، ودين التراجع ، وحياة الانقباض الصوفى (الفيدا) و (البراهمانا)و (اليوبانشاد) والأخيران شرح متناقض متناسخ للمتن الأول ثم (الفيدانتا) .. وهى خاتمة (الفيدا) ... وفيها تبلغ فلسفة الهند أقصى غايات التصوف ، ونهايات الرفض، إذ هى شروح لمذهب (وحدة الوجود) الذى يحط المتصوفون رحالهم عنده حتى لا يعملوا عملا ما . وذلك حيث يتوهمون أن الروح الأعلى (برهمن) هو والنفس الإنسانية شىء واحد ، وما دام الأمر كذلك فلم السعى إلى (برهمن) .. الذى هو الله عندهم .. إذا كان برهمن قد حل فى الإنسان .. ؟؟

وأكبر ما تظهر آثار الخوف فى وثنية الهنود فى حياة (بوذا) المسمى (جوتاما) والمولود فى (بنارس) سنة ٥٦٨ ق .م. وهو زعيم أكبر الوثنيات فى الشرق الأقصى . فتعاليم هذا الصوفى القديم نشأت — برغم تعقداتها الكثيرة — على أبسط بسائط الخوف . فالدافع الأول إلى البوذية فى نفس (جوتاما) هو الخوف من الفناء ، والفزع من ألم الموت .. إن كل تراتيل بوذا كانت جولة رجعية رفضية خائرة للفرار من اقتران الحياة بالعمل ، واقتران العمل بالألم ، ثم انتهاء ألم الإنسان كما تصور هو وأمثاله إلى الموت المروع . إن الآمال والمطامع كما رآها بوذا محصنة بالحراب السامة ، والطريق إليها على شوك القتاد. وهذه الحياة النضرة المتفتحة عن الشذى والنشوة مصيرها إلى الذبول والتراب . ومصير الفتيان والفتيات الجميلات إلى القبر تلتهمهم الديدان ، فلو لم تكن

الحياة منتهية إلى الموت .. إذن .. إذن ماذا ؟؟ وكأن بوذا لم يمت شر ميتة منذ استولى عليه هذا الفزع ، ومنذ انحدرت به تأملاته إلى هاوية هذا العجز المطلق ، حيث استقرت نفسه القلقة المرتعدة على حضيض (النرفانا) كما سماها ، وهى حالة تلاشى الشخصية الذاتية ، وتلاشى الحياة معها . وقد سمى بوذا ذلك الحضيض «نعيما» لأنه استراح عنده فترة حياته بين نشوة اليأس ، وسكرة الموت .

وكذلك تظهر آثار الخوف المخامر ، وتقوض الاطمئنان النفسى فى حياة فارس منذ فجر تاريخها . وأكبر ظهور ذلك فى كتاب بوذاها (زرادشت) واسم كتابه (الأفستا) وفيه يتجلى الخوف فى صورة جديدة . فهو يتولد من صراع ثنائى دائم فى هذه الحياة بين الخير والشر ، والنور والظلام . وفى تعاليم زرادشت تظهر بعض الحلول لمخاوف بوذا فى الهند من هذا (الشر المستطير) الذى يتجسم عند هولاء الوثنيين جميعاً فى (الموت) . فينصح زرادشت بطرح الهموم ، والانطراح فى عباب اللذات . وقد جاء عمر الخيام فجعل حياته العاهرة تفسيراً لهذه النصيحة . وكذلك يجعل زرادشت بخضوع الأدنى للأعلى من لباب الحكمة ، وبذلك يسيطر الخير عنده : وهو الملك والغنى والمال ، على الشر وهو الشقاء والفقر والعوز . . وقد قامت العروش الكسروية فعلا على دعائم هذه النصيحة، وامتلأت اللغة الفارسية بعبارات التفخيم المزرية، وألقاب التقديس التى تتجاوز معظم ألفاظها إلى معنى مشترك فيها وهو الحمق ..

وفى اليونان تظهر القصص الشكوكية ، والميثولوجيا اللاهوتية التى أساسها كذلك (الخوف) من عناصر الحياة فى نطاق واسع ، وبناء دقيق . وذلك مما أسعفت به طبيعة بلاد اليونان من التوسع فى صناعة هذه الأوهام وتركيزها ؛ كان اليونانيون — أتراب الكنعانيين العرب فى فلسطين — شعباً تجارياً ، فعتقوا أساطيرهم ، وأحسنوا عرضها وتعبئتها ، وجعلوا منها أقوى وأقدم إعلان عن تجارتهم القومية فى الخمر واللغو والفلسفة ...!!

ظهرت مخاوف اليونانيين من الموت بعد أن استكملوا أسباب متاعبهم ، بالميثولوجيا والدراما ، وخدعوا أوربا وراءهم...

كانت حياة اليونانيين على الجبال شقية مضنية، ولكنهم تغلبوا عليها قبل أن ينفضوا قشرة بداوتهم ، وذاقوا بالتغلب لذة الانتصار . فالأساطير والآلهة وفنون التمثيل التي لجأوا إليها هي ثمرة تطلع هؤلاء المنتصرين من فوق جبال البلقان إلى تلك المخاوف المطوية في السحاب الملون ، والتي تتراءى لهم وراء لجج البحر العجيب ، ثم تسمو فوق رؤوسهم سموا بعيداً هادئا نحو السماء حتى تستوعب شعورهم فيما هو أقوى منهم ، وتتركهم لتهيآت النشوة والخوف والرجاء .

صنع اليوناني لآلهته أباً كبيراً يسوسها . وجعل للشمس وللبحر وللريح آلهة .. بل جعل لأصحاب الحرف آلهة مثل (هنيستوس) إله الحدادين . وجعل للنزعات النفسية آلهة مثل (إيريس) الإلاهة الشقاق . وبذلك استطاع اليونانيون أن يحتالوا على مشكلة الخوف بكثرة عدد الآلهة ، وتعدد صناعاتها ، فلا يكاد اليوناني يتعب في أن يجد بارقة الرجاء عند واحد منها ، أو يصل إلى أمله بأن يستعدي بعضها على الآخر في سبيل زوال خوفه ، واتصال لذاته ..

ففي الحد الفاصل بين الشرق والغرب ، أقام اليونانيون على أساطيرهم فناً جديداً من فنون التعويض الصوفية ، التي تؤدي إلى الترفيه عن الشعوب في أزماتها الاقتصادية أو النفسية أو التدينية . ونعني بذلك فن (التمثيل) وقد قسموا هذا الفن تقسيما ثنائياً بحسب طباع البشر من طلب الحزن والسرور : أما القسم الأول فهو (التراجيديا) أي القصص ذوات الحوادث الفاجعة . وقد اشتهر بتأليفها (اسخيلوس) و(سوفوكليس) و (يوريبيديس) وأما القسم الآخر فهو (الكوميديا) وهي القصص التي تقوم على النقد السياسي الماجن أو على إضحاك الجماهير على أنفسها كما يحدث الآن تماماً . وقد اشتهر في هذا النوع (أرستوفان) و (مناندر) وكانت حفلات التراجيدي تقام في الشتاء مع جفاف العنب الذي هو حياة اليونان . أما حفلات الكوميدي فموسمها

فى الربيع مع موسم الخمر التى هى مصدر فنونهم وفلسفاتهم ، ولها معبود عندهم الهو (باخوس) أو (ديونيسيوس) المدلل صاحب الأعياد الشعبية ، والأفراح العامة .

وفى مصر القديمة كان ذعر الفراعنة والأغنياء من الموت ، وذعر الفقراء من الفراعنة والأغنياء هما مدار هذه الخرافات التى عاش بها شعبنا المصرى العربى الأصيل المتجدد الأطوار فى الصبر والأمل . فالفراعنة الذين مسخوا الدين الحق الذى حملوه معهم من جزيرة العرب إلى وادى النيل حلوا مشكلة الفزع من الموت ، والرهبة من القبر ، والجشع إلى مواصلة الطعام والخمر واللذات بأن شادوا الأهرامات حول جثثهم على ظهر الأرض ، وحفروا لها الحصون فى باطنها ، وملأوا أجسامهم بالحنوط ، وقبورهم بالتعاويذ والأطعمة والأموال ، وجعلوا من هذه الأهرامات والمقابر أساطير جامدة تتاو على الناس عبر القرون آية فزع الطغاة ، وجزع الأغنياء ، وكذب المتألهين ...

أما الفقراء من الفلاحين والحرفيين الذين عصفت بهم الريح عن ظهر الأرض فقد كانت سلواهم فى عجائب الكهانة ، وفى السحر الذى قصدوا به إلى محاولة استرداد ما سرقه الأغنياء منهم بالطريق الذى يلجأ إليه المستضعفون ولقد ظهرت آثار هذه المحاولات الخائبة فى كثير من الأساطير الفرعونية القديمة مثل أسطورة (رامسينيت واللص) التى رواها (هيرودوت) وهى تدور حول عجائب المحاولات التى يسعى بها اللص الصغير إلى سرقة سيدة اللص الكبير .. أى اللص الملك الذى كان يبرر مسروقاته ويضع خاتمه عليها بأنه .. ابن الآلهة.

إن هذه القصة وأمثالها كثير تمثل هذا الحجر السرى الذى يدور فى ظهر تاريخ مصر القديمة ليكشف عن سرها فى عصرنا الحديث مع الكثير من هذه الأساطير فى التاريخ القديم التى لم تنقطع عن الجريان حتى العصور الأخيرة وإن تغيرت اللغات والاعتبارات والمظاهر . فالفزع من الموت هو هو .. واتقاء الحياة بالحيل الفلسفية ، والغيبوبة الصوفية ما زال مسيطراً على أرض

الحضارات الوثنية المسرعة نحو الخراب . ففوق أطلال البوذية فى الشرق ، واليونانية فى الغرب تنشأ إلى اليوم طبقات وثنية متشابهة ، ومعتقدات الحادية ، وخرافات علمية ، وأدوات مهلكة تطحن الجميع ، وتخدع الجميع ،وتحرض الجميع على اليأس من الجميع ، أو العدوان على الجميع ، وهم يتوجعون ألماً ، ويتضورون إلى الإيمان جوعاً،وهو أقرب إليهم من أنفسهم .. ولكنهم لا يصدقون .. ولا يؤمنون .

٨ — التشابه والتشاكل : وأما التشابه التام فى الطباع والزى والقسمات بين العرب — وهو أحد مظاهر الاطمئنان النفسى — فنستدل عليه من أخبارهم وأشعارهم . والبداية فى ظواهر المشابهة تتجلى فى تداعيهم للمشاركة فى السراء والضراء . فاذا حزن أحد فى الحى حزن له الجميع . ودليل ذلك أنهم يهبون لدفع الأذى عنه ، أو للثأر له بحياتهم ، ويضعون كل ما يملكون فداء لإذهاب حزنه . وإذا فرح أحدهم بخير جاءه ، أو مجد أصابه تجمع قرناوه من حوله وفاخروا به ، واعتبروا المجد لهم . وقد عرفت حياة الحب العائلى فى أحياء العرب كثيراً من الصور الإنسانية لهذه المشاركة الاجتماعية الفريدة فى العالم . فمن ذلك من نسمعه يقول لإخوانه قبيل رحيل الحى الذى به الأحباب :

دعا داعيا بين فمن كان باكيـا — معى من فراق الحى فليأتنى غدا
لتبك غرانيـق الشـباب فاننى — أخال غدا من فرقة الحى موعدا

ونجد المحزون يستعير الدمع من أخلائه ليجعل حزنه على صاحبه خالدا فيعيرونه أدمعهم فى مثل قول الشاعر :

خليـلى إلا تبكيـا لى أستعن — خليلا إذا أفنيت دمعى بكى ليا

ونرى من نظام المشاركة أن الأحياء والقبائل إذا رأت البكاء على قتلاها بعد المواقع التى تذهب بالأعزة والسادة أذنت به للجميع أو منعته عن الجميع : تجلدا وصبرا حتى تنهى الحرب . كما حدث فى يوم بدر بين قريش والأنصار .

وكان العرب لقوة التشابه بينهم أسرع إلى الحزن للفقد ، وخاصة بعد

الفراغ من مهمة الثأر . وكثيراً ما شغل الحزن أنفس الفاقدين منهم حتى عذلهم الناس،وذهبوا وراء المفقودين من إخوانهم. فمن هؤلاء متمم بن نويره فى قوله يرثى أخاه مالكا :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيتـــه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك ؟
فقلت له إن الشجا يبعث الشجـا فدعنى فهذا كله قبر مالك !!

وكان العرب — لقوة المشابهة — لا يجدون الوطن إلا فى الأحباب والأخلاء والأخلاق . فليس الوطن أرضاً محبوبة لذاتها إلا لأنها المكان العزيز حيث يستطيع المرء أن يجد الحياة بأهله وأحبابه نقية من الضيم والكدر ... وفى ذلك يقول إياس بن قبيصة الطائى :

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة فهل تعجزنى بقعة من بقاعها .؟

ويقول الشاعر :

وما حبِ الديـــار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديـــارا

ويقُول غيره :

وحبذا حين تمسى الريح باردة وادى أشى وفتيان به هضم

ويقول غيره :

أحب الأرض تسكنها سـليمى وإن كانت توارثها الجـــدوب
وما دهرى بحب تـــراب أرض ولـكن من يحل بها حبيب ؟

على أن أقوى وأنصع ما يظهر فيه تشابه العرب ما يقوم عليه الشبه الشديد بين أفراد كل قبيلة ، حتى لكأنهم صبوا فى قالب واحد . وما ذلك إلا لأنهم أبناء رجل واحد ، وغاية وحركة واحدة ، وكأنهم فى صلاة دائمة يندفعون فيها صفوفاً متراصة نحو الحق .. ونحو الله .

ففى كل عهد تعرف القبائل شبهاً واحد لأبنائها ، حتى ليعرف العربى الرجل عن بعد من أى قبيلة هو بمشيته وحركته وأوصافه . وتمتلىء أخبار أيام

العرب بهذه الشواهد الذى نذكر منها أن بنى عامر فى يوم التناءة أرسلت رجلا على قمة الجبل يستطلع لها أخبار العدو فقال وهو ينظر : أرى قوماً كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم ، قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى قوماً بيضاً جعاداً كأن عليهم ثياباً حمرا ، قالوا : تلك أشجع . قال : وأرى قوماً نسوراً قد علوا خيولهم ، آخذين بعوامل رماحهم يجرونها . قالوا : تلك عبس ، أتاكم الموت الزؤام .

وما زالت القبائل العربية إلى اليوم تجرى على شبه واحد فى أبنائها تعرف به ، ووسم ثابت تتخذه لإبلها وماشيتها . وما يتغير ذلك كثيراً أجيالا بعد أجيال

وأما قوة التشابه فى ظاهرته الأدبية واللغوية فنلمسه فى تميز الشعر العربى بالخطاب . فهو ليس حديثاً عن الغائبين ، أو من يتخيلهم خيال الشاعر من الناس ، ولكنه حديث الرجل إلى من جمعتهم إليه وحدة الحياة ، وقوة الروابط والمشابهة فى الطباع . فتجد القصائد تبدأ دائماً بمثل (سائلوا عنا ..) و (أبلغ فلانا ..) و (لعمر أبيك ..) .

على أن أقوى ما تكون عليه هذه الظاهرة ما اعتاده الغرب من أن يتحدث المتحدث منهم عن نفسه فيوجه خطابه إلى اثنين ينادیهما من خلانه أو ينتزعهما من نفسه . فكأنه بذلك لا يعيش بطبعه إلا (فى جماعة) وإن انفرد فى بعض المواقف أو البقاع . والشعر العربى كله موكب حافل بنداء الخليلين ومخاطبتهما بهذه القوة الخارقة فى محاسبة النفس بين الناس ، وامتلاكها زمام انسانيتها ، وارتباط ضميرها فى الفرد بشعور الجماعة المتشابهة الأفراد والطباع والهدف . ولقد ظهرت هاتان الشخصيتان معاً فى الإسلام فى صورة الرقيبين العتيدين الكاتبين على يمين الإنسان وشماله فى قوله تعالى فى الآية الكريمة (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد) ١٧ : ق .

يقول امرؤ القيس فى معلقته :

قفـا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ..

ويقول الحارث بن عباد :

قربـا مربط النعامـة منى   ليس قولى يراد لـكن فعالى

ويقول الصمة بن عبد الله :

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى   وقل لنجد عندنا ان يودعـا

وأما المساواة الدالة على قوة التشابه بين العرب فأمرها أوضح من أن يحتاج إلى دليل . على أنه قد تحسن الإشارة فى هذا إلى أن العرب بين شعوب العالم لم يعرفوا نظام (الطبقات) ولا (الألقاب) ولا قرابين (الاكليروس) التى كان يدفعها سواد العامة وأغنياء الأمم الوثنية القديمة إلى كهنة الهياكل .. وأعتاب الملوك المتألهين .

فالعربى يبدأ شعوره بالمساواة بأن ما فى يده له شركاء من أهله فيه حتى يتساوى بهم ، وطبيعته فى ذلك خلال عصور طويلة — لم تذهب بقاياها إلى اليوم — هى العطاء دائماً على أن الفضل لمن يأخذ مثله لمن يعطى ، فتلك هى دورة الحق والفضل بين الأخوة على الحق والفضل .

ومن دلائل هذه المساواة عن وعى وطبيعة أن أكثر العرب تعرضاً للمؤاخذه والنقد هم أفضلهم عملا وأقدرهم سعياً ، وأكثرهم جوداً . بينما كان المظنون أن تكون هذه الفضائل فى حكمائهم وأجوادهم سبباً لتميزهم .. إنهم لم يتميزوا على أحد إلا بقدرتهم على أن يضعوا هذا التميز بالفضل فى إصلاح ذويهم ، وإعزاز جماعتهم ، والحفاظ على دارهم وأمنهم وحريتهم ، والتقبل للحمد بغير من ، وللنقد بغير غرور ..

ومن أركان هذه المساواة أن فضائلهم كما رأينا ليست من آثار التعلم والكسب وحدها بل هى من حقائق الفطرة والطبع التى كشفت عنها مبادرات الحياة والسعى بغير تردد أو رهبة أو نكوص . وربما كان من أبلغ صور هذه

المساواة التى تجعل الفضل للأدنى بمقياس العيش ، أن أعلم العرب باللغة ، وأفصحهم بلسانها ، وأحفظهم للتاريخ والأنساب هو هذا (الأعرابى) الذى يرجع إليه عرب القرى .. أو يستمع إليه وفود الحج .. أو يرحل إليه — كما فعل بعض علماء المسلمين الأعاجم ليتعلموا اللغة ، ويجمعوا الأخبار ، ويستنشدوا الشعر .. ويتأدبوا بأدب هذا الإنسان الذى اغترب عنهم وراء فضائل حريته ، وحقائق فطرته .. الإنسان الذى كملت به اللغة فى الجزيرة ، وانتصر به الدين فيما حولها

* * *

وقام البيت العربي على العفاف والتراحم

وبالكلام عن فطرة البدن السليم والمناخ الملائم لنشأة النفس المطمئنة فى حياة العرب فى عصور ما قبل الإسلام ، ينفتح الكلام عن قيام (البيت العربى) الذى تنشأ فيه الأسرة العربية ، وتتوثق روابطها ، وتتأصل أخلاقها وشرائعها وغاياتها فى عباب هذا الاتحاد الطبيعى والملائم والمتطهر بين الأبدان السليمة والأنفس السوية ، حيث تتخلق بزواج الأفراد المتكافئين من الرجال والنساء هذه اللبنة القوية والصحيحة فى جسم المجتمع القبلى ، الذى كان أساس وقاعدة الشعب العربى .

بهذا الاتحاد الذى يباركه نقاء عناصره ، ويهديه طريقه وضوح غايته ، تتسابق البيوت العربية فى مضاربها ، كالطيور المهاجرة دواما إلى أشرف غاياتها وهى (نجابة الذرية) أو بلغة القرآن الكريم (الذرية الصالحة) .

إلى هذه النجابة فى الأبناء ، ونحو هذه الذرية الطيبة المستكملة قابليات الحياة الكريمة ، وكل القدرات البدنية والنفسية والعقلية الدافعة إليها ، والمساعدة على احتمال أعبائها ، وبلوغ أقصى الممكن من فضائلها ومآثرها — تتسابق هذه البيوت العربية فى بدائها متحصنة بحصن هو العفاف ، وجاهدة على مطية هى العمل ، وآمنة إلى دليل هو الصدق .

أما العفاف فكانت له فى بناء البيت العربى قبل الإسلام ومع ظهور الإسلام ظاهرتان متلازمتان : الأولى حسية وقائية هى (الحجاب) والأخرى نفسية إيجابية وهى التبدى للحرية والإخلاص لها باعتناق الرحلة الدائمة . فالعرب لم يجدوا لحماية أعراضهم ، وصون حرماتهم خيراً من الرحلة المستمرة وراء المكان العزيز . وقد أمنوا بذلك شر ما فى التبلد من وهن العزائم ، وضعف الشكيمة ، واستخذاء الأنفس ، وتقاصر الهمم ، واحتمال صغائر الأمور توطئة لكبارها .

ولقد عرف العرب بفطرتهم أن الحجاب هو (الستر) الذى يحجز ما بين رجل وامرأة صالحين بدنياً ونفسياً للنسل . وجعلوا هذا الستر حماية لحقوق الآباء والأبناء والأزواج فى نسائهم . ولم يتفيهقوا فى تحديد حدود هذا الستر لأنهم يعرفون الغاية منه ، ولذلك لم يأت تفصيل له فى القرآن كما جاء لبعض الشعائر والشرائع مثل الحج والميراث . فقبل الإسلام كان الحجاب ثلاثة :

١ — حجاب حسى يستر وجه المرأة وهو القناع ، وحجاب لغوى يستر صفاتها فى أحاديث الرجال ، فيكنون عنها بأم فلان ، أو بالسرحة والمزنة وغيرهما فى الشعر .

٢ — حجاب نفسى يقوم بين جميع الرجال وجميع النساء عند الملمات والحروب العامة . فلاتجد المرأة بأساً من أن تسفر بوجهها بين الرجال تحمسهم بالشعر وفواصل الكلم ، وتأسو الجراح وتحمل الماء . وبينهم وبينها حجاب من التفات الجميع للنصر فى الحرب أو الموت . وقد علم الأعاجم من أخبار النساء فى الإسلام شيئاً من ذلك السفور (المحجب) فى الحروب الإسلامية فاعتبروه جهلا جوازاً للسفور على الإطلاق . هذا مع ملاحظة أن حرب العرب تشترك فيها النساء بالضرورة لأن القبائل تتحرك بنسائها معها سواء فى الحرب أو السلم ، على غير ذلك فى حياة الحضر .

٣ — حجاب السن ، فحيث لا تكون الفتنة لا يكون داع للحجاب .. وبذلك ظهرت بعض النساء محتشمات يحدثن الرجال . وكانت تسمى الواحدة منهن (برزة) وهى المسنة الفاضلة الوقور التى تبرز لتتحدث بما ينفع ، وتكف عما يشين .

يقول النابغة الذبيانى وفيه ذكر الحجاب قبل الإسلام :

سقط (النصيف) ولم ترد اسقاطه　　　فتناولته : واتقتنـــا باليـــد

ويقول الشاعر قيس السلولى فى لقاء ابنة عمه وهى محجبة :

فقلت لها (يانعم) حلى محلنـــا　　　فان الهوى يا نعم والعيش جامع

فقالت وعيناها تفيضان عبرة　　　بأهلى بين لى متى أنت راجع

فقلت لها تالله يدرى مسافر إذا أضمرته الأرض ما الله صانع
فشدت على فيها (اللثام) وأعرضت وأمعن بالكحل السحيق المدامع

ومن أعظم شواهد الحجاب أن المرأة العربية تدرى أنها مضمرة فى حياة زوجها ، محجوبة فى حمى فضائله ، فاذا مات انكشفت ولو هى مقنعة .. وفى ذلك تقول إحدى نساء بنى نهد — وقد قتل زوجها :

أضحت فتاة بنى نهد (علانية) وبعلها بين أيدى القـــوم محتمل

ويظهر الحجاب فى حياة العرب قبل الإسلام فى أقوال الشعراء عن نسائهم اللائى يسفرن عند ملمات الحزن ، وفى الحروب ، وفى هذا المعنى يقول الربيع بن الزياد بعد مقتل مالك بن زهير :

من مثله تمسى النساء (حواسرا) وتقوم معولة مع الأسحـــار
قد كن يخبأن الوجـــوه تسترا فاليوم حين برزن للنظـــار
يضربن حر وجوهن على فتى عف الشمائل طيب الأخبـــار

وتقول إحدى النساء فى مصاب نزل بعشيرتها :

وقفت فأبكتنى بدار عشيرتى على رزئهن الباكيات الحواسر

وتقول هند بنت النعمان تصف صاحبتها صفية الشيبانية وقد سفرت فى الحرب بين قومها وبين جيش كسرى ، وهى تحرض فرسان شيبان :

المجد والشرف الجسيم الأرفـع لصفية فى قومها يتوقـــع
ذات الحجاب لغير يوم كريهة ولدى الهياج يحل عنهـــا البرقع

انتظم البيت العربى فى سننه وتقاليده لينجب الأحرار الكملة فــكان الاصطفاء عماده . وجرت القبائل على سنة التكافؤ ، فلم تكن تبيح نساءها لغير الأكفاء . وكان للعرب عدا هذا الأخدود الواسع بينها وبين العجم سننهم فى مراعاة الكفاية بين القبائل وبين الأفراد بحسب كفاءة العمل والمكارم ، لا مجد المال والعدد .

ولذلك لم تعرف أمة من الأمم ما عرفه العرب من إكرام نسائهم ،

والإشادة بذكر المنجبات منهن . وقد سميت إحدى هؤلاء المنجبات فى العرب (أم الكملة) وهم أربعة لم تكن تدرى لتشابههم فى الفضل أيهم أفضل فكانت تقول (إنهم كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها) وكان الرجل الذى يفخر بأبيه يلزمه أن لا يجد ما يعيبه فى أمه لتصح نجابته . وللخال عند العرب من التقدير ما جعله متكافئاً مع العم فى موضع السؤال عن الرجل . وكان بعض سادة العرب لذلك يفخرون بأمهاتهم عند مواقف الفخر ، كما فخر معاوية بأمه التى أنجبته فى قوله كثيراً (أنا ابن هند) .

قلنا إن هدف البيت العربى هو نجابة الذرية ، وهو لا يكون إلا هدف الأمة التى عرفت غايتها ، وحددت طريقها ، فأخذت تجند خيار أبنائها له . وقلنا إن حصن هذا البيت هو العفاف : وليد التقى والحجاب : فلننظر فى هذا العفاف وما فيه من الحصانة وأثر ذلك على الأمومة الصالحة التى أحيت بها المرأة العربية مثال المرأة الكريمة فى العالم .

إننا إذا تتبعنا مدلول عفاف الأم فى تربية الطفل وجدناه الدافع الأقوى فى حياتها لتحقيق الأغراض الآتية :

(١) تربية عقل الطفل ...

(٢) تربية وتنمية فضائله ...

(٣) تعريفه بحقوق عشيرته وأهله عليه ...

العفة والعقل : فالعفة فى الأم تجعلها أصدق ما تكون لساناً وعملا . ذلك أنها فى حجاب العفة تكون أقرب إلى فهم طبيعتها ، وإدراك سر وجودها . والنتيجة أنه إذا ما صدقت الأم فى كافة أعمالها وأقوالها ومشاعرها صدق الطفل، لأنه يرضع منها لبان حياته واتجاهاته . وإذا ما صدق الطفل تهيأ له أن يجمع مواد عقله من أصح المصادر ، وأن يتناول حقائق الحياة فى أوجز الصور وأقومها . وبتوفر المعقولات الصحيحة لليافع تتم نشأة العقل السليم

الذى يكون حصنه الحصين فى مفاجآت الشباب ، وملمات الرجولة، وتصاريف الكهولة .

العفة والأخلاق : والعفة فى الأم تجعلها رمزاً لفضائل زوجها الذى تزوجته على التكافوء مع فضائلها ، ذلك لأنها باستقامة فطرتها تحب له أن يكافح ولو لم يدرك بغيته . وتحب له رسوخ القدم فى المكارم لأنها ارتبطت به ، فأصبح ما يصيبها من حسن السمعة وشرف المسلك متعلقاً بما يصيبه . وهى تحب له الغيرة على حرماته والذود عن حياضه لأن فخرها وعزها وحياتها أصبحت رهناً بهذه الغيرة والحماسة من رجل استودعها سره فاستودعته علانيتها .

فالعفة إذن فى الأم تجعل من حياتها دافعاً لتنمية فضائل أبنائها وبناتها ، لأنها ملكت بالعفة ناصية فضائلها ، فأصبحت قادرة على نفع أبنائها ، وراغبة فى هذا النفع بقدر ما فى تركيب الأمومة من جود وإيثار وبذل .

العفة والعصبية : وأهم من ذلك فان العفة فى الأم تجعلها قوية الاستناد إلى الأصل الذى تفرعت عليه طهارتها وهو أصل آبائها وأخواتها وعشيرتها . فالعفيفة لا تستمد العفة من زوجها قبل ، وإنما تدخل بيت الزوجية غنية بالعفاف من غرس آبائها . فاذا ما صانها الزوج أنست إليه بقدر ما يسبغ على بيتها الجديد من تلك الحياة العفيفة التى كانت فيها . وإذا لم يصنها فزعت منه إلى أهلها وحماتها ، ووجدت درعها فيمن لايخذلونها من قومها،فالعفة إذن هى لباب العصبية الاجتماعية، وإنها لأزهى الثمر فى شجرتها، ولذلك كانت أقوى صلات المرأة العربية وأعمقها جذوراً بأهلها لا ببعلها . لأنها لا تقوم فى بيت زوجها بغير شرف أحسابهم ،وعزهم فى منازلهم ، كما أنهم لا يرفعون الرؤوس فى ربوعهم إلا ومن ورائهم سياج حصانتها وعفتها فى بيت بعلها . ولقد كانت المرأة العربية إذا تعارضت مصالح أهلها بمصالح زوجها فضلت الأولى من غير تردد . و ما كان ذلك منها تهاوناً أو تفريطاً ، فكثيراً ما كانت تحمل من ذلك ما تنهد منه القوى ، ولكنها تفعل ذلك انعطافاً على أصلها الطيب ، وحناناً منها لمنبتها الأول ، ووفاء لمن غرسوا فضائلها ، وشادوا

عزها ، ومن لا تزال تحمل أسماءهم وتنتمى عند الشدائد إليهم ..

ولقد ترك شاعرات العرب ديواناً زاهياً فما وجدنا فيه إلا الأقل من رثاء زوجة لزوجها ، بينما وقف النساء جميعاً يبكين أصول المكارم فى إخوتهن وآبائهن . وإن للأخلاق الكريمة من الصولة فى ذلك الشعر الفاخر ما تتصاغر تحت مواطئه مكارم الأكرمين من أولئك الرجال الذين لم يكن لهم نصيب النشأة الصالحة فى ظل أمثالهن .. وهكذا كانت هذه المرأة العفيفة بفطرتها تستقبل قبلة عشيرتها إذا ضيمت فاعتزت ، أو فقدت فبكت وأنشدت . فأى نماء يكون بعد ذلك لحب العشيرة فى قلوب الأبناء فى ظل هؤلاء العفيفات الطاهرات . إن هذا الحب للعشيرة لينمو فارعاً مع عفاف الأمهات حتى يبلغ ما نجد عليه بناء هذه الألفة العظيمة ، والإيثار البالغ بين أبناء القبائل العربية : كل قبيلة على حدة ، ثم كل حلف من القبائل معاً ، ثم ألفة العرب جميعاً كلما رأب الإسلام صدوع منافساتهم ، ومسح عن قلوبهم بقايا حزازاتهم ، وأزال الحزن والبغضاء وكيد الأعداء بينهم .

هذه الأمومة الصالحة العفيفة التى يترعرع فى تربتها العقل السليم ، وتزدهر عليها شجرة الفضائل ، وتمتد فوقها الظلال الوارفة للعصبية الرشيدة هى التى وضعت جنة الرجال الطيبين تحت أقدام الأمهات الطيبات . وربطت مصير الأمة بتخير النطف للأبناء وذلك بتخير الأمهات الصالحات لهم . ولقد كانت هذه الأمومة الصالحة فى أكمل أوضاعها وأشمل معانيها من نصيب العربيات منذ كن أمهات الأنبياء ، وإلى ما شاء الله ..

يقول أنيف النبهانى الطائى فى عزة قومه بالأمومة الصالحة المنجبة :

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم ... بنو ناتق كانت كثيراً عيالها

العفة والجمال : أما أثر العفة فى الجمال فقد بلغ بالعربية غاية جمال المرأة فى النفس واللسان والبدن . أما جمال النفس فقد نشأ من يقظة طبائعها وعواطفها لما خلقت له . فالعربية أم ، ومن أجل الأمومة الصالحة يقع عليها الاختيار من غراس الأصول الكريمة . ولذلك هى تدخل بيت الزوجية مطمئنة

إلى موضعها، معتزة على زوجها بعشيرتها . وتعلم أن زوجها وأهله سينظرون إلى خلائقها قبل قسماتها ، وتعلم أن فضل ما فيها أو عيبه مردود إلى أهلها. فاذا سكنت إلى كريم خلائقها فقد شملتها الطمأنينة ، وتنفست فى بيتها الهناءة . وإنها لتنظر إلى زوجها وأهله بالعين التى ينظرون بها إليها ، فهى من الحرص على نجابة ولدها بمثل ما يجدون من ذلك . فاذا أنكرت شيئاً من البعل أو الأهل أو أنكروا منها شيئاً لم يكن أيسر من إصلاح العلاقة بقطعها .. ورجعت المرأة إلى أهلها عزيزة تلوذ بهم كما كانت .

لئن كانت قوة الجمال الظاهر للحواس فى كونه ظهور حكمة الخالق على أجسام المخلوقات فان قوة الجمال فى النفس هى كذلك فى كونها ظهور حكمة الخالق فى خلق الإنسان كله ، وذلك بتفجر منابع الفطرة فى أعماله وكلماته فتتفجر منها البساطة والاطمئنان والفصاحة والإقبال والإيناس . ويتجلى ذلك فى نفس المرأة عندما تتوهج بمشاعر الأمومة فتعلم أنها شريكة الرجل فى فخر عظيم هو إيجاد الولد الصالح لقومه ولهما . وهذه وحدها هى الحالة التى تصح فيها الشركة المثمرة بين الزوجين . أما بين أكثر الأمم فتقوم العلاقات الزوجية — غالباً — على أساس (الاستغلال) فالزوج يطلب جسد المرأة وزينتها ، والمرأة تطلب مال الرجل ونشاطه ، ولذلك فانه كثيراً ما يحدث التغيير والتبديل والطمع فى عقد هذه الصفقة بحسب ضعف أحد الجانبين أو قوته . فالمرأة العربية التى عرفت وظيفتها وأنست إليها وتوارثتها من الأمهات المتشابهات والأجيال المتواترة ، ومن كفاح الحياة وحروب الأنفة وغارات المغالبة على الشرف والرزق — أصبحت فى رسوخ نفسها كجوهرة المنجم ، أو كنجمة السماء ، ثابتة فى صفاتها وخصائصها لا تتغير ، فهى تعطى الاطمئنان وتبعثه كالسراج من ذات نفسها الجميلة الغنية النقية ، لا مما حولها من زخارف الأثاث والثياب والرياش والزينة . . فلقد صار هذا الاطمئنان فيها طبيعة ، وصارت هى من مادته . وانها لذلك دائمة الدفاع والحض على غايات الحياة العربية ، فتبدأ حضانة الطفل بترقيصه ، بشعر من لسانها تربط فيه هدف الإبن بهدف العشرة ، فهى تصب فى أذنه إيحاء الانتقام والثأر لأبيه إن كان

ذلك شأنه . وهي تهزه في أرجوحته على شعر ناصع كالشمس، منعش كالنسيم ، يسمع فيه صوت المجد ، ويرى ضوءه وصورته . فهي تدفع بولدها وراء هدف العرب جميعاً ، إذ تعلمه من المكان الذي أصبح فيه بعد مولده كيف يكون عربياً . أي كيف يبدأ حياته بواجبات الرجل الحر العزيز ومسئولياته . هذا الولد كما عرفه الدهر ينشأ في أرجوحته على باب الخباء ، أو وراء ظهر أمه ، كما تنشأ العقيدة ، وكما يتجمع القدر : تملأه الرجولة المبكرة الحية ، وتفيض فيه الحياة أول ما تفيض بقوة خصال أبيه ، وجمال نفس أمه ، وصباحة شمس نهاره ، ونقاء نسيم حياته . ثم تنتظم نفسه مع هذا الجمال المتراكب بقوة جمال اللفظ وإيقاعه في هذه الأشعار المبينة الموجزة الصادقة التي تسقاها نفسه في بساطتها مع أطيب الغذاء الذي ينشأ به بدنه الصحيح ، وهو اللبن صغيراً ويافعاً وكبيراً .

إن هذا الطفل الناشيء لو تأملته هو الصدفة التي تنطوي على درة التوحيد . إنه واحد من آيات هذا المحيط الساكن من جمال النفس وجمال الأمومة العربية .. إنه العدو الذي تلده الصحراء لأعداء الله .. أولئك العدوانيون المتحذلقون الذين ينشأون في الظلام والجليد ، وفي تهاويل المخاوف بجانب المدافيء حيث تتضخم أذهانهم بقصص الطغاة والأشباح ، و أساطير الأطماع واللذائذ، وخرافات السحر والمصادفات .. وخطط الغزو لأرض العرب دائما.

المجد من المهد : والآن فلنذكر بعض نماذج من شعر الأمومة للمرأة العربية وهو شعر ترقيص الطفل بالهام المجد ، وإيحاء الحر مما لم يعهده ولم يسمعه غير العرب . ونبدأ بأرجوزة الشيماء في ترقيص محمد الكريم في بادية بني سعد :

يا ربنـــا أبق لنـــا محمـــدا   حتى أراه يافعاً وأمردا
ثم أراه سيدا مســـــودا   واكبت أعاديه معا والحسدا
وأعطه عزاً يدوم أبـــدا ...

وكانت أم الفضل بنت الحارث ترقص ولدها عبد الله بن العباس قبل الإسلام بقولها :

ثكلت نفسى وثكلت بكـــرى إن لم يسد (فهرا) وغير فهر
بالحسب الوافى وبذل الوفـــــر حتى يوارى فى ضريح القـــبر

وكانت (منفوسة) ابنة زبد الخيل ترقص ولدها من دريد ابن الصمة ، فتدعوه إلى التشبه بأبيه أو أخيها فى الفروسية والبطولة . وكانت ترى أباها (زيد الخيل) أضخم من أن يدركه ولدها الصمى ، فكانت تقول فى أعجب قول :

أشبه أخى أو اشبهن أبـاكا أما أبى .... فلن تنـال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا ؟؟

وفى تنشئة الولد على الثأر ماكانت ترقص به كنزة المنقرية ولدها (شملة) فى قولها :

فان بك ظنى صادق وهو صادق
بشملة يحبسهم بهـا محبساً أزلا
فياشمل شمر ، واطلب القوم بالذى
أصبت ، ولا تقبل قصاصاً ولا عقلا

وكانت هند بنت عتبة — زوج أبى سفيان : صخر بن حرب — ترقص ولدها معاوية بقولها :

إن بنى معـــــرق كريم محبب فى أهلـــــه رحيم
ليس بفحـــاش ولا لئيم ولا بطخرور ولا سـئوم
صخـــر بنى فهر به زعيم لا يخلف الظـــن ولا يخيم

وأما جمال اللسان فهو ترجمان جمال النفس ، ولم تعرف الدنيا أعذب لساناً من المرأة العربية ، وإذا ماكان عالم الوثنيات القديم والحديث قد وجد مسراته فى ملء البصر والكف من أجسام الراقصات العاريات المتحليات بالذهب والأغواء — وهن نجوم حياة الحضر .. وأقام الوثنيون لذلك صروح المراقص ، وحدائق المجون ، وأترعوا فى كل ذلك أنهار الخمر ، وصلصلوا

فيه من أيام الرومان بضوضاء الطبول المحرضة والزمور الباغية — فان العرب قد وجدوا فى لسان أعف النساء وأبسطهن من عذب الحديث ، وطيب الكلام ، وعفيف السمر أنساً معادلا لجليل مقدارهم ، وطهارة أنفسهم ، وشرف غايتهم فى هذه الحياة ...

يقول عنترة فى ابنة عمه عذبة الحديث :

وتحل عبلة بالجـــواء وأهلنـــا   بالحزن فالضمان فالمتثلم (١)
دار لآنسة (٢) غضيض طرفها   طوع العناق لذيذة المتبسم

ويقول الأعشى :

وإذا تنـــــازعك الحـــديـ   ـث ثنت وفى النفس ازوراره

ويقول خويلد بن خالد الهذلى :

وإن حديثاً منك لو تبذلينـــــه   جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

ويقول غيره فى صفات جامعة للجمال العربى ، ومنها عذوبة الحديث ، وإيناسه للنفس :

بيضاء ، آنسة الحديث كأنهـــا   قمر توسط جنح ليـــل مبرد

وأما جمال البدن فأوله ما يدل على نضارة العافية وإستكمال الصحة : وعلامة ذلك عبق الأنفاس ، وعذوبة الريق ، وطيب الفم . وليس أدل على الصحة من هذه العلامة التى لم يلتفت غير العرب إليها عند تحدثهم عن جمال النساء ...وأما آخر هذا الجمال ، وهو كأوله ، فما يدل على أهلية المرأة للإنجاب والإخصاب . وأما ما بين ذلك منه فما يدل على نشأتها فى النعمة والإعزاز ، فان النعمة للمرأة والخشونة للرجل هما من الجمال المتقابل فى حياة العرب المعتدلة الكاملة ..

أما عن طيب الفم وعذوبة الثنايا وسطوع الثغر — فاسمع قول سويد اليشكرى فى يدخمة شعره :

(١) الحزن والضمان والمتثلم أسماء مواضع .
(٢) عذبة : الحديث آنسة مؤنسة .

بسطت (رابعة) الحبل لنـــا فوصلنا الحبل منهـــا ما اتسع
حرة تجلو شتيتا واضحـــــا كشعاع الشمس فى الغيم سطع
أبيض اللــون لذيــذاً طعمـــه طيب الريق إذا الريق خـــدع
تمنح المرآة وجهـــاً واضحـــاً مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع

ويقول غيره :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت به جنبتا الجودى والليل دامس
فلما أقرته اللصاب تنفســـت شمال لأعلى مائه فهو قارس
بأطيب من فيها وماذقت طعمه(*) ولكننى فيما ترى العين فارس

وأما جمال الأنثى المخصبة ، وظهوره فى مقومات المرأة العربية فانما يدل عليه كمال نهوضها بوظيفتها الطبيعية وهى الأمومة . كما تدل عليه العافية فى نفسها وبدنها . وكما تدل عليه مقاييس المثل الكامل لجمال المرأة على لسان الشعراء الذين وصفوها بالاعتدال فى القوام والقامة. وكانوا يرون من محاسنها ظهور النعمة عليها لنفاسها عند أهلها أو بعلها ، وهى واثقة بنفسها ، خفرة عروب ، ليست جافة معروقة ، وإنما لدنة مورقة ، كالغصن المثمر الرطيب .
فالمرأة المتهيئة للحمل بتكوينها الجسدى الصالح للأمومة تصبو إلى النسل بيقظة غريزة الأمومة فيها ، وبذلك تأنس بنفسها وعاطفتها إلى البيت بخلاف غيرها .

عرفت البيداء نموذج الكمال فى جمال البدن للمرأة ، فليس فى جسدها فضول ، كما أنها لا تبذل من الجهد ما تضوى منه ، ولا تتعرض لما يتعرض له قرويات السواد من الآفات والأوبئة . فهى كالزهرة النادرة جادها الغيث على قدر كفايتها . فاذا ما استقرت فى بعض القرى ظهرت عليها من بوادر

(*) المعنى : ليس الماء النقى أمطره السحاب على جبل الجودى فاستقر فى بعض نواحيه ثم مرت عليه ريح الشمال حتى برد .. بأعذب من ريقها الذى عرفت له هذه الصفة بالفراسة

الراحة آثار تستلمح ما لم تتجاوز القدر . ومشاغل الحياة العربية فى رحيلها واستقرارها وأعباء المرأة فيها تمنع من هذا التجاوز .

يقول لبيد :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر

ويقول الشاعر العربى فى اعتدال القوام :

ومخملة باللحم من دون ثوبها تطول القصار والطوال تطولها

ويقول غيره فى معيار الجسم الجميل الخصيب :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

ويقول آخر :

« عقيلية » أما ملاث أزارها فدعص ، وأما خصرها فبتيل

ومن رائع دلالات الجمال فى تواؤم تكوين المرأة العربية قول الشاعر

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين : كف ومعصم

وأما ما بين ذلك من جمال النعمة ، ومظاهر الإعزاز ، فهو مما تبدو بواديه فيمن يتوفر لهن بعض الاستقرار ، وهن غير أولئك البدويات البعيدات عن كل فضول فى الزينة أو أوقات الراحة ونوم الضحى ..

فمن ذلك قول امرىء القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤم الضحى (*) لم تنتطق عن تفضل

وقول الشاعر :

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فادقها وأجلها

(*) العمل شريعة المرأة العربية : ابنة وزوجة وأما ، ولا يغنى حسب المرأة ونعمتها فى كفايتها إذا لم تكن تحسن عملا فى بيتها . ولم يكن عجيباً لذلك أن ابنة أوس بن حارثة من سادات العرب رفضت أن تتزوج الحارث بن عوف وهو نظير أبيها لأنها لم تكن تحسن عملا ، وبذلك أمنت أن تسىء إلى أهلها فى بيت بعلها ، أو أن تكسر شريعة العرب فى العمل ، ولم تفدها فى الكفاية للزواج رجاحة مزاياها الأخرى .

وأما أوصاف البدويات فقد ظهر جمالها من وراء آيات الطبيعة البسيطة القوية التى اتخذها الشعراء مثالا لهن .... فالمرأة سرحة ، ورملة ، ومزنة ، ومهاة عيناء ، ورئم ، وشادن ، وسحابة ، وقمر ... الخ .

أنظر إلى قول عمرو بن معد يكرب :

وبدت (لميس) كأنهـــا

قمر السماء إذا تبـــدى

وقول الشاعر :

تأملتها مغترة فكأنمـــا

رأيت بها من سنة البدر مطلعا

ويقول الشاعر فى وصف النساء بالبيض :

كالبيض فى الأدحى يلمع بالضحى

فالحسن حسن والنعـــيم نعـيم

وقول الشاعر فى وصف المرأة بالسرحة : أى الشجرة الباسقة :

وما لى من ذنب إليهم علمته — سوى أننى قد قلت ياسرحة اسلمى

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى — ثلاث تحيات وإن لم تكلمى

ويقول زهير فى وصف المرأة بالمهاة والدرة والظبية :

تنازعها المها شبها ودر النحور وشاكهت فيها الظبـــاء

على أننا فى مرجع الجمال الإنسانى نشير إلى أن أعظم صفات الجمال فى النساء قد وردت عند وصف الجنة فى القرآن الكريم ، وهى صفات عربية خالصة ، ومرجع ذلك إلى ما فى النشأة العربية من ازدهار الفطرة التى هى مصدر الكمال والجمال . انظر إلى قول الله فى وصف الحور بأعين وساع كأعين المها « وزوجناهم بحور عين » وقوله : فى وصفهن بالبيض (وعندهم

قاصرات الطرف عين ، كأنهم بيض مكنون) وقوله فى وصفهن بأنواع الأحجار الكريمة الموجودة فى المياه المحيطة بالجزيرة العربية (كأنهن الياقوت والمرجان) و (حوراعين كأمثال اللؤلؤ المكنون) ويصور ما يألفنه من الحياة الفطرية العربية فى قوله (وحور مقصورات فى الخيام) ويصفهن بعذوبة الحديث ، والتحبب والإيناس بقوله تعالى (فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً) أى آنسات الحديث ، متحببات ، متقاربات الأعمار والطباع .. والنساء العربيات كأنهن من قوة التشابه أخوات متقاربات فى الملامح واللغة والطبيعة والنضارة والزى وغاية الحياة ..

العفة والتراحم : كنت أريد أن أقول (العفة والحب) ولكنى وجدت (التراحم) وتوشيج الأنساب الكريمة هما أساس (الحب) عند العرب . فليس الحب فيهم علة من العلل النفسية الجنسية أو العقلية ، وإنما هو طريق معبد إلى سعادة محققة ، تصل بين الأجداد والأحفاد فى ركب من مكارم الأخلاق ، لتحقيق أشرف الغايات ، باستعمال أمضى الأسلحة . ولذلك ينبغى أن ننزه معنى الحب عند العرب عما هو عليه من جهة اللفظ عند أكثر الأمم . فالحب العربى الذى يتضوأ تحت صدفة العفة ، غير تلك الأهواء والأغلال التى يذل بها من يتدافع أكثرهم بمعانى الحب الرخيصة سكارى العقول والحواس ، يسوقهم سائق الخوف الذى تضيع فيه الحرمات ، وينعق لهم ناعق الهوى الذى تثور به الشهوات . فهم يتواثبون بلا ضابط ولا رقيب ، فلا تلد الجزيرة منهم إلا جرائر ..

نشأ الحب (*) العربى ثمرة لفكرة التراحم ، وغايته العصبية ، وقد أعد

(*) من المعنى العربى للحب — يقول الشاعر :-

تشكى المحبون الصبابة ليتنى ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لنفسى لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

وفى المعنى الأعجمى للحب يقول بيرون (ليت للنساء جميعاً ثغر واحد فكنت أقبله وأنتهى من التعب) فالمعنيان متشابهان فى البداية مختلفان فى الغاية . فأحدهما كريم صمور يحمل عن الناس . والآخر شهوانى عقور يحمل على الناس !

له الله بدناً فتياً خلواً من العلل ، ونفساً أبية خالصة من المخاوف ، وعقلا واعياً سديد الإصابة للأغراض . فأصبح هذا الحب فى كرامته مخامراً كل نفس ولو لم تجد لها إلفاً . فالعربى مشوق على كل حال ، محب بطبعه لمن نشأ ينشد السكن إليها . والعربية تنشأ كذلك وفى ضميرها ذلك الفتى الكريم الذى لاتعدل عنه .

سارت أشعار الحب فى الشعر العربى فى طليعة معظم القصائد الخالدة بمعانيها وأغراضها ومؤثراتها . على أنه قد غاب عن بال من طالع هذا الشعر من غير أهله أن أكثر ما فيه من مشاعر الحب إنما هو استفتاح بما فى نفس الشاعر العربى من شوق للأنس بالمرأة الكريمة، ولذلك سميت فنون الكلام فى هذا الحب غزلا ونسيباً وتشبيباً ، ولم تسم حباً . فالحب قائماً بذاته ليس من أغراض الحياة المعلنة عند العرب ، وليس قنطرة إلى الآمال، أو تسلية للعاجزين ، أو تجارة للمتكسبين كما بين الحضر .. ولذلك لم يعرف جل العالم شيئاً كثيراً عن حقائق الحياة الحبية التى سترها ستار العفاف فى الأحياء العربية، وأضمرتها الأغراض الأكبر من ذلك شأناً فى حياة العرب . فلقد طوت البيداء فى صدرها أكرم علاقات أهلها ، فصانتها عن ابتذال الألسنة ، وتداول الرويات عصورا بعد عصور.

ولكن العربى وحده هو الذى يعرف اليوم ما كان من ذلك الحب النقى بين أهله ، لأنه يحس بقاياه فى دمه ، ويسمع نبضه فى قلبه ، ويحتمل حمائل مسئولياته ويسير بها . ولكنه لا يتحدث عن الحب ، لأن أعين الناس إن وقعت عليه أفسدته ، فصار حامضاً بعد أن كان حلواً ، وكدراً بعد أن كان نقياً .. وإنما يتحدث عن الدرع السابغة على الحب وهى العفاف . ولذلك فان العرب تكلموا فى العفاف (*) بقدر ما تكلم العجم فى الحب .

(*) نذكر عبارة جامعة فى الفخر بالعفة ليزيد بن عبد المدان من سادة مذحج حيث يقول فى إحدى المنافرات (والله ما قتلنا أسيرا قط ، ولا اشتهينا (حرة) قط ، ولا بكينا قتيلا نبىء به) .

أما ما كان من شعر الغزل وبعض أحاديث الحب . فان الأول كان على ما ذكرت من شدة استيحاش العربى فى بيدائه ، وشدة تطلبه لأليف يأنس إليه من نوعه وطبعه . وقد ورد فى سنن العرب وحدهم أن الزوجة الصالحة هى النعمة الثانية بعد الإيمان ، وهما نعمتان لا تنفصلان .

وأما الآخر من حديث الحب فهو القليل مما جرت به ألسنة أولئك الشبان الذين لم يوفقوا إلى تحقيق ما كانوا يصبون إليه من الزواج بمن أحبوا . والعربى مجبول على المجاهرة بمشاعره عند المواجهة ، فلم يكن حديث الحب فى الشعر إذن صناعة أو تكسباً كما كان يفعل متسولو اليونان بالإلياذة ، أو مؤلفو التمثيليات منهم ، أو الأفاقيون (التروبادور) من منشدى أغانى الغرام المبتذل فى القرون الوسطى . وإنما هى عبرات وأبيات صادقة موجزة بليغة ممن فاتهم من الفتيان درجة السبق ، وتأخروا وراء الأبطال عن باوغ القمة ، فغلبهم على الشرف والحب معاً من هم أقوى منهم ، فجاشت أنفسهم بما جاشت به من ذلك الشعر الرقيق المهذب العفيف ، الذى يضرب المثل به فى الصفاء والنقاء كما يضرب بماء المزن ..

ومما نوجه النظر إليه أن أشعار سادات العرب وأخبارهم خلت من حديث الحب ، واقتصر شعر الفحول على الغزل ، وانتثرت بعد ذلك فى ديوان العرب انتثار الخزامى تلك الأبيات القليلة التى تحدرت فى عبرة أو عبرتين فى حياة بعض الأعراب (*) وربما أشرقت هذه الحقيقة فى نفس القارىء إذا ما ذكرناه فتذكر ما جرى عليه العرب من عدم تزويج من شاع لهم أمر فى الحب ، وإن كانا ابنى عم ..؟ فكل شعر الحب الذى عرفه ديوان الشعر العربى قد نشأ فقط عن ذيوع هذا الهوى النائم فى الأنفس ، ووقوع الحرمان من الزواج بسبب ذلك ، إباء لأدنى الشبهات ، وقطعاً لكل ريبة ، وإن كانت العفة محققة ، ولكن العربى لا يعيش بالأمر إلا قاطعاً به على أحد

(*) اشتهر فى العرب ما يسمى بالحب العذرى ، وهو نسبة إلى قبيلة عذرة ومنها أشهر المحبين .

جوانبه ، حتى ينام قرير العين ، لا توسوس نفسه ولا أنفس الناس فى أى أمر قد فعله .

كان التنازع على بنات العم إذن هو مصدر كثير من الثمرات المريرة التى ذاقها بعض من فشلوا فى إدراك هذا النصيب ، لأن أمر الحب ذاع كما فى حكاية (قيس وليلى) أو لأن أحدهما لم يكن وافر الكفاية من جهة الأم كما فى قصة (عنترة وعبلة). ولما كان هدف الحياة العربية و العمل للمجد ، وكسب المكرمات فى السلم والحرب ، فان (قيساً) الذى شغفه الهوى وأذهله عما يصنع ضيع نفسه ، ولم يدرك أملا ولا مجداً ، لا بشعره ولا بعمله . وهذا هو الحكم الصادق الذى لا تحابى الصحراء فيه ، ولا يحيد عنه صميم العرب .

ولذلك فان هذا القيس وليلاه برغم ما صنعه أدباء الحضارة حولهما من التحشية فى الأخبار ، والتقديس فى الذكر ، ليسا شيئاً مذكوراً فى ركب الحياة العربية . وإنما هما وبرة نزعت وأعيد لصقها حتى إذا ما هبت ريح الجد عليها ذهبت بها .. .

وأما الآخر (عنترة) فقد عرف أن غرض الحياة أمام الحب لا وراءه ، فناضل وقاتل حتى شرف ، ورفعه عمله إلى ما يستحقه من حسبه ونسبه . وسواء أكان قد تم له أو لم يتم زواجه من (عبلة) فانه قد أدرك كثيراً من المجد .. وما مجد عنترة فى أنه محب ، ولكن بما بلغ إليه من الاشتهار بالعفة ، وحماية الذمار ، وحسن استقبال الموت ، حتى صار علماً فى الحرب والبيان . وعلى رغم شعوره القوى نحو ابنة عمه ، فانه قد أجلها عن الذكر الكثير ، وسترها عن تطلع العيون والقلوب ، وخص عشيرته ، ومكارم أخلاقه ، بمعظم شعره الجيد ..

يقول عنترة فى العفة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأواهـــــا

ويقول فى حب ابنة عمه ويجعل كلامه عنها فى الموضع الذى يكون فيه

الحب مكرماً أي في عنفوان القتال ، وأوج النضال ، حيث تتشابك الأسنة وتتخاطف المنايا النفوس :

يا دار عبلة بالجـــواء تـكلمى ⠀⠀ وعمى صباحا دار عبلة واسلمى
إن تغد فى دونى القنـــاع فاننى ⠀⠀ طب بأخذ الفارس المســتلئم
أثنى على بمـــا علمت فاننى ⠀⠀ سهل مخالقتى إذا لم أظـــلم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل ⠀⠀ منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهـــا ⠀⠀ لمعت كبارق ثغـــرك المتبسم ؟

وأما منثورات شعر الحب فى بيت أو بيتين فهى من مثل قول القائل :

تغلغل حب (عثمة) فى فؤادى ⠀⠀ فباديه مع الخـــــافى يسير
تغلغل حيث لم يبلـــغ شراب ⠀⠀ ولا حزن ولم يبلـــغ سرور .

لم يكن حب فى قلب أكبر منه فى قلب العربى ، ولكنه ستره ، وأظهر الغزل . فما كان يبدو من ذلك إلا ما يخرج به الشذوذ من شعر من يذهبون بقوة الهوى إلى الانشغال عن كل شيء ، ولم يكن هؤلاء جميعاً من سادة القوم ، ولا من حلمائهم ، ولا فرسانهم وأجوادهم . وكان من قدر هذا الحب أن يتعاظم قدر المحبوبة فى نظر هذا الذى يتجاوز نظره كل الأشياء فيتهيبها ، مع أنه يرى ضعفها وقدرته عليها ، فكأنما هو من إعزازه يمنحها هذا التهيب والإجلال للتساويه ، وليكون حبه عظيماً كقلبه . انظر إلى قول القائل :

أهابك إجلالاً وما بك قـــدرة ⠀⠀ على ولكن ملء عين حبيبها ؟

وقول القائل :

ليهنك إمساكى بكفى على الحشا ⠀⠀ ورقراق عينى رهبة من زيالك

بلى إن الحب بين العرب كان فى ستر مستور ، وهذا هو أصل العفاف والحجاب . فكان الحب كله للمجد ، وما المرأة الصالحة إلا عوناً عليه ، ورفيقاً إليه ، لأنها تلد العصبية بالأبناء ، فتلد بهم الأعمال الطيبة فى الطيبين .

إنه من الخيانة إذن لهذه الغاية الكريمة التى ترحل وراءها القبائل ، أن يظهر

الحب المضمر ، فان فى ظهور الوسيلة وكثرة الكلام عنها خفاء للغاية ، وقصور عن السعى لها . ولذلك كانوا إذا ظهر الحب بين اثنين فى حى واحد أجمعوا على التفريق بينهما ، فان شيوع الحب هو وحده دلالة الانشغال . والانشغال هو بادرة الوهن فى طريق الغرض الأسمى للجماعة .

وهذا هو ما جرى عليه العرب بشأن وسائلهم كلها إلى غايتهم العظيمة الواحدة .

قلت آنفاً إن مرحلة (التفكير) عندهم لا تتجاوز اللمحة . وكذلك مرحلة (الحب) لا تزيد عندهم عن طلب الزواج المتكافىء مع الهدف العام، ثم يندمج الحب فى البيت والولد . لقد علمنا أن التفكير إذا لم يجد منفذه إلى العمل فانه يصبح أزمة نفسية ، ثم يتحول إلى عقدة، ثم إلى تضخم ذهنى ، وتحلل عقلى . ثم تتجمع هذه الفضلات السامة القاتلة فتختزنها النفس فيما يسمونه (العقل الباطن) وكذلك الحب إذا انعكس اتجاهه ، وطال أمده ، فانه يرتد إلى النفس ليدمرها ، ويشل حركتها ، ويميت قدرتها ، ويصبح هذا الإنسان المصاب بعاهة (العشق) شبيهاً بأخيه المصاب بحرفة (الفكر) خطراً على المجموعة التى يعيش بينها ، فكل منهما يتنقل فى جنباتها وهو يحمل فى رأسه أو تحت أضلعه مباءة للاضطرابات النفسية، أو الأمراض الفكرية، التى تزعزع اتزان العقل..

على أن البيئة العربية توفرت لها بوضوح معانيها أسباب الوقاية من ظهور أمثال هذه الأمراض أو استفحال أخطارها إذا ظهرت . وبذلك ظهر الحب الكريم فى الزوجية ، لا فى القصص والصور .. ونصع التفكير السليم فى الأعمال ، لا فى الجمعيات والأحزاب ؟ وبقى المعنى الذى تتحرك به النفس العربية دائماً هو بطولة الأخلاق مصورة فى سيادة قومهم بأخلاقهم بالفعل ، ولقد قام هذا على أساس الحب الصادق المضمر بين زوجين كريمين ، وبمثل هذا المعنى الإنسانى الشامل تجاوبت قصائد الشعراء العرب فملأت الأسماع ، وهزت القلوب ، وأحيت المشاعر ، بما لا يقاس به أى شعر فى الحب الموهوم ، أو الوطنية الجغرافية ، مما عرفته الأمم المختلفة . وإن أروع ما يمتلك النفوس

الصادقة من ذلك شعر أولئك الرجال والنساء الذين وقفوا بعد فناء أقوامهم وعشائرهم يبكونهم.. يبكون مجدهم الذاهب، ومكرماتهم التى انقضت بانقضاء آجالهم ، فى حروب لم يترددوا فى اقتحامها للحفاظ والمنعة والإباء .

حلت خزاعة محل جرهم فى (مكة) بعد معركة خسرتها جرهم ، فاضطرت الأخيرة إلى أن تنزح بعد السيادة والشرف تاركة مكة إلى اليمن . وتشوق مضاض بن عمرو الجرهمى إلى مكة يوماً ما فلم يستطع النزول إليها ، فوقف على بعض جبالها يبكى مجد قومه الذى أضاعوه باسرافهم — فقال من قصيدته المشهورة :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سـامر
بلى نحن كنـا أهلهـا فأبادنـا
صروف الليـالى والجدود العواثـر

وتقول أمامة بنت ذى الأصبع العدوانى الفارس المعروف تبكى قومها :

كم من فتى كانت لـه ميعة أبلج مثل القمـر الزاهـر
قد مرت الخيـل بحافـاتهم مر الحيـا بالجبـل العـاطر
بادوا فمن يحلل بأوطـانهم يحلل برسم مقفـر داثـر ...

ففى مثل هذا من صناعة المجد أو رثائه كان شغل الرجال والنساء . أما الحب فقد استكمل طهارته بالحجاب حساً ونفساً وفكراً . واستكمل ثمرته بالزواج المتكافىء فى السن المبكرة مع حق التكرار ، وسرعة الفصل عند عدم الملاءمة . وهنا نعرض لملاحظة هامة ، وهى أن هذه الحياة المنتظمة الوافية لم تدع فروقاً كبيرة بين الشباب فى طباعهم وشكولهم ، وبين الفتيات كذلك . ولهذا فان الزواج على السماع ، أو على شهادة من رأى من النساء ، كان كافياً لتحقيق الأمل ، فالجميع من أبناء القبيلة و بناتها أقرب إلى التكافؤ فى الأصالة ، وفى مكارم الأخلاق السائدة ، وما كان تقدير التكافؤ عسيراً فى أسرة كبيرة

هى القبيلة تعيش فى حياة واحدة .. تهاجر وتستقر معاً ، وتفرح وتحزن معاً ، ولها مع قوة ذاتية أفرادها الكثيرى العدد والعدة إرادة واحدة تحركها ، وغاية واحدة لا تختلف عليها .

هذا الحب الاجتماعى عند العرب ، وهو أساس وجودهم ، ومادة عربيتهم ، سموه(التراحم) وهو مشتق من (صلة الرحم) أى من القربى وعلاقة ذلك واضحة كل الوضوح بما ذكرناه سابقاً من شأن العرب فى (تخير النطفة) وانتخاب المرأة الصالحة للأمومة ، وتفرع العفافة والحصانة على هذا التخير والانتخاب .. فالعصبية المبنية على اختيار كرائم النساء وكرام الرجال للذرية هى التى قام عليها أساس مكارم الأخلاق ، وجعلت بداية هذه المكارم فى (العفة) بين الأفراد ، وبذلك سترت بينهم الحب ، واتخذت علامة هذا الستر فى الحجاب . وكذلك جعلت غاية هذه المكارم فى (الرحمة) بين الجماعة ، وليس أقدر على الرحمة من كريم الخلق ، طاهر النطفة . وعند هذا الغرض الأسمى أظهرت العروبة الحب ، وأقامت عليه رحى الأدب والشعر ، والمجد والفخر ، والعز والسؤدد ، حتى جاء الإسلام فاشتمل ذلك كله فيما صار به دين العفاف والرحمة ، والعصبية والقربى ، والعدالة والإنسانية .

فالرحمة التى أنبتتها العصبية فى آخر مجهودها قد اتخذت سمتها وتسميتها وطبيعتها من أساس هذه العصبية وهى (صلة الرحم) كما ذكرت ، ثم أخذت بدورها تدور فى الحياة العربية ، وتتجدد فى صورها وأغراضها ، وهى على الدوام واحدة ... هى الرحمة .

فمن الرحمة عرف العرب حقوق ذوى القربى ، ولم يعرفها الحضر حيث يفر الرجل من ذويه ولو كان بينهم مقيماً ، ويتبرأ فيها الغنى من الفقير ، والمتأنق من الجافى ، والقارىء ممن لا يقرأ .. الخ .

ومن الرحمة عرف العرب حقوق الجار ، وقد انفردوا بذلك حيث صار مألوفاً لدى غيرهم أن لا يعرفوا من هو الجار .. فاذا عرفوه تجسسوا عليه ،

ورصدوا أعينهم حوله لإيذائه .. ومن الرحمة عرف العرب إكرام الضيف ، ولا جدال فى أن غيرهم قد يسمع بالكرم ولكنه لا يستطيع أن يتصوره كيف هو .. ويخلطون أحياناً بين السفه والكرم .

ومن الرحمة عرف العرب فك العانى من الأسر ، ونجدة المظلوم ، وإغاثة الصريخ ، وهم يفعلون ذلك رجالا ونساءاً وغلماناً ، وهذا بالنسبة لأكثر الأمم فوق منال الإدراك فضلا عن الأسوة . فاذا كان ما يتصل بالحب الفردى قد أضمرته الحياة العربية ، كما أسبغت الحياء والعفاف على جمال المرأة ، فما ذلك إلا لأنهم قد استطاعوا أن يحققوا المستحيل الذى يحلم به دعاة الإصلاح منذ مدينة أفلاطون ، فأقام العرب الجماعة الصالحة ، وأنكروا الأثرة ودواعيها ، وساروا جميعاً على خطة جماعية واحدة ، لا يشذون عنها وإن انقسموا فى صورتها إلى شعوب وقبائل وبطون . وأصبح من غير المستطاع بالفطرة أن يعيش العربى منفرداً بخصائصه ولو بعدت الشقة بينه وبين أهله بالقرون والأحقاب — إلا أن يصاب بالهجنة وفقدان الذاكرة . فهو مع انفراده يشعر بقومه وعشيرته ووطن أخلاقه ومعروفه أحياء معه وفيما حوله ، وهو إذا تكلم قال بلهجة الواثق : خليلى ... وقفا ... أو سيرا ... وهو يعلم أن لقوله من يسمعه من أهله ، ومن يعيه ، وأنه إذا تكلم بالعربية فقد تكلم بالخلود عن العرب والناس جميعاً ...

امتلأ ديوان العرب بما امتلأت به حياتهم من ثمرات هذا (التراحم) ، وتعطر تاريخهم بشذاه . فانظر إلى أكرم الصور التى تجلت بها أخلاق رسول العرب طوال حياته ، وقد أجملت خديجة رضى الله عنها ذلك فى قولها تطمئنه عقب نزول الوحى وقد وجف قلبه لغرابة ما وقع له — قالت (أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .. ووالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق) .

وهذه هى أخلاق العرب ... وهى من لباب الإسلام قبل الإسلام : فى هذا التراحم والحب الاجتماعى يقول حاتم :

وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
فانى لا آلو بمالى صنيعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العانى ويؤكل طيبا وما إن تعريه القداح ولا الخمر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهودا وقد أودى بأخوته الدهر

ويقول قيس بن عاصم المنقرى .

إنى امرؤ لا يعترى خلقى دنس يفنده ولا أفن
من (منقر) فى بيت مكرمة والغصن ينبت حوله الغصن
لا يفطنون لعيب جارهم وهمو لحفظ جواره فطن

ويقول عمرو بن الأطنابة الخزرجى فى صفوة الرحمة بين العرب :

إنى من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل
المانعين من الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل
والخالطين فقيرهم بغنيهم والباذلين عطاءهم للسائل

فهذا هو الذى رفع العرب قوائمه فوق قلوبهم .. هذا هو الحب .. هذا هو التراحم . وليس عجيباً بعد ذلك أن تكون أحب أسماء الله الحسنى هى (الرحمن الرحيم) وبها تبدأ كل سورة فى القرآن الكريم .

* * *

وهكذا ارتبط العقل العربي في فجر نشأته .. بالدين

لقد رأينا كيف تكاملت فى الحياة العربية من خلال البداء والماء والرحلة قوى النفس الفطرية المطمئنة فى بدنها وعقلها وقلبها ولسانها .. لقد رأينا كيف يعقل الإنسان العربى بقلبه ، لأن قلبه هو دليله بالأمن إلى الإيمان ، ولم يكن هذا القلب معبداً للوساوس والهوى المذل ، أو الحب الرخيص ،... لقد عقل هذا الإنسان كل ما فى حياته، حتى الحب، الذى أخضعه لسنن الله فى الحياة المضيئة من حوله ، فجعله رحمة وتراحماً ، وجعله وسيلة وقربى إلى هدف عام تتراحم به وتتماسك الأسرة، والمجتمع الصغير والكبير .. هو هدف الذرية الصالحة .

غاية العقل : بهذا الهدف أصبح العقل العربى الذى تصنعه الحواس المرهفة فى بدن سليم ، لنفس مطمئنة ، عقلا أخلاقياً وعقائدياً فى أساسه ، من حيث يتوجه نشاطه وراء هذا الهدف المباشر إلى بناء هذه الحياة الحرة الكريمة المستمدة من الله بالصورة والحقيقة التى يكون بها ميراث الآباء للأبناء ، ووصية السالفين للخالفين ، وعلم الأولين للآخرين .

لم يعد العقل العربى ، المتبصر بقلبه ، والمهتدى بسنن الله من حوله — عقلا يدور فى فراغ من هدفه ، أو متاهة فى سبله ، بل أصبح عاقلا لغايته التى لا خلاف عليها ، وهو يعقلها من خلال حواسه ، ويعقلها من خلال فكرته ، ويعقلها من خلال كلمته العربية الدالة بكل معانيها على غايته ..

لقد أصبح يعقل غايته فى صميم حكمة الحياة ... يعقلها فى كلياتها وجزئياتها ، وقد أوتى وسائل الملاحقة لها ، ووسائل الدفاع عنها ... آمنا فى

أفضل الأحوال من انقلاب هذه الغاية الجلية إلى نقيضها ، متحصناً بيقينه فى سلامتها وإيمانه بمصدرها ، وهو يمضى بجهده على محجة بيضاء ، وراء أسوة سابقة ، وطموح بهذه الأسوة إلى سبق وفضل .

ويجىء القرآن الكريم فيكشف عن حكمة الحياة القوية العزيزة فى (الذرية الصالحة) .. أى فى عمل الآباء المؤمنين الذين يتركون بصلاح أعمالهم ميراثا قوى الحجة على أبنائهم ليتأسوا به ، ويمضوا عليه ، ويزيدوا فيه .

يقول الله — على لسان إبراهيم — (رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم) . ويقول على لسان إبراهيم وإسماعيل (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) .

ويقول سبحانه على لسان زكريا (قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك ولياً . يرثنى ويرث من آل يعقوب) .

ويقول سبحانه على لسان جميع المؤمنين (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحاً ترضاه . وأصلح لى فى ذريتى) .

وفى حديث عن النبى عليه الصلاة والسلام (حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة) .

أما النساء فوعاء الذرية الصالحة .. وأما الصلاة فلقاء الله بالعمل الصالح . وأما الطيب فهو عبير هذه الحياة الصالحة فى الصالحين .

ويقول الشاعر العربى فى نشأة الأبناء على طريق الآباء من المكارم والمعروف وهو من شعر زهير الذى كان يتمثل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وما كان من خير أتوه فإنما — توارثه آباء آبائهم قبل

من هنا تتجلى رسالة (العقل العربى) اليقينية والمتررة وهى الحفاظ على ميراث الدين فى الأخلاق ، والمعروف ، ومنهج التفكير ، والتعبير ، وصدق

العمل .. ليكون ذلك من نصيب الذرية الصالحة التي تعقله ، وتنقله ، وتدافع عنه ، وتزيد عليه كلما وسعتها الزيادة . أو البيان في أقوالها وأعمالها . لقد أصبحت هذه الرسالة كما أوحى الله بها في الفطرة السليمة هي رسالة العقل العربي التي عاش بها العرب فلم ينقرضوا ، ولم يذهب تراثهم ، ولم تنطمس رسالتهم ، ولم تضع لغتهم . لقد كان محور الرسالة للعقل العربي أن يتدفق نهر الدين العذب بالعمل الصالح من الآباء للأبناء .. وكانت الغاية التي تأنس إليها الحواس المطمئنة وهي تغذي هذا العقل بمنهجه وأحكامه وفصل خطابه هي (الذرية الصالحة) هي : (العمل الذي يقتدي به الأبناء ... في طاعة الله ...) .

في مقابل ذلك صنعت الحواس المريضة ، واللاهية ، والقاصرة ، في بيئة الحضارات الوثنية — عقولا قاصرة تراجعت غاياتها في مجالها الضيق عن الغاية الصحيحة : لقد تراجعت عن هدف (العمل الصالح والذرية الطيبة) إلى (الطعام والمسكن والمتاع) أو (المال والسلطة والمرأة) أو (الزهد في كل شيء حتى في العقل نفسه من أجل لا شيء ؟) ... وحول هذه المحاور الثلاثة كانت العقول القاصرة تدور لتبحث في تأكيد هذه الأهداف .. تؤكدها بالفلسفة ، أو بعلوم السحر والكهانة ، أو بالخرافات والأساطير .. حتى علوم الطبيعة أصبحت وهي أسيرة هذه الأهداف القاصرة — أداة عقولها في العدوان على الحياة ، وفي المزيد من التيه والظلم والعجز بالبعد عن فطرة الحياة .

لقد تراجعت هذه العقول القاصرة عن الغاية الفطرية السليمة وهي (الذرية الصالحة) حتى على خط العلاقات الجسدية المسماة بالعلاقات الجنسية ، فأصبح بناء الأسرة ، وتوالد الأطفال ، مجرد ضرورة شكلية ، لا تحدد هدفاً في نماء الأمة ، ولا تفرض طهراً أو تعففاً في سلوك أفرادها ، بل أصبحت هذه البيوت على تفاوتها بين البذخ والعوز تخفي أغرب العلل النفسية وأشدها

خفاء واستعصاء على التقويم فى مجال السلوك الجنسى .. (*) .

لقد أصبحت — كما فى كثير من جوانب المجتمع الخاصة والعامة — تحمل مفهوم « المتاع بالجنس » لذاته ، وما يقتضيه التركيز عليه ، والانقطاع إليه ، من بلاء الشذوذ فيه ، ومسخ الطبائع السليمة للاستزادة من سراب لذاته دون الغاية الإنسانية منه .

ومن التوقف عند هدف المتاع دون هدف (الذرية الطيبة التى تحمل ميراث الآباء وأهدافهم) نشأت علة « الفسوق » التى تداعت بها الأخلاق والحرمات والأمانات ، وقطعت أشواطاً من مجرد الغواية إلى الحرفة ، ثم من الحرفة البسيطة إلى الصناعة المدمرة لنشر الدعارة باتساع المجتمع أو العالم.

ويتجاوز التراجع عن خط الغاية الفطرية فى (الذرية الصالحة) خطوة المتاع والفسوق إلى خطوة أخرى أكثر شذوذاً فى هذا المجال وهى (عشق الذات) التى هى فى مفهوم هذه الهزيمة الأخلاقية للعقل القاصر أكثر بعداً عن الهدف الحقيقى ، وهى علة تنشأ فى ذرارى الفاسقين المستمتعين بسبب تفاقم العجز ، وتراكمات الوراثة لنوازع الانحراف ، فكأنما بعد (الإسراف) فى نزح الطاقة على غير وجهها يظهر (الإفلاس) الذى يأخذ أعراض الانطواء أو الحياء الكاذب . والذى ينتهى إلى نوع من (الزهد الجنسى) يرتد فيه الفرد إلى نفسه ، ليتزوجها بالخيال المنفلت فى أية صورة يتعلق بها عجزه ، ولهذا العشق الذاتى وسائله الباطنية ، التى تحقق النفس بها استمتاعها بذاتها بدنياً ، بالتصور ، والحلم ، والاستغراق ، ربما من أجل النيرفانا الجسدية ..

(*) يقول الدكتور أوجست فوريل فى كتابه « المسألة الجنسية » : « تبتدئ الأمراض التناسلية دائماً فى المزاج العقلى للفرد ، أى فى الميل الوراثى لمخه » ويقول « إن أمراض العقل أصل الرذائل والأمراض الجنسية » ويقول : « إن الجنس الآرى على وجه الخصوص سائر للضعف ثم الزوال بسبب مااستشرى فيه من الفسق بتأثير الخمور و المهيجات الصناعية وسوء استغلال المرأة لخدمة شهوات المجتمع ».

بعيداً عن واقع الحياة ، وتجرداً من حقائقها ، وسننها ومعقولاتها ، مما يكون له أثره على العقل فى كثير مما تحاول علوم النفس الحديثة توصيفه بأنه جنون العظمة ، أو جنون الاضطهاد ، أو التطرف باسم الدين ، أو الروح ، أو الجن .. فكثيراً ما ظهرت فى حالات عشق الذات قصص أولئك الذين يعيشون فى وهم الزواج من الجن الإناث .. أو الذكور .

ثم تمضى الهزيمة والتراجع عن مركز الفطرة المضيئة التى يتسابق إليها العقل العربى وهى (الذرية الصالحة) حتى تصل بعد (عشق الذات) إلى علة أكثر شقاء وبلاء وهى عشق (الآباء والمحارم) وفى المعتقدات والتقاليد الفارسية من هذه العلة الشىء الكثير ..

ثم تمضى الهزيمة حتى بعد ذلك لتنتهى نهايتها القاتلة عند ظاهرتين أو علتين هما (الرهبانية) بمفهوم الامتناع عن الزواج .. أو (عشق الموتى) بمفهوم حقيقى كما كان يقع من شذوذ بعض كهنة مصر القديمة أيام الفراعنة ، أو بمفهوم معنوى كما يقع من الاستغراق مع نزعة الموت .. وحلول الأرواح .. أو تناسخ الأرواح ، حيث يبلغ العقل الوثنى الصوفى عند هذا الحد آخر مداه فى الإعلان عن هزيمة الحياة .

بناء العقل : وحتى يتبين فعل الفطرة فى توجيه رسالة العقل العربى ومنهج تفكيره وتعبيره إلى ما هو حكمة الله فى حياة البشر وهى (العمل الصالح والذرية الصالحة) نكشف عن بعض الشواهد الدالة فى أعمال هذا العقل ولغته ومنهجه على دعاماته الفطرية والكونية التى تجعله غير متناقض فى تعبيره عن الإنسان السوى مع سنن الله فى الحياة وفى الأشياء .

١ — الشاهد الأول : نجده فى معنى كلمة « الشىء » فى اللغة العربية ، ففى هذه الكلمة يفصح لسان كل أمة عن الرابطة التى تعيها بين (الأشياء) أى بين مفردات الحياة وأجزائها ومقوماتها]. فالشىء هو وحدة الحياة المحيطة بالإنسان ، لأن هذه الحياة مؤلفة بطبيعتها من (أشياء متفرقة) أو أشياء

متحدة . فمدلول كلمة (الشيء) في لسان كل أمة يفصح عن ضميرها في أخلاقها ، وعن دينها المتولد من مدى اتصالها أو انفصالها عما حولها ، والدال على رضائها أو عدم رضائها عن حياتها وغايتها وسلوكها .

ففي لغة العقل العربي المطمئن تحمل كلمة (الشيء) حقيقة الاطمئنان الكامل والإيمان السابغ ، وهذا ما تنفرد به هذه اللغة من غيرها ، كما انفردت بنصوع التوحيد في معانيها، ورسالة الدين في كافة أجزائها . ذلك أن (الشيء) هو من معنى شاء و (شاء) معناها (أراد) ومن ذلك (الشيئة) بمعنى (الإرادة) . فالشيء عند العرب هو (المراد) من جهتين : أولا : من جهة إرادة الله في خلقه ، فكل شيء بمشيئة الله تعالى ، وثانياً : من جهة تآلفه مع (الأشياء) الأخرى ، إذ لا تتنافى إرادة الله فيه وحده مع إرادته فيها مجتمعة . ففي كل شيء حكمة وجوده ، وحكمة وجود غيره كذلك ، وبهاتين الجهتين يتم تمام المعرفة في قلب الإنسان العاقل . فليس من شيء بغيض لذاته في هذه الحياة ، لأن كل شيء (مراد) وإنما البغيض أن تلتقي هذه الأشياء في غير المواضع التي وضعت لها ، فان هذا ينافي (العدل) الذي هو وضع الشيء في موضعه في سنة الخير والفطرة ، وانتفاء العدل يؤدي إلى (الظلم) والظلم هو الذي يحجب عن بصائر الناس حقيقة الحياة وحكمتها بوضع الأشياء في غير موضعها .

ومعنى (شاء) و (شيء) في لغة العرب كثير النظائر بما يؤدي هذه الشهادة في كون الحياة مرغوباً فيها عند العرب بسبب وعيهم لحكمتها ، وفي كون الروابط بين أشيائها مفهومة عندهم بادراكهم (إرادة) الخالق فيها و (مشيئته) بها ...

ولينظر القارىء بعد ذلك إلى معنى كلمة (شيء) في اللغات الأعجمية في هذا الضوء ، فانه يستطيع الكشف عن وجهة نظر الأمم الأخرى بلغاتها المختلفة في فهم الروابط بين (الأشياء) بما هو شاهد على قصورها وقصور بيانها . وقد يلاحظ القارىء كما لاحظنا أن في بعض هذه اللغات كالفارسية

والفرنسية يقترب اللفظ الدال على « شيء » من اللفظة العربية ، فشيء تقابل فى الفارسية (تشيز) وفى الفرنسية (شوز) ولكن ما أبعد أن نجد فى هاتين اللغتين (*) هذه الدلالة التى وجدناها باهرة ظاهرة فى وضع كلمة (شيء) العربية بالنسبة لمعنى التجاوب المشرق بين (مشيئة) الله فى الخلق ومشيئة البشر فى الحياة ..أى أن الله يشاء .. والناس مع الله يشاؤون ماشاء الله.

٢ — الشاهد الثانى : قسم العرب بخالق الأشياء ، فمن قوة اتصال حواس العرب الصحيحة بالأشياء المحيطة بهم أضاءت فى أنفسهم وعقولهم هذه الحقيقة التوحيدية فى حكمة الحياة والإيمان بخالقها .

ولذلك فان العرب عرفوا الله قبل الإسلام وبعده باستشعارهم قوة الارتباط الحيوى بينهم وبين الأشياء المحيطة بهم . وقد اتخذ صوت القرآن الكريم فى إيقاظ فطرة العرب وإعادة تأليفهم على دينهم الحنيف هذا المجرى الواسع البليغ من تذكير العرب بدواعى هذا الارتباط المألوف لديهم بين أنفسهم وبين ما حولهم من آيات الله ومخلوقاته . فهو يذكرهم بتدبرهم الفطرى لما فى السماوات والأرض . وهو يهز قلوبهم إذ يقسم بنفس قسمهم بمخلوقاته من الشمس والقمر ،والرياح والمطر ،ليريهم آياته العظيمة بها وفى أنفسهم منها.

ولو اتجه القرآن لغير العرب ليتدبروا ذلك ويستخلصوا منه قوة الحياة بالإيمان لتعذر ذلك على أكثرهم .. وها هو ذا القرآن الكريم قائماً ومسموعاً بين الكثيرين ممن لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فأى شيء أفادوه منه إلا أنهم أخرجوه فى أنفسهم عن معناه فى أنفس أهل الحق والفطرة السليمة فخرجوا بذلك عن العمل به ، والتخلق بأخلاقه .

كان العرب فى عصورهم — وما يزالون — يقسمون بالله على جميع الأوجه التى عرفوه بها ، بمعرفة خلقه فى (الأشياء المتسقة) المحيطة بهم وفى أنفسهم . ولتأييد ذلك نذكر مجموعة من أيمان العرب فى الجاهلية قبيل الإسلام ...

(*) كلمة الإراداة فى اللغتين الفارسية والفرنسية لا علاقة لها بكلمة شيء فهى فى الأولى خاستن وهى فى الأخرى من فعل (فولوار) .

لقد كانوا يقسمون بالله فى قولهم :

« والذى نفسى بيده » .

« لا والذى لا يوارينى منه غيب »

« لا والذى خلق الرجال على هذه الخلقة » .

« لا والذى شق الرجال للخيل ، والجبال للسيل » .

« لا والذى سمك السماء ، ودحى الأرض » .

« لا ورافعها بغير عمد » .

« لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة » .

« لا ورازق الأنــام » .

« لا ورب الشمس والقمر » .

« لا ومجرى الرياح ... ومنشىء السحاب ... ومنزل القطر » .

« لا ورب الحل والحرام » .

« لا والذى يرصدنى أنى سلكت »

« لا والذى يرانى ولا أراه » .

« لا وقائتى نفسى » .

وأقسم العرب كذلك بهذه (الأشياء) نفسها تعظيماً لها ، واستشهدوا بشهادتها على حكمة الخالق وقدرته فأقسموا بالنور والظلمات ، و (الأرض والسماء) و(الليل الغاسق) و(النجم الطارق) و(المزن الوادق) و (الراقصات ببطن مر) (١) وقد ورد مثل ذلك فى القرآن الكريم فى قسمه (بالسماء والطارق) و (الشمس وضحاها) و(النجم الثاقب) و(الليل إذا يغشى) .. و(التين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين) (٢) .

---

(١) الإبل التى تهتز بركبانها ببطن مر وهو على ليلتين من مكة .

(٢) قسم بالأماكن المطهرة وهى (بيت المقدس) وقد كنى عنها الله بالتين و الزيتون اللذين يكثر ان فى جبال فلسطين . ثم (الطور) و (مكة) .

٣ـ الشاهد الثالث : استئثار كلامهم بالحقائق الساطعة من حكمة الحياة وناموسها، فكل مأثورهم وحكمتهم فى أى حال من أحوالهم يتضمن سنناً عامة تسرى على جميع البشر فى جميع الأحوال المماثلة . وهم لا يختلفون فى ذلك رجالا ونساء وأطفالا . وتتصف كلماتهم النافذه هذه بالقطع واليقين . فهم دائماً يقررون أحكاماً فى الحياة ، ويكشفون عن نواميسها وقواعدها ، فى الوقت الذى يتساءل فيه المتحضرون عن هذه الأحكام عبثاً ، ويتخبطون فى طلبها تخبط الأعمى الحسير ، ويتمخضون فى عمايتهم هذه عما يضحك ويبكى من المهازل والأباطيل ..

فمن أقوال العرب القاطعة ، على سبيل المثال ، قول الحارث بن عباد وفيه جماع الحق والحكمة والدين لمن سعى إلى الله فى هذه الحياة بقلب سليم :

كل شيء مصيره للـزوال غير ربى وصالح الأعمال

ومن أقوال أكثم بن صيفى ، وهى كخفق النجوم ، ووهج الشمس :

(الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والباطل لجاجة ...

الحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء ، آفة الرأى الهوى ...

إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ...

لا جماعة لمن اختلف .. ألزموا النساء المهابة .. أخوك من صدقك ..

خير السخاء ما وافق الحاجة ، خير العفو ما كان بعد القدرة ...)

ومن أقوال العربيات ، وفيها غاية الحكمة فى لسان امرأة كاملة المسئولية أمام الله ، والتكامل مع الرجل ، والوعى للأمومة والفضيلة والعفاف — ما أشرنا إليه من حديث خديجة بنت خويلد للرسول الكريم وقد نزل عليه الوحى فأخذت تثبته بإيمانها الفطرى بالله قائلة (أبشر يا ابن العم ، واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة (*) ، ووالله لا يخزيك الله أبداً ...) .

(*) فى هذه الكلمات المأثورة تقدم السيدة خديجة رضى الله عنها شاهداً على نوع الأخلاق السائدة فى حياة هذه الأمة الأمية التى كانت تنتظر رسولا ، ومن قولها « إنك لتقرى الضيف، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر » .

ومن أقوالهن فى حكمة الحياة وفصل الخطاب فى مسالكها قول جمعة بنت الخس وهى من فضليات النساء قبيل الإسلام :

أشد وجوه القول عند ذوى الحجا ... مقالة ذى لب يقول فيوجز
وأفضل غنم يستفاد ويبتغى ... ذخيرة عقل يحتويها ويحرز
وخير خلال المرء صدق لسانه ... وللصدق فضل يستبين ويبرز
وإنجازك الموعود من سبب الغنى ... فكن موفياً بالوعد تعطى وتنجز
إذا المرء لم يسطع سياسة نفسه ... فان به عن غيرها هو أعجز

ومن أقوالهن فى غاية الكرم قول غنية بنت عفيف أم حاتم الطائى ترد على لائميها فى العطاء والجود :

لعمرك قد ما عضنى الجوع عضة ... فآليت ألا أمنع الدهر جائعاً
فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى ... وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

ومن أقوالهن فى رثاء الزوج والوفاء له قول زهراء الكلابية :

تأوهت من ذكرى ابن عمى ودونه ... نقا هائل جعد الثرى وصفيح
وكنت أنام الليل من ثقتى به ... وأعلم أن لا ضيم وهو صحيح
فأصبحت سالمت العدو ولم أجد ... من السلم بدا والفؤاد جريح

ومن أقوال العربيات فى صفة خير الرجال وخير النساء مالا حصر له فى شعر الرثاء والفخر وهو على ناموس واحد ، وتسابق مطرد فى جلاء الخبر من جهة كل منهما . ولكنا نوجز من إيجاز أحداهن فى صفة الرجل الفاضل حيث تقول (هو الكريم النزال ، المنيف المقال ، الكثير النوال ، القليل السؤال ، الكريم الفعال ..) .

وتقول أخرى فى صفة المرأة المرغوبة (هى الخرود (*) الودود الولود)

ولتمام النفع بالاستشهاد من كلام العرب نذكر فى مقابل كلامهم المشتمل

(*) الخرود والخريدة الحيية ، الطويلة السكوت — المستترة .

على لباب الحق فى كل أمر ، والحكمة فى كل موضع — شيئاً من كلام من يضطربون فى قصور العمل ، ويتعثرون فى ضباب الرؤية حيث تلوح الأشياء فى أعينهم منفصلة غير مجتمعة ، ومتفاوتة غير متسقة . فمن كلام ملوك العصور القديمة قول فرعون لمن صبروا على ظلمه وتألهه (أنا ربكم الأعلى) .

ويقول حكيم المصريين القدماء (بتاح) فى تبريره احتمال ظلم الطبقة من الملوك والكهنة (أحن ظهرك لمن هو أعلى منك . بذلك يبقى بيتك بخيره ، ويأتيك مرتبك فى حينه ..) .

ويجيء سقراط بعد ذلك فيقضى أرذل العمر فى حواره النظرى فى كون : (الفضيلة هى المعرفة) بينما هو لم يعرف حينذاك كيف يدير حواراً مع امرأته ، فكانت زوجته الغاوية (كاسانتيب) تهينه وتطرده ، لتصنع فى نفسها ما تشاء.. بينما هذا الزوج العاطل لا يجد بدأ من أن يجول كمن به مس بين الأثينيين ، وأن يجلس لبعض الفارغين منهم ليحاورهم فى اللغو ، وليحاول معهم (صناعة العقل) واختراع الحكمة .. ولم يحدث يوماً أن عرف سقراط أن (الفضيلة) هى العمل بها ، فعاش لذلك فدماً متبلداً ، تلقاه زوجته فتلقى الماء القذر على رأسه ، ليلقى هو بهذا الماء نفسه على رؤوس الأثينيين ..!

إنه يقول مثلا فى عبارة لا تزال تصور لنا ذكاءه البليد (الشعراء لا يختلفون عن الأنبياء والكهنة ، الذين ينطقون بالكلام الحسن ، دون أن يعرفوا ماذا يقولون ..) . فهل الأنبياء لا يعرفون ماذا يقولون ... إذا كان شعراء اليونان وكهنتهم وفلاسفتهم لا يعرفون !؟

وفى الفكر الحديث يقول ديكارت (أنا أفكر فأنا إذن حى) وصوابها العربى (أنا أعمل فأنا إذن حى) فالعمل (فكرة حية) يمكن رؤيتها والحكم عليها فى ضوء الشمس ، أما (الفكر المجرد) .. وهو مقصود الفلاسفة ، فهو مشروع افتراضى غامض ، يحاول أن يولد ، وهو دائماً يولد عندهم ميتاً ممسوخاً ليلقى به فى مقبرة الظنون والأوهام .

ومن المضحكات قول الشاعر الانجليزى (ملتون) وهو يقول فيما لا ينفع فيه القول : (أعطنى حرية القول ، وحرية الضمير ، وحرية الاعتقاد ، ولا تعطنى شيئاً بعد ذلك ..) .. فمن هو هذا الجواد الكريم الذى سيعطيه ما هو أثمن من الحياة ؟؟ وإذاكانت هذه المقومات الحيوية مفقودة فى رجل ، أو فى مجتمع ، فأية قوة يمكن أن تبعثها من جديد حية عاملة ؟؟

وفى مثل هذا اللغو يقول (كليمنصو) السياسى الفرنسى (أعطنى قلماً وورقاً وضميراً أو قضية ، ثم لن تساوى قوة الملوك إلى جانب قوتى شيئاً ..) فكيف يوجد فى أمة رسفت فى تظالمها وتهتكها وعدوانها الاستعمارى خلال الأعصر المتغاقبة من يعطى ضميراً ؟

ولو تعقبنا تاريخ النساء المشهورات فى العالم غير العربى من أمثال كليوباترا ومارى ستيوارت وشجرة الدر وكاترين دى مديشى وحنه دى نابولى والقيصرة الروسية كاترين الحمراء ، وجوزفين نابليون ، والإمبراطورة أوجينى ، وكريستيانا الغلامية ملكة السويد ، لوجدنا من تاريخهن الفسقى أوضح دلالة على أثقال الشهوات وأغلال النظم التى تحكم نشأة المرأة فى أكثر بلاد الحضارات ، فتجعلها فى ظلمة حياتها أبعد عن أية حكمة أو هداية أو تعفف أو رحمة فيما تفعل أو تقول .. ؟

٤ — الشاهد الرابع : (الحمد والإقبال) وهما صفتان لهذا الإنسان العربى الذى أصاب حكمة الحياة ، وعرف حقيقتها ، وشرب رحيقها ، فهو لا يجد فى قلبه ولسانه إلا الحمد لله على أى حال هو فيه ، لأنه بذل كل قوى حياته متمكناً من معرفة غايته . وهو كذلك لا يجد أحب إلى قلبه من أن يكون محموداً من قومه وعشيرته ، إذ هو بادراكه هدف الحياة فى الذرية الصالحة قد جرت فى عروقه دماء الرحمة ، وسرت فى أوصالة صلة القربى ، وعرف أن مكانه من مكان قومه ، وعزه من عزهم ، فهو لهم قبل أن يكونوا له . وبذلك يحمدونه فتقر عينه ، ويتطهر عمله ، ويخلد ذكره .

فليس فى العرب لذلك من يعتبر الحياة (خطيئة) أو يقول بأن الشر هو الأصل فى الإنسان ، بل سجية العربى أن الحياة (نعمة) لأنه بالعقل والعيان تحقق منها ، وتيقن أن الأصل فى الإنسان هو الخير، لأنه لمس هذا الخير فى أبيه عن آبائه ، وهو يلمسه فى نفسه ، وهو يخشى أن لا يكون كما كانوا فتراه يستحث قواه وملكاته لحراسة هذا الخير القديم ليورثه لولده ، قاصا إليه قصص آبائه الأولين حتى لا يضل عنهم ، ولا ينحرف عن سواء سبيلهم .

أما حمد الله على نعمائه بالحياة ، وعلى هبة العقل والمكارم فيها ، فهو سجية العرب جميعاً لا يخلو منه جيد كلامهم . واسمع إلى قول الفتى العربى الأصيل سويد بن أبى كاهل اليشكرى يحمد نعمة الله فى قومه :

كتب الرحمن ، والحمد لـه ... سعة الأخلاق فينـا والضلع
وإبــاء للدنيــات إذا ... أعطى المكثــور ضيماً فكنع
وبنــاء للمعـالى إنمـا ... يرفع الله ومن شـاء وضـع
نعم لله فينـا ربهـا ... وصنيع الله والله صنـع

وأما استقبال العرب حمد قومهم بكريم فعالهم، لتخليد ذكرهم، فهو مقام كل فخر فى باقى أشعارهم . ومن خير ذلك قول عمرو بن الأطنابه أحد أشراف العرب قبل الإسلام :

أبت لى همتى وأبى بـلائى ... وأخذى (الحمد) بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجـاشت ... مكانك (تحمدى) أو تستريحى
لأدفع عن مآثـر صالحـات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وتقول المرأة العربية الوفية الخنساء فى الغنى بالحمد والإقبال عل صالح العمل :

نعف ونعرف حق القـرى ... ونتخذ (الحمد) كنزا وذخرا

وفى الصبر على الحادثات دون الجزع منها ، أو الفرار من المسئوليات

فيها ، يقول جزء بن ضرار وهو يصف قومه بعد أن أوقرتهم الخطوب :

إذا رنقت أخلاق قوم مصيبة   تصفى لها أخلاقهم وتطيب

ويقول الحصين بن الحمام المرى فى طبيعة الصبر المسلح :

صبرنا وكان الصبر منا سجيــة   بأسيافنا يقطعن كفــاً ومعصما
ولست بمبتاع الحــياة بذلــة   ولا مرتق من خشية الموت سلما

بلاغة العقل : فى حديثنا عن بناء (العقل العربى) تكلمنا عن الاطمئنان والإيمان ، وعن الحمد والصبر لأن هذا العقل أدرك غايته بحواسه، وعرف حكمة وجوده فى بيئته . والآن نتكلم عن البلاغة فى العقل وهى تابعة فى المعنى لما سبق ...

والمقصود بالبلاغة النفاذ والكفاية ... فاذا نفذ العقل فى هدف الحياة ، وأدرك كفايته منها أصبح تعبير لسانه متسقاً بطبعه مع البلاغ فى القصد ، والنفاذ فى الهدف . وهذه هى البلاغة البيانية التى انفرد بها اللسان العربى بأسباب ودوافع ظاهرة ، لا على وجه المصادفة والعفو . فاللسان العربى الذى هو ترجمان العقل العربى يعنى ظهور البلاغة فى هذا العقل ، وذلك من حيث اشتمال كلامه على قدرة التوصيل لحكمة العقل فيه ، بما لا يغنى عنه أو يفيده أى كلام آخر . ثم من حيث أن هذا الكلام العربى البليغ يتدفق به قائله على تمام الإيجاز الذى يصل به إلى كبد الحقيقة بعيداً عن منقصة الإطالة ، أو معابة التزيد .

ولما كان الأمر كذلك فى صفة هذا الكلام البليغ الذى تدرك به النفس الإنسانية حاجتها أينما اتجهت به فاننا لا نفتأ فى كل نماذج هذا الكلام وآياته نرى صدق الدلالة فى مذاقه على أنه من رحيق الحواس الصادقة مجتمعة . فالكلام العربى يقع فى النفس والعقل موقعه من جميع الحواس على درجة واحدة فى قوة النفاذ والإبلاغ . فالمتكلم بالعربية عن سجية يسترعى إليه الأبصار كما كان خطباء العرب وشعراؤهم قبل الإسلام وبعد الإسلام يبهرون الجماهر

العربية فى الجزيرة بكلام يجمع أجزاء نفس السامع ، ويهزها، ويوقظ بهذا الكلام سرائرها بالرضى أو الغضب أو الوعد ويوحدها .. إنه يوحدها مع نفسها .. ويوحدها مع من يشاركها الاستماع ، ويوحدها مع من يتكلم إليها .. كما يوحد الجميع مع الحق كما هو فى موقفهم ، وكما هو فيما حولهم .. وكما هو فيما يبتغون به وجه الله فى سعيهم ..

من هذه الصور البلاغية فى البيان العربى نفسر الظواهر الآتية فى بلاغة العقل العربى :

١ - طابع الإيجاز والقصد فى الكلام العربى . فهو إما فاصلة من فواصل الحكمة (*) التى تعيا الكتب فى استقصاء ما تدل عليه ، أو هو مثل سائر ، أو هو خبر يروى على قدر ما فيه من حكمته ، أو هو أرجوزة ، أو قصيدة ، أو معلقة .. ويتجلى ذلك الإيجاز الحكيم فى كل نتاج العرب البيانى .. من خطب فى أحوال الحرب والسلم ، أو أحاديث الوفود ، أو رسائل أولى الأمر ، أو عظات المنابر ، أو اسمار الجماعات ، أو فى مختلف ألوان الشعر وضروبه، وهو أكثر حديث العرب حتى ليكاد يكون كلامهم فى كافة أغراض الحياة شعراً

٢ - القلة فى الكلام العربى من جهة عدد مفرداته ، وذلك بالنسبة لكثرته الفاحشة فى حياة الحضر . فالعربى قلما يتكلم فى نهاره إذ هو دواماً يعمل ويسعى فى حال يكون فيها كثير الالتفات لما حوله والاستيعاب له . فاذا لج به السير وطال أعان نفسه ببعض الحداء من عذب الشعر ورقيقه .

(*) من شواهد هذا الإيجاز فى الحكم قول عامر العدوانى لقومه : (إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به) وقول قس بن ساعدة (أفضل العقل معرفة المرء بنفسه وأفضل العلم وقوف المرء عند علمه وأفضل المال ما قضى به الحقوق) ومن أمثالهم الحكيمة (الحق خير ما قيل) و (برح الخفاء) و (عاد الأمر إلى نصابه)و (العجز ريبة) و(بعض القتل إحياء للجميع) وقد ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) .

وحديث العربى مع أهل بيته وولده لا يتجاوز الغرض المطلوب من عمل تقتضيه الحال . فاذا وقع خلاف فالجدل فيه أوضح من أن يتسع للمهاترة . ذلك أن أحزم الفريقين سرعان ما يستل حجته .. وإن بقية الحزم فى الفريق الآخر أنه لا يكابر فى الحق إذا وضح له ، ولا يجحده . فاذا ما بركت الإبل بعد السرى أو السفر ، ورفعت عمد البيت ، ووضعت القدور على الأثافى ، كان فى قضاء حاجات العيش غناء عن الكلام ، إلا فيما يفيد ذلك فى أبلغ عبارة ، وأنفذ إشارة .

فاذا كان السمر حول النار ، أو الاجتماع على مجالس القضاء والفصل فى الخصومات ، أو التحلق لسماع خطب الزواج فى معاقده ، أو كلمات الرثاء فى محاشده ، أو عظة الرائد والإمام عند الاصطفاف فى كتيبة الحرب ، أو جماعة الصلاة - فان ما يقال فى هذه المناسبات من صادق الكلام لا يتجاوز الحد فى تناسبه مع العمل الدال عليه ، أو الخير المنشود به ، بحيث أن كل كلمة من هذا الكلام تقع فى موقعها من جبين العمل الذى تشير إليه ، فهى لا تصغره ولا تكبره ، وإلا سقط قدر القائل ، وشهد مصرع كلامه أمام عينيه ، إذ تتأبى أسماع العرب على الكلام إن كان كاذباً أو مرتضخاً أو فضفاضاً (*) ؟؟

ولذلك فان آية بلاغة الكلام عند العرب أن يأخذ القول البليغ مجراه دراكاً فى ألسنة العرب جميعاً ، فهو لا يزال يتدفق كالسيل بعد قول قائله ، جارياً من ألسنتهم فى لسان واحد . فالعرب قد جعلوا كلامهم على قدر عملهم ، وبذلك حددوا بلاغته . فهم لا يجاوزون الطاقة فى الكلام عن العمل ، ثم هم لا يبخسون الأعمال الطيبة حقها من الخلود بكلام تزدان هى به ، ويعمر هو بها .

٣ - العرب لا تسجل حكمتها وإنما ترويها لأنها خرجت بكلامها الكامل مراحله من طور (الفكرة المضمرة) إلى طور (العمل المعلن) . لقد ارتقوا

(*) سئل أعرابى عن البلاغة عند العرب فقال (الا يجاز فى الصواب) .

بحرية النفس والقلب والعقل واليد عن هذا الطور « التفكيرى » الذى يلجأ الحضر إليه فى محاولة تصوير نوازعهم ، وتحديد أغراضهم ، وجمع شتات قواهم باجراء القلم على القرطاس فى كتابات وافتراضات وفلسفات لا نهاية لها.

العرب قد تجاوزوا عملية التفكير إلى وعى الغرض المقصود به حيث نجد أن فكرة العربى قد خرجت وظهرت فى كلامه ، واندمجت وسطعت فى عمله . ولذلك نلاحظ أن مرحلة الكتابة عند العرب تأتى بعد الكلام ، والكلام لا يكون إلا عن عمل تم فعلا ، أو عمل صار على وشك التمام ، فلا يكون الكلام عنه إلا بارقاً من بوارق تمامه ، وإشارة لموضعه الظاهر من أعمال الآخرين . أما الحضر فيفكرون ويكتبون غير الذى يتكلمون ويعملون . فالكتابة عندهم ليست إلا محاولة مكدودة مستمرة يتذكرون بها ما هم فيه من الخطأ ، ويسطرون عليها ما كانوا يأملون من الصواب .. أو يتعزون عما يعجزون عنه من الصواب . وليس أبلغ من إحساسهم بسخف ما يكتبون أن ملاحمهم وأقاصيصهم وتمثيلياتهم لو قرأها القارىء على جماعة منهم لملوا أنفسهم ، ولمل هو نفسه منهم ، ولمل كل منهم صاحبه . ولذلك فهم يستعينون على إنشاد الملاحم بالغناء وبالخمر فى جوقات من الرجال والنساء المخمورين فى أعيادهم ، ثم هم لا يبلغون من هذه الملاحم غرضاً ولا نهاية . كما يستعينون فى قصصهم المسرحية الناطقة بالأضواء والموسيقى والبذخ فى الثياب والأثاث ، وبكثير من حيل الإخراج التى حذقها المتأخرون ، حتى يهدئوا من ثائرة الفطرة الحبيسة إذا ما ثارت فى بعض الناس على هذا اللغو المسترسل بغير طائل ..

أما كتب فلسفتهم وحكمتهم وقصصهم الطويلة المسرودة فان رفع الصوت بها ذاهب بالعقل حتما ، أو مضيع لمتعة القراءة إذا انفرد القارىء بنفسه مع بحران هذه الأحرف والجمل المتبرجة له — بوسواس المؤلف — فى الأمانى المتخيلة ، وفى الأوصاف والإشارات الخفية ، وفى الرموز والتشبيهات والحيل العقلية التى يحذقها القصاصون ، المعتقون للخمر ، والبارعون فى الغواية .

فالكتابةالأدبية إذنلم تبلغ إلىاليوم عندالحضر— ولن تبلغ— هذه المرحلة المأمولة عندهم بأن تتحول أنفسهم بها من خفاء (العمل المتصور) إلى علانية (الفعل الحاصل) الذى تستعذب الألسنة بعده عملية النطق لا الكتابة ، ذلك لأن الأنفس الناطقة تكون قد أحست كلامها واستوعبته وآمنت به فى فعل مشرق كما كان شأن العرب فى بيانهم الحى ، وعملهم النافذ .

٤ — العرب بفطرتهم أمة الدعوة للدين الحق : فالعرب لهم طريق واحد فى الحياة هو طريق الآباء ، ونهضتهم الإسلامية لم تكن إلا امتداداً للحق والمعروف على هذا الطريق نفسه (ملة أبيكم إبراهيم) فموضوع الدعوة الجديدة عندهم مستمد من موضوع الدعوة السابقة دائماً . ومجهود العمل لكل يقظة عربية هو مجهود الكشف عن آثار الطريق القديم ، ثم تحديد جانبيه بالعلامات الظاهرة ، والمؤشرات الهادية، حتى إذا سفت الرياح على عمل المجددين فصار قديماً ، نهض غيرهم إلى ذات الطريق فأبانها، وكشف عنها، ورفع عليها العلامات والآيات ... فعل الأجداد .

وثمة الأمر العظيم فى نجاح الدعوة بين العرب وهو سرعة انتشار الرأى بينهم إذا ما استعلن الحق فيه، ووضح النهار فى جبينه. وهى سرعة تتجاوز الريح والبرق والخاطر اللماح ، على رغم ما قد يبدو للنظر السطحى من صعوبة المواصلات فى الصحراء ، وعدم وجود الصحف ، ومحطات الإذاعة، وأساليب الدعاية المختلفة من قصص وتمثيل وموسيقى ، وصور إخبارية ، أو صور هزلية .. الخ .

ففى الصحراء العربية توجد للحق جذوة متقدة فى كل قلب.. فاذا ماغطاها الرماد حينا فان رياح الدعوة المبينة تكفى إذا مرت بهم خفيفة أو كالأعصار أن تكشف فى قلوب العرب عنها . وهذا أمر عسير المسالك فى حياة الحضر، فالدعوة إلى الدين الحق ظهرت فى أكثر الحضارات السابقة أشبه ما تكون بمحاولة إدراك ما لا وجود له فى نفوس الجماهير المقهورة التى لا تعرفه ، والتى تشكو الظلم بسبب عجزها عن تصوره، بل عن احتمالها أعباء هذا التصور له على طريق الالتزام الكامل والصريح به .

فالعقل العربى الذى يحتفظ على الدوام باستعداده لوعى الحق فى أوسع مجال الوعى ، هو أساس هذا الاختيار التاريخى الذى اختار الله به العرب لرسالة الدين الحق : بينهم ، وإليهم ، ومنهم بغير إكراه إلى غيرهم ، وليس للعرب عضد ووسيلة إلى ذلك إلا قوة فعل (الكلمة الصادقة) التى هى الحجة فى أنفس السامعين على قيام (العمل الصادق) .. هذا العمل الذى هو بطبيعته البرهان بغير لجاجة على صدق الكلمة .. وصدق الرسالة .. وصدق الإنسان الذى نذر لها نفسه ابتغاء وجه الله

* * *

قيادة العلم : والآن ما هو منهج هذا (العقل العربى) فى الكشف عن العلم بمفهوم العلوم الطبيعية .. ؟ ما عمله فى إثراء المحسوس بتطويع القوانين العلمية بعد اكتشافها لبناء الحياة ، وعمران الحياة ، وتنمية الحياة ؟

نعم.. هل هذا العقل العربى الذى يبدو كانبثاق بالرشد فى بدن سليم ، وقلب فطرى ، ونفس مطمئنة ، ليعبر عن إنسان سوى ، غير متناقض مع طبيعته ، ولا مع سنن الطبيعة من حوله .. هل هذا العقل العربى عقل منبرى ..أى عقل خطابى أو كلامى كما يزعم خصومه .. عقل سلبى لا منهج له إلا ما ينزل من الوحى إليه .. ولا طموح له أبعد مما تتحدث حكمة الآباء فيه .. ؟

أم هل هو عقل علمى بالمفهوم المعاصر .. عقل يتميز بالحس العلمى .. عقل يتفكر ليهتدى وهو يجعل المحسوس برهاناً على المجرد .. والتجربة طريقاً إلى الحكم .. عقل له منهج وأصول وغاية وبرهان .. ؟

والحقيقة التى لا يتعثر فى إعلانها كل من له أقل صلة بتاريخ العلوم فى العالم هى أن (العقل العربى) كان له سواء فى حصن بدائه ، أو فى منازل حضاراته فضل السبق إلى أعظم الكشوف التى استقر بها للبشر عمرانهم العلمى منذ عصر اكتشاف النار ، و الأدوات الحجرية ، والزراعة ، حتى عصر الثورة العلمية والصناعية فى أوروبا بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

لقد كانت الكشوف العربية العلمية متصلة أساساً بتنمية عقل الإنسان فى سبيل قيادة عمرانه قيادة جماعية سايمة.. فالعرب هم الذين اخترعوا الكتابة بحروفها الأبجدية المبسطة التى حررت العلم من احتكار الملوك والكهنة ، ونزعت عن

وجهه أقنعة الخفاء ورموز السحر ، ووصلت به عصور البشر فى كتابة التاريخ ، الذى يحمل علوم الأجيال وأخبارها من جيل إلى جيل ، ومن مكان إلى آخر .. إن هذا الاختراع الذى جاد به عقل الأمة التى لا تزال متهمة أمام أبنائها بالأمية ، أى بالجهل والعجز عن القراءة والكتابة .. إن اختراع الكتابة العربية التى نقل عنها الأوروبيون فيما بعد كتابتهم هو الذى رفع البشر بتوارث العلوم والتاريخ والتجارب فوق مستوى القطط والكلاب كما يتحدث المؤرخ الهولندى هندريك فان لون عن هذا الاختراع العربى .

والعرب هم الذين رغم كثرة المحاولات فى الصين والهند وأوروبا لإقامة (المجتمع الفاضل) منذ بوذا وكونفوشيوس وأفلاطون ، وحتى توماس مور وسان سيمون وكارل ماركس — نجحوا وحدهم فى إقامة هذا المجتمع الفاضل المتطهر والعلمى ، والإنسانى ، وغير الطبقى ، وغير العدوانى .. والمنزه عن رفض وتماوت المذاهب الآسيوية ، وعن عدوان وشطط وغلواء المذاهب الأوروبية التى رسمت أو حاولت أو نفذت الخطط الخرافية أو القسرية لمجتمعاتها المختارة .

لقد أقام العرب بالتلقى الذى كانوا أهلا له ، عن الله الذى آمنوا به ، مجتمع الإسلام الأول ، الذى عاش مثاله الحى على عهد الرسول .. هذا المجتمع الذى انتظمت فيه كل خصائص الحياة الفطرية التى عاشها العرب قبل القرآن ، لتبنى بالأنفس المؤمنة ، والأبدان الصحيحة ، والقلوب السليمة ، والعقول الواعية هذا البناء الذى عاش به المسلمون العرب ، وغير العرب ، حول مبادىء القرآن .. حياة الأمن ، والعدل ، والسلم ، والرخاء ، والسواسية ، مستخلصين لأنفسهم ، وللناس من حولهم ، كل ما فى الحياة من ركائز تحفظ حقوق الإنسان ، ومن قواعد ليقوم عليها المنهج العلمى لتنمية الإنسان .

ولم يكن هذا الأمر الماثل بحقائقه حتى اليوم (حلماً عارضاً) رأته البشرية فى ليلة من ليالى الصيف ، بل كان واقعاً مؤكداً له جذوره قبل الإسلام ، وأصوله بعد ظهور الإسلام ، وأحداثه المتلاحقة التى لم تنقطع عن هذه الجذور والأصول حتى اليوم .

إنه بعد سقوط الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية بظهور الإسلام ، وبالتحرير الشامل تحت راياته للوطن العربى ، وبعد أن أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وبعد وثبة المدالحضارى الإسلامى بكل عجائبه وعمائره وعلومه إلى الجنوب الغربى من أوروبا فى الأندلس ، كان لابد للشعوب الأوربية الراقدة تحت الجليد ، والظلام ، والجور الإمبراطورى ، والقيد الكنسى — أن تصحو ، وأن تنتبه إلى الأصوات والأضواء والبشائر القادمة من وراء أسوار الحضارة العربية الإسلامية ، لكى تتعلم أشياء جديدة ، ومفيدة ، لها فى أفواهها لأول مرة منذ عهد طويل .. طعم عربى فيه مذاق التقدم.. والخلود .

ومن أول الأمر فان أوروبا الوثنية لم تجد فى حقائق الإيمان التى جاء بها القرآن ما يحملها — مع ارتباطها بالمسيحية — على أن تناقشها أو تبحث فيها ، وما كانت لتستطيع ذلك حتى لو أرادت ..

ثم وصلت إلى أوروبا بعد ذلك ترجمات عربية لفلسفات اليونان كان النشاط الشعوبى هو الدافع إليها لإحياء ونشر هذه المتاهات الفلسفية بين المسلمين والعرب ، فأقبلت أوروبا على هذا الفكر اليونانى المترجم إلى العربية تنظر فيه بحكم الأواصر القديمة لها مع الإغريق ..

على أن أوروبا لم تلبث فى عصر النهضة أن اكتشفت ما فى الفكر اليونانى الفلسفى من طابع السراب الخادع ، كما تحققت مع تباشير الحضارة العربية ، وانتشار أضوائها على أوروبا من مراكز متعددة فضلا عن الأندلس وإيطاليا وصقلية ، أن الحضارة العربية الإسلامية لم تعتمد فى صميم قوتها وإنجازاتها التى قادها إليها الإسلام على مثل هذا الفكر اليونانى الفلسفى ، التجريدى والمغلق ، والذى لا يصلح منذ كان إلا لتسلية الملوك ، ودعم الطبقة المتسلطة ، وخديعة العامة حول اللعبة العقلية السفسطائية لوثنية الميتافيزيقيا ، هذه التى تخرج من جوفها حسب الحاجة ألف إله ، وألف فلسفة ، وألف هيولى ومطلق ، وألف برهان جدلى على أى قضية تشاء ، كلما تشاء .. ودون أن تشاء !

ثم وصلت إلى أوروبا تباشير ومقدمات المنهج العلمى العربى ، وبخاصة

بعد الحروب الصليبية حيث بلغ تأثير الصدمة النفسية على الغزاة من الفرسان المفلسين، والشباب الجهلة، والفلاحين الأوربيين المذعورين — أقصى حده، وهم يخوضون حرب المصير مع هذه الأمة العربية حتى الموت، وهم يشهدون بملء حواسهم عار تخلفهم وجهالاتهم أمام هذه المدن العربية، أو عندما دخلوا بعضها، وهى لا تزال تبدو فى لحظات الغروب الحضارى شامخة بحقائق إنسانية وعلمية وعمرانية فوق الزوال... حقائق بدت لهم بكل جلالها وصدقها فى عمارة المساجد الكبيرة .. ومعاهدها العلمية .. المفتوحة للجميع : وفى المكتبات والكتب الميسرة لكل الناس، وفى الحمامات الشعبية، وخطط إنشاء المدن .. وفى تلك الآداب والأخلاق الرفيعة، والألفة الشاملة، بين القادة والعلماء والعامة على السواء .. وذلك النسيج الاجتماعى الفريد المتماسك والزاهى بمعانى السواسية والمحبة والإيثار، ثم أسلوب التفكير الذى كان يدل فى أحاديث الناس من كل الفئات على ثقافة الشعب، وعلى منهجهم العلمى المتميز فى تصور الأشياء، وفى التعبير عنها، وعن السماحة، والنزعة السامية الإنسانية حتى وهم فى عدة الحرب — وعن التفاؤل بمستقبل انتصار المسلمين بغير حد ..

لقد وصل العلم العربى ومنهجه التجريبى إلى أوروبا بعد هذه الصدمة الحضارية الشديدة خلال قرنين من الزمان فى الحروب الصليبية، حيث أخذت العلوم العربية والثقافة الإسلامية تتدفق عليها من أبواب طليطلة، ومن جامعات بولونيا وبادوا فى إيطاليا وباريس وبواتييه ومرسيليا وتولوز ومونبيليه فى فرنسا، وكراكوف فى بولندا، وروستوك فى ألمانيا، ومن ثم عبرت ثقافة العرب الإسلامية إلى إنجلترا لتضىء طويلا من جامعة أكسفورد.

لقد تحركت أوروبا التى لم يتسع عقلها لحقائق الإيمان — لتعيد صياغة حياتها من جديد مبهورة تماماً بالعلم العربى، والعقل العربى، وبالذات بالمنهج التجريبى الذى أخرجها به العرب وهم يطرقون أسماعهم بكلمات وأساليب جديدة — من خرافات ومتاهات أرسطو .. وبذلك أقبلت طلائعها على هذا

المنهج بكل طاقاتها لتجمع منه كل شاردة وواردة ، فكان لكل رجل من علمائها — ومن بينهم الملوك والبابوات — أستاذ مسلم ، أو كتاب عربى ملهم ، أو علم عربى يقود إلى الطريق الصحيح الذى عاشت أوروبا — فى جهالاتها طويلا — تحلم به .

لقد أدرك الأوروبيون بعد ممارسات طويلة للعلم الجديد أن هذا المنهج العلمى التجريبى العربى هو آلة العقل التى لا تخطىء فى الكشف عن القوانين العلمية ، وللتوصل إلى القدرة على تطوير العقل العلمى من أجل الاختراع الاختراع ، وسد الثغرات فى صرح المعرفة الإنسانية .

وكان روجر بيكون الذى تو فى سنة ١٢٩٢ من أوائل من تنبهوا إلى هذه الحقيقة المنهجية فى طبيعة العلم العربى ، وكان ذلك فى تلك الفترة من نهاية القرن الثالث عشر التى انتهى فيها الفكر الأوروبى من تمثل الفكر العربى ، حيث أدرك روجر بيكون الذى تثقف فى كل من أكسفورد وباريس فى كتب عربية ، وعلى من تلقوا العلم مباشرة على أيدى علماء مسلمين ، أن العلم العربى الجديد يحتوى على (منهج جديد للبحث) تكمن فيه عملية تحول أساسى فى طريقة تناول العلم والمعرفة .

فعلى الرغم من أن روجر بيكون كان لاهوتياً فلقد رأى بنظرة ثاقبة أنه من الممكن استخدام المنهج العربى الجديد بما يحمله من الاتجاه الفريد لتطبيق الطرق الفنية والرياضية والتجريبية وذلك فى مجال دراسة الفلسفة و اللاهوت ..

وتمضى نحو ثلاثة قرون تهضم فيها أوروبا فى معدة عقلهـــا الوثنى هذا المنهج العلمى التجريبى العربى فتبدو عليها بوادر العافية العلمية وهى تقتحم على أرضها عصر ثورة العلم . وهنا يظهر فرنسيس بيكون فى القرن السابع عشر الذى يعلن بفلسفته الجديدة ضرورة الانسلاخ نهائياً من تقاليد التفكير على الطريقة الأفلاطونية والأرسطاليسية .

لقد أعلن فرنسيس بيكون ما أصبح اليوم من مسلمات العصر الحديث ، فقال إن المنطق اليونانى ، والأرسطى بالذات ، ليس أداة صحيحة للعلم ، أو

للكشف العلمى ، إذ أنه وإن كان بالحيل المنطقية يجبر من يتابعه على التسليم بنتائجه (الصورية) إلا أنه لا يكشف فى النهاية عن شىء جديد ، فى الوقت الذى يبدو فيه وكأنه يجرالتجربة منوورائه كما يجر الأسير ،مع أن هذه التجربة هى أداة العلم الصحيحة .

هذه اللمحة الموجزة عن صدور المنهج العلمى من العقل العربى الذى تقبل بفطرته وبلاغته منهج القرآن الكريم ، تكشف لنا عن هذا التلازم الطبيعى بين رسالة العقل العربى باتجاه المحافظة على ميراث الدين ، واستهداف الإعداد والتنمية والوقاية للذرية الصالحة — وبين النظرة العلمية والحس العلمى لهذا العقل بما يفتح له آفاق الكشف عن السنن والقوانين العلمية ، وما يحفظ له سلامة النظر العلمى من خلال تطبيق منهجه فى التفكير والتجربة ، وما يجعله أقدر على أن يحقق ما لم يتحقق لأى حضارة قديمة أو حديثة وهو جعل الإيمان قائداً للعلم ، وجعل العلم خادماً للحياة ، كما كان ذلك قائماً وفعالا ومؤثراً خلال القرون الأولى للحضارة العربية الإسلامية .

إن هذه الحقائق والخصائص التى أتاحها نشاط الحياة الفطرية فى الجزيرة العربية لنشأة العقل العربى تؤكد سلامة وتكامل السنن والمجالات والنعم التى أعد الله بها شعب الرسالة فى الجزيرة العربية .. أعده بالبدن الصحيح ، والنفس المطمئنة ، والقلب السليم ، والعقل المستبصر ، واللسان المبين ، لكى يحمل لنفسه وللعالمين ، رسالة الإسلام ، وشريعة القرآن ، وبيان اللغة ، وثبات الحق الذى يتغير به الناس .. ولا يتغير بتغير الناس ... وفى كل مراحل هذه الرسالة ، ومع تباين شعوبها وعصورها .. يبقى العقل العربى فى بنائه ، ومنهجه ، وبلاغته ، وهدفه — كما كان — وكما يعبر فى دلالته عن معنى القلب أيضاً — هو آلة الهدى إلى دين الحق ، وهو المقياس والدلالة والمنهج إلى العلم والأخلاق والحكمة ، وهو الحافظ لأهداف الدين بحفظ اللغة ، والقائد لقوى العلم بتوجيه الإيمان ، والمرشد فى فتنة الدنيا باتجاه الآخرة .. هكذا منذ ارتبط هذا العقل العربى فى فجر نشأته بالدين ، وفى مراحل انبثاقه ونمائه بالدين ، وفى طرائق

تفكيره وتعبيره بلغة الدين .. وهكذا بمشيئة الله سيبقى .. ما بقى القرآن والإنسان والحياة .

تعليم العقل : لقد تقبلت الشعوب الأوربية من العرب بتأثير الحضارة العربية الإسلامية — كما رأينا — حقائق العلم ، والمنهج العلمى العربى بدلا من (الأورجانون) المنطقى الأرسطى — ولكن أوروبا بتراكمات أخلاطها الأسطورية ، وأوزارها العدوانية ، ولغاتها القاصرة — عجزت عن تقبل حقائق الإيمان عن العرب ، وبذلك عجزت كما نراها اليوم عن إقامة حضارة متوازنة باسم العلم الذى تقدمت به منفرداً ومعزولا عن إيمان يقوده إلى العدل والسلم . بل إنها مع تقدمها الحضارى الدنيوى تردت أكثر عن ذى قبل إلى مهاوى الصلف والعدوان ، وتخبطت به تخبط الأعمى فى كل اتجاه ، وكان لهذا التردى والتخبط آثاره وانعكاساته المدمرة داخل كيان الأفراد المنقسمين على أنفسهم فى مجتمعاتهم الضاغطة والممزقة بالخمر والشذوذ والجريمة ...

لقد عجزوا فى أوروبا فى مرحلة تحضرهم العلمى على أيدى أساتذتهم العرب المؤمنين عن أن يتقبلوا بل أن يفهموا ما تنزل به القرآن على هذه الأمة من الرحمة والعلم ، وعكفوا على جمع المعلومات التى تتغير بها حياتهم اجتماعياً وحضارياً عن طريق العلم وحده وليس مع الإيمان .. بل إنهم على عكس ما كان متوقعاً ، أظهروا من خلال نشاطهم فى أضواء العلم العربى كوامن نفوسهم العدوانية تجاه المسيحية بدلا من أن يبذلوا جهداً صادقاً فى إصلاح الكنيسة ، وفى محاولة استرجاع المسيحية الحقيقية فى بساطتها وإنسانيتها كما علم بها المسيح كلمات الله .

لقد ازداد رفضهم فى ضوء العلم وإنجازاته للمسيحية .. وللدين أساساً .. وانتشرت بين الجائعين إلى الحياة الرغدة ، والمقهورين بسيف الملوك وصكوك الكهنة فكرة بناء (الجنة الأرضية) .. الجنة التى لا يعبرون الموت إليها ، بل يؤخرون الموت ويكافحونه من أجل الاستمتاع بها .. هنا على هذه الأرض .. إذ أنهم — كما توهموا — أذكى من أن يخدعهم أى قول بأنه

هناك .. بعد هذه الحياة .. توجد حياة أفضل .. للمتطهرين والصالحين !.

وعندما تم لأوروبا امتلاك طريق العلم ، ووضعوا الدعائم القوية للاختراع ثم للصناعة ، وللاستعمار .. وظهرت الاشتراكيات ومن بينها الماركسية تقول بجنات الأرض هنا ، وتعطى ظهرها تماماً لما يسميه الدين (الخلود فى الجنة بعد الموت) .. فقد كان لزاماً على الكثير من مفكريها وفلاسفتها وعلمائها أن يحاولوا إغلاق الثغرة الواسعة التى تركها (الإلحاد) و (العلمانية) و (المطامع المسعورة) على جنة الدنيا .. كان لزاماً أن يسدّ هؤلاء المفكرون هذه الثغرة التى كان يملؤها الدين بهذه الإجابة اليقينية عن حياة محققة بعد الموت .. عن بعث وحساب وخلود .. فى الجنة أو النار .. نعم .. كان لابد من الإجابة عن هذا السؤال الجديد : (ولكن ماذا هناك بعد الموت إذن ؟) وهذا يقتضى الإجابة المباشرة عن السؤال الأصلى .. السؤال القديم ، الذى اختار الملحدون من قديم الأزمنة أن يواجهوه بشتى الإجابات وهو (إذا لم يكن الله وراء هذا كله .. وبعد هذا كله .. فمن وراء هذا الوجود .. ومن وراء الحياة والموت .. ومن وراء العلم والمعلوم .. وماذا كان قبل الزمان والمكان .. وماذا يكون بعد الزمان والمكان ؟؟) .

وظهرت إجابات كثيرة فى صور نظريات ترقى عند أصحابها إلى مستوى العلوم .. ظهرت الداروينية بنظرية التطور الحيوى من المادة البسيطة إلى المادة العضوية .. ثم إلى تخلق الحيوان الأول وحيد الخلية .. وحتى الإنسان .. وظهرت الماركسية فى نفس الفترة لكى تقيس تطور المجتمعات على هذا السلم الداروينى ، أى على أساس تطور التصنيع مع تطور الملكية العامة .. وظهرت أوهام أخرى لم يكن لها أو عليها — فى حكمة الله — برهان قاطع بمستوى براهين المعامل والمختبرات العلمية ، وذلك حتى يبقى الخلاف بين البشر قائماً ، والصراع مشبوباً بكل وسائله على العقيدة أساساً وليس على ملكية الأشياء .. ذلك أن السؤال الذى يسبق قولنا (كيف نحدد ملكية الأشياء؟) هو السؤال الأعظم منه ، والأصلى له ، وهو (لماذا الأشياء .. ؟) ومن ثم نسأل أنفسنا « إذن .. فلمن الأشياء ؟؟ » .

ومن الإجابات التى عاودت ظهورها بالتكرار الممل فى تفسير الوجود قول العالم الطبيعى هوكسلى وهو لا يخفى (عقدة القرد) فى تفكيره الداروينى (إننا إذا تركنا ستة من القردة تضرب بأصابعها أزرار آلة كاتبة بدون وعى أو تفكير مدى ملايين الملايين من السنين فانها فى النهاية تكون قد كتبت كل كتب المتحف البريطانى) ..

وهكذا يكون الخلق عند هوكسلى (مصادفة) كالتى يزعم إمكانها بحكاية القردة التى هى بالبداهة فرض مستحيل ، وعناء مخجل من عالم متعالم أقصى علمه هو اختراع لبرهان خرافى لا تتسع له الحياة الجادة الواثقة المتسقة والمضيئة من حوله . ولكن من قال إن هوكسلى هو فيما يزعمه « أحمق » بالمصادفة ؟؟ .. إن هناك على التحقيق عوامل وسنن كان من المحتم أن تنتهى بعقله إلى هذه الحماقة التى لم ينتبه إليها ، ومن ثم .. لم يخجل منها ..

وجاء جيمس جينز فى كتابه (الكون الغامض) ليبرر غموض الكون أمامه بالتخريف ، وليسيء فهم الحقائق الفلكية التى يعرفها ، ويسيء تأويلها .. ويأتى كثيرون من العلماء فى الرياضة والفلك والنسبية والذرة .. والجميع .. أو أكثر الذين كتبوا منهم يصرون على التوهم ، أو يجهلون فيتوهمون ..

ثم تنفجر نتيجة فقدان التوازن بين العلم والإلحاد أمراض الأنفس المتمزقة وهى تحوم أو تلقى بنفسها داخل أتون (جنة الأرض) الوهمية .. جنة مسروقات الاستعمار .. أو جنة رؤساء الحزب الماركسى .. أو جنة تجار الأسلحة والخمور .. تنفجر أمراض فاقدى الأمن النفسى .. الذين فرض عليهم القسر الإلحادى .. أو العجز الطبيعى عن الإيمان — أن يموتوا قبل الموت .. أن يجفوا بجفاف قلوبهم .. وأن يحطموا مصباح الخلد داخل صدورهم .. وأن يرتدوا بشراً حيوانيين .. مروضين أو منفلتين .. ليسقطوا فى صراع كل يوم بين أنفسهم وأجسامهم .. وبين أجسامهم وحواسهم .. وبين حواسهم وعقولهم .. وبين عقولهم ومصائرهم .. وبذلك يتضاعف الجنوح

والشذوذ والجنون :. وتذبل إنسانية الإنسان الذى تقوده الأدوات والصراعات والأكاذيب .. وهو يتطور رغم (ذكائه) إلى الوراء ..

وهنا يظهر اليهودى سيجموند فرويد ومعه تفسيره الجديد لقصة خلق الإنسان .. التفسير الملائم لضحايا الإلحاد والعلمانية .. هذا التفسير الذى يرد به كل شيء حتى (امتصاص الثدى) .. إلى الجنس .. وينفتح باب سرى فى مدن الحضارة الحديثة إلى ديانة جديدة ، ومعابد فاخرة ، وتسليات محض خرافية .. لعلاج مرضى النفس .. مرضى الحضارة العلمانية .. مرضى لإلحاد .. مرضى الصلف والعدوان والغرور .. مرضى الاشتهاء القاتل لكل ما فى (جنة الأرض) الوهمية .. التى جاء لهم اليهودى سيجموند فرويد متنبئاً أمام أبوابها .. فاتحاً لهم عهد الموبقات الرومانى القديم بصورة عصرية .. فاتحاً لهم كتبه وذراعيه ومصطلحاته المبتكرة .. هذه الجنة التى لا يدخلها إلا المؤمنون بالتثليث الفرويدى الجديد .. الجسم .. والنفس .. والجنس .. ؟ أو الكبت .. وإليكترا .. وأوديب .. ؟

لقد قضى العلمانيون والملحدون على الكنيسة لتعود إليهم بصورة أخرى .. لتعود إليهم فى شكل (العيادة النفسية) .. الهيكل الذى يدخله الشواذ ، والمنحرفون جنسياً ، والمروعون بالفراغ من أى دين ، ليعترفوا أمام (الكاهن الجديد) .. الذى هو (المحلل النفسى) .. وليتناولوا المهدئات والنصائح التى تجعل موتهم سهلا وبطيئاً ومحققاً ..

لقد انتشر إذن طلب (الخلاص) بصورة جديدة .. والذين فقدوا الدين بأوامر الحزب ، أو بغواية الحياة الجديدة فى ظل الآلة ، والرعب ، والتحرر الجنسى ، وانهيار الأسرة — خرجوا يطلبون العزاء عن الإيمان الضائع ، ويسألون كاهن الكنيسة النفسية عن الطريق السحرى الذى يعرفه .. عن التميمة أو التعويذة أو (الأوراد) التى يرددونها لاسترجاع الأمن النفسى .. المفقود !

لقد خرج هؤلاء المطحونون والمنسحقون ومنكسرو القلوب ، لأول مرة منذ عهد مظالم الرومان ، واضطهادهم الكنيسة ، وذبحهم للمسيحيين ..

خرجو فى بياب فاخره أنيقة ونفوس ممزقة بالية .. خرجو بصوره مقلوبه لأسلافهم المسيحيين المؤمنين الذين كانوا يذهبون قسراً للموت فى أثواب خشنة مرقعة ، وأجسام ذابلة واهنة ، وأنفس مضيئة مطمئنة ، ليلقوا الموت صابرين مستشهدين .. لقد خرج هؤلاء المنفصمون نفسياً،والمنفرطون عقلياً ، بعد أن مرقوا من الدين والإيمـان — خرجوا فى طول أوروبا وأمريكا واتساعهما — ليتمددوا بالأمل الأخير على أريكة المحلل النفسانى .. البارد النظرة ، الأفعوانى الملمس ، ليعترفوا له بكل شىء .. بكل الأسرار .. بكل الذى لم يعودوا يخجلون منه .. بكل اللذات غير المشروعة ، والمغامرات الفاشلة ، والأمانى المحطمة .. طالبين أن يعودوا مرة أخرى إلى جنة الأرض .. ومعهم الشعور بالأمن .. معهم سلام أنفسهم الذى تحطم بداخلهم .. !

ومن الناحية الاقتصادية كان لابد لمؤسسات (علم النفس التحليلى) أن تنشط . وقلما التفت أحد إلى غرابة المأساة ، وإلى نذر الانهيار لمقومات الحضارةالأوربيةبهذهالمجتمعاتالعدو انيةالمسلحةبالعلموالتكنولوجيابغير إيمان .. والذين انتبهوا لهذا منعلمائهممثل برتراندرسل تصلبت أعناقهم بكبرياء العلم العاجز عن الالتفات إلى الفراغ من الإيمان . كذلكفانهغيرهذهالعيادات النفسية ظهرت ديانات جديدة كاذبة ، وجمعيات لابتكار وسائل العزاء .. وانفجرت فى أغنى الأوساط قنبلة الشعوذة بتحضير الأرواح .. وبينما تخصص عدد من المحتالين الظرفاء فى إنشاء مكاتب ، وإصدار كتب ، وتوجيه نصائح لجلب السعادة ، وقراءة المستقبل ، وتوفير الحظ ، فقد ظهر فى كل من أوروبا وأمريكا أغرب فن للاحتيال والتدليس داخل صورة علمية وجادة للغـاية وهو فن (تعليم العقل) ..

اشتركت فى هذا الفن الجديد مؤسسات علوم النفس بأنواعها التحليلية والمرضية والاجتماعية وعلوم التربية وأخلاط أخرى من الديانات الوضعية والتصوف واليوجا ، وبالتأكيد فقد شاركت المخططات الصهيونية والتعـاليم

اليهودية لتدمير نفس الإنسان غير اليهودى فى العالم ، ومن ثم فقد أعانت المطبعة والإذاعة والتليفزيون والطائرة على سرعة انتشار الأكذوبة اليهودية الجديدة حول (تعليم العقل).. أى إن الإنسان الذى لا يستطيع أن يغير لون جلده الوراثى — أبيض أو أسود أو أصفر — إلا من خلال أجيال طويلة فى زيجات متعاقبة يصعب التحكم عملياً فى اختيارها — يستطيع تغيير وراثة وظروف عقله بمجرد قراءة كتاب .. وهذا الكتاب — المدفوع ثمنه بالأمل الكاذب ، وبتعريض الحياة نفسها للمخاطر — هو من تأليف رجل ، أو عصابة ، فاقدة العقل والأمانة .. والإيمان !

هذا الدين العلمانى العصرى والكاذب لا يزال منتشراً ومتفاقماً حتى اليوم فى أوروبا وفى أمريكا بالذات ، حيث تقوم مؤسسات وعصابات (تعليم العقل) بتصدير منتجاتها وتعاليمها وإرشاداتها على نطاق واسع ، وبكل الجشع والضراوة والقسوة إلى أبعد مكان فى العالم .. وبخاصة لترويض وتدمير المتخلفين ...

وتبدأ عمليات (تعليم العقل) بداية جذابة فى طرق التربية الحديثة للأطفال التى تعتمد على الدراسة النفسية — غير الموحدة الاتجاه — وعلى قياس الذكاء .. ولكن هذه الطرق التى تتحسس ظواهر نفس الطفل وعقله لا تملك ولا تفكر فى تغيير الظروف الأساسية التى يعيش فيها مجتمع الطفل ، وتعيش فيها أسرته ، ومنها مفهوم الحرية ، وشكل النظام الاجتماعى ، وعلاقات الأفراد ، وصورة المستقبل ، والعقيدة التى تفسر الحياة وما قبل الحياة وما بعد الموت ، وهى تؤثر ولاشك على تكوين (العقل) كما أوضحنا ذلك فى مناخ العقل العربى الذى حمل بقدرات حقيقية ، وإرادة حرة ، رسالة الإسلام والسلام والعلم إلى شعوب العالم ، بالقدرة والإنجاز العملى والنص الثابت .. وليس بالدعاية أو بالمهاترة أو بالإكراه ..

يقول ماك دوجال الأمريكى الذى ينعتونه بأنه أبو علم النفس فى القرن

«العشرين وهو يضع خطوط التربية وتعليم العقل للأطفال (الطفل يحمل وراثات أجداده ولكن التربية تستطيع أن تعدل اتجاهاته) .. معنى هذه النصيحة الفضفاضة وغير العملية أن (الكسب) عن طريق التربية يصحح ويعالج بعض الانحرافات الوراثية، وهذا صحيح نسبياً ، ولكن كيف يمكن تحقيق هذا التأثر السليم بالتربية فى صميم الاتجاهات والأهداف الخطرة والمنحرفة التى استقر عليها مجتمع مثل المجتمع الأمريكى مثلا .. ؟ .. كيف يمكن أن يكون من موضوعات التربية للأطفال تأكيد أن الأمريكى كاذب ومضلل فى ادعائه بتفوق الرجل الأبيض ؟ .. كيف يمكن أن تهدم التربية خصائص الوراثة العدوانية فى أكثر الشعب الأمريكى .. وكيف يمكن أن تهدم مقومات هذا الوجود العدوانى بنوع من التربية يدين الاحتكار ، والاستعمار ، وقتل الزنوج ، وكراهية العرب ، والطاعة العمياء لليهود .. ؟؟

ويضحك ماك دوجال من نفسه حين يقول أيضاً (التربيـة للأطفال بالقدوة .. فالنصائح لا تجدى) .. فأين هو الأب أو المعلم ، أو حاكم الولاية الذى هو قدوة للطفل الأمريكى .. وها هى جرائم القتل والسرقة والاغتصاب تقع أمام عينيه كل يوم كأنها طبيعة الحياة ، ليقتدى بها ، وليمارسها .. وهذا هو ما يفعله أطفال وشباب أمريكا اليوم ..

ويلجأ دوجال كغيره إلى النصح بالإكثار من (محاسبة النفس) وقد جهل أن من يحاسب نفسه ينبغى أن يعرف المقياس الصالح الذى يقيس إليه عمله .. والمجتمع الذى يعيش فيه الغربيون والأمريكيون ليس له بالطبع مقياس صالح . ما المقياس العرفى المتفق عليه بينهم فهو المقياس الهاضم لحقوق الفقراء ، المعين على فجور الأغنياء . فالنتيجة أن يظل مظلومهم يحاسب نفسه بلاجدوى ، فلا يدرى أهو مصيب أو مخطىء ، إلى أن تصيبه الوساوس من هذا الاضطراب الشعورى المستمر ، فينتهى الأمر به إلى الجنون .. كما يقع بينهم الكثير من متحررى الجنس وبين العاطلين والفنانين وأشباههم ..

وهناك كتاب مشهور فى أمريكا اسمه (ماستر — كى) أو (المفتاح المرشد) وقد وضعه (شارل هانل) ليعلم به العقل كذلك ، ويجلب السعادة والثروة . بل هو كما يزعم صاحبه يعلم إدراك الأهداف التى يصغر (العقل) بجانبها عند الأوروبيين مثل :

١ — كيف يربح الإنسان عشرة أضعاف ربحه الحالى ؟

٢ — كيف يتغلب المرء على الصعوبات ، ويتجنب اصطدام بالأعداء ؟

٣ — كيف يزيد الجاهل الأبله من قوة عقله ، ويوقظ النشاط النائم فى نفسه ؟

٤ — كيف يتخلص المذنب من آثار الماضى السيئة ، ويدخل فى تفكير جديد .. نظيف ؟

٥ — كيف يماشى الإنسان ظروفه ، ويساير ما حونه ، ويعمل على استغلال كل شىء فى الدنيا لصالحه ؟

أفرأيت إلى (هانل) وهو يدعو إلى (مسايرة الأحوال) فما هو الخبر الذى جاء به وجميع الغربيين يسايرون أحوالهم بالغريزة ، وقد برعوا فى ذلك .. ولكن أليس من (مسايرة الأحوال) أن يؤلف (هانل) أمثال هذه الكتب التى تضع الأرض كلها بين أيدى معاتيه الغرب ، كما يفعل ذلك فى الشرق أقطاب الصوفية الذين يضعون الجنة بين أيدى مريديهم ، ويملأون بها أحلامهم وذلك من طريق الأوراد ، ومناداة (الأسماء السرية) .. بلى إنهما لصوفية واحدة ، وإن تقابلتا فى امتهان العقل وإنكاره على طرفين . ولذلك فلسنا نعجب إذا رأينا (شارل هانل) فى القرن العشرين من تاريخ أوروبا المسيحى يجعل (الحلول الصوفى) أساس نصائحه حيث يقول زاعماً (إن الإنسان جزء من الإله ، وفى استطاعته لذلك أن يصنع كل شىء) .. وبهذا الوهم نفسه يعيش صوفية الشرق وحلوليوه ..

ومن أوجه التشابه فى فنون تعليم العقل بين صوفية الشرق والغرب قيام

جماعات أوروبية وأمريكية بممارسة عملية (الشخوص) أو (التركيز) أو تقوية الإرادة والذاكرة باختيار أهداف يشخص إليها عقل المريض قبل سر،ٍ بما يسمونه (الإيحاء الذاتى) وهو شبيه بما يلتزمه صوفية الشرق وخاصة دراويش الخلوتية والنقشبندية من تصور المقابر والموت والديدان والجثث قبل النوم ، ليزداد فزعهم من مصير الإنسانية ، فيزداد تسليمهم أرسانهم لأيدى الشيوخ الذين يقودونهم إلى التهلكة .

ومن أمثال هذه (الأوراد الأوروبية) التى تتجه فى مد الأعمـــال والصناعات الرائحةاتجاهاًمادياً مسايرا لأورادالصوفية الشرقية — وقد وردت فى كتاب (مزمز) :

« سأكون فى الغد هادئاً قرير النفس .. وسوف لا أنزعج بالصو، والأفكار التى تعرض لى .. سأنساها .. سأنجح فى عملى .. سأكون فى شجاعة نابليون .. الخ » .

ومنها أيضاً « سأكون غداً وفى كل يوم شجاعاً ، نشطاً ، منشرح الصدر . لن يضايقنى شىء .. سأضحك .. بدلا من أن أغضب .. » .

فأمثال هذه (المتواليات) هى التى تنتهى بأصحابها المتعطلين إلى مستشفى المجاذيب كما انتهت بالدراويش إلى التكايا . لأنها تثير رغبة هؤلاء المحرومين فى هذه الأمانى ، مع فشلهم المتواصل فى تحقيقها . فهذه المحفوظات والأدعية ليست إلا تأكيداً لحالة الحرمان ، واعترافاً مستمراً بالعجز والنقص والهوان ، دون الوصول إلى أية حقيقة ملموسة . إن هؤلاء الذين قصدوا ، ومازالوا يقصدون ، إلى عيادات المحللين النفسيين والأطباء الروحانيين ، والمنومين المغناطيسيين ، والمؤلفين الكاذبين الذين تطبل لهم شركات النشر إنما يذهبون صفوفاً صفوفاً بحوافز تلقائية إلى مكان الموت ، وساحات الفشل حيث يقتات منهم هؤلاء (الكهنة .:.) الدجالون الذين يموتون بعد ذلك بدورهم من التخمة بضحاياهم .:. !

ومن هذه الفنون المستحدثة أيضاً فى تعليم العقل (مدارس المراسلة) التى تطبع آلاف النسخ من دروس خصوصية ترسل إلى من يطلبونها من الرجال والنساء ، لتزرع الثقة فى قلوبهم مما تتناوله من البحث فى (المتاعب النفسية) وكيفية تجنبها .. ومن أشهرها مدارس (بلمان) ومنها معاهد (علوم النفس التطبيقية والتجريبية) والتى تملأ أرجاء إنجلترا وأمريكا ، والتى تعلم تمرينات حصر الذهن وتقوية الحواس والذاكرة ، والإيحاء الذاتى ، والتحليل النفسي ، واتهام النفس ، وإحصاء الأغلاط ... الخ .

وثمة نوع مستحدث من الرسائل الخرافية لتعليم العقل وهو تخصص بعض المرتزقين الكذابين فى الإجابة عن أسئلة الحيارى . وقد ابتكر هذه الطريقة قسيس أمريكى اسمه (كادمان) وعلى سبيل المثال نذكر بعض أسئلة وردت له وأجاب هو عنها تلك الإجابات الصوفية اللولبية المعروفة :

س : ما هى الأهداف الكبيرة فى الحياة ؟

ج : هى بالترتيب : الصحة الكاملة ، والمعرفة ، والعمل ، والصداقة .. والدين .

س : هل الضمير حكم صادق على المسائل الخلقية ؟

ج : كلا ..

س : كيف نتخلص من فوضى المدنية التى ليس فيها إلا الإثم والشر ؟

ج : لا تنظر إلى الناس كأنهم فاسدون ، بل ناقصون فقط . ولا تنس حسناتهم الكبيرة إلى جانب سيئاتهم ...

س : ما هى وسائل النجاح فى الحياة ؟

ج : هى فى الامتلاك .. والراحة .. والسمعة .. وهى فى مسايرة الأحوال ..!!

وهى جميعها كما ترى أجوبة تجارية لولبية رأسمالية كهنوتية مضللة

وكذلك امتدت وسائل تعليم العقل إلى (الأجسام) فظهرت فنون لتعليم العقل من طريق (القوة البدنية) فانتشرت نظريات جديدة عن (الرياضة) (التغذية) و (الهواء الطلق) و (الكشف) . ولعلنا بملاحظة الأساليب

الرياضية الحديثة أن نتحقق من فشل هذه الجهود النفسية والبدنية فى خلق العمل ذلك أن أكثر (الرياضيين) و (الكشافة) والمحافظين على أساليب خاصة فى التغذية إنما يجعلون هذه الوسائل البدنية شيئاً إضافياً إلى حياتهم المدنية المنحرفة، ونظرتهم غير المضيئة ولا المحدودة إلى أهداف وأساليب وأخلاق الحياة السليمة.

كذلك ظهر بالدعوة إلى الحياة الطبعية البسيطة كثير من الرجال فى أوروبا وأمريكا ولكن هؤلاء سرعان ما جعلوا ذلك — بطبيعة المجتمع الذى هم فيه — وسيلة للمتاجرة والشعوذة . إذ لو صدقوا لكانوا سباقين إلى تهيئة مناخ هذه الحياة الفطرية الطيبة فى مواطنها ، وباعادة تخطيط المدن وأساليب الحياة لتحقيق الجو الطبيعى للبساطة فى حياة الفطرة والطهارة .. ولكنهم حبسوا أنفسهم تحت الأقبية ليصدروا كتباً ونصائح للترفيه فقط عن التعساء المكدودين ، وليتمكنوا هم بدورهم من مسرات الحياة المدنية الجانحة .

بل لقد بلغ الإسراف بهم فى الجناية على الخير والعقل أن تحولت هذه الدعوة للحياة البسيطة : حياة الشمس والهواء الطلق ، والعمل المثمر فى سبيل الحياة الصحيحة إلى مذاهب داعرة غاوية مثل مذهب (العرى) الذى ظهر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ليجعل من بعض الأماكن الخلوية فى أوروبا وأمريكا أماكن لاصطياد أغنياء الحرب من أهل الشذوذ والعاهات الجنسية ، ثم يستأجرون لشهواتهم عدداً من الأيتام من الغلمان والفتيات ممن طحنتهم مآسى الحرب لتتغذى بهم شهوات هؤلاء الأغنياء المجانين باسم (التربية الحرة) على (أرض النور) ..

لقد زعموا فى دعاياتهم أن العرى يعلم العراة فى مستعمراتهم (مواجهة الحقائق) من غير مواربة ... كما أنه يحقق عملية ضرورية هى (التنظيف النفسانى) من جهة أنه يزيل التفكير فى الجنسيات كما هو حاصل فى الحيوانات ... التى تعتبر هذه المسألة مسألة عادية ... !!

ولقد زعموا أيضاً — وهذا بيت القصيد — أن المحطمين والمرضى ليسوا إلا قوماً لم يتمتعوا فى حياتهم بالصوفية فى العرى .. !

ومن كبار من ربحوا من هذا البغاء المستحدث رجل اسمه (الدكتور فونزل) . وكان يكتب على مصيدة بغاياه، أو مستعمرة عراته، العبارة الدعائية الآتية، (أرض النور .. ممنوع الدخول بغير إذن الدكتور فونزل)... أى لا دخول إلا بعد الاشتياق ودفع الإيجار .. !

نشأت مستعمرات العراة نتيجة من نتائج الدمار والتخريب والترمل الذى أصاب الأوروبيين بعد الحرب الأولى ، فكان رد الفعل فيهم أن يستجيبوا لهؤلاء السفاحين اللا أخلاقيين من دعاة (السلام واللذة) وممن يربون الشعوب على حب الحياة بأن يوقعوهم فى شهواتهم ، فكانوا وهم يمارسون شهواتهم ، ويرقصون عراة على نغمات (أطبائهم) ، يتوهمون أنهم حققوا أسمى مراتب (الطهر) فى هذا الامتزاج الحيوانى الذى يمارسونه وراء الأشجار ، أو على العشب بلا محاسب أو رقيب . وهم فى ذلك لم يخرجوا عما عرفوه عن أساتذتهم فى بعض مذاهب الشرق الذين يلجأون(*) عند اشتداد الهوس والقلق عليهم إلى عملية (الإطلاق) التى هى توأم (العرى) تماماً عند الأوروبيين ..

ولقد راجت هذه المستعمرات التى تم الإعلان عنها بمهارة غريبة فى جميع أنحاء أوروبا ، فكان النهمون الشرهون من عجائز الأغنياء يفدون على (درمستاد) و (جلزنجن) فى ألمانيا ليجدوا هذا (الهناء الصوفى) فيغتسلوا فيه من فزع الحرب ، ومن كابوس الموت ، ومناظر الخراب والدمار والدماء. وقد أدى هذا الرواج إلى إنشاء معاهد خاصة لعلاج الأمراض النفسية من طريق العرى فى فرنسا ، فقامت مؤسسات للعراة أنشأها متصوفة العرى وأقطابه فى داخل المدن الكبيرة ، وفى هذه المؤسسات كانوا يعالجون أمراض الحرب ، وأمراض الخوف ، والأمراض التناسلية الشاذة بالموسيقى والرقص والإيحاء ، وبالتحريض المستمر على البغاء . ثم تقوضت هذه المدارس أخيراً

(*) الاطلاق فى بعض مذاهب الزنادقة مثل القرامطة هو الممارسة العشوائية للجنس فى بعض احتفالاتهم حيث بعد الرقص يطفئون الأنوار لكى يقع كل رجل أو امرأة على من يقع عليها بالصدفة حتى لو وقع الرجل على أخواته وبناته ومحارمه أو أزواج أصدقائه !

بعد أن صار العرى على سواحل أوروبا أمراً عادياً ، وبعد أن نشأت فيها هذه المعاهد الصوفية الحديثة التى تعمد بالتحليل النفسى إلى تحقيق السعادة للزوجين أو العشيقين وللشيوخ والمرضى .. إذ تعلمهم العقل .. أو تعوضهم بنصائحها الخرافية ولذاتها المعقدة عن العقل .. !!

وأخيراً تظهر فى كل من أمريكا وأوروبا دعوات صريحة إلى (الإيمان) نشق ظلام الحياة المطبقة على هؤلاء المتأنقين من منكسرى القلوب ومحطمى النفوس كالشهب الفاقدة الاتجاه .. إنها تظهر بالدعوة لغير دين محدد .. وتتكلم برطانة ورموز أقرب إلى لغة محضرى الأرواح .. وليس من مصدر تعتمد عليه هذه الدعوات الواهنة للإيمان إلا مصدر علم النفس الحديث ، هذا العلم الذى بدأ يكتشف فى زيارة الكنيسة وسماع الأناشيد الدينية ، وخلوة الاعتراف علاجات وقتية لبعض الاضطربات النفسية ..

ومثال على هذا النوع من الكتب فى الدعوة إلى الإيمان .. الإيمان بأى دين مهما كان لغواً أو مناقضاً للمعقول كتاب العالم النفسى الحديث الدكتور هنرى لنك وهو (العودة إلى الإيمان) وفيه يشرح لنك كيف أن دراسته الفلسفة الإغريقية القديمة ، القائمة على مجرد العقل والإغراق فى الشهوات ، ثم دراسته لتاريخ التطور الذى حل بالكتاب المقدس ، والذى لمس به الدلائل القاطعة على عبث رجال الدين الأوائل بهذا الكتاب ، فأضافوا إليه من عندهم وحرفوا فيه ، وزيفوا بعضه على مر الأيام — هذه الدراسات وأشباهها حول أصول الحقائق العلمية الثابتة ، والحقائق الدينية غير الثابتة ، عصفت بإيمانه المسيحى ، وجعلته يرتد ملحداً عنيفاً .. ولكنه بعد أن درس علم النفس الحديث انقلب إلحاده رأساً على عقب ورجع مؤمناً قوى الإيمان .. وهو يعنى علم النفس التجريبى الذى يقوم على تفهم الشخصية وترقيتها والتقدم بها حسب القواعد التى أشرنا إليها قبل عن « تعليم العقل » و « تحقيق السعادة » بمجرد النصائح التى تتسع لكل المعتقدات والأمزجة والأهواء .

يقول هنرى لنك فى خلاصة دعوته إلى الإيمان (إن كل من يعتنق ديناً ،

او يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له ، أو من لا يزاول أية عبادة).. وهذا صحيح فى حدود العزاء .. والراحة السلبية للنفس.. وتقليل ضغط المشكلات .. وتوفير شحنة الآمال التى لا تتحقق .. ولكن هل هذا يكفي ؟ .. وهل هذا هو الإيمان الذى يطلب إلى الممزقين والمنفصمين عقلياً ونفسياً أن يعودوا إليه ؟

والآن بعد هذه المواجهة والحوار أو الجدل بين العقل العربى والعقل الأوروبى ... الآن ... من هم أولى وأجدر بالعودة إلى الإيمان الحق .. الآن بعد أن تعرفنا وطالعنا فى هذا الكتاب قدراً من ضلالات الحضارات القديمة التى كانت تحيط بنا ، والتى جاء الإسلام فحررها حيناً مما كانت فيه .. وبعد أن لمحنا قدراً كافياً من ضلالات الحضارة العدوانية المعاصرة.. ومحاولاتها التأثير علينا لننقل عنها ما هى فيه .. من يكون أجدر منا بالعودة إلى الإيمان الحق ، الذى نملك نصوصه ، ونعرف طريقه ، ونفتقد أزره .. بل ماذا أمامنا إلا أن نعود به إلى الله .. وإلى الإسلام ..؟

* * *

القسم الثالث

نحو الحقيقة

في هذا العصر .. هل يعود العرب إلى الإسلام
فيعود الإسلام .. إلى العالم

الطريق الواحد :

من خلاصة ما تقدم فى فصول هذا الكتاب نتبين هذا الطريق الواحد الذى سارت عليه صحوات العرب إلى الله والدين .. الطريق الذى تجمعت بأوله كماء السماء خصائصهم الأساسية التى أعدهم الله بها فى جزيرتهم ، ليتقبلوا الإسلام ، ويتوحدوا به ، ويجاهدوا فيه .. لقد نشأت هذه الخصائص — كما أشرنا ببعض الإبانة — من الرحلة التى فرضها الجدب ، ومن الحرية التى أثمرتها الرحلة ، ومن اللغة العلمية الدينية المبينة التى انتظمت كلماتها جميع معانى الحياة ، فى هذا الاتصال المباشر بين العرب وبين هذه الطبيعة التى ينطق اتساقها بقدرة الله ووحدانيته ، وتعبر ظواهرها عما بها من سنن الله ورحمته .. وهكذا نشأ فيهم الدين حول اسم الله الحق ، ووصايا الآباء إبراهيم وإسماعيل ، وحول بيت الله كل عام فى مواسم التلبية والحج .. كما تعزز هذا الدين وتأصل أمام آيات الله فى لآفاق ، وفى أنفسهم ،وهم يرحلون ويقيمون ، ويشرقون فى الأرض ويغربون .. وكذلك حافظوا على هذا الدين وتحصنوا به بهذه المناعة الفطرية فيهم ضد معتقدات الحضارات الزائفة المحيطة بهم .. هذه المناعة المستقرة على ثقتهم بأنفسهم ، وفى دينهم ولغتهم ... وفى أنهم العرب أهل البيان .. وأهل الرأى والمعروف .. الذين لا يذلون لسلطان ، ولا يرضون الدنية فى عيش ، ولا يعانون الشك فى الدين ، ولا ينكصون عن الحق إذا عرفوا الحق ..

هذه الخصائص التى أثمرها كفاح طويل على أرض متسعة بغير سدود ... أرض جدباء .. نقية ودمثة كالرمل .. صلبة وشامخة كالصخر .. بديعة ومتجددة الأضواء والألوان كالحياة .. غنية بجمال الخلق لأول .. عزيزة بغير

حصون .. رحيمة مع وطأة القسوة .. هادية مع تربص الضلال .. هـذه الخصائص المتكاملة كانت القواعد الثابتة لهذه الأخلاق الشريفة التى اشتهر بها العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام .. أخلاق ليس لكلماتها ومعانيها ومراميها فى حياتهم ولغتهم مقابل فى أى حياة أو لغة أخرى .. أخلاق كانت فى جدب جزيرتهم هى خصب عيشهم ، وتراث أسلافهم ، وهم يتماسكون بها حول تنظيمهم الأسرى القبلى الأبوى ليشقوا فجاج الحياة الصعبة وطرقهم الوعرة ، وأهدافهم البعيدة ، أقوى ما يكونون ارتباطاً فى وجه الشدائد والأعاصير ، وأقرب ما يكونون تجانساً فى وحدة النشأة والمصير .

ومن النظام القبلى الذى لم يهدمه الإسلام ، بل جعله لبنة الوحدة القوية بالإسلام ، تدفق معين المساواة ، ومن ظروف المواجهة المباشرة للطبيعة ، ومقتضيات الأمن ، أصبحت مسئولية القيادة بين هؤلاء المتساوين بالإنسانية ، ومسئوليات الحياة وحقوقها ، هى للأصلح منهم أخلاقاً ، والأكثر بذلا ، والأقدر على هذه القيادة فى مجالاتها المتنوعة .. وهم الأكثر إيثاراً للآخرين فى القبيلة على أنفسهم .. والقيادة مسئولية يقررها أبناء القبيلة جميعاً باختيارهم المباشر لقادتهم ، وتجديدهم كلما أرادوا ، وحمدهم على الإحسان ، ونقدهم على بوادر الهوى ، وعزلهم كلما قصروا .. أو كلما ظهر نحو غايات المجد والرعاية من هو أسبق منهم .

بهذا الاختيار اليومى للكفاءات ، والتربية المستمرة للقيادات ، والتعلم الدائب فى معترك المواجهة ، وصدق التعبير ، وأمانة القصد ، ويقظة الحس ، ورجاحة العقل — تعاظمت قيمة الإنسان عند العربى الأول حتى بلغت أسمى درجاتها فى (حقوق الإنسان) كما تنزل بها القرآن الكريم فى شريعته وأحكامه. وأصبحت الحرية عطاء ونجدة من الحر ، وليست مغنماً وتسلطاً .. أصبحت الحرية حرية الخير فى المروءة والفضل والعدل والإيثار ، وليست حرية الشر فى اللهو والشح والمعصية والعدوان .

بهذا الاختيار والتنمية لقدرات الإنسان العربى فى حياة كل يوم أصبحت

المساواة ديناً ، والحرية التزاماً ، والحكمة ذكراً ، والذكر عملا ، وتهيأ الناس من أبناء تلك القبائل بعد عصور من حروبهم على المعروف ، وفرقتهم حول السيادة ، وتعارفهم حول البيت — ليأتلفوا فى أعظم مثال على دين الله الحق بغير شوائب ، وبغير تحير ، وبغير شرك ، إلى أقصى ما يحق لهم أن يبلغوا بالتحرير لوطنهم الكبير ، وبالأسوة والدعوة والحضارة إلى عالمهم المعاصر .. حاملين مع هذه الرايات حقائق حياتهم التى يعلو بها قدر الكلمة ، ومرتبة العقل ، وقيمة العمل ، وهدف الخلود .

جهاد القرآن : ولقد كان جلياً فى حكم التاريخ ، وبنزول القرآن كله فى جزيرة العرب أن هذه الخصائص التى نهض بها بيان العرب ، ونبتت أخلاقهم ، وانتهت إلى الله حكمتهم ، لم تكن مما توفر لأمة على هذا المثال فى غير جزيرة العرب ، حتى نزل القرآن الكريم ، وحتى انطلق به صحابة الرسول الكريم فى مد الإسلام للتحرير ، وإشراقه للتنوير والتغيير ، فكان حفظ القرآن بتعلم لغة العرب ، والجهاد حول القرآن ، والجهاد بالقرآن،طريق الإثبات لهذه الخصائص الإنسانية من خلال حركة (التعريب) الواسعة التى صاحبت انتشار الإسلام .. التعريب باللغة ، وبالأخلاق ، وبالحفاظ فى السرائر وبالأعمال على الشريعة والدن ، مما حفظ حياة الأمة العربية،رغم ضراوة أعدائها ، وثقل أعبائها ، ومخاطر الفتنة والغوايات المبثوثة حولها ، كما حفظ عليها أملها الذى لا يتبدل ، وعملها الذى لايتوقف ، رغم تطاول القرون — من أجل استكمال ما نقص من عروبتها،وما وهن من إسلامها — باللغة والقرآن .

فالقرآن الذى حفظه الله إنما حفظه من أجل هذه الأمة التى تلقته أول الأمر ، وآمنت به ، وعملت بما فيه ، ولم تضن بفضائله على أحد فحملتها وأذاعتها فى كل اتجاه .. والقرآن الذى حفظه الله هو الذى جاهد ولا يزال يجاهد فى هذه الأمة ، حافظاً لها مقوماتها ، وحاملا إليها مراحل تاريخها ، وملامح وجودها ، وصوت غايتها ، لتتذكر كلما نسيت ، ولتسترشد كلما غفلت ، ولترشد كلما غوت ..

هذا القرآن بجهاده فى هذه الأمة العربية قد ربطها من الخليج إلى المحيط ، وربط كل المسلمين معها ، بنقطة انطلاقها جغرافياً وتاريخياً بالدين ، وبمركز تعربها ونقاء لغتها من أجل الدين ، وهو المسجد الحرام ، الذى تتوجه إليه بالصلاة فى مواقيتها كل يوم ، وبالاجتماع فيه للحج كل عام.. هذه العلامة الحسية والعقلية والقلبية فى توجه الوجوه (شطر المسجد الحرام) يملؤها القرآن بصوته وآياته وحكمته ، ليظهر بها آناء الليل وأطراف النهار أنه لاقبل للعرب ، ولا لأحد غيرهم ،أن يفصم العربية عن الإسلام لغة ومكاناً ،وغاية ومصيراً .

وهكذا يغدق القرآن فضل الله بالتعريب على كل المسلمين من جميع الشعوب ، وهو يوجههم إلى استحضار المكان والزمان ومراحل التاريخ التى عبرها وانطلق منها الدين الحق ، ويمنحهم دون كثير من الجهد ما يسعهم اكتسابه من خصائص البيئة واللغة التى أعانت العرب على وعى الإسلام ، والتخلق بخلق القرآن .. وإن العرب اليوم إلى فضل القرآن فى هذا السبيل أكثر حاجة إليه من غيرهم ، وأحق به لإصلاح أمرهم ، وهم أجدر .. والقبلة فى قلب ديارهم ، والقرآن قد نزل بألسنتهم ، أن يستعيدوا بتعريب أنفسهم وعقولهم ، خصائصهم وأخلاقهم الأولى ،حيث لا يقوم الدين الحق بغيرها ، وحيث لا يخلص إلا بها قلب المؤمن ووجهه وعمله فى سبيل الله .

وحدة العرب : وعندما نعود إلى مسئوليتنا عن وحدة هذه الأمة العربية التى لا تزال تعيش فى قلب العالم ، وقلب جميع القارات ، أمة وسطاً بين جميع المتصارعين والمتنابذين — نتذكر ونؤكد مرة أخرى أن الأمل المرفوع أمام أعين المسلمين لاتحاد العالم الإسلامى المعاصر لا يمكن أن يتم — بقدر ماتهدينا حكمة الله من سنة الظهور الأول للإسلام — إلا ثمرة لقيام أمة عربية واحدة .. أمة مؤمنة ، قوية ، غنية ، غير منقسمة على فهم الإسلام ، ولا متباينة فى منهج الحياة به ، والعمل بشريعته .. أمة لا تزال تعيش فى قلب الدول الإسلامية ، محتضنة بأذرعها للقبلة ، وللقدس ، ولمراكز الثقافة الإسلامية الأولى الحافظة للغة العربية ، ولتعليم الفقه والقرآن وعلوم العصر والعمران.

إن هذه الأمة العربية التى ظلت بوحدتها صامدة تفيض بعلومها وحضارتها

الإسلامية الإنسانية على العالم قرونا طويلة ، والتى سقطت وتمزقت وتداعت صروحها بسقوط الدولة العباسية المتنازعة السلطة سنة ٦٥٦ هجرية وسنة ١٢٥٨ ميلادية — هى بكل مقوماتها وقدراتها السابقة والحاضرة — المصدر الأول فى حال وحدتها لتضامن وقوة العالم الإسلامى ، وهى الأساس المتين لقيام المنارة ، والأمة المرشدة بأصالتها ، ومواردها ، وتعدادها ، ومكانتها فى تاريخ العالم — لحضارة وثقافة وانجازات الإسلام الحق .. فى قلب الطبيعة الخاصة للعـــالم المعاصر .

وفى هذا الاتجاه إلى الوحدة العربية ، وقد بدت بوادره وضروراته تظهر وتتجلى فى عصرنا الحديث لا ينبغى أن يقع صراع بين هدف قيام أمة عربية تتوحد بايمانها وإسلامها ، وتتقوى بموقعها ومواردها ، وبين هدف لا يتم بداهة بغير قيام الوحدة العربية وهو ما ينادى به البعض اليوم من التكافل أو الاتحاد بين دول العالم الإسلامى .

إن هدف قيام الأمة العربية الواحدة ضرورة حياة ومصير للشعوب العربية وأبنائها الذين ينشدون الحياة بعهد الله ، وأسوة النبى ، ولغة القرآن ، وأمانة الحفاظ على حريتهم ، ووجودهم ، وتقدمهم ، ورسالتهم الحضارية العالمية فى هذا العالم الذى يعيشون فيه .. وهذه الضرورة الحيوية لوحدة العرب هى نفسها ضرورة حيوية أيضاً لجميع الشعوب والأوطان الإسلامية الأخرى . ولا يمكن أن نتصور ، إلا فى حالة سوء النية أو انحراف التفكير ، أن يوجد شعب مسلم غير عربى يرفض أو يعارض أو يطالب بتأجيل قيام وحدة الأمة العربية على الأساس الذى وحدها به الإسلام منذ شروقه فى القرن السابع الميلادى .

وفى ضوء هذا الهدف الحيوى وضروراته تقتضى تجاربنا السابقة مع الشعوبية والصهيونية والاستعمار أن ننتبه إلى مجموعة الشراك والعوائق التى لا تزال تضعها هذه القوى المعادية على الطريق .. ومن أكبر هذه العوائق التمويهية الزعم بأن القومية العربية تتعارض مع مفهوم الأخوة الإسلامية !

يقولون هذا بينما كان العرب باسلامهم أول من طبق مبدأ « الأخوة

الإسلامية » على أنفسهم داخل الجزيرة على عهد الرسول الكريم ، وخارج الجزيرة بالنسبة لغيرهم من الشعوب على عهد الخلفاء الراشدين . لقد كان العرب بشهادة التاريخ الصحيح هم الذين طبقوا هذا المبدأ فى تعاملهم الكريم والإنسانى والمتسامح مع الشعوب غير العربية التى حكموها نتيجة حروب الفتح والتحرير ، والتى لم يخوضوها أساساً إلا تأميناً لسلام الوطن العربى وسلامة أهله ضد محاولات غزاته التقليديين أن يغزوه من جديد ، كما حدث مراراً فيما بعد انتصار الإسلام من غارات البيزنطيين والمغول والسلاجقة والصليبيين .. وأخيراً هذه الهجمة المعاصرة للاستعمار الصهيونى الذى لم يتم دحره عن الوطن العربى بعد ..

لقد كان العرب أول من دعا إلى الأخوة الإسلامية والتزم بشريعتها ، و لكن الشعوبية تريد أن تجعل تطبيق مبدأ الأخوة الإسلامية من جانب واحد هو الجانب العربى ، وأن تكون نتيجة تطبيق هذا المبدأ لصالح غير العرب فقط وهو أن يتخلى العرب عن مبدأ وحدتهم وقوميتهم .. هذه الوحدة التى تصمم الشعوبية وحلفاؤها على أن تجعلها حراماً على العرب .. وحلالا فقط لغيرهم من الشعوب الإسلامية غير العربية ..

لقد كان العرب أول من حقق إلى أقصى الصدق مبدأ أخوة الإسلام بينهم وبين أنفسهم ، فاتحدت شعوبهم العدنانية والقحطانية ، وقبائلهم الشمالية والجنوبية تحقيقاً لقوله تعالى :

(وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ١٣ : الحجرات . ومصداقاً لقوله تعالى : (وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم) ٦٣ : الأنفال .

ثم عندما خرج العرب بالإسلام إلى أرض الأنهار فى وطنهم الكبير طبقوا مبدأ الأخوة الإسلامية فى القرآن الكريم على كل المؤمنين ممن عرفوا آباءهم ومن لم يعرفوهم .. عربا كانوا أو عجماً .. فاعطوهم حقوقهم من الأمن والحرية ، وأشركوهم معهم فى الأعمال التى يطيقونها ما عدا ولاية الأمر

والجيش — ولم يشقوا على أحد منهم بالتكاليف ، وعلموهم فى المساجد علوم اللغة والقرآن والدين ، ورفعوهم بالعلم إلى أعلى الدرجات ، وأعطوهم حق الفتوى فى شرع الله .. لقدكان العرب فى واقع ماكان ، وفى ذروة الانتصار الساحق والباهر بالإسلام ، أول وأصدق من التزموا بمبدأ القرآن الكريم فى قوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) ١٠ : الحجرات .. وفى قوله تعـالى : (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) ٥ : الأحزاب . أى إخوانكم وأصدقاؤكم ونصراؤكم .. ولقد يظل بعض الجاحدين للحقائق ، ومن يريدون أن يطمسوها بضوضائهم — يتساءلون عن وحدة العرب ولماذا تكون ؟ ... وعن قوميتهم وماذا تعنى ؟ ... ويتجاهلون هذه المعارك الضارية الضخمة فى اتجاه القدس ، وتحرير سيناء والجولان .. وتحرير الشعب العربى الرهينة فى يد العدو .. شعب فلسطين الذى يتأبى باستشهاده المستمر على الاستسلام فى فم الأفعى الإسرائيلية .. فمن لهذا العدو القديم المسلح بأحدث أسلحة عمالقة الاستعمار .. من لهذا العدو المتلون ، المغرور ، الذى يحارب على أرضنا طليعة لمن وراءه من أعداء بغير حصر .. من لهذا العدو الذى يستثمر اليوم مخططاته التى تعاقب تنفيذها على أرضنا فى الخفاء والعلن أكثر من قرنين قبل أن تظهر على الملأ سنة ١٩٤٨ باعلان الكيان غير الشرعى لإسرائيل ؟ نعم .. من لمواجهة كيد هذا العدو ، وإحباط خططه ، وإيقاف عدوانه ... إلا وحدة هؤلاء العرب ؟؟

ولكن كيف تقع وحدة العرب فى هذا العصر إن لم يكن ذلك على نفس الدعائم التى تحققت بها من قبل .. الدعائم التى نقيمها فى مناخ العصر وطابعه ، وبصورة الحاضر الذى نعيشه ومدركاته .. هذه الدعائم التى رفعنا من أجلها شعار « العلم والإيمان » وحققنا بمقدماتها آية العبور ، واستعدنا القدرة على زعزعة جيش إسرائيل ، وفتحنا الطريق إلى ظهور وحدة العرب ..

إنها الدعائم التى يتسع حاضر العرب لتثبيتها وتأصيلها ، والارتكاز عليها ، لبناء صرح الحياة المعاصرة فى الوطن العربى من جديد .. إنها الدعائم التى يقوم

القرآن فى وسطها ، وفى النقطة المركزية فيها ، أساساً لهذه الحياة المتجددة التى تخرج منه بالشريعة المقننة ، واللغة الموحدة ، وتفسير التاريخ الصحيح ، وقواعد تربية الطفل ، وتوجيه الشباب ، وبناء الأسرة ، وتعريب الثقافة ، وتديين الأخلاق ، وترشيد الإعلام ، وقيادة الانفتاح الفكرى والاقتصادى على العالم بهذه الهوية العربية التى نستعيدها فى نور القرآن ، وضوء العلم ، وحركة العصر ، فنستعيد بها ذاتنا المبصرة ، وملامحنا المعبرة ، وإرادتنا المتحررة ، على طريق طويل ، وشاق ، ندرك به غايتنا ، ونحقق عليه أحب آمالنا .. طريق نسير عليه اليوم بالفعل ، ونحن نتدافع ، ونتناصح ، ونستبصر ، ونستهدى .. طريق تتحدد بدايته وغايته – كما لعلى قد أوضحت فى هذا الكتاب – بين « سؤال » و « جواب » لا ينبغى أن نخطىء فهمهما ، أو أن ننسى الدرس والهداية والعبرة فيهما ، أو أن ندع عدونا الظاهر والخفى يخدعنا بوسوسته عن حقائقهما ..

أما السؤال فيتعلق كما رأيتم بأعظم الانجازات فى تاريخنا المجيد وهو : (لماذا – فى حكمة الله – ظهر الإسلام فى جزيرة العرب ؟) .

وأما الجواب عن هذا السؤال فليس فقط هو شرح هذه الآيات والنعم والسنن التى أعد الله بها العرب ليحملوا – كما حملوا – رسالة الإسلام .. وإنما الجواب اليوم .. الجواب الذى يحمل فى جوانحه البرهان على أصالة وحيوية هذه الأمة فى وطنها وموقعها ومواردها .. الجواب : هو هذا التحدى الذى يطرحه العصر على العرب .. الجواب بكل بساطة وتفاؤل ووضوح هو مسئوليتنا : هو كل ما نستطيع أن نعمله اليوم ، وغداً ، وبعد غد ، من أجل أن تعود الأمة العربية بكل وعيها وسلوكها إلى الله وإلى الإسلام .. فبذلك تعود الحياة والوحدة إلى العرب .. ويعود الإسلام وحضارته إلى العالم ...

لقد رفعنا فى مصر ، وفى أكثر أجزاء الوطن العربى ، شعارات الصحوة بالإيمان ، والعودة إلى الاسلام . . ولم يكن هذا سهلا فى وجه التراكمات والفراغات و الظلمات التى تركها الشعوبيون والعثمانيون والمماليك .. ولا فى وجه العوائق التى خلفها الاستعمار .. ولا التحديات التى أسرف بها العصر .. لقد أدركنا أن الإيمان علم .. والإيمان حرية .. والإيمان حياة .. وعلينا أن نؤكد ذلك بالعمل وإن نهزم بالعمل كل ما نواجهه من التحدى القائم والمستمر .

التحدى القائم : إن الجواب الذى ينتظره هذا العصر من العرب هو المواجهة الجدية لهذا التحدى القائم ضد وجودهم .. التحدى الكبير ، القائم والقادم، والمستمر إلى سنوات طويلة ، فى خطط الشيوعية العالمية، وأطماع الرأسمالية الاستعمارية الصهيونية .

إن الشيوعية التى تعيش الآن وتتمركز فى مواطنها الطبيعية بشرق أوروبا وروسياليست خطراً عاجلا مباشرا علينا ، بل إنها يمكن أن تكون فى بعض الأحوال كابحا وشاغلا لهذا الخطر الأعظم على العرب والمسلمين فى الرأسمالية الاستعمارية، التى تعمل بقيادة صهيونية، وبخطط لاإنسانية ، بعيـــدة المدى على استئصال مقومات هذا الشعب العربى الكبير لإبادته والقضاء عليه .

ولكن الخطر الحقيقى والراصد للعرب فى الشيوعية العالمية إنما يأتى من هؤلاء المثقفين العرب « الصابئة » الذين أصابتهم « القرحة الماركسية » تحت شعار اليسار أو الاشتراكية بسبب ما عانوه ،ولا يزالون يعانونه ونحن فى دور الشتات المذهبى — من هذا التناقض الدعائى والتربوى والتثقيفى بين علماء دين موظفين ، يجهر أكثرهم فى عصر العلم بالخرافات على أنها من الدين الحق ، ويعطون لأنفسهم الحق فى الخلاف على الإسلام بما ليس من الإسلام وبين علماء علمانيين ملحدين ، وموظفين أيضا ، أو مرتزقة قصص وصحافة ومسرح، يلبسون طيالس « معتزلة العصر» ويثيرون القضايا الوهمية « الحلزونية » باسم ثقافة الغرب ، وتقدم الغرب، وحضارة و بدع الغرب ، ومستقبلنا الوحيد مع الغرب، مبتلعين فى بلاهة الدمية المهتزة باللولب ، أو نذالة السمسار المتهافت على « العمولة » .. مخاطر هذا الغزو الاستعمارى الصهيونى المتجسد أمامنا فى إسرائيل ، وفيما حول إسرائيل من خطط ومؤامرات الاستئصال لجميع مقومات العرب الاساسية فى اللغة والدين والتاريخ والموارد.

هؤلاء الصابئة من الماركسيين العرب ، الذين تخلوا مهزومين — وبغير مقابل — عن إسلامهم أو مسيحيتهم ، وعن عروبتهم ولغتهم ، هم رغم أعذارهم وبسبب إهمالنا - الخطر الشيوعى الحقيقى والمتربص .. هم قرامطة

المستقبل تحت التجنيد ، ودعاة التخريب والتقويض لكل ركائز الأمة العربية ، التى لاتزال راسخة وقائمة رغم ما أصابها من العدوان الطويل عبر العصور .

إنهم بعض التحدى القائم والقادم ، الذى لاتشارك الشيوعية العالمية فى دعمه وتقويته بأكثر مما يشارك فى ذلك هذا التناقص الأليم فى واقع عربى مشتت بين علماء دين موظفين ، ينتحلون أحيانا فى ذروة الحكمة شعار التصوف الهندوسى : لاتفكر..لا تعمل .. لا تعترض .. وبين علماء عقلانيين موظفين أيضا أو مرتزقة ، يلعبون على ساحة الثقافة الفارغة لعبة أغوات أمريكا ،النواسين العصريين ، الذين يتكلمون لغة القرآن بلكنة أمريكية ، والذين يقومون داخل الجامعات العربية ، ومجالات الثقافة الأخرى ببث الغوايات ، وإذاعة الخلل الفكرى ، وزرع المواد الغريبة ، المضادة لصحوة وقوة العرب ، فى مناهج كليات الأداب مثل مادة « اللهجات العربية » التى اخترعها المستشرقون الاستعماريون لصالح هذا الإلحاد الأمريكى الرهيب ، الذى يسابق الإلحاد الشيوعى على الساحة العربية ، مغطيا وجه الصحراء ، وأرض البترول ، ومتسللا ومتغلغلا حتى منازل الوحى ، وإلى شاطئ الخليج العربى المستهدف للابتلاع والضياع .

نعم .. إنه أمام هذا التحدى المزدوج ، وعلى قعقعة زحفه ، وفرقعة ألغامه ، تنيقظ الأمة العربية بالضرورة لتدافع عن ذاتها ووجودها ومصيرها . إنها تتيقظ وتتحرك .. وتدرك وتفهم .. وتعى فرصتها الوحيدة للدفاع عن نفسها .. فرصتها الوحيدة للحياة ، رغم استهانة أعدائها بها ، وفرحهم بنجاح تغلغلهم فى جوانحها ، وحول قلبها ، وداخل فكرها ولسانها .

إنها تتيقظ وهى تعلم من تاريخها الطويل أنها أمة تحيا باليقين الذى لايتبدل فى دينها ، وبالايقاع الذى لا يمكن أن تنساه فى لغتها .. لذلك فهى تستطيع — وكم فعلت ذلك — أن تقطع فى ومضة من زمن كل ماقطعته مسيرة أعدائها لتخريب صروحها ، ومعالمها ، فى قرون .. إنها بذلك تستعيد ذاتها وهويتها

وتعى ماذا عليها أن تفعل فى يومها وغدها .

الأمة الوسط : إن الجواب الذى ينتظره هذا العصر من العرب هو كيف أنهم مع انتصارهم على التحدى القائم والقادم فى مخططات الشيوعية والاستعمارية يعرفون طريقهم ليعودوا كما شاء الله لهم أمة وسطا بين أمم العالم المعاصر .. أمة وسطا كما شاء لها الله .. كما كانت من قبل .. كما نشأت ووعت .. وكما انتصرت وتقدمت .. بدعاتها الصادقين ، وعلمائها المتطوعين من كل المواقع ، الذين لا يؤجرون على الحق ، وهم يشهدون على إيمانهم بالحق ، ويلتزمون فى كل عملهم بالحق .. إن هذا هو تلخيص ما يجب على العرب أن يدركوه فى هذا العصر ..

إن هذا الطريق الذى شقه الله للأمة العربية منذ فجر التاريخ بين متناقضات البشر هو طريق « الأمة الوسط » .. الأمة التى كانت وسطا يوم ظهورها بين أهل الكتاب .. بين تشبث اليهود بالحياة والمتاع ، مما كان ولا يزال سبب كل جرائمهم وتحريفاتهم .. وبين تراجع المسيحية عن التصدى لأعدائها بقوة الحياة مما كان أصل نكباتها ، والمذابح التى أطبقها الوثنيون الرومانيون عليها ..

واليوم فى هذا العصر ، عندما تشق الأمة العربية طريقها بين عمالقة الإلحاد الشرقى والغربى فان طريقها الوسط ، طريقها المضىء ، يتجلى أمامها فى رفض الشعار اليمينى الرأسمالى الصهيونى الذى يقول « إننى أعطى الحرية لكل فرد .. ليموت » .. وأيضا فى رفض هذا الشعار اليسارى الماركسى المادى الذى يقول « إننى أسلب الحرية عن كل فرد .. ليعيش » .

إن الطريق الوسط لهذه الأمة العربية ليس يمينا ولا يسارا .. إنه تحت الشعار الذى رفعه أخيراً أول حكم شعبى ثورى فى مصر العربية .. شعار « العلم والإيمان » يتسع الطريق الوسط للامة العربية لكى تبنى الفرد المؤمن بالحرية ، من أجل أن تبنى المجتمع الحر بهؤلاء الأفراد الأحرار ، الذين يعيشون بقدر ما يعيش غيرهم معهم .. أولئك الذين ينفقون قبل أن يسألوا .. ويعملون

من أجل أن ينفقوا .. ويؤمنون ليكون كل جهد يبذلونه في بناء المجتمع — حى القاء التحية والسلام — عملا صالحا ، خاضعا لقانون العمل العام :. العمل الذى هو بالإسلام — للجميع .. لأنه من خلال خدمة الجميع يتجه العمل إلى الله .. تأكيداً لطاعته ، والتزاما بشريعته .

هذه القوة الدافعة نحو هذا « الطريق » تتفجر فى يقظة الأمة العربية المعاصرة من استعادة « العربية الفصحى » .. لغة القرآن .. التى خطا الالحاد الأمريكى الصهيونى أوسع الخطوات أخيرا للاجهاز عليها داخل بلاد العرب .. وانطلاقا من الجامعات الأمريكية داخل العواصم العربية ، بخطة ذات شقين : قتل اللغة العربية من داخلها ، واحلال الإنجليزية محلها ..

إنه منذ سنة ١٩٦٩ — على الأقل — بدأ مشروع محدد لضرب اللغة العربية — بأيدى أبنائها — فى الصميم ، وذلك بالترويج الأمريكى لانتشار « لغة عربية معاصرة » أقرب باللحن وبالتراكيب الأجنبية المغروسة فى جسدها إلى العامية المتفصحة باللغات الأجنبية .. أقرب إلى الفرانكو أراب !

هذا المشروع الذى اشتغل به فى جامعة متشجان قسم « دراسات الشرق الأدنى » بدأ بتحليل نحو نصف مليون كلمة عربية من لغة الكتاب والأدباء العرب المعاصرين ، الشيوعيين والغربيين على السواء ، لإثبات أن اللغة العربية الممكن تعلمها وتعليمها للطلبة الأمريكيين ، ليستخدموها فى انتشارهم المطرد فى الوطن العربى ، هى هذه اللغة المعاصرة ، التى استخرجوها بما فيها من اللحن والتراكيب الأجنبية ، والكلمات الأجنبية ، والعامية ، وإهمال النحو ؛ من كتب الأدباء والقصاصين العرب ، وهى اللغة التى عليهم أن « يخترعوا » لها نحوا مبسطا لا يلبث أن يتحلل ، ويتساقط ، فتتحلل وتتساقط معه هذه اللغة المثخنة بالتراكيب الأجنبية ، والبعيدة بهذه الأعضاء الغريبة المزروعة فيها عن منبع حياتها وصحتها فى القرآن .. إلى أن تلفظ أنفاسها وتموت .. بين الصياح فى تشييعها — كما يحلمون — بالرطانة الإنجليزية ، وموسيقى الجاز !!

وفى سنة ١٩٧٥ بدأ الأمريكان يستثمرون الثمار المريرة والناضجة للسياسة التى وضعها دنلوب وطه حسين، وتلاميذهما، وأمثالهما — لتفريغ مناهج التعليم العربية من أى انتما دينى «عقائدى»، أو عربى «قومى» حيث ظهر فى أيدى عدد من ممثلى الجامعات الأمريكية من المدرسين العرب «مشروع» هدام تحت عنوان «تبسيط النحو العربى».. ولقد طاف هؤلاء المندوبون بالعواصم العربية، وعرضوا مشروعهم على عدد من أعضاء المجامع اللغوية، وبعض المفكرين الإسلاميين.. وتجلى الخطر سافرا .. وظهرت بوادر المعارضة الشديدة، وتوقع المقاومة العربية الجدية فى تعقيب عدد من هؤلاء العلماء العرب على هذا العدوان السافر والمستهتر.. من الجامعات الأمريكية وصهاينتها .

إن هذا التحدى الكبير، القائم والقادم، هو نفسه مصدر الأمل العظيم لهذه الأمة، التى لن تستسلم لأعدائها، ولا لمشروعات عدوها السياسى فكريا ولغويا . ولسوف نرى كيف إنه بقوة هذه الأخطار المتكاثفة فى نشاط العملاقين والغولين الأوربيين، داخل الوطن العربى . . لسوف نرى أنه بقوة هذه الأخطار، والمؤامرات، ونيران هذه الغواية المشتعلة — لن يكون المصير الحتمى، والاختيار الوحيد للأمة العربية المؤمنة، الخالدة، رغم ضربات الإسكندر، والرومان الغربيين والرومان الشرقيين، ورغم التتار والإسماعيلية، والمماليك والعثمانيين، ورغم ابتكارات الاستعمار الحديث من إنجلترا إلى أمريكا — إلا أن تستعيد حياتها بالإسلام، وذلك بأن تستعيد برهانها الصحيح عليه باللغة والتاريخ والدين، فتستعيد موقع الإسلام وحضارته فى هذا العالم المعاصر .. حيث يمكن ببرهان الواقع أن يجد أولئك الذين يفتقدون الإيمان، أو من ينكرون الإيمان، صورة هذا الإيمان الحق متجسداً فى مجتمع، وأن يلمسوا علاقاته الحية فى أمة، وأن يبصروا حياته المضيئة فى قطاع صادق نشط من البشر، فوق نفس الأرض التى ظهر فيها من قبل إبراهيم وإسماعيل، ومر يعقوب وموسى، ودعا المسيح ومحمد .. وحيث لايزال القرآن حافظاً هذا التاريخ العظيم، ومشرقاً به، ومهيمناً عليه، فلا يضل به البشر أبداً إن شاء الله.. وهو يشرق عليهم كما بدأ من جزيرة العرب .. ووطن العرب.

. . . والحمد لله رب العالمين .:

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

للمؤلف :

(١) الإسلام وقضايانا المعاصرة « الطبعة الثانية » دار الجيل

(٢) الحقائق الأساسية فى الإسلام   دار روز اليوسف

تحت الطبع :

(١) قصص القرآن .. ونظرية المسرح الإسلامى ..

(٢) العقل العربى .. ومنهج التفكير الإسلامى .

نفـد :

(١) قنـاع الفرعونية   مطبوعات مجلة الأنصار

(٢) ضوء فى تاريخ التوحيد   مطبوعات مجلة الأنصار